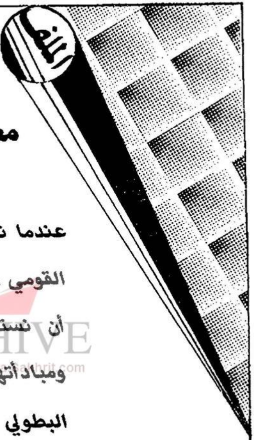


معارك حاسمة في تاريخ الأمة

عندما نعدّ العدّة لتأدية مهام نضالنا القومي ، وفي الدفاع عن ثورتنا ، علينا أن نستلهم في ذلك دروس العرب ومبادئهم وروحهم التعرضية في قتالهم البطولي ، وجهادهم الفذ ، ومنازلتهم البطولية للفرس والبيزنطيين في صدر الرسالة الاسلامية ، وخطط (خالد بن الوليد) وجرأته بشكل خاص .

(الرئيس القائد المجاهد صدام حسين)

واقعة اليرموك الفاصلة بين العرب والروم

(٥ رجب ١٥ هـ = ١٢ آب ٦٣٦ م)

العميد عبد الجبار محمود السامرائي

عضو اتحاد المؤرخين العرب ـ بغداد

استتب الامر للاسلام داخل حدود شبه الجزيرة العربية ، بعد عناء طويل من قريش وحلفائها في يوم النصر العظيم (فتح مكة) . يومها دخل الناس في دين الله أفواجاً ، ويومها أيضاً توقف الصراع المسلح بين قوى المسلمين وجبهة قريش . ان ذلك لم يكن الا البداية ، حيث كانت هنالك على حدود شبه الجزيرة في الشمال الشرقي والشمال الغربي ، اثنتان من أعتى القوى الكبرى في عالم ذلك العصر ، تتربصان بهذه الأمة ودين الاسلام ، الذي صار يمثل خطراً داهماً يهددهما معاً ، ويؤثر في هيبتهما ، وأعني بهاتين القوتين :امبراطوريتي الفرس والروم .

وهكذا ، توقف العرب المسلمون في مفترق الطرق ، يواجهون قدرهم : فاما مواجهة حاسمة مع هذه القوى الكبرى ، بما تملكه من جيوش جرارة قوية ، وإما الرضوخ والاستسلام والضياع .

لقد لبى رسول الله ﷺ نداء ربه ليغادر هذه الدنيا التي ذاق فيها الوان العذاب والمعاناة والمجاهدة في ملحمة رائعة للصبر على الشدائد ، ولكنه خلّف وراءه رجالاً عظاماً يشترون الجنة بدمائهم وارواحهم ، ويحبون الاستشهاد بمثلما يحب خصومهم الحياة .

رجالٌ آمنوا بربهم فزادهم هُدىً ، رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وأحبوا رسول الله (ﷺ) ودافعوا عنه بارواحهم ، فناصروه وبايعوه .

وحين حجّ عليه الصلاة والسلام حجة الوداع قال لصحابته : (أيهاالناس .. كلكم لآدم ، وآدم من تراب) .

استقرّ رأي العرب على مواجهة الروم ، وكانت كل الدروس التي غرسها الرسول الكريم (ﷺ) قد استقرت في عقول الرجال وأفئدتهم . فقد أرسى القواعد للمجاهدين ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ إنّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بانّ لهم الجنة ، يُقاتلون في سبيل الله فيقتُلون ويُقتَلون .. ﴾

لقد عوّل الرسول(ﷺ)على تجريد حملة على جنوب الشام ، تاميناً للحدود ، وإظهاراً لبأس المسلمين أمام الروم وحلفائهم من عرب اللسان (بني غسّان) حتى لا يفكروا في غزو الاراضي العربية ، فجهّز (ﷺ) قوّة عقد لواءها لـ(أسامة بن زيد بن حارثة) ، غير أن انتقاله الى الرفيق الأعلى[1] حال دون إنفاذ هذه الحملة .

فلما انتهى الامر بمبايعة أبي بكر الصديق(رضي الله عنه) خليفة للمسلمين ، جمع الرجال في المسجد ، وكشف لهم عن أمر لم يكن لهم به علم من قبل . قال(رضي الله عنه) :

(اعلموا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عوّل أن يصرف همته الى الشام فقبضه الله واختار له ما لديه ، ألا واني عازم أن أوجه أبطال المسلمين الى الشام باهليهم ومالهم فإنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أنبانى بذلك قبل موته وقال زُويَتْ لي الارض فرأيت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما زُوِيَ لي منها)[2]

وبادر الخليفة الصّديق الى الكتابة الى أمراء اليمن وأهل مكة يدعوهم الى الجهاد : ﴿ انفروا خِفافاً وثِقالاً وجاهدوا باموالكم وانفسكم في سبيل الله ﴾ فاقبلت أبطال اليمن وشجعانها بالذراري والأموال والنساء والاطفال . فعلت الابتسامة وجه الصديق ابو بكر[3] وقال لعلي بن أبي طالب(رضي الله عنه) :

ـ(يا أبا الحسن .. أماسمعت رسول الله يقول : « إذا أقبلت حمير ومعها نساؤها تحمل أولادها فابشر بنصر الله على أهل الشرك أجمعين ؟ »)

وجاءت قبائل « منحج » أهل الخيل العتاق[4] والرماح الدقاق ، تليها قبائل طيء ثم أقبلت « الازد » في جموع كثيرة ، فبنو عبس وكنانة . وتتابعت وفود قبائل اليمن يتلو بعضها بعضاً .

وقف أبو بكر(رضي الله عنه) ليشرف على الجيش ، وقد ملأ الرجال الصناديد الأرض ، وناجى ربه فقال :

(اللهم انزل عليهم الصبر ، وأيّدهم ولا تسلمهم الى عدوهم ، إنك على كل شيء قدير)

ثم عقد الخليفة لواء القيادة لكل من (يزيد بن أبي

سفيان) و(ربيعة بن عامر) ، وتحت قيادة كل منهما ألف فارس وأمرهم بدخول الشام ، والاشتباك مع جيش الروم لحين امدادهم ببقية الجيش ، وأوصاهم باتباع العدل (فإنّه لا أفلح قوم ظلموا ..) ﴿ وإذا لقيتُم القومَ فلا تولوهم الادبار ، ومن يولّهم يومئذ دُبرهُ إلا متحرفاً لقتال أو متحيّزاً الى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير ﴾

وأضاف الخليفة في وصيته : (وإذا نُصرتم على عدوكم ، فلا تقتلوا ولداً ولاشيخاً ولا امرأة ولا طفلاً ، ولا تغدروا إذا عاهدتم ولا تنقضوا إذا صالحتم) .

وهكذا خرج المسلمون بمفرزة من شعبتين عبر (وادي القرى) فتبوك ثم الجابية حتى قرب دمشق . كما أرسل الخليفة خالداً ابن سعيد بن العاص على رأس قوة من المسلمين الى حدود الشام لغرض المراقبة ، وأمرها بتجنّب الاشتباك مع الروم ما أمكن ، على أن يقوم بالدعاية بين الغساسنة(*) الذين كانوا حلفاء للروم كي يجتذبهم الى الدين الاسلامي .

عسكر خالد بن سعيد بالقرب من (تيماء) يراقب الحدود ، وازدادت قوته بانضمام كثير من القبائل المجاورة إليه . وسرعان ما بلغته الأنباء باحتشاد قوة كبيرة من الروم ، جُلّها من الغساسنة تحت قيادة البطريق (ماهان) استعداداً للانقضاض عليه . فسارع خالد بابلاغ هذه الانباء الى الخليفة ، فرد عليه الخليفة قائلاً : (أقدِمْ - ولا تحجم واستنصر الله) .

وما كاد خالد بن سعيد يتخطّى الحدود بقواته حتى فرّت قوة الروم أمامه ، فتقدم حتى بلغ (القسطل)(١) في طريق البحر الميت وهزم جيشاً من الروم على الشاطيء الشرقي لذلك البحر .

ولما شعر خالد بنشوة النصر السريع ، لم يهتم بانتظار النجدات التي كانت في طريقها اليه من (المدينة) ، فاندفع الى الشمال دون روية أو حذر ، فاغتنم البطريق « ماهان » الفرصة ، وتظاهر بانسحاب سريع ، تمكن فيه من إعادة تنظيم قواته . ثم التفّ حول المسلمين وداهمهم عند « مَرج الصُفّر » وكال لهم هزيمة قاسية (يوم ٤ محرم ١٣هـ - ١١ آذار ٦٣٤م) .

ولما أدرك خالد حرج موقفه ، تخلّى عن جيشه ، ولاذ بالفرار في جماعة من جنده الى المدينة المنورة . وتمّ انقاذ الموقف بفضل (عكرمة بن ابي جهل) الذي تولى قيادة الجيش المثخن بالجراح من بعده ونجح في سحبه بسلام الى الجنوب ومكث وراء الحدود ساكناً ينتظر وصول النجدات .

لقد كانت إغارة خالد بن سعيد التي جانبها التوفيق فاتحة النضال ، ففي أواخر عام ١٢هـ دعا أبو بكر الصديق (رض) المقاتلين من جميع أرجاء شبه الجزيرة للجهاد في سبيل الله ، فلبوا الدعوة بحمية وحماس ، وأخذوا في التحشد قرب المدينة المنورة .

وانهمك الخليفة في أعداد قوته ، وعبأ منها أربعة جيوش ، اختار لها خمسة من أعظم قادة المسلمين :

١ . الجيش الأول :

بقيادة يزيد بن أبي سفيان . وقد أسند اليه مهمة فتح دمشق عن طريق تبوك فالبلقاء .

٢ . الجيش الثاني :

بقيادة شرحبيل بن حَسَنة . وكان عليه تحرير (بُصرى) عاصمة (حوران) على أن يتبع الطريق الذي سلكه الجيش الأول .

٣ . الجيش الثالث :

بقيادة أبو عبيدة عامر بن الجراح . وكان عليه أن يندفع الى حمص عن طريق البلقاء .

٤ . الجيش الرابع :

بقيادة عمرو بن العاص . وكان عليه تحرير فلسطين باكملها ، وقد اتخذ طريق الغرب الى العقبة .

٥ . الجيش الخامس :

بقيادة عكرمة بن أبي جهل . وكان عليه القيام بواجب (الاحتياط العام) وحماسة خطوط المواصلات(*)

حركة الارتال

لقد كان كل رتل من هذه الارتال (الجيوش) مستقلًا عن الاخر ، الا أن الخليفة أوصى بأن تتعاون الارتال فيما بينها عند الحاجة ، وعيّن قادة الارتال بدورهم أمراء على المناطق التي يسيطرون عليها ، وكانت حركة الارتال كالاتي :

١ . الرتل الاول : خرج يوم ٢٣ رجب ١٢هـ - ٣ تشرين الاول ٦٣٣م عابراً الحدود ، مندفعاً الى الشام كالسهم الخاطف ، فاستطاع إزاحة قوات الروم الاستكشافية المرابطة عند الحدود ، ثم اصطدم بعدئذ بقوّة [سرجيوس] بطريق فلسطين عند (وادي عَرَبة) ، وهو منخفض عظيم جنوب البحر الميت . فاندحر جنود الروم أمامه وارتدوا نحو (غزّة) ، فارسل (يزيد) قوة بقيادة (أبي أمامة) لمطاردتهم ، فادركهم عند « داثن » وكاد ينجح في ابادتهم . ثم واصل (يزيد) تقدمه بعد أن أدرك النجاح في هدفه الاول ، وهو اختراق دفاعات الروم الجنوبية لتمهيد الطريق أمام باقي الارتال التي تتبعه . وقد تمكنت هذه الارتال من الاندفاع خلفه دون عائق جدي ، ثم تفرّقت بعدئذ للتقدم نحو أهدافها المرسومة .

٢ . الرتل الثاني : خرج يوم ٢٧ رجب ١٢هـ - ٧ تشرين الاول ٦٣٣م وتقدم الى هدفه دون أن يلاقي صعوبة حتى وصل الى (بُصرى) الشام .

٣ . الرتل الثالث : خرج يوم ٧ شعبان ١٢هـ - ١٧ تشرين

الاول ٦٣٣م ، والتقى في (معان) بقوة رومانية فانتصر عليها ، واستمر في تقدمه حتى وصل الى هدفه (حمص) .

٤ . الرتل الرابع : خرج يوم ٣ محرم ١٣هـ ١٠ آذار ٦٣٤م ولم يلاق مقاومة في طريقه حتى وصل أرض « الداروم » شمالي فلسطين .

رد فعل الروم

ولما نما خبر تقدم جيوش المسلمين الى (هرقل) امبراطور الروم ، وكان في (حمص) ، أزعجه الامر فجمَعَ (بطارقته) فاشاروا عليه : (تردُّ الحربَ عن مرادهم ونصلُ الى مدينتهم ونخرب كعبتهم) ! فصدرت الاوامر الى القوات النظامية البيزنطية بالتحشد في منطقة (انطاكية) ، ووصلت النجدات الكبيرة من (الاناضول) حتى بلغت قوتهم ٢٤٠,٠٠٠ مقاتل ـ حسبما تفيد المصادر العربية ـ [الا أن المستشرق « لامانس » لا يقدرها بـاكثـر مـن ٣٠,٠٠٠ مقاتل .] وكانت خطة الروم تقضي بالتقدم نحو الجنوب برتلين :

١ . الرتل الاول : وهو الرتل الرئيس ، يتجه من أنطاكية نحو حمص ودمشق .

٢ . الرتل الثاني : والذي تقدر قوته بنحو ٧٠,٠٠٠ مقاتل بقيادة « تيودور » . يتقدم باتجاه فلسطين ، مستهدفين القضاء على الارتال العربية بصورة منفردة ، وقطع خطوط مواصلاتهم برتل « تيودور » وذلك بإجراء حركة إحاطة كبيرة من اتجاه الغرب .

لقد كان ميزان القوى يميل بشدة لصالح الروم (٢٤٠٠٠ مقاتل عربي مقابل ٢٤٠٠٠٠ مقاتل رومي) بحسب رواية الطبري .

لقد طمع الروم في قوات المسلمين ، لما رأوا التفوق العددي لصالحهم ، وفكر (هرقل) في إشغال كل جيش بقوات تفوقهُ عدداً ، فوقف (تيودور) على رأس ٩٠,٠٠٠ ألفاً إزاء عمرو بن العاص ، ووقف « الفيقار بن نسطورس » على رأس ستين ألفاً ، واستقبل (جرجه بن تكرا) جيش يزيد بن أبي سفيان . وقد أدت خطة (هرقل) إلى تثبيت جيوش المسلمين في مواضعها المتفرقة في جنوب الشام .

وبرغم نجاح قوات المسلمين في إحداث الاختراق الاولي ، الا انها عجزت عن القيام بعمليات تطويق واسعة كما رُسم لها . وبذلك وقع المسلمون في الشرَك الذي نصبوه للروم ، وفقدوا ميزة المبادأة . وقبع كل الجيش ساكناً في موضعه ، عاجزاً عن التقدم ، وأضحى « هرقل » سيد الموقف بلا منازع ، إذ أصبح في إمكانه توجيه ضربة قاصمة لكل جيش على حدة .

الرأي والمشورة

ولما أدرك قادة المسلمين خطورة الوضع الذي أضحوا فيه ، وتبينوا مدى التهديدالذي تتعرض له قواتهم ، أرسلوا الى (عمرو بن العاص) يسألونه الرأي . وقد جاءهم الجواب : (الرأي الاجتماع في اليرموك) .

وعندما بعثوا إلى أبي بكر يسألونه الرأي ، جاء جوابه مطابقاً لرأي عمرو بن العاص ، وهكذا كان .

لقد أربك تجمع المسلمين في (اليرموك) خطة « هرقل » ، فكتب الى قادته أن (اجتمعوا وانزلوا بالروم منزلاً واسع المطرَد ضيق المهرب) .

من هذا يتضح لنا مقدار انزعاج « هرقل » لتجمع المسلمين . فقد سارع بإصدار أمره باحتشاد جميع قواته التي في جنوب الشام . كما أن هذا الانزعاج قد بلغ منه قدراً جعله يوصي قادته بان ينزلوا بجنودهم في مكان متسع المواجهة ، ضيق المخرج ، حتى لا يسهل منه الانسحاب . وبذلك حرص « هرقل » على عدم تمكين جنوده من الانسحاب ، حرصاً جعله ينسى مبدأ سلامة قواته وأمنها .

وقد نفَّذ قادة الروم رأي « هرقل » بحذافيره ، فنزلوا عند « الواقوصة » على ضفة اليرموك[٧] في سهل فسيح ، وجعلوا أمامهم خندقاً عميقاً ، ليأمنوا خطر المسلمين ، وكان وراءهم ممر ضيق بين الواقوصة والنهر لا يصلح للانسحاب .

ولما رأى المسلمون موضع الروم ، نزلوا بالقرب من نهر اليرموك ، أمام الخندق على طريقهم ومخرجهم ، منتظرين خروجهم من ذلك الشرك الرهيب الذي أحكموا نسج خيوطه حول أنفسهم . وأدرك داهية العرب (عمرو بن العاص) سوء المصير الذي ينتظر الروم فقال :

(ابشروا ، حُصِرت والله الروم ، وقلَّما جاء محصور بخير .)

ولما أدرك المسلمون أن حدة حصارهم للروم ستطول ، كتبوا الى أبي بكر الصديق(رض) يستمدونه كي يتم لهم حشد أكبر قوة ممكنة ، قبل وقوع الاشتباك الحاسم . ولم يكن الخليفة في هذه الاثناء على أهبة الاستعداد لإجابة مطلب قادته ، فإن تعبئة جيش جديد تحتاج لدعوة المقاتلين من جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية ، وهذا يستغرق وقتاً طويلاً ، وكان المسلمون في مسيس الحاجة للوقت .

عبور خالد من العراق الى الشام

لذلك ، وجد الخليفة الصديق أن أفضل الحلول هو انتهاز فرصة ركود العمليات الحربية في جبهة العراق باتجاه الفرس ، ليكتب الى خالد بن الوليد يأمره بالسير بنصف قوته الى الشام

للانضمام الى جيوش المسلمين ، قبل ابتداء المعركة الحاسمة :

(... أما بعدُ . فإذا جاءك كتابي هذا فدع العراق ، وخلّف فيه أهله الذين قدمت عليهم وهم فيه . وامضِ ... حتى تاتي الشام فتلقى أبا عبيدة بن الجراح ومن معه من المسلمين . فإذا التقيتم فانت أمير الجماعة .) كتب في ٢١ محرم ١٣هـ آذار ٦٣٤م .

وخرج خالد بن الوليد من الحيرة بالعراق في ٨ صفر ١٣هـ ١٤ نيسان ٦٣٤م تقريباً ، فسار شمالاً ، ثم عرّج حتى اجتاز صحراء (السماوة) إلى الشام ، قاطعاً مسافة (٥٠٠ ميل) من الارض الجرداء التي قلّ فيها الماء والكلأ ، وكان قد قطعها في (١٨ يوماً) ووصل (بُصرى) حيث كانت الارتال العربية الاسلامية مجتمعة ، عدا رتل عمرو بن العاص .

وقد سلك خالد بن الوليد طريق : الحيرة - دومة الجندل [الجوف] - قراقر - سوى - مرج راهط - بصرى . وكان بين قراقر وسوى أرض قفراء لا يتيسر فيها الماء البتة ، وقد استغرق قطعها خمسة أيام .

معركة اجنادين

أرسل الامبراطور (هرقل) رتلاً بقوة ٧٠,٠٠٠ مقاتل بقيادة أخيه « تيودور » باتجاة فلسطين لا نتزاعها من عمرو بن العاص ، وقطع خطوط مواصلات الجيش العربي الاسلامي المتواجد في سوريا . اجتمع هذا الجيش في (جنين) ، وبعد وصول خالد بن الوليد واطلاعه على الموقف ، كان أمامه مسلكين :

١ . عبور نهر الاردن ، ومنازلة جيش « تيودور » بمعاونة عمرو بن العاص وتدميره ، ومن ثم العودة لمواجهة الرتل الرئيس ، أي القيام بالحركة على (الخطوط الداخلة)[٨].

٢ . قيام عمرو بن العاص بمشاغلة « تيودور » في فلسطين والدفاع تجاه الرتل الرئيس المتقدم من حمص .

لقد اتبع خالد المسلك الاول للأسباب الآتية :

١ . ان المسلك الثاني يُعدُّ خطة دفاعية ولا يتحقق النصر باتباعه الا بالتعرض .

٢ . قابلية حركة القوات العربية الاسلامية تساعده على تنفيذ المهمة .

٣ . ان تجمع وتحشد الرتل البيزنطي الرئيس في حمص يستغرق وقتاً طويلاً يسمح لخالد تنفيذ عبور نهر الاردن ومنازلة جيش « تيودور » وبالفعل ، اجتاز خالد نهر الاردن ، بعد استدراج رتل « تيودور » من قبل عمرو بن العاص ، ثم ترك قسماً من القوات لمشاغلة الرتل الرئيس ، فيما إذا تقدم من اتجاه الشمال ، وتمكن من حشد قواته غرب الاردن في موقع يدعى (أجنادين) الذي يقع بين القدس وأريحا .

في يوم السبت ٢٧ جمادي الاولى ١٣هـ ٣٠ تموز ٦٣٤م اشتبك خالد بن الوليد مع قوة تيودور ، فانتصر عليها وطردها ، والتجأت بعض المفارز الهاربة الى القدس للاحتماء بها ، لكن خالداً لم يطارد رتل تيودور وترك استثمار الفوز ، ثم عاد مسرعاً بقواته الى شرق الاردن ، لان الرتل الرئيس كان على وشك الشروع بالتقدم في اتجاه حمص .

وبعد أن فرغ خالد من عمليات مطاردة فلول الروم في (أجنادين) لم تمخر جيوش المسلمين وسط فلسطين شمالاً نحو الاردن ، وانما عادت جنوباً حيث دارت حول البحر الميت من جهته الجنوبية لتسير على الطرق التي تقع إلى شرقه نحو الشمال إذ أنها لو لم تفعل ذلك لكان عليها أن تخرج من « أجنادين » الى « بيت المقدس » ثم إلى وادي نهر الاردن الى الجولان فدمشق ، أو أن تسلك طريق الرملة واللد إلى قلنسوة ثم إلى جنين ثم الى بيسان فشمالاً عبر الجولان إلى دمشق .

معركة مرج الصُفّر

في يوم الخميس ١٧ جمادى الاخرة ١٣هـ ١٨ آب ٦٣٤م التقى ابن الوليد بجيش الروم في (مرج الصفر) ، السهل الواسع الذي يقع جنوبي دمشق ويبعد عنها نحو ٣٨ كيلومتراً بين قرية الكسوة وغباغب . حدث هذا اللقاء الى الجنوب من دمشق مع قوات الروم التي جاءت من حمص في الشمال . جاءت قوات الروم على الطرق الداخلية من الشمال لتلتفّ على قوات المسلمين من الجنوب . ولابد أنها جاءت عن طريق بعلبك فوادي البقاع فوادي الاردن الأعلى ثم الى قنيطرة الى سمسمة الى مرج الصفر ، بغية أن تصل الى دمشق من جنوبها .

اضطر المسلمون ان يخففوا قبضتهم عن دمشق ، والسير نحو الروم ، فلم يبق حول اسوار دمشق سوى جيش عمرو بن العاص .

ثم سار خالد فوقف في اول الصف ، يريد ان يحرّض المسلمين ويحمّسهم ، ونظر إلى الصف من أوله الى آخره فبادره الروم بالهجوم . ثم حملت الروم تجاه سعيد بن زيد بن العاص فصمد لهم سعيد ونازلهم في فرسانه . وتحركت صفوف المسلمين فاقتتلوا قتالاً شديداً على شاطىء نهر عليه طاحونة ، حتى جرت الدماء في ماء النهر وطحنت بها الطاحونة .

ويذهب البلاذري الى ان خالد بن سعيد قد استشهد في هذا اليوم ، وفي عنقه سيفه المشهور بـ(الصمصامة) ، وكان قد أعرس ليلتها بام حكيم بنت الحارث بن هشام المخزومي فلما بلغها مصابه انتزعت عمود الفسطاط وخرجت تقاتل به حتى قتلت أربعة من الروم ، وقيل سبعة ، وإن بها أثر الطيب الذي تطيبت به ليلة عرسها .

وفي هذه المعركة انهزم الروم ، وعاد المسلمون يحاصرون

دمشق مرة أخرى .

وفاة أبي بكر(رض)

في يوم الاثنين ٧ جمادي الاخرة ١٣هـ ٨ آب ٦٣٤م اغتسل الخليفة أبو بكر الصديق(رض) وحمّ بعد ذلك ، ثم ارتفعت حرارته خمسة عشر يوماً لازم فراشه فلم يخرج إلى الصلاة . وكان يأمر عمر بن الخطاب(رضي الله عنه) أن يصلّي بالناس بدلًا منه ، وكان المسلمون يعودونه في داره وهو يثقل كل يوم . وأحسّ الخليفة انه مرض الموت ، فتمثل ببيتين من شعر (عبيد بن الابرص) :

وكـــل ذي إبـــل مـــوروث
وكـــل ذي سلب مسلـــوب
وكـــل ذي غيبـــة يـــؤوب
وغـــائب المـــوت لا يـــؤوب

استخلف أبو بكر(رضي الله عنه) من بعده عمر بن الخطاب(رضي الله عنه) ، وأوصى بكفنه الذي يكفّن فيه ويمن يغسله . وفي هذه الاثناء ، جاءته رسالة خالد بن الوليد فبشر بها وهو بآخر رمق . تقول الرسالة :

(بسم الله الرحمن الرحيم لعبد الله أبي بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم . من خالد بن الوليد سيف الله المصوّب على المشركين . أما بعد . سلامٌ عليك . فإني أحمد إليك الله الذي لا اله الا هو .

أما بعدُ . فإنّي أخبرك أيها الصِّديق أنا التقينا نحن والمشركون ، وقد جمعوا لنا جموعاً جمّة كثيرة بأجنادين . وقد رفعوا صُلُبَهم ونشروا كتبهم وتقاسموا بالله لا يفرّون حتى يفنون أو يخرجونا . فخرجنا إليهم واثقين بالله متوكلين على الله ، فطاعناهم بالرماح ، ثم صرنا الى السيوف ، فقارعناهم في كل فج وشِعْبٍ وغائط . فاحمد الله على إعزاز دينه وإذلال عدوه وحسن الصنعِ لاوليائه . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته)[9]

فلما قُرِيء كتاب خالد للخليفة فرح به وأعجبه فقال : (الحمد لله الذي نصر المسلمين وأقر عيني بذلك) .

وكان آخر ما تكلم به الصديق : (ربِّ توفّني مسلماً وألحقني بالصالحين) . ثم توفي رضي الله عنه مساء الثلاثاء ٢١ جمادي الاخرة ٢٣ آب ٦٣٤م بين المغرب والعشاء ، ودفن ليلًا .

عزل (خالد بن الوليد)

مع مولاه (يرفا) بعث الخليفة الجديد عمر بن الخطاب (رض) برسالته الأولى الى أبي عبيدة بن الجراح .

(سلام عليك . فإني أحمد اليك الله الذي لا اله الا هو . أما بعدُ ... وقد بلغنا حصاركم لاهل دمشق . وقد وليتك جماعة الناس فابثث سراياك في نواحي أرض حمص ودمشق وما سواها من أرض الشام . وانظر في ذلك برأيك ورأي من حضرك من المسلمين . ولا يحملنك قولي هذا أن تعري عسكرك فيطمع فيك عدوك ، ولكن من استغنيت عنه فسيّره ، ومن احتجت إليه في حصارك فاحتبسه ، وليكن فيمن تحتبسه خالد بن الوليد فإنه لا غنى بك عنه ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .)

ويرجح ان يكون تاريخ عزل خالد بن الوليد عن إمارة فتح الشام . بين ٢٦ جمادي الاخره ١٣هـ ٢٨ آب ٦٣٤م و٦ رجب ١٣هـ ٥ أيلول ٦٣٤م . ففي التاريخ الأول كتب عمر(رض) الى أبي عبيدة بحدود اليوم الخامس لوفاة أبي بكر(رض) بعد أن فرغ من تولية أبي عبيد بن مسعود الثقفي محاربة الفرس في العراق ، ويرجح ان الرسالة وصلت الشام في ٦ رجب ١٣هـ ٥ أيلول ٦٣٤م ودفع أبو عبيدة كتاب عمر(رض) الى خالد في يوم ٢٦ رجب ١٣هـ ٥ أيلول ٦٣٤م ودفع أبو عبيدة كتاب عمر(رض) الى خالد في يوم ٢٦ رجب ١٣هـ ٢٥ ايلول ٦٣٤م ولم يذعه لئلا تهن به قوة المسلمين ، ثم وضعه في كنانته .

أما أسباب عزل الفاروق لخالد بن الوليد فيمكن اجمالها في الاتي :

١ . قيل ان خالد أمر بقتل مالك بن نويرة اثناء حروب الردة عقب استسلامه وأسره برغم توبته وإقامته الصلاة ، مخالفاً بذلك أمر أبي بكر الصديق .

٢ . تزوج خالد قرينة مالك بن نويرة عقب مصرعه ، فلما بلغ ذلك أبا بكر(رض) أسف على ذلك الحادث . أما عمر الفاروق فقد ثار وألحّ على الخليفة بعزل خالد من القيادة قائلًا : (إن سيفه زهقاً) أي ظُلماً . أبا بكر(رض) لم يستجب لنصحه وقال له : (لا ياعمر .. ما كنت لاشيم [لاغمد] سيفاً سلّه الله على الكافرين) .

٣ . إقبال جند المسلمين على خالد واستماتتهم بين يديه في كل واقعة ، بعث القلق في فؤاد عمر(رض) وخشي أن يؤثّر ذلك في نفس خالد مما قد يزين له أمر الانتقاض على سلطان الخلافة ، خاصة وأنه يعلم ان قلب الخليفة الجديد ، ساخط عليه .

قوات الطرفين

ظلّ الروم في اليرموك متحصنين خلف خندقهم ، تواجههم جيوش العرب الذين أثارهم هذا الجمود ، وأسخطهم ذلك الضرب من القتال الذي استمر طيلة أشهر ثلاث ، وقد أراد « هرقل » تقوية عزائم جنوده ، فأرسل اليهم يقول : (ابشروا .. فإن [ماهان] في الاثر مدد إليكم) . وقد قدّم (ماهان) أمامه الشمامسة والرهبان والقسيسين لتحريضهم على القتال . وقد بلغت قوة الروم بعد وصول ماهان ٢٤٠ ألف مقاتل ، منهم

ستون ألفاً من العرب الموالين للروم (الغساسنة) بقيادة (جبلة بن الايهم) . وكان لدى الروم تفوّق ساحق في العدد والعُدّة ، ولكن جيشهم كان خليطاً غير متجانس (روم ، أرمن ، عرب ، سلاف ، وأجناس أخرى) ولم تكن بينهم أيّ رابطة تضم شملهم .

أما جيش العرب المسلمين فقد كان من أمة واحدة ، تدين بعقيدة واحدة ، وفي صدور أفراده قوة معنوية هائلة ، تضاعف من قوتهم المادية ، وكانوا جميعاً ، يؤمنون بأنهم يجاهدون في سبيل الله ، وعلى سبيل يقين من نعيم الاخرة إذا استشهدوا ، ومن نعيم الدنيا إذا كُتِبَ لهم النصر واسترداد الأرض العربية السليبة .

وكان هناك دافع آخر يحفّز المسلمين إلى الثبات والاستبسال هو دافع العِرْض والشرف . فقد كان في صحبة جيشهم بعض كرائم البيوتات القُرشية : بنت أبي بكر وأم معاوية وزوج عكرمة وعقائل كثير من القادة والجند . وقد أمرهن (أبو عبيدة) القائد العام ، إن رأين أحداً من المسلمين منهزماً ، ضربن وجهه بحجارتهن ، ورفعن إليه أولادهن وقلن له : (قاتل عن أهلك وعن الاسلام .) أما خالد بن الوليد فقد قال لهن : (يا نساء المسلمين ! أيّما رجل أقبل عليكن منهزماً فاقتلنه)

وصف ساحة المعركة

يقع سهل اليرموك بين بحيرة طبرية غرباً ووادي اليرموك جنوباً ، وجبل العرب شرقاً ، ومنطقة القنيطرة شمالاً ، وهي من الناحية الجغرافية ، المنطقة الاكثر انفتاحاً على هذا السهل واتصالاً به . إذا أنه محاط من الجهتين الغربية والجنوبية بمنحدرات حادّة . وحدودهُ كالاتي :

١ . من الغرب : وادي الرقاد ، الذي يتصل بنهر اليرموك عند الواقوصة (أو الياقوصة) ، ثم بحيرة طبرية الواقعة غرب هذا الوادي ، والتي تشكل حاجزاً طبيعياً بين هذا السهل وغرب بلاد الشام .

يبدأ وادي الرقاد على بُعد ١١ ميلًا من مجرى اليرموك ، شمالاً بشرق ، وينحدر في مسراه نحو مجرى النهر ، وعلى حافتيه ، انحداراً عميقاً وحادّاً ، ويشتد هذا الانحدار كلما اقترب الوادي من مجرى اليرموك ، بحيث يشكّل ـ في بعض هذا المسرى ـ حواجز طبيعية يتعذر اجتيازها . إذ يتراوح عمق هذه الانحدارات بين مائة وألف قدم .

٢ . من الجنوب : وادي اليرموك ، الذي يجري فيه نهر اليرموك ، ويبتديء هذا الوادي من « جلين » شرقاً ، ثم يتجه متعرّجاً غرباً ، وعلى مسافة نحو ١٥ ميلًا حتى يلتقي بوادي الرقاد عند « الواقوصة » ، ويستمر هذا النهر بجريانه حتى يصبّ في (نهر الاردن) جنوب بحيرة طبرية .

٣ . من الشرق : سفوح جبل العرب من « أزرع » شمالاً حتى « درعا » أو« أذرعات » جنوباً . ولا يوجد بين سهل اليرموك وسفوح الجبل حواجز طبيعية تذكر ، بل ان هذا السهل يمتد من وادي الرقاد الى سفوح تلال « أزرع » على مسافة تقارب الثلاثين ميلًا .

٤ . من الشمال : يستمر امتداد سهل اليرموك شمالاً ، وخلف وادي الرقاد ، حتى يتصل بمجموعة من القرى والبلدان التي تشكل منطقة « القنيطرة » ، منفذ سهل اليرموك وبوابته الى داخل بلاد الشام .

أما سهل اليرموك ، بحد ذاته ، فهو سهل منبسط بشكل عام ، ينحدر انحداراً تدريجياً من الشمال الى الجنوب . ويخترقه إضافة الى وادي الرقاد ، ومن الشمال الى الجنوب ، واديان آخران هما :

١ . وادي علان أو وادي الملك : ويجري فيه نهر (الملك) ، ويقع شرق وادي الرقاد ، ويبدأ من نقطة تقع غرب « نوى » شمالاً -حتى يتصل بوادي اليرموك غرب قرية « حيط » جنوباً .

٢ . وادي الهرير : ويقع شرق وادي علان او (الملك) ، ويبدأ من نقطة تقع شمال شرقي « نوى » ، ثم ينحدر جنوباً بغرب ، مارّاً غرب « أزرع » فغرب الشيخ مسكين ، حتى يتصل بوادي اليرموك عند « أراضي الأشعري » شرق « جلين » جنوباً . ولم يكن هذان الواديان ليعيقان تحرك القوات المتحاربة ومناوراتها .

وبالقرب من « نوى » يقع تل يرتفع على المنطقة المحيطة به ، ويسمى هذا التّل « تل الجموع » ، وذلك لان قسماً من جيش المسلمين قد احتشد عليه في اثناء المعركة .

كما يقع جنوب « نوى » تل آخر يُسمى « تل السمن » ، ويرجح أن خالداً حشد عليه نساء المسلمين ، وأوكل إليهن مهمة ردّ المنهزمين أمام العدو . ويقع هذا التل في القلب والمؤخرة بالنسبة الى ميدان القتال .

لقد احتلّ ميدان المعركة الجزءين الغربيّ والأوسط من سهل اليرموك ، ضمن مربع محدد بمحاذاة وادي الرقاد غرباً ، ووادي الهرير شرقاً ، ووادي اليرموك جنوباً ، ثم من شرق « نوى » حتى منطلق وادي الرقاد شمالاً .

تمركز الروم

قلنا ان هرقل كتب الى بطارقته من قادة الجيش ان يجتمعوا لقتال المسلمين وأن ينزلوا موضعاً « واسع المطّرد ضيّق المهرب » ، وأن يكون أخوه « تذارق » على الناس ، ويكون « ماهان » في الاثر مدداً لهم .

ويبدو ان ماهان وصل مع الجيش الى اليرموك ، وتسلّم

قيادته ، إذ لم نجد (لتذارق) من أثر ، ولم نسمع عنه أنه تسلّم قيادة المعركة أو أدارها أو قام بعمل عسكري ما ، طيلة معركة اليرموك ، مما يؤكد ان « ماهان » كان - بالفعل - قائد جيش الروم في اليرموك .

ويظهر ان « ماهان » تولى قيادة جيش الروم في اليرموك ، بينما كان « تيودور » أو « تذارق » قائداً لجيش الروم الثاني في بلاد الشام .

على أية حال ، لقد اختار الروم (اليرموك) موضعاً لنزال المسلمين على وفق توجيهات « هرقل » ، فصار الوادي خندقاً لهم ، وتمركزوا شرق وادي علّان ابتداءً من الضفة الشمالية لليرموك ونحو الشمال وانتشروا في العمق ، غرباً ، باتجاه وادي الرقاد ، وامتدّ عسكرهم من اليرموك جنوباً مروراً بـ« سحم الجولان » فـ« تسيل » حتى غرب « نوى » شمالاً ، بحيث استندت مؤخرتهم على الضفة الشرقية لوادي الرقاد غرباً ، واستندت ميمنتهم على الضفة الشمالية لنهر اليرموك جنوباً . أما ميسرتهم ، فقد ظلت طليقة باتجاه الشمال .

وهكذا ظل الروم محصورين بين وادي الرقاد غرباً ووادي اليرموك جنوباً ، إلا أنهم كانوا يتصلون شمالاً بمراكز تموينهم وبقيادتهم العليا في (أنطاكية) ، وكانت نقطة ضعفهم أنه كان من السهل على المسلمين الالتفاف على ميسرتهم وسدّ المنفذ الوحيد الذي يصلهم بداخل بلاد الشام ، وبالتالي ، بعاصمتهم وقيادتهم العليا في (انطاكية) . وظل جيش الروم في مراكزه تلك طيلة شهر ونصف الشهر ، يحشن مراكز دفاعه ويحصّنها ، ويعدّ العُدّة لقتال المسلمين .

تمركز المسلمين

تمركز خالد بن الوليد بجيشه قبالة الروم ، غرب وادي الهرير ، ابتداءً من الضفة الشمالية لليرموك ، ونحو الشمال ، وانتشر في العمق ، شرقاً ، باتجاه وادي الهرير ، وامتد عسكره من (تل الأشعري) عند مجرى اليرموك ، جنوباً ، حتى غرب « جلين » فشرق « سحم الجولان » فشرق « تسيل » فـ« نوى » شمالاً ، بحيث استندت مؤخرته على « وادي الهرير » شرقاً ، واستندت ميسرته على اليرموك جنوباً . أما ميمنته ، فقد ظلت طليقة باتجاه « نوى » .

ترتيبات القتال لدى الروم

عبأ (ماهان) جيشه في كراديس ، كل كردوس مؤلف من ٦٠٠ جندي ، وفي فرق ، كل فرقة مؤلفة من عشرة كراديس . ورتّب هذه الكراديس في ثلاثة خطوط : أربعة كراديس في الخط الأول ، وثلاثة في كل من الخطين الثاني والثالث . ثم وضع الرماة في المقدمة ، ووضع الخيّالة في الجناحين ، فاصبحت كراديس المشاة تشكل قلب الجيش الذي رُتّب في ثلاثين صفاً ، وأوكل الى كل من هذه القوى المهمات الآتية :

١ . الرماة : ومهمتهم أن يتقدموا الى المقدمة ، فينشبوا القتال ثم ينسحبوا الى ما وراء الجناحين .

٢ . الخيّالة : ومهمتهم أن يحموا الرماة عندما يُنشِبُ هؤلاء القتال وعند انسحابهم .

٣ . المشاة : وهم قلبُ الجيش وقوته الضاربة . ومهمتهم الالتحام بالعدو وبحره .

أما قادة الجيش في معركة اليرموك فكانوا :

١ . ماهان : أو باهان ، ملك أرمينيا ، ويقود فرقة من الأرمن ، إضافة الى قيادة الجيش اثناء المعركة .

٢ . قناطير : ملك الروس ، ويقود فرقة من الروس والصقالبة .

٣ . جرجير أو غريغوري : ملك عمورية ، ويقود فرقة من سائر أجناس الروم .

٤ . الديرجان : صاحب القسطنطينية ، ويقود فرقة من الفرنجة .

٥ . جبلة بن الأيهم : ملك الغساسنة ، ويقود فرقة من العرب من غسان ولخم وجذام (عرب اللسان) .

٦ . قورين : وقد خلف الديرجان بعد مقتله في اثناء المعركة .

وقد توزع هؤلاء القادة في ترتيبات القتال على النحو الآتي :

١ . في المقدمة : جبلة ، ومهمته : تغطية الجيش الرومي ومناوشة المسلمين قبل المعركة .

٢ . في الميمنة : جرجير ومعه المسلسلون .

٣ . في الميسرة : قناطير .

٤ . في القلب : ماهان والديرجان .

ترتيبات القتال لدى المسلمين

كان للعرب تنظيم عسكري يعرف بـ(نظام الخميس)[١٠] ولكن خالد بن الوليد الذي خبر الحرب مع الفرس ، عرف ان جيشه بحاجة الى تنظيم جديد يضاهي تنظيم الروم ، فلم يجد أفضل من تنظيم الروم لقتالهم به .

وهكذا اعتمد خالد في اليرموك - ولأول مرة في التاريخ الحربي الاسلامي - نظام (الكراديس)[١١] مع نظام (الخميس) ، وهو ما عرف بـ(التعبئة الخالدية)

لقد عبأ خالد جيشه ، مشاة وخيّالة ، في كراديس (٣٨ كردوساً ، وقيل ٤٠) ، كل كردوس مؤلف من ألف مقاتل ، ثم في فِرَق ، كل فرقة مؤلفة من عدد من الكراديس يتراوح بين ١٠ و٢٠ كردوساً ، ثم نشره في ساحة القتال ، وفي طول للجبهة يساوي جبهة الروم التي تبلغ أحد عشر ميلاً .

وفي المقدمة ، وضع خالد النبّالين (أي رماة النبل) ، فالرماحين ، فحملة السيوف ، وأمام هذه المقدمة ، طليعة متحركة من الخيالة مهمتها المحافظة على التماس مع العدو ومراقبته واشغاله ريثما تتهيأ صفوف المسلمين للقتال ، حتى إذا ما بدأ العدو تقدّمه ، بادره النبالون بنبالهم ، فإذا استمر في التقدم ، صوّب إليه الرماحون رماحهم ، وإنْ استمر في التصويب ، تصدّى له المقاتلون بالسيوف .

لقد عمد خالد الى تشكيل كراديسه وفرقه على أساس التجمعات القبلية ، فجمع في الميسرة قبائل كنانة وقيس وخثعم وجذام وقضاعة وعاملة وغسان ، وفي الميمنة قبائل الأزد ومذحج وحضرموت وحمير وخولان وزبيد ونوس ، إدراكاً من خالد لاهمية قتال العرب وهم مجتمعين ولم ينس خالد أن يبقي بامرته احتياطاً من الخيالة المتحركة ، ومعه (ضرار بن الأزور) .

لقد رتّب خالد هذه الكراديس والفرق في ساحة القتال على النحو الآتي :

١ . فرقة القلب : وفيها ١٨ كردوساً ، ويقودها أبو عبيدة بن الجراح ومعه عكرمة والقعقاع .

٢ . فرقة الميمنة : وفيها ١٠ كراديس ، ويقودها عمرو بن العاص ومعه شرحبيل بن حسنة .

٣ . فرقة الميسرة : وفيها ١٠ كراديس ، ويقودها يزيد بن أبي سفيان .

٤ . المقدمة أو الطليعة : من الخيالة ، ويقودها قباث بن الاشيم ، وهي فرق صغيرة مهمتها مراقبة العدو والمحافظة على التماس معه .

٥ . المؤخرة : وفيها سعيد بن زهير ومعه ٥٠٠٠ مقاتل ، ومهمتها قيادة الظعن وحمايته .

أما قادة الكراديس في واقعة اليرموك فهم :

١ . عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، وكان عمرهُ ١٨ سنة .

٢ . زياد بن حنظلة .

٣ . هاشم بن عتبة ، الملقّب بـ(المرقال) .

٤ . صفوان بن أمية .

٥ . عياض بن غنم ....

ثم عين خالد بن الوليد أركان حربه (هيئة الركن) باصطلاحاتنا العسكرية المعاصرة وهم :

١ . أبو الدرداء : قاضي الجيش أو القاضي العسكري ، ومهمته القضاء بين جنود المسلمين وفقاً للشريعة الاسلامية .

٢ . المقداد : ضابط المعنويات ، أي القارىء ، ومهمته أن يقرأ سورة الانفال الخاصة بالقتال .

٣ . أبو سفيان بن حرب : واعظ الجيش أو الخطيب ، ومهمته أن يطوف بين الصفوف ، يحث الجند على القتال ويشحذ هممهم .

٤ . عبد الله بن مسعود : رئيس المؤونة أو ضابط الادارة ، ومهمته تامين حاجات الجيش وجمع الغنائم وتوزيعها على المقاتلين .

٥ . خالد بن الوليد : القائد العام ، في وسط الجيش ، وحوله كبار الصحابة وأقطاب المسلمين ، وكانت أمامه راية (العُقاب) أي راية النبي (صلى الله عليه وسلم) التي نشرها خالد في ثنية العقاب ، يوم أطلّ على غوطة دمشق آتياً إليها من العراق[١٢]

٦ . النساء : في المؤخرة ، وراء صفوف المقاتلين ، على تل محصن (تل السمن) لحمايتهن ، ومهمتهن العناية بالجرحى والمرضى ، وسقاية المقاتلين في اثناء القتال ، وتشجيع المقاتلين ، وإثارة حماستهم ، ورد الفارّين الى المعركة ، والاشتراك بالقتال ، إذا دعت الضرورة .

أما الخيّالة ، فقد قسّمها خالد بن الوليد الى أربعة أقسام ، وجعل على كل قسم واحداً من خيرة قادته وفرسانه . فعلى القسم الاول : قيس بن هبيرة المرادي ، وعلى القسم الثاني : ميسرة بن مسروق العبسي ، وعلى القسم الثالث : عامر بن الطفيل الدوسي ، ثم وضع هذه الخيالة في الطليعة (وعليها قباث بن الاشيم) ، ووضع في الفرجات بين الصفوف الثلاثة : غياث بن حرملة العاملي ومسلمة بن سيف اليربوعي والقعقاع بن عمرو التميمي ، محتفظاً لنفسه بقيادة القسم الرابع ، وهي الخيالة المتحركة والمتهيأة للانقضاض على العدو وسد الثغرات التي يمكن أن يحدثها العدو ليتسلل منها الى صفوف المسلمين .

المفاوضات

روى الازدي (محمد بن عبدالله) المتوفى سنة ٢٣١هـ في كتابه (تاريخ فتوح الشام) تفاصيل المفاوضات التي دارت بين خالد بن الوليد وماهان ، نجتزيء منها الآتي :

بعد أن بعث خالد بقبّة [خيمة] له حمراء من الجلد كان قد اشتراها من امرأة (ميسرة بن مسروق العبسي) بثلاثمائة دينار ، أمر بأن تضرب له في عسكر الروم ! ثم خرج خالد حتى أتاها وأقام فيها ساعة ، وكان خالد رجلاً جميلاً جليداً مهيباً ، لا ينظر إليه رجل إلا ملأ صدره وعرف انه من فرسان الرجال وشجعانهم .

أما (ماهان) فقد بعث الى خالد يدعوه الى لقائه ، وقد صَفّ له في طريقه عشرة صفوف عن يمينه ومثلها عن شماله ، مقنّعين بالحديد عليهم البيض [الخوذات] والدروع والسواعد والجواشن والسيوف ، لا يرى فيهم الا حَدَق العيون ، كما صَفَّ من وراء تلك الصفوف خيلاً عظيمة لا يرى طرفاها !!

تُرى ، هل كان ذلك حرس شرف لاستقبال القائد المسلم ؟!

لا . انما أراد ماهان بذلك أن يُرِيَ خصمه حدّة الروم وعددهم ليرعبه بذلك ، ويُملي عليه ارادته .

فاقبل خالد غير مكترث لما رأى من هيئة الروم وجماعتهم ، وكانها أهون عليه من الكلاب . فلما دنا خالد من ماهان رَحّب به ثم قال :

ـ ها هنا عندي ، إجلس معي فإنك يا خالد من ذوي أحساب العرب ، ومن شجعانهم ، ونحن نحب الشجاع ذا الحسب ، وقد ذُكر لي أنّ لك عقلًا ووفاءً ، والعاقل ينفعك كلامه ، وذو الوفاء يصدق قوله ويوثق بعهده .

ـ إن كنتُ أوتيتُ العقل ـ ياماهان ـ فالله تعالى المحمود على ذلك ، وقد قال لنا نبينا (صلى الله عليه وسلم) :

(إن الله لما خلق العقل فقدره وصوره وفرغ من خلقه قال له : أقْبِل ، فاقبل . ثم قال له : أدبِر ، فادبر . ثم قال له : وعزّتي ما خلقت من خلقي شيئاً هو أحبّ اليّ منك ، بك أحمد ، وبك أعبد ، وبك أعْرَف ، وبك تُنالُ طاعتي ، وبك تُدخل جنّتي) .

والوفاء لا يكون الا من العقل ، فمن لم يكن له عقل فلا وفاء له ، ومن لا وفاء له فلا عقل له .

ـ أنت أعقل أهل الارض يا خالد ، وما يتكلم كلامك ولا يبصره ولا يفطن له الا الفائق من الرجال .. أتحتاج الى مشورة هذا الرجل معك ؟ [وكان ماهان يشير الى الحارث بن عبد الله الازدي ، راوي هذه الرواية] .

ـ إنّ في عسكرنا هذا لاكثر من ألفي رجل ، كلهم لا يُستغنى عن رأيه وعن مشورته !

ـ ما كنا نظن ذلك عندكم ولا نراكم به .

ـ ما كل ما تظنون ونظن يكون صواباً .

ـ صدقت يا خالد ـ صدقت . إنّ أول ما اكلمك به ان ادعوك الى خلتّي ومصافاتي ...

ـ فكيف لي ولك أن يتمّ هذا فيما بيني وبينك ـ ياماهان ـ وقد جمعتني وإياك بلدة ، لا أريد انا ، ولا تريد انت ان نفترق حتى تصير البلدة لاحدنا .

ـ فلعل الله يصلح بيننا وبينكم ولا يُهرق دمٌ ولا يُقتلُ قتيل .

ـ إن شاء الله فعل .

ـ فإني أريد أن ألقي الحشمة فيما بعد بيني وبينك [أرفع التكليف] وأكلمك كلام الاخ لاخيه . وإن قبّتك هذه الحمراء قد أعجبتني ! وأنا أحبُ أن تهبها لي فإني لم أرَ قُبّة من القباب أحسن منها وأفضل ...

ـ هي لك ـ ياماهان ـ فخذها ، ولست أريد من متاعك شيئاً .

ـ إن شئت بدأنا الكلام ـ يا خالد ـ وإن شئت أنت فتكلم .

ـ ما أبالي أيّ ذلك كان . أما أنا ، فلا أخالك إلا وقد علمت وبلغك ما أسال وما أطلب وما أدعو إليه ، وقد جاءك بذلك أصحابك ومن لقينا منكم باجنادين ومرج الصفر وفحل ومدائنكم وحصونكم ، وأما أنتَ فلستُ أدري ما تريد أن تقول ؟

ـ الحمد لله الذي جعل نبينا أفضل الانبياء ، وملكنا أفضل الملوك ، وأمتنا خير الامم ...

ـ والحمد لله الذي جعلنا نؤمن بنبينا ونبيكم وجميع الانبياء ، وجعل الأمير الذي وليناه أمورنا رجلًا كبعضنا ، فلو زعم أنه ملك علينا ، لعزلناه عنا ، ولسنا نرى أن له على رجل من المسلمين فضلًا إلا أن يكون أتقى منه عند الله وأبرّ ، والحمد لله الذي جعل امتنا تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتقرّ بالذنب وتستغفر الله منه ، وتعبد الله وحده ولا تشرك به شيئاً ، قل الآن يا ماهان ما بدا لك .

ـ .. فجأتمونا بالخيل والرجال ، تقاتلوننا على حصوننا وتريدون أن تغلبونا على بلادنا ، وقد طلب هذا منا قبلكم من كان أكثر منكم عدداً وأعظم مكيدة وأوفى جنداً ، ثم رددناهم عنها ، فلم يرجعوا الاوهم بين قتيل وأسير ... ولم تكن أمة من الامم بارق عندنا منكم شأناً ولا أصغر أخطاراً ، إنما جلّكم رعاء الشاء والإبل وأهل الصخر والحجر والبؤس والشقاء ، فانتم تطمعون أن نُجلي لكم عن بلادنا !؟ بئس ما طمعتم فيه منا ....

ـ أما بعدُ . فإن كل ما ذكرت به قومك من الغناء والعز ومنع الحريم والظهور على الاعداء والتمكن في البلاد فنحن به عارفون ... وأما ماذكّرتنا به من رعي الإبل والغنم فما أقلّ من رأيت واحداً منا يكرهه وما لمن يكرهه منا فضل على من يفعله . وأما قولك إنا أهل الصخر والحجر والبؤس والشقاء فحالنا والله كما وصفت ، ما ننتفي من ذلك ولا نتبرأ منه ، وكنّا على أسوأ وأشدّ مما ذكرت ، ألا إنا معشر العرب أمة من هذه الامم ، أنزلنا الله له الحمد منزلًا من الأرض ليست به أنهار جارية ، ولا يكون به من الزرع الا القليل ، وكل أرضنا المَهامِه والقفار ، فكنا أهل حجر ومَدَر وشاء وبعير وعيش شديد ، وبلاء دائم لازم ، نقطع أرحامنا ، ونقتل خشية إملاق أولادنا ، ويأكل قوينا ضعيفنا ، وكثيرنا قليلنا ، ولا تأمن قبيلة منا قبيلة الا أربعة أشهر من السنة [يقصد خالد الأشهر الحُرُم] نعبدُ من دون الله أرباباً وأصناماً ننحتها بايدينا من الحجارة التي نختارها على أعيننا ، وهي لا تضرُ ولا تنفعُ ، ونحن عليها مكبّون . فبينما نحن كذلك على شفا حُفرة من النار ... إذ بعث الله فينا رسولًا من صميمنا وشرفائنا وخيارنا وكرمائنا وأفضلنا . دعانا الى الله وحده أن نعبده ولا نُشرك به شيئاً ، وأن نخلع الانداد التي يعبدها المشركون دونه ، وقال لنا ولا تعبدوا من دونه ناراً ولا حجراً ولا شمساً ولا قمراً ، واكتفوا به ربّاً وإلهاً من كل شيء دونه ، وكونوا أولياءه وإليه فادعوا ، وإليه فارغبوا . وقال لنا قاتلوا من اتخذ مع الله آلهة أخرى وكل من زعم أن لله ولداً وأنه ثاني اثنين أو ثالث ثلاثة حتى يقولوا لا إله الا الله وحده لا شريك له ، ويدخلوا في الاسلام . فإن فعلوا حُرمت عليكم دماؤهم وأموالهم وأعراضهم إلا بحقها ، وهم إخوانكم في الدين ، لهم مالكم ، وعليهم ما عليكم . فإن أبوا أن يدخلوا في دينكم فاعرضوا عليهم الجزية أن يؤدوها عن يد وهم صاغرون ، فإن

فعلوا فاقبلوا منهم وكُفّوا عنهم ، وإن أبَوا .. قاتلوهم ، فإنه من قُتِلَ منكم كان شهيداً عند الله مرزوقاً وأدخله الله الجنّة ، ومن قُتِلَ من عدوّكم قُتِلَ كافراً وصار الى النار مُخلّداً فيها أبداً . وهذا والله الذي لا اله الا هو أمرَ الله به نبيه(ص) ، فعلّمناه وأمرنا به أن ندعو الناس إليه ، ونحن ندعوكم الى ما دعا إليه نبينا(ص) والى ما أمرنا به أن ندعو الناس إليه فندعوكم الى الاسلام والى أن تشهدوا ان لا اله الا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، والى أن تقيموا الصلاة وتؤتوا الزكاة وتُقرّوا بما جاء به من عند الله عزّ وجل ، فإن فعلتم فانتم إخواننا في الاسلام ، لكم ما لنا وعليكم ما علينا ، وإن أبيتم فإنّا نعرض عليكم أن تعطوا الجزية عن يد وأنتم صاغرون ، فإن فعلتُم ، قبلنا منكم وكففنا عنكم ، وإن أبيتم أن تفعلوا فقد والله جاءكم قوم وهم أحرص على الموت منكم على الحياة ، فاخرجوا بنا على اسم الله حتى نحاكمكم الى الله فإنّما الأرضُ يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين .

ـ أما أن ندخل في دينكم ـ يا خالد ـ فما أبعد من ترى من الناس من يترك دينه ويدخل في دينكم ، وأما أن نؤدي الجزية ، سيموت من ترى جميعاً قبل أن يؤدوا الجزية الى أحد من الناس ....

وأما قولك إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده فَصَدَقْتَ ، والله ما كانت هذه الأرض التي نقاتلكم عليها ، وتقاتلوننا فيها إلا لأمة من الامم كانوا قبلنا فيها ، فقاتلناهم عليها فاخرجناهم منها ، وقد كانت قبل ذلك لقوم آخرين فاخرجهم منها هؤلاء الذين كنا قاتلناهم فيها . فابرزوا على اسم الله فإنّا خارجون إليكم .

قال الأزدي : فلما فرغ ماهان من كلامه وثب خالد فقام وقمت معه ، فمر بقبّتِه فتركها له ومضينا ..

التهيؤ للمعركة

وعندما عاد (خالد)من محادثاته مع (ماهان)أخبر أبا عبيدة وباقي أمراء الجيش أن لا مفاوضات بعد هذا اليوم ، وان الامر سيقرّره السيف ، وان المعركة ستبدأ في اليوم التالي . ولقد تقبل أبو عبيدة أنباء خالد برضى المؤمن بإرادة الله . وكقائد عام ، كان عليه أن ينظّم جيشه للمعركة ويدير العملية طبقاً لتقديراته التكتيكية (التعبوية) ، ولكنّ مهارتـــه العسكرية لم تكن بمستوى مهارة خالد ، وهو يعلم ذلك ، كما أن خالداً ، ومعظم أمراء الجيش يعرفون هذه الحقيقة أيضاً .

لقد كان أبو عبيدة يخوض غمار المعارك بطريقة تدلّ على قوة إدراكه ، وكان يتصرف طبقاً للمواقف التكتيكية المتغيّرة كأي قائد جيد ، ولكن ، مع عدوّ يفوقه أربعة أضعاف ، لا تكفي المصادفة وقوة الادراك . وكان المطلوب وجود قيادة أكفأ من حيث النوعية ، ولهذا قرر خالد تقديم خدماته للعمل كقائد فعلي لمعركة حاسمة .

ـ فقال لابي عبيدة : (أيها الامير ، أرسل في طلب جميع قادة الكتائب وأخبرهم بان يستمعوا لما ساقوله) .

ففهم أبو عبيدة المقصود من كلام خالد ، وفي الحال أرسل أبو عبيدة لقادته يامرهم بالاجتماع في مقر قيادته لكي يستمعوا لما سيقوله خالد ويطيعوا أوامره . ففهم القادة معنى الرسالة ، وتجمعوا في مقرّ القيادة لتلقي أوامر خالد . وبهذا الاسلوب اللبق تم تسلّم قيادة الجيش من قبل خالد ، وكان الجميع راضين بهذا الاجراء .

أما أبا عبيدة ، فقد بقي القائد الإسمي ، وأخذ على عاتقه معالجة المسائل الادارية ، وأصبح خالد الآن قائد جيش المسلمين في بلاد الشام ، وظل كذلك حتى نهاية هذه المعركة ، على الرغم من عزله ، معتبراً نفسه جندياً في خدمة الامة .

وعندما انفتح الجيش بترتيب المعركة ، قام خالد وأبو عبيدة وبعض القادة بتفقد الكتائب ، وتكلموا مع القادة والجنود . وألقى خالد كلمة أمام كل كتيبة : (يا رجال الاسلام .. لقد حان الوقت لكي تثبتوا . فالضعف والجبن يقودان الى العار ، وكل من يثبت يمدّه الله بعونٍ من عنده . وكل من يصمد بشجاعة أمام حدّ السيف سيكرم ، وسوف يلقى الثواب عندما ينتقل الى جوار ربه . والله يحب الصابرين) .

وقام بعض القادة الاخرين يحثّ الرجال على القتال ، وكانوا يتلون أيات من الذكر الحكيم : ﴿ كم من فئةٍ قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ﴾ وتحدثوا عن نار جهنم ونعيم الجنة ، وعن الايمان بالله والقتال لنصرة الاسلام الذي من أجله قاتل النبي صلى الله عليه وسلم وانتصر في معاركه العظيمة .

لقد كانت ليلة بدء المعركة ليلة حارّة ورطبة ، حيث قضى المسلمون الليل في الصلاة وتلاوة القرآن ، وقد أوجـــد الرسول(ص) تقليداً للمسلمين بعد معركة بدر وهو قراءة سورة الانفال قبل المعركة ، وكانت تسمع خلال الليل تلاوة هذه السورة .

اليوم الاول[١٢] ـ يوم التعارف بالسلاح .

اصطفت ألوية المسلمين لصلاة الفجر . وكان يؤم الصلاة أمراء الالوية والكتائب . وحالما انتهت الصلاة ، أسرع كل رجل الى مكانه المحدد له . وبطلوع الشمس كان الجيشان يقابلان بعضهما بترتيب المعركة ، في وسط سهل اليرموك ، ويبعدان عن بعضهما أقلّ من ميل .

لم تصدر أية حركة سوى ضجة بسيطة . عندما تقابلت

الجيهتان مع بعضهما البعض . لقد عرف الجنود ان القتال في هذا اليوم سيكون حتى النهاية ، وسيمزق أحد الجيشين على أرض المعركة .

جال المسلمون بانظارهم في دهشة نحو التشكيلات الرومانية المزينة بالأعلام الخفاقة والصُلبان المرفوعة فوق رؤوس الجنود .

لقد نظر جنود الروم بخوف أقل الى جيش المسلمين المنتشر أمامهم ، واطمأنوا الى ثقتهم بكثرة عددهم ، وقلة عدد المسلمين .

ومن قلب جيش الروم ظهر جنرال روماني واسمه جورج المسلمين .

ومن قلب جيش الروم ظهر جنرال روماني واسمه جورج (جرجه) وتقدم على فرسه باتجاه المسلمين ، وعندما اقترب من قلب جيش المسلمين ، رفع صوته وطلب خالداً !

ومن جانب المسلمين ، خرج خالد راكباً على فرسه وهو سعيد بفكرة ان المعركة ستبدأ بالمبارزة ، وعليه أن يبدأ الخطوة الاولى للمعركة .

وعندما اقترب خالد من (جورج) تحرك الاخير لسحب سيفه ، ولكنه استمر ينظر الى خالد بإمعان !

تقدم خالد حتى تلاصقت رقاب الخيل ، فلم يسحب (جورج) سيفه ! عندئذٍ تكلم جورج بالعربية :

ـ ياخالد .. أصدقني القول ، ولا تكذبني ، فإنّ الحر لا يكذب ، بالله عليك ، هل أنزل الله على نبيكم سيفاً من السماء فاعطاكَهُ فلا تسلّه على قوم إلا هزمتهم ؟

ـ لا .

ـ ففيم سُميت سيف الله ؟!

ـ إن الله عزّ وجل بعث فينا نبيه صلي الله عليه وسلم ، فدعانا فنفرنا عنه ونأينا عنه جميعاً ، ثم ان بعضنا باعده وكذّبه ، فكنتُ فيمن كذّبه وباعده وقاتله ، ثم أن الله أخذ بقلوبنا وتواصينا فهدانا به فبايعناه . فقال(ص)

أنت سيف من سيوف الله ، سلّه الله على المشركين ، ودعا لي بالنصر ، فسميت سيف الله وأنا من أشدّ المسلمين على المشركين .

ـ يا خالد .. اخبرني الى ما تدعوني ؟

ـ الى شهادة أن لا اله الا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، والإقرار بما جاء به من عند الله .

ـ ومن لم يُجبكم ؟

ـ فالجزية ونمنعهم ـ

ـ فإن لم يعطها ؟

ـ نؤذنه بحرب ثم نقاتله !

ـ فما منزلة الذي يدخلُ فيكم ويجيبكم الى هذا الامر اليوم ؟

ـ منزلتنا واحدة فيما افترض الله علينا ، شريفنا ووضيعنا وأولنا وآخرنا .

ـ هل لمن . دخل فيكم اليوم يا خالد مثل ما لكم من الاجر والذخر ؟

ـ نعم ، وأفضل .

عطف خالد جواده وسار مع الروماني ببطء ، واتجها الى الجيش الاسلامي . وبمجرد وصول (جورج) الى الجيش الاسلامي كرر بعد خالد كلمات : (لا اله الا الله محمد رسول الله)

وبعد مضي بضع ساعات ، قاتل جورج الذي اعتنق الاسلام بشجاعة واستشهد في المعركة . وبهذا الاعتناق العجيب ، ابتدأت معركة اليرموك ، بين الامتين .

وبدأت مرحلة المبارزة بين الابطال ، حيث تقدم عشرات القادة من الجيش الاسلامي ، منهم من تقدم حسب تعليمات خالد ، ومنهم من تقدم حسب رغبته ، طلباً للمبارزة ، واشتبكوا مع من خرج لمبارزتهم من جانب الروم ، وقد قضوا تقريباً على هؤلاء الروم في المبارزات ، بفضل (عبد الرحمن بن أبي بكر) الذي قَتَلَ خمسة قادة من الروم الواحد تلو الاخر .

واستمرت المبارزة حتى منتصف النهار ، ثم قرر (ماهان) ايقاف القتال حيث لو طال فسوف يخسر الروم عدداً كبيراً من قادتهم ، وهو يأمل أن يكون للروم فرصة أفضل للنجاح في معركة عامة ، يكون فيها كثرة العدد له وزنه لصالحهم . بيد ان قائد الروم كان حذراً لانّ أيّ خطوة غير موفقة في بداية المعركة سيؤثر سلبياً على سيرها . ومن الافضل له أن يحاول القيام بهجوم محدود على جبهة عريضة لاختبار قوة الخصم ، وإذا أمكن تحقيق خرق في أية ضعيفة في جبهة المسلمين .

وفي منتصف النهار ، تقدمت عشرة صفوف أمامية من جيش الروم ، أي ثلث مشاة المشاة من كل جيش من الجيوش الاربعة ، وتحركت هذه الموجة البشرية للأمام ببطء ، وحالما أصبحت ضمن مدى رمي سهام المسلمين ، انطلقت هذه السهام عليها وأوقعت فيها بعضَ الخسائر .

واستمرت الموجة في التقدم ، وخلال فترة وجيزة ، اصطدمت بالصف الامامي للمسلمين . وفي الحال ألقى المسلمون حرابهم واستلّوا سيوفهم ، والتحم الطرفان في القتال ، ولكن هجوم الروم لم يكن قوياً ، وكان معظم الجنود غير معتادين على القتال ، فلم يندفعوا اثناء هجومهم ، بينما كان المحاربون المسلمون المتمرسون يقاتلون باندفاع وضراوة .

ومع غروب الشمس ، انتهت الأعمال القتالية ، وعاد كلا الجيشين الى معسكراتهم . وكانت تضحيات المسلمين طفيفة ، ولكنها في جانب الروم كانت أكثر ، فارتفعت معنويات الجيش الاسلامي وازدادت ثقته بنفسه ، بعد أن لمس عملياً عطالة الجيش الضخم الذي يواجهه .

ومضى الليل في هدوء ، وقامت النساء المسلمات بالترحيب

برجالهن بكل فخر، ومسحن العرق المتصبب من جباههم، ومسحن الدماء عن وجوههم وأذرعهم، وضمدن جراحهم باغطية رؤوسهن.

وقد شعر المسلمون بثقة أكبر، بعد أن أوقعوا بالعدو أفدح الخسائر، وقضوا تلك الليلة بالصلاة وتلاوة القرآن الكريم شكراً لله، ولم يحدث ما يعكّر صفو الليل سوى تقدم مجموعات من الروم الى (أرض الحرام)[١٤] لسحب جثث قتلاهم، فاشتبك المسلمون مع بعض الدوريات المعادية فلاذت بالفرار.

وقد مرت فترة تسعة أيام بعد اليوم الاول لم يقاتل الروم المسلمين فيها، وسبب ذلك أن (ماهان) كتب الى (هرقل) كتاباً يشرح فيه الوضع العسكري، وينتظر توجيهاته، ولم يبادر المسلمون الى قتالهم، وذلك كي يكون البغي منهم، على حدّ تعبير (الواقدي)

اليوم الثاني[١٥] ـ يوم الكرّ والفرّ

لم يحقق (ماهان) أي شيء في اليوم الاول، فعقد مجلس حرب، نوقشت فيه خطط القتال المقبل. وكان عليه أن يفعل شيئاً مغايراً عن القتال التمهيدي، إذا أراد احراز النجاح. ولهذا قرّر القيام بهجومه التالي عند أوّل ضوء، بعد أن شكل قواته للقتال في ساعات الظلام، مؤملاً أن يفاجيء المسلمين قبل أن يكونوا مستعدين للمعركة، وعلاوة على ذلك، فسيهاجم بقوة أكبر. ولذلك طلب من كلا جيشي القلب أن يثبّتا جيش المسلمين، بينما يقوم جيشا الاجنحة بالضربة الرئيسة وإخراج أجنحة المسلمين من المعركة أو دفعهم نحو القلب.

وعلى إحدى الروابي، أقام (ماهان) منصّة عالية خلف الجناح الأيمن الروماني، ليصبح بمقدوره الاشراف على المعركة. وعلى هذه المنصة وضع (ماهان) نفسه وحاشيته وحرسه المكون من ألفي أرمني، بينما استعد باقي الجيش لهجوم الصباح المباغت.

وحالما انبلج الصباح، والمسلمون يؤدون الصلاة، إذ سمعوا قرع الطبول، فاسرع (المراسلون) على خيولهم عائدين من نقاط القتال الامامية، وأخبروا قادتهم بهجوم الروم المباغت، غير أن السرعة التي وصل لها المسلمون الى مواقعهم كانت أكبر مما توقعه الروم، إضافة الى حسن تدابير خالد حيثُ أمر بوضع خط قويّ من نقاط القتال الامامية اثناء الليل، أدت الى تأخير زحف الروم بوقت كاف بحيث يصبح بإمكان المسلمين ارتداء دروعهم وحمل أسلحتهم والوصول الى موقع المعركة قبل أن يعصف بها طوفان الروم.

وما إنْ ارتفعت شمس اليوم الثاني من المعركة حتى بدأ الجيشان بالصدام.

وكان يوجد أمام ميمنة جيش المسلمين جيش (قناطير) الذي تتكون غالبيته من (الشلاف)، وقد هجم هذا الجيش على لواء (عمرو بن العاص). وثبت المسلمون ثباتاً عظيماً فتمّ صدّ الهجوم..

غير أن (قناطير) كرر الهجوم، وبقطعات جديدة، فصد المسلمون هذا الهجوم.

ولكن، عندما كرر (قناطير) الهجوم للمرة الثالثة استخدم وحدات جديدة، مما أدى الى ضعضعة مقاومة المسلمين المرهقين، فتراجع لواء (عمرو بن العاص) وانكفأ الى المعسكر، وباتت هزيمة المسلمين وشيكة، حيث استطاع الروم إحداث ثغرة في صفوف المسلمين والتسلل منها الى مؤخرتهم، وانحرفت الميمنة يساراً، لتندمج بالقلب، أي لواء شرحبيل.

وحيث أن تراجع لواء عمرو كان على صورة فوضى، فقد أمر عمرو كتيبة الخيالة المؤلفة من ألفي فارس للقيام بالهجوم المعتاد وطرد الروم.

واندفعت الخيالة الى المعركة بعنف وضراوة فاستطاعت كبح تقدم الروم لبعض الوقت، لكنها لم تستطع أن تصدهم نهائياً، فقد صدّ الروم هجوم المسلمين المضاد وأبعدوهم عن المعركة.

وبمجرد وصول الخيالة، وكذلك وصول الجنود الراجلين، الى المعسكر الخلفي، حتى وجدوا صفاً من النساء في انتظارهم حاملين أعمدة الخيام والحجارة في أيديهن وهن يصرخن: (قبّح الله وجه رجلٍ يفرّ عن حليلته). (ألستم لنا ببعولة إن لم تمنعوا عنّا هؤلاء الأعلاج). وخرجت (هند بنت عُتبة) زوج أبي سفيان بن حرب، فرأت زوجها منهزماً،. فضربت وجه حصانه بعمودٍ وقالت له: (إلى أين يا ابن صخر؟! إرجع الى القتال، إبذل مهجتك حتى تمحص ما سلف من تحريضك على رسول الله(ص) فارتد ابو سفيان، الى القتال، وارتدّ معه المسلمون جميعاً.

وما إن رأى عمرو بن العاص، وهو في الميمنة، زعماء المسلمين وقبائلهم، وعلى رأسهم أبو سفيان والزبير بن العوّام وأبو هُريرة، يرتدون للقتال بضراوة وبسالة، حتى اندفع بدوره ومن معه للقتال، وثبت مقاتلو الميمنة بعد أن كان الروم قد دحروهم، ثم أخذوا يكرّون على الروم الذين اضطربوا، إلا أن الروم لم ينهزموا، وأضحى القتال سجالاً، بين كرٍّ وفر.

وما إنْ رأى خالد بن الوليد ميمنة المسلمين مندحرة ـ وكان في القلب ـ حتى قرر أن يزجّ بالاحتياط[١٦] عندما شعر بضرورة أن يُزَجّ في هذا الوقت بالذات.

التفت خالد أولاً الى الجناح الايمن، فقام مع حرسه المتحرك وكتيبة الخيالة بضرب جناح جيش (قناطير)، وفي الوقت عينه قام عمرو بن العاص بمهاجمة الروم من الجانبين، وأرغموا على التراجع الى مواقعهم الأصلية، وقد استردّ تنظيم

لوائه كيما يكون مستعداً للجولة القادمة .

وعندما تأكد خالد أن الوضع قد عاد الى ما كان عليه ، انتقل الى الجناح الايسر ، وبدأ « يزيد » يضغط بهجوم معاكس كبير من الامام ليدفع الروم الى الخلف .

ثم وضع خالد كتيبة بإمرة (ضرار بن الازور) وأمره أن يقوم بهجوم خاطف على مقدمة جيش (ديرجان) لكي يحدث نقطة تحول ايجابية ، ويجبر الجناح الأيمن للروم على التراجع .

وبعد أن تراجع الروم واستعاد المسلمون مواقع الميمنة والقلب ، اغتنم خالد هذه الفرصة ، فشنّ هجوماً صاعقاً ـ ببقية احتياط الجيش ـ على جناح (غريغوري) ، فاضطر جيش الروم الى الانسحاب تحت الهجمات الاسلامية المعاكسة ، من الامام والجنب ، ولكن هذا الانسحاب كان بطيئاً ، بسبب ربط الجنود الروم بالسلاسل وعدم استطاعتهم الحركة بسرعة .

وبعد أن تقهقر الجناح الايمن لجيش الروم ، اندفع (ضرار بن الازور) داخل جيش « ديرجان » ووصل الى قائده الذي كان يقف مع حرسه الخاص ، وقد لفّ رأسه بثوب من الديباج ، فحمل عليه ضرار فقتله .

وبعد هذا التطور ، بدأ الروم يضغطون على جيش المسلمين ، فاجبروه على التراجع . وعند الغروب ، قطع جيشا القلب التماس[17] مع المسلمين ، وانسحبا الى مواقعهما الاصلية ، وأعيد الوضع الى ما كان عليه عند الصباح .

لقد واجه المسلمون موقفاً حرجاً إلا أنهم عادوا واستردوا المواقع التي فقدوها ، وقد تحمّل جناح المسلمين الايمن أكثر من بقية الالوية الاخرى ، لان القتال الضاري جرى في قطاع عمرو بن العاص . وكانت كفة المسلمين هي الراجحة .

اليوم الثالث[18] يوم الهجمات المضادة

لقد كانت الليلة التي تلت هادئة نسبياً . وكانت النساء المسلمات مشغولاتٌ بتضميد الجرحى ، وإعداد الطعام وجلب الماء ... وعلى العموم كانت الروح المعنوية عالية في معسكر المسلمين ، إذ أنهم هوجموا غير مرة من قبل القوة الرئيسة لجيش الروم ، لكنهم استطاعوا أن يصدّوا كل الهجمات ، ويردّوا المهاجمين على أعقابهم ، ويضعضعوا حالتهم المعنوية .

وفي هذا اليوم ، لم يستطع (جيش السلاسل) أن يتحرك ، لانه قاسى الكثير في اليوم السابق .

غير ان جيش « القرين » الذي عينه (ماهان) قائداً جديداً بعد مصرع « ديرجان » قام بهجوم محدود على جبهة أبي عبيدة بهدف تثبيت احتياطات المسلمين ، لكن الأرمن ، والجناح الأيسر لجيش الروم ، وكلاهما أصبحا تحت قيادة (قناطير) ، ضربا بشدّة ميمنة المسلمين ولواء شرحبيل ، حيث اختاروا نقطة الفصل بين شرحبيل وعمرو بن العاص كنقطة رئيسة للهجوم .

وبرغم صدّ الهجوم الأولي من قبل عمرو وشرحبيل ، الا ان تفوق الروم العددي بدأت تظهر فوائده . فقبيل الظهيرة اقتحم (قناطير) في عدة أماكن ، مواضع لوائي عمرو وشرحبيل ، فتراجع لواء عمرو الى الخلف ، كما أن الجزء الأيمن من جبهة شرحبيل قد تراجع أيضاً ، بينما ظلّ الجزء الأيسر محتفظاً بمواقعه ، وحدثت عدة ثغرات في جبهة المسلمين .

لقد كان اليوم الثالث في اليرموك شديداً ، تراجعت فيه فرسان المسلمين ثلاث مرات . وفي كل مرة تردهم النساء بالحجارة والفمد ويلوحنّ بالاطفال إليهم فيرجعون الى القتال . حتى ان أحدهم قال : (إن مواجهة الروم أسهل علينا من مواجهة نسائنا) !

غير أن لوائي عمرو وشرحبيل لم يتوقفا عن العمل ، فقد أنشأت القوّة الرئيسة من اللوائين خطّاً ثانياً لصدّ محاولات الروم الرامية لاختراق (خط الصد) ، وتحول عمرو للهجوم ، فقام بضرب الروم بواسطة سلاح الخيالة والمشاة ، بغية طردهم من المواقع الامامية ، وقد أحرز نجاحاً طفيفاً في هذه المحاولة .

وقد شنّ خالد هجوماً مضاداً على جناح قناطير بواسطة احتياطيه من (الخيالة) ، وفي الوقت عينه ، ناورت كتيبة خيالة عمرو من اليمين ، وهجمت على الجناح الأيسر لقناطير ، بينما قامت مشاة عمرو وشرحبيل بهجومٍ صاعق مضاد في المواجهة .

لقد كانت مقاومة الروم عنيدة ، فسقط مئات المسلمين شهداء وجرحى في هذه المعركة ، وبسبب بسالة المسلمين ، تقهقر الروم الى الخلف عند الغسق ، وعاد الوضع الى ما كان عليه عند بدء المعركة ، بعد أن تكبد الروم خسائر اكبر من تضحيات المسلمين ، وقد دبّ فيهم اليأس ، وقد أنّب (ماهان) القادة الذين أقسموا أمامه على أن يعملوا بشكل أفضل من اليوم السابق ، ثم جددوا له القسم بان يعملوا أفضل في اليوم التالي .

اليوم الرابع[19] يوم التحوير

أطل فجر اليوم الرابع للمعركة في جوّ يسوده التوتر والقلق ، فالروم كانوا يدركون ان هذا اليوم سيكون حاسماً ، ولهذا فانهم صمّموا على بذل قصارى جهدهم لتمزيق جيش المسلمين الذي صدّ جميع محاولاتهم للاقتحام . فاذا فشل هجومهم هذا اليوم ، فانهم لن يتمكنوا من شن هجماتٍ أخرى فيما بعد .

أما خالد بن الوليد ، فكان يعلم أن المعركة قد اقتربت من مرحلة الحسم ، وأن عمليات اليوم سوف تعطي المدلولات النهائية للنجاح أو الفشل . ولقد قتل الآلاف من الروم حتى

الآن ، فإذا أمكن صدّ الروم وتكبيدهم خسائر فادحة فإنهم لن يحصلوا على المبادأة مرة أخرى ، وعندئذٍ يمكن القيام بهجوم مضاد .

وصل الروم الى ساحة القتال معبئين وكان « ماهان » على تلٍ يشرف منه على جيشه يعطي الاوامر .

أما المسلمون ، فقد تعبأوا وفقاً للترتيب الذي اتخذوه في الأيام السابقة . لقد تمركز الرُماة في الميمنة والميسرة والقلب ، خمسمائة في كل منها ، وقد تلقّوا الاوامر بان يلزموا مراكزهم ، وأن يرشقوا الروم بالنبال إنْ زحفوا نحو المسلمين ، وان يثبتوا في أماكنهم لا يتزحزحون عنها .

وهنا شنَّ (يزيد) قائد ميسرة المسلمين هجوماً على ميمنة الروم ، مما يجانب القلب ، ودار بين الفريقين قتال عنيف ، لكنه لم يؤدِ الى أية نتيجة لصالح أيٍّ منهم . ثم حملت ميسرة الروم بعشرة آلاف فارس على ميمنة المسلمين وفيها عمرو بن العاص ، فاندحرت الميمنة وتقهقرت الى الخلف ، وطارد الروم المسلمين واخترقوا صفوفهم حتى دخلوا في أوائل عسكرهم ، مما يلي عُمراً ومن معه ، محاولين الفصل بين عمرو وشرحبيل ـ وكان في الميمنة مما يُجانب القلب ـ ثم قام الروم بعملية احاطة[٣٠] من جهة الميمنة ، ولم يتمكن عمرو ومن معه من الصمود أمام هجوم الروم فتراجع وجنده ، وقد دخل الروم معسكر المسلمين وكشفوهم حتى ألصقوهم بالتل الذي عليه النساء ، وأحاطوا بالتل .

أما النساء المسلمات فقد اندفعن عند رؤيتهن الرجال منهزمين حتى التل الذي هُنَّ عليه ، فهبطن من مراكزهن ، وأخذن يدفعن الرجال المتراجعين الى المعركة دفعاً ، صارخات في وجوههم وهُنّ يضربنهم وخيلهم بالحجارة والعصيِ : (أين أنصار الدين ؟ أين حماة المسلمين ؟) وكان الزبير العوّام في خيمة زوجته يداوي عينه من الرمد ، فسمع بما جرى للمسلمين ، وهبّ من فوره مشرعاً سيفه ، ومندفعاً لقتال الروم ، حتى قال فيه « ليث بن جابر » : (لله در[؟] الزبير بن العوام ، لقد ردَّ الروم بنفسه وحده وحمل عليهم وما كان معه من العرب إحد حتى ردّهم الى عسكرهم) كما يقول الواقدي .

أما عمرو ـ وكانت ميمنته قد تراجعت أمام هجوم الروم ـ فما إن رأى الزبير مهاجماً ، حتى استعاد حميته وباسه ، وصاح برجاله قائلاً : (الحزم الحزم يا أهل الاسلام ، الصبر الصبر ...) . ثم حمل على الروم المهاجمين . وظل المسلمون يقاتلون الروم ويدفعونهم الى أن تمكنوا من دحرهم واستعادة المواقع التي سبق وفقدوها من قبل .

وفي هذه الاثناء ، حملت ميسرة الروم من جديد ، وفيها فرقة من الارمن على شرحبيل ، حملت على ميمنة المسلمين مما يجانب القلب ، فهزمت ميمنة المسلمين ولم يثبت فيها الا شرحبيل وجماعة من المقاتلين دون الخمسمائة .

ولما رأى قيس بن هُبيرة ـ وكان على فرقة من الخيّالة ـ هزيمة ميمنة المسلمين ، وكذلك تقهقر خيل شرحبيل ـ اندفع لمساندتها من اليسار ، بينما اندفع خالد لمساندتها من اليمين . وأصبح الروم بين فكيّ كماشة ذراعها الأوّل (قيس) من اليسار ، وذراعها الثاني (خالد) من اليمين .

وما إنْ رأى شرحبيل اندفاع خيالة المسلمين في هجومهم نحو الروم حتى ارتدّ عليهم مهاجماً ، فاصبحوا محاصرين من جهاتٍ ثلاث : يميناً ويساراً ومواجهة ، فاضطربوا وبدأوا يتقهقرون ، واندفع المسلمون في اثرهم و(حملوا عليهم حملة عظيمة حتى قربوا من سرادقات ماهان) كما يقول الواقدي ، ثم استعادوا مواقعهم بعد ذلك .

وخلال هذه المرحلة ، جرت مبارزة بين بعض قادة الروم وقادة المسلمين ، وقد قتل فيها أحد بطارقة الروم ، وهو (صاحب نابلس) على يد أحد فرسان بني حمير ، وقتل « مريوس » ملك اللان ، على يد (ضرار بن الأزور) بعد أن بارزه شرحبيل ، كما بارز الزبير بن العوام أربعةً من الروم فقتلهم ، وبارز خالد ملك الروس ـ وهو غير قناطير ، فقتله في الحال .

وإزاء ما جرى للروم من هزائم ، أمر (ماهان) رُماته ، فهبّوا هبّةً واحدة وأطلقوا نحو المسلمين ما يقارب (المائة ألف) سهم !! دفعة واحدة !! فكان النشاب يقع في عساكر المسلمين كسقوط البَرَدِ من السماء ، وكثرت جراح المسلمين من جزاء ذلك ، وكثرت عيونهم التي ذهبت ، حتى قيل إنَّ رجال المسلمين فقدوا في حرب السهام هذه ، نحو سبعمائة عين ، لسبعمائة رجل ، فسُمّيَ هذا اليوم : « يوم التعوير » .

لقد تراجع المسلمون الذين يقاتلون في الجناح الايسر ، فاقوا سهم لم تكن فعّالة ضد نبالة الروم ، بسبب قصر مداها وقلّة عددها . وكانت الطريقة الوحيدة لتجنب خسائر أخرى هو الانسحاب خارج مدى نبالة الروم .

وهنا قرر « ماهان » وقادة جيشه (غريغوري وقرين وقناطير) ان يستثمروا فرصة الاصابات التي لحقت بالمسلمين (فقد العيون) ، فتقدموا لمهاجمة المسلمين قبل أن يتمكنوا من إعادة تنظيم صفوفهم . وبدأ الصدام بين الفريقين مرة أخرى ، حيث زحف جيش الروم برمته ، قلباً وميمنة وميسرة ، نحو جيش المسلمين ، وزاد الرماة في رميهم على المسلمين ، وتقدم المسلمون بخطى ثابتة وواثقة ، وقد أشرعوا سيوفهم . وازداد المسلمون ، أمام هذا الزحف الرهيب ، إمعاناً في التراجع والتقهقر ، كما ازداد الروم إمعاناً في التقدم والتوغل في صفوف المسلمين .

وخلال تقهقرهم ، قاتل المسلمون (قتالاً تراجعياً) وقد أبلى قادتهم في (يوم التعوير) أحسن البلاء مثل أبي عبيدة ويزيد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن أبي بكر والفضل بن العباس ، حتى قال عبد الله بن قرط الأسدي : (شهدت القتال

كله فلم أرَ قتالاً أشدّ من يوم التعوير) .

لقد كان الروم يعلمون أن هذا اليوم هو اليوم الفاصل للمعركة . لذلك هاجموا بعنف وضراوة ، وقد تمّ دحر لوائي أبي عبيدة ويزيد مرة أخرى لمسافةٍ قصيرة ، باستثناء كتيبة عكرمة التي كانت تقف عند الطرف الايسر لقطاع أبي عبيدة .

وهنا رفض عكرمة المقدام التراجع ، وطلب من رجاله أن يقسموا على القتال حتى النصر أو الاستشهاد ، وعدم تسليم مواقعهم للعدو . وعلى الفور أقسم اربعمائة من رجال عكرمة على ذلك ، وانقضوا على الروم كالذئاب الجائعة ، كما انقضوا على كتائب الروم التي كانت تمرّ على مجنبة عكرمة ، ولم يسقط هذا الموقع من يد الأبطال الاربعمائة الذين أقسموا على القتال حدّ الاستشهاد .

فبرغم إصابتهم جميعاً في هذه الملحمة بإصابات مميته أو بجروح خطيرة ، الا انهم قتلوا من الروم أعداداً تفوقهم بعدة مرات . وقد أُصيب عكرمة وابنه عمر بإصابات خطيرة .

أما لوائي أبي عبيدة ويزيد فلم يذهبا هذه المرة الى المعسكر ، لان النساء كنّ يحملن السيوف ، وأعمدة الخيام ، وقد اندفعن الى الامام ، وانضممن الى رجالهن لمقاتلة الروم ، وكانت (أم حكيم) ابنة حكيم بن الحرث تصيح في النساء :

(اضربن الروم على أذرعهم) .

لقد اندفعت النساء المسلمات بين الألوية حتى وصلن الى الصف الامامي ، وصممن على القتال أمام رجالهن هذه المرة ، وكان استبسالهن هذا نقطة تحول في هذا القطاع ...

وكان منظر النساء وهن يقاتلن مع الرجال ، مثيراً لحماس المسلمين ، حتى قال فيهن عبد الله بن قرط : (لم أرَ امرأة من نساء قريش قاتلت بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا في اليمامة مع خالد [أي خلال حروب الردة] مثل ما قاتلت نساء قريش يوم اليرموك ، حين دهمن القتال وخالط الروم المسلمين ، فضربن السيوف ضرباً وجيعاً) .

وما إنْ رأى عكرمة بن أبي جهل والقعقاع بن عمرو ، وكانا في القلب مع أبي عبيدة ، نساء المسلمين وقد أشرعن سيوفهن يقاتلن ، حتى دبّت الحماسة فيهما ، فوقف عكرمة على رأس كردوسه ، أمام فسطاط خالد وصاح : (قاتلت مع النبي صلى الله عليه وسلم في كل موطن ثم أفرُّ اليوم ؟!) ثمّ نادى : (من يبايعني على الموت ؟) ، فبايعه الحارث بن هشام وضرار بن الأزور في اربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم ، فقاتلوا قُدّام فسطاط خالد ، وجرح عكرمة وابنه عمرو فأتى بهما الى خالد فوضع رأس عكرمة على فخذه ورأس عمرو على ساقه وأخذ يمسح وجهيهما ويَقطّر الماء في حلقيهما وكانا في الرمق الأخير .

وهكذا استشهد عكرمة وابنه بين ذراعي خالد بن الوليد (سيف الله) ، فالرجل الذي ناهض ضد الاسلام عدة سنوات نال الشهادة أخيراً .

لقد استطاع صناديد أبي عبيدة وعكرمة وغيرهما من صناديد المسلمين ، وكذلك النساء المسلمات ، دحر الروم عن مواقعهم ، الذين تراجعوا أمامهم بسرعة تحت تأثير الضربات الشديدة .

وبعد الظهر ، بلغت المعركة ذروتها على طول خطوط المواجهة ، وكان جميع القادة مشتبكين مع الاعداء ، وأثبت كل قائد لواء أنه كان قائداً مقتدراً . ولما اندفعت خولة بنت الأزور نحو أحد الروم ، كان أمهر منها في استخدام السيف ، فضربها على رأسها بسيفه ، فخرّت على الأرض وقد اصطبغ شعرها بالدم .

وعندما دُحِرَ الروم للخلف ، ورأت باقي النساء جسد خولة بدون حراك ، بدأن بالبكاء والنحيب وأخذن يبحثن عن أخيها (ضرار بن الازور) ليبلغنه باستشهاد شقيقته خولة ، لكنهن لم يجدن ضراراً حتى المساء . وعندما وصل الى المكان الذي ترقد فيه خوله ، نهضت وهي تبتسم وكانت بخير!

انتهت الاعمال القتالية لهذا اليوم عند الغسق ، وعاد كل جيش الى مواقعه الاصلية . لقد كان يوماً عنيفاً ، حيث كان الروم قريبين جداً من النصر ، لكن عدداً قليلًا من المسلمين الذين (رثوا بالتالي) حالوا دون تمكين الروم من تحقيق النصر .

واثناء توقف القتال في قطاع شرحبيل ، ظهر القلق على وجه خالد بن الوليد ، وقد نُهش رجاله الذين لم يروه قلقاً قطّ ، ولكنهم عرفوا السبب عندما أمرهم أن يبحثوا عن قلنسوته الحمراء التي سقطت منه في أرض المعركة .

وجرى البحث على الفور فتم العثور على القلنسوة ، وكان بعض الرجال لا يعرفون سرّ هذه القلنسوة فسألوا خالداً عن أمرها ، فسرد عليهم خالد قصتها قائلًا :

(عندما حَلَقَ الرسول الكريم شعره في حجة الوداع ، التقطتُ بعض شعرات من رأسه . فسألني : ماذا ستفعل بها يا خالد ؟ فاجبت : ساستمدُّ منها القوة وأنا أحارب أعدائنا يا رسول الله . فقال صلى الله عليه وسلم : « ستبقى منتصراً طالما هذه الشعرات معك » . فحبكت الشعرات في قلنسوتي ، ولم أقابل عدوّاً قط إلا وهزمته ببركة رسول الله عليه الصلاة والسلام) . (رواها الواقدي) .

اليوم الخامس(٢٢) يوم المناوشة

المرحلة الاولى :

في صبيحة اليوم الخامس للمعركة انفتح الجيشان على الخطوط التي اتخذوها قبل بداية القتال ، ولكن الجنود لم يكونوا في هذا اليوم على استعداد للقتال ، اذ كان التعب بادياً عليهم . وكان يقف بجانب كل رجلٍ صحيح رجل جريح . وكان بعضهم يقف بصعوبة ولكنهم وقفوا ، فالامر لا يحتمل الراحة .

أخذ خالد ينظرر بإمعان الى جبهة الروم ، ليلحظ ما إذا كانت هنالك تحركات تدلّ على أن العدو سيقوم بالهجوم مرة أخرى ، لكنه لم يلحظ أيّة حركة تدل على ان هنالك نيّة للهجوم قبل ساعة أو ساعتين على الأقلّ.

ثم ظهر رجل من قلب جيش الروم ، وكان مبعوثاً من قبل (ماهان) وهو يحمل اقتراحاً لعقد هدنة تدوم بضعة أيام من أجل اجراء مفاوضات بين الطرفين . وكان أبو عبيدة على وشك أن يقبل الاقتراح ، لكنه أعاد المبعوث مع عدم الموافقة على الهدنة بإلحاح من خالد . ثم قال ابو عبيدة للمبعوث : (نحن في عجلة من أمرنا لانهاء هذا الامر) .

ومضى النهار ، حيث كان خالد مشغولاً بإصدار الاوامر للهجوم المعاكس ، واتخاذ بعض الترتيبات الخاصة بإعادة تنظيم الجيش ، فجمع كتائب الخيالة كافة في قوّة واحدة ، وجعل معها الحرس المتحرك ، وكان تعداد هذه القوة نحو ثمانية آلاف فارس .

أما القتال خلال هذا اليوم ، فقد أخذ شكل المناوشة فقط .

اليوم السادس[٢٣] يوم الحسم

بزغ فجر اليوم السادس من المعركة صافياً ، وكان هدوء الصباح هو الهدوء الذي يسبق العاصفة .

كان المسلمون يشعرون بالنشاط ، وكانوا على علم بنيّات قائدهم (خالد بن الوليد) الهجومية ، وكانوا يعرفون بعض تفصيلات الخطة ، لذلك كانوا متشوقين للمعركة .

وعندما أشرقت الشمس ، خرج « غريغوري » قائد جيش السلاسل ، على فرسه ، من قلب الجيش الامبراطوري ، كانت مهمته قتل قائد جيش المسلمين ، بغية التأثير على معنويات المقاتلين المسلمين .

وعندما اقترب من قلب المسلمين ، صاح بأعلى صوته : من يبارز ؟ فتهيأ أبو عبيدة على الفور للخروج إليه . لكن خالد بن الوليد والآخرين ، حاولوا منعه ، لأن (غريغوري) كان يتمتع بشهرة كبيرة كمقاتل بارع .

وشعر الجميع بان من الافضل أن يخرج خالد لمبارزة غريغوري ، لكنّ أبا عبيدة أصرّ على ملاقاته ، وسلّم راية الجيش الى خالد وقال له : (إذا لم أعُدْ إليك ، تولى قيادة الجيش الى أن يتدبر الامر الخليفة) .

وتقابل القائدان على ظهور الخيل ، واستلّا سيفيهما وبدأت المبارزة بينهما . كان كل منهما مبارزاً ماهراً ، وعنده المعرفة التامة بفنّ استخدام السيف .

واشتد الصراع بينهما ، وحبس الروم والمسلمون أنفاسهم ، وهم يراقبون المبارزة العنيفة بين القائدين وما ستؤول اليه النتيجة .

وبعد بضع دقائق من المبارزة ، انسحب غريغوري وأدار حصانه ، وبدأ يتراجع للخلف ، فتعالت صيحات المسلمين وتكبيراتهم لهزيمة القائد الرومانى ، لكن أبا عبيدة لم يُظهر أيّ ردّ فعل ، وركّز عيناه على غريغوري المتراجع ، ثم أسرع للحاق به .

لم يكد يبتعد غريغوري بضع مئات من الخطوات حتى لحق به أبو عبيدة ، وهنا عمد غريغوري الى الابطاء في سيره حتى يلحق به أبو عبيدة .

وعندما أصبح أبو عبيدة بجانب خصمه ، رفع الاخير سيفه وأهوى به على أبي عبيدة !

إذن ، لقد كان هرب غريغوري حيلةً لكي ياخذ خصمه على حين غرّة .

لكن أبا عبيدة لم يكن تلميذاً مبتدئاً ، فهو يعرفُ فن استخدام السيف أكثر من غريغوري ، فعندما رفع الاخير السيف ، كان ذراعه يمتد الى أعلى مدى ، وفي هذه اللحظة ، فاجأ أبو عبيدة خصمه بضربة على قاعدة عنقه ، وسقط السيف من يد (غريغوري) فهوى على الأرض .

أما أبو عبيدة ، فقد ظل على ظهر فرسه بضع دقائق وهو ينظر الى ضخامة جسم قائد الروم ، ثم عاد الى صفوف المسلمين تاركاً وراءه درع خصمه القتيل الموشّى بالاحجار الكريمة والذهب الخالص ، دون أن يهتم بجمع مثل هذه الاشياء ، ولو كان جمعها لكان أفضل ، لانها خير شاهد تاريخي على البطولة العربية في هذه المعركة العظيمة .

وما إنْ عاد أبو عبيدة ، حتى ذهب خالد للالتحاق بالخيالة الذين تمركزوا خلف لواء عمرو بن العاص . وعند وصوله أعطى الاشارة للهجوم العام ، وزحف جيش المسلمين نحو الاعداء كالسيل الجارف .

لقد هاجم قلب جيش المسلمين وميسرته جيوش الروم في مواقعهم دون أن يضغطا على العدو أثناء الهجوم . كما التفّت خيالة المسلمين حول جنب الروم الايسر بقية التطويق ، وكان الروم يقاومون .

وعند هذا الموقف ، أرسل خالد كتيبة للاشتباك مع خيالة ميسرة الروم ، وقام مع باقي الخيالة بضرب مجنبة الجناح الأيسر للروم (السلاف) ، وفي الوقت عينه كان عمرو بن العاص يهاجم الروم من الخلف بعنف وضراوة .

لقد كان السلافيون محاربون أشدّاء حقاً ، ولكن عدم دعمهم بواسطة خيالتهم ، وتعرضهم للهجوم من الامام والجنب ، أدى الى اندحارهم في النهاية ، فتراجعوا تحت تأثير ضربات خالد وعمرو نحو القلب ـ أي نحو الارمن .

وعندما تداعى جناح الروم ، حرّك عمرو لواءه الى الامام ، ثم الى اليسار حيث واجه ميسرة الروم ، وبذلك أصبحت

مجنبة[٢٤] الارمن مكشوفة ، وكانت الفوضى تدبّ في صفوف هذه المجنبة بسبب وصول السلاف المنهزمين .

وفي غضون ذلك ، أسرع خالد بدفع خيالته ، واشتبك مع خيالة ميسرة الروم فتم إيقافها عن التقدم .

المرحلة الثانية :

أما المرحلة الثانية من هجوم المسلمين على الروم ، فقد بدأت بعد قيام شرحبيل بمهاجمة ميسرة الروم وطردها من مواقعها الى الخلف . وبما أنَّ هذه المجموعة من الخيّالة قد تلقّتْ ضربات قوية من خالد ، فقد هربت شمالاً حيث الأمان ، بعد أن قاست الويل بما فيه الكفاية .

وفي الوقت عينه ، تمّ طرد خيالة ميسرة الروم بواسطة خالد ، وكان (ماهان) قد حشد باقي خيالته في جيش واحد قويّ خلف قلب الروم ، للقيام بهجوم مضاد واستعادة المواقع التي خسرها الروم . وقبل أن تتمكن قوة الخيالة هذه من القيام بأيّة مناورة ، هاجمها المسلمون من الأمام والجنب بواسطة الخيالة فحنوا من اندفاعها .

لقد قاتل الروم فترة من الوقت بضراوة ، نتيجة لاندفاع (ماهان) أمامهم ، لكنّ الخيالة الثقيلة لا تقارن بخيالة خالد الخفيفة والسريعة التي تستطيع الضرب والتملص والمناورة والضرب مرة أخرى .

وأخيراً ، عندما رأت خيالة الروم أن لاجدوى من القتال ، قطعت التماس مع المسلمين وهربت الى الشمال ، ومعها القائد (ماهان) . وبذلك تركت خيالة الروم المشاة تحت رحمة الاقدار . وكان عدد الذين هربوا مع (ماهان) أربعين ألفاً من الخيالة ! وكانوا يتألفون من خيالة الروم النظامية وخيالة (الاعراب) [عرب الروم] الذين كانوا بإمرة الموتور (جبلة بن الأيهم) .

وفي الوقت الذي كان عمرو وشرحبيل يحاولان سحق الأرمن ، الذين كانوا من أكثر رعايا الروم حباً للحرب . كان أبو عبيدة ويزيد يهاجمان الروم ، لكن جيش « قرين » وجيش السلاسل تمكنا من صد أبي عبيدة ويزيد ، وحالوا دون تمكينهما من تثبيت الروم .

وفي هذه الاثناء ، التفت خالد بن الوليد الى الارمن ، بعد أن طرد خيالة الروم . فهاجمهم من الخلف ، وكان هجومه من ثلاث شُعب ، مما أدى الى انفراط عقد الارمن ، فتركوا مواقعهم ، ثم هربوا باتجاه جنوب غرب ، وهو الاتجاه الوحيد المفتوح لهم ، وقد دُهشوا كثيراً لان خيالة المسلمين لم تحاول أن تتدخل بانسحابهم ، وكان بمقدورهم أن يفعلوا ذلك ، وساروا في الاتجاه الذي وجدوا فيه الأمان .

وعندما انهار جيش الارمن ، واختلط بشكل فوضوي بفلول جيش « قناطير » السلافي ، هرب باتجاه « وادي الرقاد » ، فأيقنت جيوش الروم الاخرى عدم جدوى بقائها في مواقعها ، لان مجنباتها ومؤخراتها أصبحت مكشوفة . لذلك بدأت هذه الجيوش بالانسحاب ، واتخذت طريقها نحو الغرب ، دون تدخل من أحد .

ولم تكد الشمس تصل كبد السماء حتى كانت مشاة الروم في تقهقر تامّ ، وقد هرب جزء منها بذعر ، والجزء الآخر انسحب بانتظام نحو وادي الرقاد .

أما ألوية المسلمين فقد سارت خلف الروم المنسحبين ، وكانت هذه الالوية قد أُعيد تنظيمها في صفوف منتظمة وفي جبهات أقصر ، بينما تحركت خيالة المسلمين الى شمال جيش الروم لكي لا يتمكن أحد من الهرب في ذلك الاتجاه ، مع أن آلاف السلاف والأرمن قد تمكنوا من الهرب قبل إغلاق طريق الهرب . وبهذه الطريقة استطاع المسلمون أن يغلقوا طرق الفرار أمام جيش (قيصر المنهزم)[٢٥]

٣ . المرحلة الثالثة :

وعندما وصلت كتيبة المقدمة الرومانية الى المخاضة في وادي الرقاد اندفعت الى المنحدر الشرقي للوادي ، وبدأت باجتياز جدول الماء . ولم يكن المنحدر الشرقي سيئاً عند هذه النقطة ، كما هو الحال في أجزاء أخرى من الوادي ، لكنّ المنحدر الغربي كان أكثر صعوبة بسبب انحداره الشديد ، وقرب القمة ، كانت توجد هُوّة سحيقة على جانبي الطريق ، وقد تشكل بذلك عنق زجاجة ، حيث تستطيع زمرة من الرجال البسلاء ايقاف جيش بكامله .

ويدأ رجال الروم الذين في المقدمة بصعود الطريق الواقع على الضفة الغربية للوادي ، وهم فرحين بهربهم من سهل اليرموك !

أما الروم ، فقد كانوا يعتبرون اجتياز وادي الرقاد من الجهة البعيدة ذو أهمية تكتيكية [تعبوية] . وقد وقف ضرار مع رجاله على قمة الضفة الغربية للوادي ، وهم ينظرون الى الروم المنهكين الذين يواصلون الصعود الى القمة .

وفي تلك الاثناء ، انهمرت رشقة من الحجارة على الروم ، فحاول عدد قليل منهم الوصول الى القمة ، بيد أنهم قتلوا على الفور ، فتراجعت العناصر التي كانت في الامام ، ثم وقعت على الرجال الذين كانوا في الخلف . وهؤلاء وقعوا على الذين خلفهم ... ، بسبب تعرضهم لسيل من رشقات الحجارة ، بينما هجم (ضرار) على الروم ، فهبطوا وهم يصرخون ويتدحرجون رأساً على عقب حتى استقروا في أسفل وادي الرقاد .

وعندما رأى الروم المتواجدون على الضفة الشرقية من الوادي ما حلّ بكتيبة المقدمة ، توقفوا في مكانهم . وبدا واضحاً أن طريق الهرب هذا كان مغلقاً عليهم ، ولم يكن باستطاعتهم عمل أيّ شيء لزحزحة (ضرار) بسبب ضيق المعبر الذي لا يسمح بالمناورة . لذا تحول جيش الروم الى مدافع عن نفسه ضد الهجوم الاسلامي الوشيك من الشرق ، ونشر قادة جيش

الروم كتائبهم بصورة عاجلة للدفاع جاعلين ظهورهم باتجاه وادي الرقاد ومركزين مجنبتهم اليمنى على نهر اليرموك ، وقد وقعوا بين نارين (المسلمين والوادي) ولم يستطيعوا أن يقرروا أيهما كان أسوأ ، وصاروا في موقف لا يُحسدون عليه .

٣ . المرحلة الرابعة (الأخيرة) :

وبعد ظهر اليوم السادس من المعركة ، بدأت المرحلة الاخيرة من هجوم المسلمين ، وقد بقي ثُلث جيش الروم فقط في هذه الزاوية المزدحمة من سهل اليرموك ، وكان يقف المسلمون أمام هذه الزاوية على شكل نصف دائرة منتظمة ، وكانت المشاة تقف ناحية الشرق والخيالة في الشمال . وكانت قوة المسلمين هنا أقلّ من ثلاثين ألف مقاتل .

لقد انتهى وقتُ المناورة والقيادة ، فمهارة القائد قد وضعت القوات في الموقف النموذجي للقتال ، وأصبح الامر متروكاً للجنود لكي يقاتلوا وينتصروا ويحسموا المعركة .

استلّ القادة المسلمون سيوفهم وأصبحوا مقاتلين مثل الجنود ، كأسود الصحراء ، وصاروا على أهبة الاستعداد لتسديد الضربة الأخيرة للروم ، وهي الضربة القاتلة .

لقد استخدم المسلمون السيوف والرماح في هجومهم على الكتل البشرية المضطربة ، فيما كان الروم محتشدين بكثافة لدرجة أنهم لم يستطيعوا استخدام أسلحتهم ، لكنّ صفوفهم الامامية قاتلت بضراوة ، وحاولت ايقاف موجة هجوم المسلمين ، غير أنها لم توفق . وسرعان ما انهارت مقاومتهم ، بينما ظل المسلمون يتقدمون عبر هذه الصفوف وهم يضربون الروم بعنف وضراوة ، فتدافع الروم وهم يهربون ، فاختلط الحابل بالنابل ، وقتل الكثيرون ممن لم يكن لديهم الطاقة الجسدية الكافية للهرب ، كما مات البعض الآخر تحت أقدام بعضهم البعض .

وعندما انضمت مفرزة (ضرار) الى خيالة المسلمين ، بدأ الضغط الشديد على الروم ، فاندفعوا نحو الزاوية ، وبذلك حرموا من حرية العمل ، فاخذ فرسان خالد بن الوليد يطأون الروم بقوائم خيلهم وحوافرها ، فاختلطت صيحات الروم بتكبيرات المسلمين ، فانهارت آخر مقاومة لهم ، وتم دحر الروم وقهرهم نهائياً ، فهربوا من ميدان المعركة بعد أن سيطر عليهم الهلع ، لدرجة أن الذين كانت لديهم رغبة في القتال ، تم اجتياحهم من قبل زملائهم الهاربين والمذعورين ، وخاصة أصحاب السلاسل ، حيث كانت المجموعات المؤلفة من عشرة أفراد تسقط على الأرض هي الاخرى .

لقد وصل الروم ، الذين كانوا يتراكضون كقطيع الماشية المذعورة الى حافة الوادي ، وكان المنظر في أسفل الوادي مرعبا ، لان المسلمين كانوا يهاجمون بعنف وضراوة ، وقد ضغطوا على الروم الذين جاءوا من الخلف من جهة حافة الوادي ، ثم بدأت صفوف جيش الروم تتساقط في الهاوية الواحد تلو الآخر . وكانت صرخات المتدحرجين مستمرة حتى يصل دويها أسفل الوادي ، بينما خفتت صرخات آخرين من الروم بعد اصطدام أجسادهم بالصخور البارزة ، وكانت جثثهم تتدحرج الى أسفل الوادي ككتل لحمية مضرجة بالدم ، بعد أن فقدت معالمها البشرية .

وعندما أرخى الليل سدوله ، وتوقف آخر مقاتل روماني عن الحركة ، انتهت صفحات معركة اليرموك ، وسجّل التأريخ أنها كانت أعظم معركة بين أمتين ، أمة العرب المسلمة وأمة الروم البيزنطية .

بيان النصر

بعد هذا النصر الحاسم للعرب المسلمين على الروم في واقعة اليرموك الخالدة ، كتب أبو عبيدة ابن الجراح بالفتح الى الخليفة عمر بن الخطاب(رضي الله عنه) يقول :

(بسم الله الرحمن الرحيم ... أخبر أمير المؤمنين أكرمه الله انا لقينا الروم وهم في جموع لم تلق العرب مثلها جموعاً قط ، فاتوا وهم يرون أن لا غالب لهم من الناس أحد ، فقاتلوا المسلمين قتالاً شديداً ما قوتل المسلمون مثله في موطن قط ، ورزق الله المسلمين الصبر وأنزل عليهم النصر فقتلهم الله (٧) في كل قرية وكل شعب وكل واد وكل جبل وسهل وغنم المسلمون عسكرهم وما كان فيه من أموالهم ومتاعهم ... والسلام عليك) .

فاجاب الخليفة عمر بن الخطاب(رضي الله عنه) على رسالة أبي عبيدة قائلاً :

(... أما بعدُ ... فاحمد الله على حسن صنيعه إلينا واستتم الله ذلك بشكره . ثم اعلموا أنكم لم تظهروا على عدوكم بعددٍ ولا عُدّة ولا حول ولا قوة ، ولكنه بعون الله ونصره ومنّه وفضله ، فللّه الطول والمنّ والفضل العظيم .... والسلام) .

الخاتمة

لقد كانت معركة اليرموك أكبر كارثة حلت بالامبراطورية الرومانية الشرقية ، حيث خضعت بلاد الشام نهائياً للدولة العربية الاسلامية ، بعد أن كانت هذه البلاد خاضعة لحكم الروم فترة طويلة من الزمن .

ولما بلغ خبر الهزيمة المنكرة الى (هرقل) امبراطور الروم ، دبّ الخوف في أوصاله وارتحل من (انطاكية) التي كان يتخذها مقراً للسلطة البيزنطية في المنطقة قاصداً القسطنطينية عاصمة ملكه . وعندما وصل الى الحدود بين بلاد الشام وبلاده ، نظر باتجاه الشام نظرة كاسفة ، وقال بصوت حزين :

(سلامٌ عليك يا سوريا .. سلاماً لا لقاء بعده .)

لقد قاتل العرب المسلمون في واقعة اليرموك وهم على ثقة

تامة بأنهم جند الحق ، وان الاستشهاد في سبيل الله غاية ما بعدها غاية ، لهذا لم يكن غريباً تسابقهم لنيل الشهادة ، فرحين مستبشرين كأنهم يذهبون الى حفل عرس لا ميدان قتال ﴿ وما رميت إذ رميت ولكنَّ الله رمى ﴾ صدق الله العظيم .

الشروح

(١) كانت وفاة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم حين زاغت الشمس من يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الاول من السنة الحادية عشر من الهجرة .

تراجع (الطبقات الكبرى ٢/٢٧٢) لابن سعد

وجاء عمر بن الخطاب(رض) وهو لا يصدق أن رسول الله(ص) قد توفي ، وهو لا يريد أن يُصدِّق ! فإن رسول الله(ص) كان يغشى عليه مرضه كثيراً . ولكن عمر(رض) وقد أخذه هول الموقف لم يستطع أن يكبح جماح نفسه فانطلق يقول وهو يرفع سيفه : (إنَّ رجالاً من المنافقين زعموا ان رسول الله توفي . وانه والله ما مات ولا يموت . وانما ذهب الى ربه كما ذهب موسى بن عمران أربعين ليلة ثم يعود . والله ليرجعن رسول الله وليقطعن أيدي قوم وأرجلهم زعموا أنه مات) . وكان المغيرة الى جانب جثمان الرسول(ص) يؤكد لعمر(رض) أنه مات .

(٢) زُويت لي الارضُ : جُمِعت . ومنه دعاء السفر : (وازْوِ لنا البعيد) أي إجمعه واطوه . وزوى ما بين عينيه فانزوى : جمعه فاجتمع وقبضه . قال الاعشى :

يــزيــدُ ، يغُضّ الطــرفَ عنــدي كــأنمــا
زوى بــيــن عينيــه عــليَّ المحــاجمُ
فــلا ينبسطْ من بــين عينيــك مــا انـزوى
ولا تلقني إلا وأنفــــــــك راغمُ

وفي حديث ابن عمر : (كان له أرض زوتها أرض أخرى) أي قرُبت منها فضيقتها . وقيل : أحاطت بها .

وانزوت الجلدة في النار : تقبضت واجتمعت . وفي الحديث : (إن المسجد لينزوي من النُّخامة كما تنزوي الجلدة في النار) أي ينضمُّ ويتقبَّض .

وفي حديث الدعاء : (وما زويتَ عني) أي صرفته عني وقبضته .

يراجع (لسان العرب) مادة (زوي) .

(٣) أبو بكر الصديق(رضي الله عنه) هو : عبد الله بن عثمان ، وكان أسمه قبل الاسلام (عبد الكعبة) وسماه رسول الله(ص) بعبد الله . وأبوه قُحافة واسمه (عثمان بن عامر) وأمه (أم الخيْر) ، واسمها (سلمى بنت صخر بن عامر) ولقبه الرسول(ص) (عتيقاً) ، ولما سئلت عائشة ام المؤمنين : لِمَ سُمّيَ أبو بكر عتيقاً ؟ قالت : (نظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال هذا عتيق النار) .

تراجع : أقباس من أخبار الخلفاء الراشدين ص ١٢ لصلاح الدين عبد المجيد) .

وقد دعي أبو بكر في الاسلام بـ(الصِّديق) لانه صَدَّق رسول الله في حديث الإسراء .

(٤) عَتَقَت الفرس : سبقت الخيل فنجت . وفرس عاتق : سابق .

يراجع (لسان العرب) مادة (عتق) .

(٥) الغساسنة : نزحوا من اليمن الى الشام بعد انهيار سد مارب ونزلوا حوران ثم اعتنقوا المسيحية خلال القرن الرابع الميلادي .

(٦) تراجع دراسة السيد محمد بني يونس في مجلة (اليرموك) الاردنية ـ العددان ٥٥و٥٦ حزيران ١٩٩٧

(٠) خطوط المواصلات : هي المسالك الموجودة في منطقة العمليات العسكرية التي تمكّن من الاتصال والانتقال والتحرك والتموّن .

لقد كانت حماية خطوط المواصلات بين قواعد الجيوش وميادين استخدامها ، من أكبر المستلزمات الاستراتيجية .

(٧) اليرموك : نهر يصبُّ في الاردن جنوب بحيرة طبرية باميال قليلة .

(٨) الخطوط الداخلة أو المتقاربة : تستهدف التعويض عن قلّة العدد بالحركة ، كما تستهدف سحق قوات العدو التي تهجم على القوات الرئيسة سحقاً سريعاً وتاماً ، كيلا تتمكن من التدخل في المعارك الجديدة .

(٩) بعث خالد بهذه الرسالة مع عبد الرحمن بن حنبل الجمحي .

(١٠) نظام الخميس : هو النظام الذي كان يتم به تعريف الجيش عند العرب المسلمين ، نظراً لان الجيش كان يضم خمسة أقسام رئيسة هي : (المقدمة ، القلب ، الميمنة ، الميسرة ، المؤخرة) . اهتدى قادة العرب المسلمين الى هذا النظام منذ عام ١٤هـ/٦٣٤م

(١١) الكراديس : جمع كردوس وهو (الكتيبة) باصطلاحاتنا العسكرية المعاصرة . وقد قسم خالد بن الوليد الجيش في واقعة اليرموك الى كراديس وجعله يتالف من ٣٨ كردوساً وجعل الكردوس الواحد من ألف مقاتل وعين لهم قائداًمقداماً .

(١٢) كانت راية النبي(ص) صفراء سار بها الى خيبر .

(١٣) كان اليوم الاول من معركة اليرموك هو الثلاثاء ٢١ جمادي الاخرة ١٥هـ ٣٠ تموز ٦٣٦م

(١٤) أرض الحرام : هي الارض أو المنطقة التي لا يمكن أن يتواجد عليها كلا الطرفين المتقاتلين ، ومحرم عليهما العمل فيها .

(١٥) وهو اليوم العاشر الذي يلي اليوم الاول أي الخميس ١ رجب ١٥هـ ٨ آب ٦٣٦م

(١٦) الاحتياط : للحرب مفاجآت وظروف ليست بالحسبان ، لذا فان القائد يحتفظ عادة بجزء من القوة الضاربة كاحتياط يستخدمه ويناور به عند الضرورة .

(١٧) التماس : إجراء اتصال قريب بالعدو ، في حدود النظر المباشر وضمن مدى الأسلحة الفردية .

(١٨) اليوم الثالث هو يوم الجمعة ٢ رجب ١٥هـ ٩ آب ٦٣٦م

(١٩) اليوم الرابع هو يوم السبت ٣ رجب ١٥هـ ١٠ آب ٦٣٦م

(٢٠) الإحاطة : شكل من أشكال المناورة ، وهي تعني تقدم القوات في اتجاه أجناب العدو ومؤخرته وإحكام التطويق حوله . ويتم تنفيذ مناورة الاحاطة عندما تسمح طبيعة مسرح العمليات ، ويكون التنظيم القتالي للعدو محدداً ويسمح بتقدم القوات على محاور تصل الى مجنبات قوات العدو أو مؤخرتها .

(٢١) لله درك : أي لله عملك . فالدرّ : العمل من خير أو شر ، وقولهم : لله درّك ، للمدح والذم . ويقال (لله دره) لمن يُمدح ويتعجب من عمله ، فإذا ذم عمله قيل : لا درّ درّه .

وقيل : لله درّك من رجل ! معناه : لله خيرك وفعالك . وإذا شتموا

شخصاً قالوا : لا درّ دره ، أي لا كثر خيره .

وقيل : لله دَرّك ، أي لله ما خرج منك من خير . وأصله ان رجلًا رأى آخر يحلب إبلًا فتعجّب من كثرة لبنها فقال : لله درّك ! وقيل : أراد لله ، صالح عملك لان الدرّ أفضل ما يُحتلب . وقولهم : لا درّ درّهُ ، أي لا كثر خيره . والاصل فيه أن الرجل إذا كثر خيره وعطاؤه وإنالته الناس قيل : لله درّه ، أي عطاؤهُ وما يُؤخذ منه ، فشبهوا عطاءه بِدَرّ الناقة . ثم كثر استعمالهم حتى صاروا يقولون : (لله درّك) لكل متعجب منه . قال الفرّاء : وربما استعملوه من خير أن يقولوا لله ، فيقولون : دَرّ دَرّ فلان ولا دَرّ دَرّه . قال ابن أحمر :

بانَ الشبابُ وأفنى ضِعفَهُ العُمُرُ
لله دَرّي ! فـــأيَّ العيش أنتظـــر ؟؟

يراجع (لسان العرب) مادة (درر) .

(٢٢) كان اليوم الخامس هو الاحد ٤ رجب ١٥هـ ١١ آب ٦٣٦م

(٢٣) كان اليوم السادس هو الاثنين ٥ رجب ١٥هـ ١٢ آب ٦٣٦م

(٢٤) المجنبة : المقدّمة . روى ابو هريرة (رض) : « ان النبي صلى الله عليه وسلم ، بعث خالد بن الوليد يوم الفتح على المجنبة اليمنى ، والزبير بن العوام على المجنبة اليسرى ، واستعمل أبا عبيدة على البيانقة ، وهم الحُسر »

(٢٥) يعزو بعض الكتبة الغربيين هزيمة جيش الروم الى استغلال خالد لعاصفة رملية شديدة هبّت في وجوه الروم ! ولم يذكر أيّ مؤرخ اسلامي خبر هذه العاصفة ، وما هذه الرواية سوى محض اختلاق ، ومحاولة بائسة من المؤرخين الغربيين المتعجرفين للتقليل من أهمية النصر العربي الاسلامي في اليرموك وايجاد مبرر لهزيمة الروم .

(٢٦) الحابل : الذي ينصب الحِبالة . والنابل : الرامي عن قوسه بالنبل . يقال : (ثار حابلهم على نابلهم) إذا أوقدوا الشرّ بينهم . ومن أمثال العرب : (قد ثار حابِلُهم ونابِلُهم) ، وقد يُضرب هذا مثلًا للقوم تنقلب أحوالهم ويثور بعضهم على بعض بعد السكون والرخاء .

يراجع (لسان العرب) مادة (حبل) .

(٢٧) أستشهد في اليرموك ثلاثة آلاف من المسلمين بحسب رواية الطبري . أما خسائر الروم ، فقد قدرها كل من الطبري وابن الاثير بمائة وعشرين ألف قتيل ، الا ان البلاذري قدرها بسبعين ألف قتيل ، ويرى بعض المؤرخين المعاصرين مثل ياسين سويد ان هذه الارقام مبالغ فيها .

المصادر والمراجع

١ . الازدي ، محمد بن عبد الله :
تاريخ فتوح الشام – مؤسسة سجل العرب ١٩٧٠
٢ . الواقدي ، أبو عبد الله محمد بن عمر :
فتوح الشام – دار الجيل – بيروت .
القاهرة ١٩٦٠–١٩٦٩ .
٤ . البلاذري ، أحمد بن يحيى :
فتوح البلدان – مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٦
٥ . ابن الاثير ، عز الدين علي :
الكامل في التاريخ – دار صادر ودار بيروت ١٩٦٥
٦ . الجنرال أ . أكرم :
سيف الله خالد بن الوليد – ترجمة العميد الركن صبحي الجابي – دمشق ١٩٧٦ .
[هذا المرجع يعد أفضل دراسة عسكرية تاريخية كتبت عن خالد بن الوليد] .
٧ . د . ياسين سويد :
الفن العسكري الاسلامي أصوله ومصادره الطبعة الاولى – بيروت ١٩٨٨ .
٨ . أحمد عادل كمال :
الطريق الى دمشق (فتح بلاد الشام) .
دار النفائس – الطبعة الثانية – بيروت ١٩٨٢
٩ . المؤسسة العربية للدراسات والنشر .
الموسوعة العسكرية – ج١و٢و٣ بيروت
١٠ . جمال الدين حماد :
معارك الاسلام الكبرى – مكتبة النهضة المصرية – القاهرة ١٩٥٢
١١ . نافع داود :
معركة اليرموك . المجلة العسكرية – العدد الاول – بغداد ١٩٦٣ .
١٢ . محمد فيصل عبد المنعم :
معركة فاصلة بكل المقاييس (اليرموك) . مجلة (الحرس الوطني) العدد ٦٦ شعبان ١٤٠٨هـ أبريل ١٩٨٨م والعدد ٧١ محرم ١٤٠٩هـ أغسطس ١٩٨٨ (الرياض)

• •

القادسية ملحمة البطولة العربية الخالدة

[٢٣ أيلول ٦٣٦ م]

هيئة التحرير

بعد ظهور كورش الاخميني في بلاد فارس امتدت الدولة الفارسية في عهده خلال خمس سنوات من جبال عيلام حتى البحر المتوسط، ثم وجه أطماعه نحو المملكة البابلية [٦٢٦ — ٥٣٩ .م] ومر في زحفه نحو بابل العاصمة والتقى بجيوش الملك [نبو نهيد] آخر ملوك الدولة البابلية الحديثة ، في مدينة [أويس] فنشبت معركة بينهما قرب الموضع الذي صار يعرف فيما بعد بموضع [سلوقية — طيسفون] — أي [المدائن] حالياً — وما يقابلها ، فلم يكن عسيراً على الجيش الفارسي أن يضرب الكلدانيين ضربة شديدة ، فنكص الجيش البابلي وارتد الى بابل وتحصن فيها ، غير أن أسوارها الضخمة التي أنشاها [نبوخذ نصر] لم تحمها من الهجوم ، وسقطت بابل بأيدي الفرس في ٢٩ تشرين الاول ٥٣٩ قبل الميلاد وأخذ الملك [نبونهيد] أسيراً .

وهكذا سقطت عاصمة العراق العظيمة [بابل] ، وكان ذلك علامة لتوقف الحضارة البابلية العظيمة .

وفي عهد الدولة الساسانية الفارسية [٢٢٧ م — ٦٣٧ م] ، حارب سابور العرب حرباً لا هوادة فيها ، ففتك بهم فتكاً ذريعاً حتى بلغ به حب الانتقام ان كان ينتزع أكتاف رؤوساء العرب الذين يظفر بهم فسموه [سابور ذا الاكتاف] . كما أجلى قبيلة [إياد] من العراق واستولى على مدينة [الحضر] عاصمة دولة [الضجاعم القضاعية] العربية ، وأنشا حصناً كبيراً قرب [عين التمر] لصد العرب عن بلاده ، وهو حصن [الاخيضر] في غربي كربلاء اليوم .

وكانت النتيجة ، ان بلغت البغضاء بين الطرفين اقصى نهايتها ، وتاصل العداء في النفوس ، فبات العرب لا يفكرون الا في الثورات على الفرس الغزاة ، وشرعوا يغيرون على ريف العراق وسواده بين الحين والاخر ، الى أن وقعت واقعة [ذي قار] التاريخية عام ٦٢٣ م] في عهد [ابرويز] كسرى الفرس ، وبهذه الواقعة مال الدهر بعطفه نحو العرب فغلبوا الفرس ، واهتزت لهذا النصر اللامع مجالس البلاد العربية باجمعها فرحاً ، وهو النصر الذي أحرزه عرب العراق من آل شيبان ، وكان سيد العرب الاعظم محمد [ﷺ] قد أثنى على هذا النصر المجيد بقوله الخالد ؛ [اليوم انتصف العرب من العجم وبي نصُروا] .

وبعد ان انتقل المصطفى [ﷺ] الى الرفيق الاعلى ، اجتمعت كلمة العرب على تولية أبي بكر الصديق [رضي الله عنه] الخلافة ، فصمم على تنفيذ ما كان يفكر فيه الرسول الاعظم ، وهو الهجوم على الفرس لتحرير الارض العربية من احتلالهم لها ، بعد ان استتب له امر الحجاز وأطرافه ، ودان له العرب في شبه الجزيرة .

غير ان بعض القبائل العربية — وبتحريض من الفرس واليهود — ارتدت عن الاسلام ، وعادت الى ما كانت عليه من امر الجاهلية ، فبعث الخليفة من بقي على إسلامه يأمرهم بالثبات على الدين القويم ، والوقوف حيال المرتدين بحزم الى أن توافيهم النجدات .

وبعد جهد جهيد ، تمكن الخليفة وأبطال المسلمين من سحق المرتدين في الجزيرة ، ثم عَزَمَ على توجيه الجهاد والجهود خارج شبه الجزيرة لتحريرالعراق والشام من نفوذ الفرس والروم .

المعارك التمهيدية

وفي الوقت الذي انصرف فيه تفكير الخليفة الى ناحية الشام ، وأخذ في التاهب لتحريرها من براثن الروم ، ترامت اليه الانباء بأن أحد فرسان بني بكر ، ويدعى المثنى بن حارثة الشيباني قد تحرك شمالاً على رأس قوة من رجال القبائل مُساحِلاً الخليج العربي حتى بلغ مصب نهري دجلة والفرت ، وتمكن — من توثيق صلته بالقبائل العربية التي تقيم حوالي دلتا النهرين .

لقد ادت هذه الانباء إلى تحويل أنظار الخليفة من الشام الى العراق .

ولم يكد المثنى يسال الخليفة أن يولّيه الامارة على قومه ليقاتل الفرس حتى أجابه الى مطلبه ، وأمره ان يتابع ما بدأه بين العرب من عهد ببدء الجهاد لتحرير العراق من براثن الفرس .

وبعد ان نجحت إغارات المثنى على الفرس ، عزم الخليفة الصّديق على إمداد المثنى حتى تتحول إغاراته الخاطفة الى حرب تحرير شاملة ، فبعث إلى أعظم قادته خالد

بن الوليد يأمره بحشد قوته والسير الى العراق . ثم كتب الى المثنّى بن حارثة لينضم بقوته اليه ، ويعمل تحت قيادته ، ثم أمر عياض بن غنم للتوجه الى دومة الجندل لتحريرها ، ثم يتجه شرقاً الى الحيرة .

تحرك خالد من [اليمامة [في عشرة آلاف مقاتل وعندما بلغ أطراف العراق ، انضم إليه المثنّى بقوته التي تبلغ ثمانية آلاف مقاتل ، فاخترق الحدود وهبط الى السواد[1]

وكان يتولى أمر السواد قائد فارسي يدعى [هرمز] ،،فما كاد يسمع بتقدم العرب حتى حشد قوته والتقى بهم عند [الحفير] على مقربة من ثغر [كاظمة] غير انه انحسر أمامهم بعد مقاومة قصيرة وولى هارباً بقوته ، فطاردها العرب حتى بلغوا الجسر الاعظم من الفرات ، وهو الموضع الذي تقع فيه [البصرة] في الوقت الحاضر .

استشاط [كسرى أردشير] غضباً لهذه الهزيمة ، فارسل الأمير [قارن] على وجه السرعة على رأس قوة لامداد [هرمز] ، فعسكر بقوته عند [المذار] على ضفاف قناة تصل دجلة بالفرات ، وأخذ الفارّون من موقعة [الحفير] ينضمون الى قوته . وما كاد خالد يلتقي بهم حتى بدّد شملهم ، وكال لهم هزيمة أخرى .

وأزاء هذه الهزيمة القاسية ، عزم كسرى على الاستعانة ببعض قبائل [الاعراب] النازلة على شاطيء الفرات لصد تيار العرب المسلمين الجارف ، فحشد عند الوَلَجَة عدة آلاف من رجال القبائل التي تنزل بين الحيرة والولجة ، وعززهم بقوة من الفرس ، وولّى [جاذويه] الفارسي القيادة العامة للقوات .

تقدم العرب المسلمون الى [الولجة] فاصطدموا بقوات الفرس والأعراب ، ودارت بين الطرفين معركة شديدة ، انتهت باندحار الفرس وحلفائهم من الاعراب ، فأسر منهم عدد كبير .

تكرر تحشد الفرس ورجال قبائل الاعراب عند [أليس] بعد ان تولى [جابان]الفارسي قيادتهم ، وما كادوا يلتقون بالعرب المسلمين حتى استماتوا في الدفاع عن مواقعهم ، ولكن خالد بن الوليد لم يلبث حتى زلزل صفوفهم وحطم قوتهم فولوا منهزمين ، وطاردهم فرسان العرب ونجحوا في أسرهم وإبادتهم عن بكرة أبيهم .

وبعد هذا النصر المبين ، اتجهت آمال خالد بن الوليد الى الحيرة ، عاصمة العراق وحاضرة اللخميين القديمة ، فتقدم إليها بقواته . وضرب من حولها الحصار ، وقد تحصنّ أهلها خلف أسوارها المنيعة ، وأبوا الاستجابة الى واحدة من ثلاث التي عرضها عليهم خالد وهي ؛ الاسلام ، أو الجزية ، او القتال . لكن وطأة الحصار لم تلبث حتى هدّت مقاومتهم ، فقبلوا الجزية وعقدوا معاهدة مع المسلمين ، ودخل خالد الحيرة بجيشه واتخذها مركزاً لقيادته .

ووفقاً لامر الخليفة أبي بكر [رضي الله عنه] اضطر خالد الى البقاء في الحيرة منتظرا وصول قوة عياض التي كانت تحاصر [دومة الجندل] ، ولبث قرابة عام ينتظر في سأم وملل وصول هذه القوة التي جمدت في مكانها امام حصن دومة الجندل المنيع . ولم يكد خالد يكتشف بعض التجمعات للفرس في شمالي الحيرة عند الأنبار وعين التمر حتى صمم على القضاء عليها والسيطرة على المدينتين ، لتأمين جيشه من خطر التطويق والعزل .

تقدم خالد بقواته شمالاً بمحاذاة الفرات حتى وصل الى الانبار ، فوجد أهلها قد تحصنوا خلف أسوارها المنيعة ، واحتموا وراء خندق عميق يحيط بالانبار من كل جانب ، لكن خالداً لم يكن بالقائد الذي تعيقه الموانع او تثنيه العقبات ، فقد أعدّ بوحي عبقريته عبوراً مبتكراً للخندق ، إذ أمر بنحر الابل العجاف وإلقائها في مكان ضيّق بالخندق ، واتخذ من هذا المكان جسراً ، عبرت عليه قواته واقتحمت أسوار المدينة ببسالة نادرة .

وبعدئذ ، قصد خالد حصن عين التمر الذي يقع على حافة الصحراء بين العراق والبادية ، فبلغه في ثلاثة أيام ، وكانت حامية الحصن مؤلفة من الفرس ورجال القبائل الاعراب تحت قيادة [مهران] الفارسي . ولم تتمكن الحامية من الصمود أمام هجمات العرب المسلمين ، فولّت منهزمة ، ثم اقتحم خالد بقوته اسوار الحصن المنيع .

وصلت انباء النصر الذي احرزه خالد الى اسماع الخليفة ابي بكر [رضي الله عنه] في الوقت الذي أثاره جمود عياض بجيشه امام دومة الجندل قرابة عام ، فامر خالداً بالتوجه الى دومة الجندل لنجدة عياض وجيشه . وكان اهتمام الخليفة بفتح دومة الجندل يرجع الى موقعها الحيوي على حدود شبه الجزيرة ، فقد كانت قائمة على رأس الطريق الذي يؤدي الى الحيرة ومناطق العراق الأخرى ، بينما يمرّ جوارها [وادي سرحان] الذي يؤدي الى الشام . وبذا أصبحت [الدومة] بمثابة مفترق الطرق على الحدود العربية الشمالية .

كان خالد يبعد بقوته عن دومة الجندل نحواً من ثلاثمائة ميل يستغرق قطعها نحو اسبوعين ، ولكن خفّة حركته الرائعة ــ التي كانت أقوى أسلحته في الحروب ــ جعلته يطوي غمار الصحراء القفراء في أقل من عشرة أيام ! وكان ظهور خالد في مسرح العمليات في دومة الجندل ، كفيلًا بكسر الجمود الذي اعترى القتال ، فقد دبّت الحماسة والثقة في قوات عياض ، بينما تزلزلت نفوس حامية الحصن فرقاً .

وقد جعل خالد الحصن بينه وبين جيش عياض ، ثم هجم الجيشان في وقت واحد ، فاندحرت القوات التي كانت تقاوم خارج الحصن ، وحاولت اللجوء الى الداخل ،. فتبعهم خالد حتى انتزع باب الحصن ، واقتحمه على رأس قواته .

ولم يكد خالد يعود الى مقر قيادته بالحيرة بعد توقف العمليات غربي الفرات ، حتى وصله كتاب من الخليفة أبي بكر [رضي الله عنه] ، يأمره فيه بالمسير بنصف جيشه نحو [اليرموك] في بلاد الشام ، لينضم الى جموع العرب المسلمين المحتشدة لكسر شوكة الروم ، وان يستخلف المثنى على العراق على رأس النصف الباقي من القوة .

لم يستطع المثنى برغم براعته الحربية ان يحتفظ بالاراضي التي حررها العرب المسلمون في سواد العراق ، فقد أجبرته قلّة قواته على إخلاء عين التمر والانبار ، قانعاً بالبقاء في الحيرة التي جعلها مركزاً لرئاسته ، ومقرّاً لتجمع قواته الضاربة . وما كاد يسمع باقتراب القائد الفارسي [هرمز] على رأس عشرة آلاف من جنده حتى بادر بالخروج لملاقاته ، وانتظره عند أطلال بابل القديمة حيث كال له هزيمة شديدة .

لكن هذا الانتصار المبدئي لم يخفف عن المثنى خطورة الوضع الذي أضحت عليه قوته الصغيرة ، إذ لم يظهر أيّ دليل على قرب وصول الامدادات التي طلبها من المدينة ، بل كانت جميعها ترسل الى الشام ، حيث كانت المعارك محتدمة مع الروم ، كما أن عيونه وأرصاده أنبأته باخبار تجمع الفرس لقذفه من شاطىء الفرات . لذلك لم يجد المثنى بُدّاً من ترك قيادة الجيش لـ [بشير بن الخصاصية] والخروج بنفسه الى [المدينة] ليُطلع الخليفة الصديق على حقيقة الموقف . ولكن ، لم يقدّر له لقاؤه الا وهو في النزع الاخير .

[وفي ليلة الثلاثاء لثمانٍ بقين من جمادي الآخرة سنة ثلاث عشرة للهجرة انتقل الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه] الى جوار ربه][2] فتولى عمر بن الخطاب [رضي الله عنه] إمارة المؤمنين من بعده .

وما كاد الخليفة الراحل يوارى التراب حتى أقبل الخليفة الفاروق على العمل بوصيته ، وراح يستنفر الأعراب للتطوع لقتال الفرس ، ولكن ذلك كان أمراً عسيراً ، فإن هؤلاء الأعراب عاشوا حقباً طويلة يسمعون عن الفرس ويعتقدون بقدرتهم الحربية العظيمة فكيف يدعون اليوم ليمتشقوا الحسام ، ويلقوا القفاز في وجه أخطر أمبراطورية في الارض ، كما كان يروج لها آنذاك .

ولذلك لم تكن هناك غرابة في أن يقف الخليفة الفاروق طيلة أيام ثلاثة يدعو الاعراب الى التطوع ، ولكن دون جدوى ، وهنا .. تتضح فائدة تواجد المثنى في المنطقة ، فإن هؤلاء الناس يعرفون أنه القائد العربي الذي تمرّس في قتال الفرس وعجم عودهم عن كثب ، فاقبلوا في شغف يستمعون اليه حينما اعتلى المنبر ، وابتدأ إحجامهم يتحول رويداً رويداً إلى إقدام ، حين مضى المثنى في وصف انتصار العرب على الفرس . وما كاد ينتهي من خطابه حتى تدفق المتطوعون نحو الخليفة الفاروق ، وكلهم متحرق شوقاً للقتال .

ولم يكد المثنى يصادف النجاح في مهمته حتى ترك الامدادات تتجمع بالمدينة ، وانطلق يخترق الصحراء عائداً الى قواته على ضفاف الفرات . لقد خرجت الامدادات من [المدينة] وعلى رأسها [أبو عبيد الله بن مسعود الثقفي] وهو أول من تطوع من العرب أمام الخليفة الفاروق لقتال الفرس ، فكافاه بان ولّاهُ القيادة العامة لقوات العراق .

لقد بدأ أبو عبيد عمله بالتقدم نحو تجمع الفرس عند [النمارق] فمزق جيشهم وأسر قائدهم [جابان] ثم واصل تقدمه حتى التقى بحشدٍ لهم عند [كسكر] فدحر قواتهم ، وفرّ القائدان [نرسي] و [الجالينوس] على رأس المنهزمين حتى بلغوا [المدائن] . وعلى اثر هذا الانتصار أعاد أبو عبيد السيطرة على سواد العراق من شماله الى جنوبه ، وعاد المثنى بن حارثة الى الحيرة ، فاستقرّ الامر مرة أخرى للعرب المسلمين .

ولم يكن هذا الهدوء المؤقت سوى فاتحة لما جدّ بعدئذٍ من معارك جسام ، فإن الفريقين أخذا في التأهب والاستعداد ، وشهد نهر الفرات على شاطئيه إحتشاداً عجيباً . ففي الشرق ، وقف [جاذويه] الفارسي عند [قسّ الناطف] يحشد جنده وأفياله . وفي الغرب وقف أبو عبيد بن مسعود عند [المروحة] يجمع خيله ورجاله .

لقد وقف المعسكران تجاه بعضهما متحفزين ، لا يفصل بينهما سوى ماء الفرات الدافق . ولا شك ان كُلّا من الفريقين كان منتظراً من خصمه ان يبدأ بالهجوم ، لان مهمة عبور النهر في وجه عدوّ متربّص لم تكن ميسورة ، ثم ان الانسحاب في حالة الهزيمة ، معناه الفوضى الشاملة والموت غرقاً في لجج النهر . لذلك دعا [جاذويه] العرب للعبور أو يتركونه يعبر إليهم .

وهنا يلعب اندفاع أبي عبيد وحماسه دورهما فيكلفه حياته ويكلفان المسلمين غالياً ، فبرغم نُصح رفاقه له بعدم العبور ، وترك هذه المهمة للفرس ، تنكب أبو عبيد جانب الحكمة وأصرّ على العبور !

ولم يكد ينتهي الفرس من العبور ، حتى اشتبك الفرس

بهم اشتباكاً عنيفاً ، وجالت الافيال الفارسية تخترق صفوفهم ، وما كاد ابو عبيد يضرب أحدها بسيفه حتى وطأة فيل باقدامه وقضى عليه .

لقد أصبح موقف المسلمين غاية في الحرج فقد قتل من بعده كل من تولى القيادة حتى بلغ العدد سبعة من الامراء ، فلم تلبث الدائرة ان دارت عليهم وأسرعوا الى الخلف يطلبون العبور . ولكن القدر كان يدّخر لهم مأساة أكبر ، فإن احد المتحمسين ، وهو [عبد الله بن مرثد] دفعه حماسه أو حماقته ليقطع الجسر الذي عبر عليه المسلمون حينما شاهد تقهقرهم ، أملاً في حضهم على الثبات ، فكانت النتيجة وبالاً على قومه ، أذ تهافتوا في الفرات ، وسيوف الفرس من خلفهم ، ولوقدر للحال ان يستمر لانتهت المعركة بإبادة الجيش العربي كله ، ولكن شجاعة المثنى بن حارثة الشيباني ومقدرته العسكرية انقذت العرب من الفناء فسرعان ما أعدّ نفراً من ذوي البسالة وقف بهم كالطود الراسخ في وجه الفرس المندفعين ، فاوقف تقدمهم ، وحمى انسحاب الجيش ، وأمكن للمسلمين في ظل هذه المؤخرة القوية أن يعيدوا بناء الجسر ، فعبروا عليه بسلام ، ومن خلفهم جماعة المثنى .

لقد تشتت جيش العرب بعد واقعة [الجسر] وراح ضحية هذه الواقعة أربعة آلاف مقاتل بين شهيد وغريق ، وانسحب الفان من الميدان ، ولم يبق للمثنى سوى ثلاثة آلاف من المقاتلين .

وما كاد المثنى وهو القائد اللمّاح النهّاز للفرص يلاحظ تقاعس الفرس عن المطاردة حتى وقف غير بعيد يلمّ أطراف قوته الممزقة ويعيد تنظيمها ، فانظمت إليه النجدات التي أرسلها الخليفة مسرعاً عقب سماعه أخبار واقعة الجسر ، فكوّن جيشاً ضارباً حشده في [البويب] بالقرب من موضع [الكوفة] .

وتكررت الرواية ، فقد شهد الفرات حشدين متقابلين مرة أخرى ، لا يفصلهما سوى مياهه الزرقاء ، وظنّ القائد الفارسي [مهران] الذي تولى قيادة جيش الفرس ان في إمكانه إعادة الكرّة ، فدعا العرب الى العبور أو يتركونه يعبر اليه ، ولكن العرب لم يكونوا قد نسوا الدرس الذي تعلّموه في يوم الجسر بآلاف الضحايا ، لذلك دعا المثنى الفرس الى العبور هذه المرة .

وما كاد الفرس يعبرون حتى اشتبك بهم العرب التائقون للثار اشتباكاً حامياً ، ورغم وجود بعض الافيال مع الفرس ، فقد حاقت بالفرس الهزيمة المنكرة ، وعادوا مذعورين نحو معبرهم طلباً للنجدة .

لم يكد المثنى يرى بوادر هزيمة الفرس حتى أسرع في نفر من ابطاله البُسلاء ، فدمّر معبر الفرس على الفرات وبقي في انتظارهم . وما كاد هؤلاء يرونه وقد قطع خط رجعتهم وسيوف العرب تعمل في ظهورهم حتى تشتتوا شمال المعبر وجنوبه في حالة تامة من الفوضى والانحلال[٤]

وبعد الانكسار المهين الذي الحقه العرب بالفرس في معركة [البويب] الثارية ، أعلن الفرس النفير العام ، وحشدوا جيشاً جزاراً ، أسندوا قيادته الى [رستم] لمنازلة العرب في معركة أرادوها فاصلة .

وبالمقابل ، أعلن الخليفة الفاروق النفير العام في الجزيرة العربية ، استعداداً لصدّ الهجمة الفارسية ، وأقسم ليضربنّ ملوك العجم بملوك العرب !! لكن الصحابة أثنوه عن عزمه وطلبوا إليه أن يسند القيادة الى أمير عربي . فوقع الاختيار على [سعد بن ابي وقاص] الذي أمره الخليفة بالتحرك الى العراق لتحريره من براثن الفرس وتسديد ضربة ماحقة لهم بحيث لا تقوم لهم بعدها قائمة .

وفي ١٣ شعبان ١٤ هـ/ تشرين الاول ٦٣٥ م تحركت الحملة من الجزيرة العربية ، ثم قام سعد بارسال كتيبة من الخيالة الى [الأبلّة] ذات الاهمية الستراتيجية لستر تحشده هناك ، ولوقاية قطعاته من خطر التفاف الفرس من جناحه الايمن .

وبعد أن أمّن [سعد] منطقة [الابلّة] تقدم بجيش يبلغ تعداده مائة وعشرين الف مقاتل الى [شراف][٥] وفور وصوله اليها ، قام بدعوة القبائل العربية في العراق للتطوع والانخراط في صفوف جيش التحرير العربي ، لمجابهة العدو الفارسي .

ثم شرع [سعد] بتنفيذ أوامر الخليفة حيث وصلته قوة دعم مؤلفة من اربعة الاف مقاتل . تقول أوامر الخليفة :

[اذا نزلت بشرافٍ ، فعشّر الناس ، وعرّف بهم ، وأمّر على أجنادهم وعبّهم ، ومُر رؤساء المسلمين فليشهدوا عليهم وقدّرهم وهم شهود ، ثم وجههم الى أصحابهم ، وواعدهم القادسية ، واضمم اليك المغيرة بن شعبة في خيله ، ثم اكتب

اليُ بالذي يستقر عليه أمرهم][1]

واستناداً الى هذه الاوامر، قسّم [سعد] جيشه الى فرق، والفرق الى كراديس، والكراديس الى سرايا، والسرايا الى حضائر. وفي كل حضيرة رهط من عشرة رجال، وعيّن لكل وحدة قائداً، كما عيّن على القادة أمراء من الذين اشتهروا باصالة الرأي في الحروب، وممن حاربوا مع النبي [ﷺ] في غزواته وسراياه، وشاركوا في حروب الرّدة. وكان ترتيب الامراء والقواد على الجيش كالاتي:

١ ـ الطلائع: بقيادة سواد بن مالك التميمي

٢ ـ المقدمة: بقيادة زهرة بن عبد الله بن الحويّة.

٣ ـ الميمنة: بقيادة عبد الله بن المعتّم.

٤ ـ الميسرة: بقيادة شرحبيل بن السمط الكندي.

٥ ـ المشاة: بقيادة حماد بن مالك الأسدي.

٦ ـ الركبان: بقيادة عبد الله بن ذي السهمين الخثعمي.

٧ ـ المجردة [الخيل السريعة]: بقيادة سلمان بن ربيعة الباهلي.

٨ ـ الساقة [المؤخرة]: بقيادة عاصم بن عمرو التميمي.

وبعد ذلك، أصدر سعد بن أبي وقاص بصفته القائد الميداني للجيش العربي الاسلامي، امراً بتسمية كل من:

١ ـ خالد بن عرفطة: نائب القائد الميداني.

٢ ـ زياد بن ابي سفيان: الكاتب الاول للجيش، ومنصبه هذا بمثابة السكرتير العام للقائد الميداني.

٣ ـ سلمان الفارسي: رائداً وداعية.

٤ ـ عبد الرحمن بن ربيعة: مسؤولاً عن (الفيء)، أي (توزيع الاراضي المحررة على المقاتلين). وأسند اليه مهمة تعادل منصب (المشاور العدلي للقضاء).

٥ ـ غالب بن عبد الله الليثي: مسؤولاً عن الشؤون الادارية، وجعل مقر (المنطقة الادارية) في (العذيب)[٢]

التحرك الى القادسية

ولما فرغ (سعد) من تنظيم جيشه واعداده هذا الإعداد المنسّق، كتب الى الخليفة الفاروق (رض) باستعداده للمسير الى « القادسية » لمنازلة الفرس، طالباً منه ان يمده بآرائه وتوجيهاته، لكي يستعين بها في نضاله. فارسل الخليفة الى (سعد) كتاباً رسم له فيه خط السير، ونصحه بالحذر، لانه مُقدم على محاربة أمة عددها كثير، وعُدّتها وفيرة، وأنه مقدم أيضاً على قوم (خَدْعَة مَكرة) فليحذر من خداعهم ومكرهم. وقد اتفق رأي الخليفة مع رأي البطل المثنى بن حارثة الشيباني، في أن يحارب سعد الفرس على الحدود حتى يحجم عودهم ويختبر قوتهم، ثم ينطلق بعد ذلك الى العمق.

وانطلقت مقدمة الجيش العربي بقيادة (زهرة بن الحوية) متجهة الى (عذيب الهجانات)، فاحتلتها، على أن تبقى عليها الى ان يحين موعد وصول (الكوكب) = اي (القسم الاكبر) من الجيش اليها، وهو الهدف الاول.

اما الهدف الثاني، فهو سهل القادسية، حيث تم احتلال الهدف الاول دون مقاومة معادية ذات أهمية، سوى بعض المترصدين من جواسيس الفرس الذين طاردتهم خيّالة المقدمة ولاحقتهم على مقربة من القادسية.

وعند المسير الى الهدف الثاني ـ أي القادسية ـ أرسل آمر المقدمة مفارز استطلاع في نواحٍ شتى، منها رعيل مؤلف من ثلاثين فارساً بإمرة (بكر بن عبد الله) ليستطلع له أخبار العدو باطراف (الحيرة). وقد قام هذا الشاب بواجبه خير قيام، حيث قطع اثنين وثلاثين كيلو متراً، حتى اذا اقترب من ضواحي الحيرة، سمع جلبة، فكمن في النخل الى ان اقترب النفر، واذا بزفة عروس، حيث زف الفرس أخت امير الحيرة الفارسي الى احد أعيانهم، فحمل (بكر) على ذلك الامير فأرداه قتيلاً، وتبعه أفراد رعيله بمباغتة ناجحة. فارسلوا ١٣٠ فرداً بين جندي وأمير فارسي وعادوا بهم الى قائدهم « زهرة بن الحوية ».

وسار « زهرة » بمقدمة الجيش، وقبل ان يصل الى (العذيب) اعترضتهم قوة من الجيش الفارسي بالقرب منها، بقيادة (شيرزاد) فدار قتال بين العرب والفرس، انتهى بغلبة العرب على العجم، وغنموا منهم غنائم كثيرة، وكان هذا أول انتصار لجيش سعد بالعراق على الفرس المحتلين.

ثم تقدم زهرة بجنده الى حصن العذيب. فاذا بالحصن خالٍ من المقاتلين، فقد فرّوا منه على آثر سماعهم بهزيمة قائدهم شيرزاد وجيشه، فاستولى (زهرة) عليه. فوجد فيه كثيرا من عُدّة الحرب.

وكلما تقدم سعد نحو القادسية، ونزل في مرحلة من مراحل الطريق اليها، ازداد اهتمام الخليفة الفاروق، وبعث الى (سعد) بتعليماته وتوجيهاته ووصاياه.

فلما نزل سعد (العذيب) ، كتب الخليفة عمر (رض) اليه يرسم له خطة محاربة الفرس ، وذلك لشدة حرصه على النصر ، وكان إيمانه بالنصر قوياً لا يتزعزع ، فكتب الى سعد يحدد له المبادىء التي يعامل بموجبها الأسري من الفرس ، كما حدد له أسس معاملة أهل الصلح من الفرس ، سواء الذين صالحوا العرب قبل القتال أو بعده .

ان المبادىء التي وردت في كتب عمر (رض) الى سعد ، تعكس بوضوح النزعة الانسانية التي يدعو العرب المسلمون الى اتباعها في الحرب ، وهي نزعة لم تعرفها جيوش العالم القديم ، وخاصة الفرس والروم ، بالرغم من كون تينك الامبراطوريتين كانتا بمثابة القوتين الاكبر في ذلك الزمان .

ولنقرأ ما كتب الخليفة عمر (رض) الى سعد بن أبي وقاص حيث يبيّن له طرائق الحرب مع الفرس :

● (واذا وطئت أرض العدو فأذكِ العيون بينك وبينهم ولا يخفى عليك أمرهم .

● وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض ــ اي العراقيين ــ من تطمئن الى نصحه وصدقه . فان الكذوب لا ينفعك وإن صَدَقَكَ ، في بعضه .

● والغاشّ عينٌ عليك وليس عيناً لك .

● وليكن منك عند دنوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع وتبث السرايا بينك وبينهم فتقطع السرايا إمدادهم ومرافقهم ، وتتبع الطلائع عوراتهم .

● وانتقِ للطلائع أهل الرأي والبأس من اصحابك ، وتخيّر لهم سوابق الخيل .

● واجعل أمر السرايا الى أهل الجهاد والصبر على الجلاد ، ولا تخص بها أحداً بهوىً فتضيّع من رأيك وامرك اكثر مما حُبيت به أهل خاصتك .

● ولا تبعثن طليعة أو سرية في وجه تتخوف فيه غلبة او ضيعة أو نكاية . فاذا عاينت العدو فاضمم اليك أقاصيك وطلائعك وسراياك .

● واجمع اليك مكيدتك وقوتك ، ثم لا تعاجلهم المناجزة ما لم يستكرهك قتال حتى تبصر عورة عدوك ومقاتله وتعرف الارض كلها كمعرفة أهلها ، فتصنع بعدوك كصنعه لك .

● ثم إنك حرّاسك على عسكرك وتيقظ من البيات ــ [أي الكمين] ــ جهدك .

وما إن وصل جيش سعد بن أبي وقاص الى (العُذيب) حتى ترك الخط الثاني المؤلف من النساء وعيال الجند فيها ، وأفرز حماية كافية لحراستهم ، واستمر على تقدمه الى ان وصل سهل القادسية فعسكر في (قُديس) بينما طلب من مقدمته احتلال قنطرة (نهر العتيق) والتعسكر حيالها ومراقبة طريق الحيرة الذي يتفرع منها ، وقد نفذت أوامره كلها بدقة .

القوات الفارسية

لقد ارعبت أنباء نزول العرب على سهل القادسية امبراطور فارس (يزدجرد) فاصدر أوامره الى (رستم) لمنازلة العرب ، فتحرك الاخير من (ساباط) = [الصويرة حالياً] الى القادسية بجيش لجب بلغ تعداده (١٢٠) ألف محارب ، يسنده (٣٣) فيلًا . وقد انفتح جيش الفرس بتشكيل المعركة على النحو الاتي :

١ . المقدمة : بقيادة الجالينوس ، وتعدادها (٤٠) ألف .

٢ . الميمنة : (الجناح الايمن) ، بقيادة الهرمزان ، وتعدادها (عشرة آلاف) ، تسندها ثمانية أفيال .

٣ . الميسرة : الجناح الايسر ، بقيادة (مهران بن بهرام) ، وتعدادها عشرة آلاف ، تسندها سبعة أفيال .

٤ . القلب : بقيادة (رستم) ، وتعداده اربعين ألف ، تسندها قوة مدرعة مؤلفة من (١٨) فيلًا .

وقد نصب (رستم) مقره الضخم خلف القلب . وكان عبارة عن خيمة كبيرة ، تسمى (طيارة) شكلت مظلة واسعة .

٥ . المجردة : (قوة الفرسان) بقيادة « بهمن جانويه » .

٦ . المؤخرة : بقيادة البيرزان وتعدادها عشرون ألف .

ولم ينس الفرس ان يقدموا علمهم الاكبر ، (درفشي كابيان) وكان من عادتهم رفع هذا العلم اذا ما ساروا للحرب والتبرك به !

وبعد أن صف « رستم » جيشه ، امتطى صهوة جواده حاملًا سيفه ودرعه ، واستعرض جيشه ، ثم قال بغطرسة فارسية : (غداً .. ندقهم دقاً) أي تدمير العرب !

القوات العربية

اما القوات العربية ، فقد بلغ تعدادها (٣٦) ألف مقاتل . وكانت تتألف على النحو الاتي :

١ . فيلق المثنى : بقيادة بشير بن الخصاصية ، وقد انيطت بالاخير هذه المهمة تيمناً بالمثنى بن حارثة الشيباني بعد وفاته . وكان تعداد هذا الفيلق ثمانية آلاف مقاتل . وكان يتألف من ثماني كتائب بقيادة كل من : جرير بن عبد الله البجلي ، عصمة بن عبد الله ، غالب بن عبد الله الاسدي ، عرفجة بن هرثمة البارقي الاسدي ، هلال الريابي ، المثنى الجشمي ، شبيب الحنظلي .

٢ ـ فيلق الحجاز : وهو القطعات التي جاء بها سعد بن أبي وقاص من الحجاز ، وكانت تتألف من سبع فرق : الأشعث بن قيس الكندي ، خميصة البارقي ، عمرو بن معد يكرب الزبيدي ، يزيد بن الحارث ، بشير الهلالي ، شرحبيل بن السمط الكندي وكان مجموعها عشرون الف مقاتل .

٣ . فيلق النجدة : وهو الجيش الذي كان بقيادة هاشم بن عتبة بن أبي وقاص .

وكان تعداده ستة آلاف مقاتل . وقد انضمت الى هذا الفيلق كتيبة المغيرة بن شعبة ، وكان تعدادها نحو أربعة آلاف مقاتل ، كما انضمت إليه قوة الشام التي كان في طليعتها الفارس الشجاع (القعقاع بن عمرو التميمي) الذي جاء من الشام الى العراق مسرعاً لينجد المقاتلين العرب في القادسية . كما سنرى لاحقاً .

التفاوض بين الطرفين

ولما اصبح إعلان الحرب وشيكاً من جانب الفرس ، كتب سعد بن ابي وقاص الى الخليفة الفاروق مبيناً له حقيقة الموقف . وقد جاء الرد يأمر الخليفة سعداً بارسال وفد الى الملك الفارسي « يزدجرد » للتفاوض معه ، بغية إنهاء حالة الحرب وحقن الدماء ، مقابل استجابة الفرس لشروط العرب ، وهي إخلاء الأراضي العربية العراقية من الوجود الفارسي .

وكان الوفد المفاوض يضم نخبة من رجالات الجيش العربي ، كالنعمان بن مقرن ، وحنظلة بن الربيع ، وعمرو بن معدي كرب ، والمغيرة بن شعبة ، والمغيرة الأسيدي ، وعاصم بن عمرو .

ولما علم الامبراطور الفارسي « يزدجرد » بقدوم الوفد العربي الى (المدائن) طلب حضور الوفد فحضر ، ودارت محاورة حادة بين الوفد العربي والامبراطور لم تسفر عن اتفاق ينهي حالة الحرب[٧] ففارس هي فارس ، ستظل تحتل الأرض العربية وتنشر فيها عقائدها الفاسدة .

وبلغ الامر بيزدجرد حَدّ أن قال للوفد العربي متحدياً :

(لولا أن الرسل لا تقتل، لقتلتكم . لا شيء لكم عندي) ! ثم التفت الى حاشيته قائلاً : (إئتوني بوقر من التراب واحملوه على اشرف هؤلاء ، ثم سوقوه حتى يخرج من باب (المدائن) . وأضاف ـ موجهاً كلامه الى الوفد العربي ـ (إرجعوا الى صاحبكم فاعلموه أني مرسل اليكم رُستمَ حتى يدفنكم ويدفنه في خندق القادسية . وينكل به وبكم من بعدُ ، ثم أورده بلاءكم حتى يشغلكم في انفسكم باشدّ مما نالكم من سابور)[٨]

وبعد ان حمل (عاصم بن عمرو) التراب ، خرج الوفد العربي إلى خيلهم فركبوها والتراب معهم ، إلى أن وصلوا مقرّ الجيش العربي ، وقد بشرّوا رفاقهم بالفأل الحسن ، من أن أرض العراق ستتحرر بإذن الله .

ولما علم (رستم) بما فعله (يزدجرد) تشاءم وأرسل في طلب الوفد العربي لاسترجاع التراب قبل أن يخرجوا من العراق ، لكنه لم يفلح ، فقد سبق السيف العذل .

ولقد تكرر الحوار بين الامتين مرة أخرى ، عندما خرج (رستم) يتفقد جنوده ، وأرسل الى واحد من سادات العرب وإشرافهم قبل الاسلام ، هو (زهرة بن الحوّية التميمي) ـ وكان قد لقي الرسول (ﷺ) وأسلم ، وجاء اليوم ليقاتل تحت راية سعد بن ابي وقاص ـ أرسل اليه رستم يحاوره ، فلقيه ، ودار بينهما حوار ساخن تأكد للفرس من خلاله ان أخطر ما يهدد نظامهم ليس التوحيد الديني الذي جاء به الاسلام ، ولكن المساواة بين الناس . بدأ رستم الحوار :

ـ أنتم جيراننا ، وقد كانت طائفة منكم في سلطاننا .. وكان لهم في ذلك معاش !

ـ صدقت يا رستم ، لكن أمرنا اليوم ليس كأمر أسلافنا . لقد بعث الله الينا رسولاً ، فدعانا فاجبناه وقال لنبيه : اني قد سلطت هذه الامة على من لم يؤمن بديني .

ـ وما هو هذا الدين ؟

ـ شهادة ان لا إله الا الله ، وأن محمداً رسول الله ، والإقرار بما جاء من عند الله .

ـ حَسَنٌ !! وأي شيء أيضاً ؟ !

ـ الناس .. الناس بنو آدم وحواء ، سواء .. إخوة لأب وأم !

— أما هذه ، فإن أهل فارس ، منذ أن تولى عليهم المَلِك « أردشير » وحتى اليوم ، لا يتركون أحداً من طبقة السَّفَلة يخرج من نطاق طبقته ، وذلك حتى لا يعادوا الاشراف ! — لكننا — نحن العرب المسلمون — لا نستطيع أن نكون كما تقولون !

وهنا ، دعا رستم رجالات فارس ، فعرض عليهم الفكر الاجتماعي الذي يبشر به الاسلام في المساواة بين الناس ، فهاجوا وماجوا ، وصمموا على القتال !

وخلال المفاوضة الثانية التي دارت بين [ربعي بن عامر] و « رستم » يقصُّ علينا الرواة حكاية تعد أروع صورة من صور المقابلة بين طرفين ، كأنها شريط سينمي ، فقد استعد « رستم » لمقابلة الوفد العربي بأن زيّن صيوانه الواسع الفخم ، ونصب في وسطه سريره الذهبي ! وجلس عليه ! وبيده صولجانه ، وإلى جانبيه حرسه الخاص بأزيائهم المزركشة الصارخة !

وهنا دخل « ربعي يقود فرسه الشقراء ، ولا يزال راكباً عليها ، فترجل عنها بعد أن توسط الصيوان ، ثم قاد فرسه إلى إحدى وسائد الحرير فربطها بها ! وتقدم خطوات ثابتة وواثقة ومتزنة نحو رستم وبيده اليمنى رمحه ، يتوكأ عليه ، ثم قبض بيده اليسرى على سيفه الملفوف بقطع الخِرَق ، وكان ذلك السيف بلا غمد .

كان (ربعي) — على العكس من رستم — يرتدي ثياباً قصيرة ، وعباءة لا يُحسد عليها ، وقد تدلّت على جانبي وجهه جدائل شعره الاشعث ، ولما صار أمام رستم ، ركز رمحه بشدة على البساط ، وتنحّى إلى زاوية المجلس ، فجلس على الارض .

أما رستم وبطانته ، فقد كانوا يراقبون هذه الحركات بشيء من الدهشة والامتعاض والاستغراب ، حتى إذا ما انتهى (ربعي) الى مجلس (رستم) تكلم الاخير قائلًا باستخفاف :

— أسيدهم أنت ؟ !

— لا .. ولكن المسلمين كالجسد ، بعضهم من بعض ، يجبر أدناهم على اعلاهم .

على هذه المشاهد الدرامية انتهت المفاوضة الثانية الى طريق مسدود ، وقد ارسل (رستم) على اثرها يطلب الى سعد بن ابي وقاص ان يرسل اليه رجلًا (عاقلًا) — على حد تعبيره — ليفاوضه ! فارسل له (المغيرة بن شعبة) .

ولما وصل (المغيرة) الى صيوان رستم الذهبي ، لم ترهبه مظاهر البهرجة والفخفخة والأبهة ، ولم يهزه ذلك السلطان وتلك المظاهر البرّاقة التي أحاط بها رستم نفسه ، فقد تقدم ليجلس الى جواره على السرير ، فاستنكر الفرس ذلك ، لمنافاته لنظامهم الطبقي الذي يجعل لكل طبقة مكاناً محدداً لا تتعداه !!

ومنع الفرس المجوس المغيرة من الجلوس على السرير ، فحدثهم حديثاً جذب العرب قلوب الطبقات الفارسية الفقيرة ، وأغضب الاثرياء والمستغلين والاقطاعيين . قال لهم المغيرة :

— إنا ، معشر العرب سواء ، (أي متساوون) ، لا يستعبد بعضنا بعضاً . ولقد ظننت أنكم تتساوون مع قومكم كما نتساوى .

ولقد كان الاحسن — بدلًا من أن تمنعوني الجلوس على سرير قائدكم — أن تخبروني أن بعضكم أرباب لبعض !!

إن هذا الأمر لا يستقيم ، ونحن لا نصنعه .

ولقد تيقنتُ الآن ان امركم مضمحل .

فليس يقوم مُلكٌ على هذه السيرة ، ولا على هذه العقول !!

ولما سمع الفرس قول المغيرة ، قال فقراؤهم . (صدق هذا العربي) . أما الاغنياء فتوجسوا خيفة من هذه البذرة الثورية التي بذرها بينهم وقالوا : (والله لقد رمى بكلام لا يزال عبيدنا ينزعون اليه) !

قاتل الله أسلافنا ، ما كان أحمقهم حين كانوا يصغّرون من امر هذه الامة العربية ! ثم تحدث (رستم) الى المغيرة بمنطق ملوك الفرس مع عرب العراق قديماً قبل ظهور الاسلام ، فحدثه عن أن الفقر والحاجة هي سبب خروج العرب للقتال ، وأن باستطاعتهم أن يأخذوا لانفسهم طعاماً ولدوابهم اعلافاً ويعودوا الى وسط شبه الجزيرة تاركين العراق في أيدي الفرس !

لكن المغيرة حدثه عن الاسلام ، وما أحدثه في العرب من انقلاب ، وأسمعه كلمات القائد سعد بن أبي وقاص :

— (إنّ الله تعالى أحيانا بالاسلام وأحيا به قلوباً كانت ميتة ، وأمات به قلوباً كانت حيّة) ! ودعاه ان يكون مع الإحياء فابى . ثم تحدث المغيرة لرستم قائلًا :

(إنّ عيالنا قد ذاقوا طعامكم ، فقالوا لا صبر لنا عليه) ! يقصد بذلك ، ان عرب العراق الذين يرزحون تحت نير

الاحتلال الفارسي يريدون الحرية .

وانتهت المفاوضة الثانية بغضب رستم وانفعاله الشديد ، حيث توعد المغيرة والعرب بالإبادة وقال : (وحق الشمس لا يرتفع لكم الصبح غداً حتى أقتلكم جميعاً) .

دراسة الارض

من خلال الرسائل المتبادلة بين الخليفة عمر بن الخطاب (رضي) والقائد الميداني سعد بن ابي وقاص يتضح لنا كم كانت دراسة الأرض التي ستقع عليها المعركة مهمة ، فقد اتخذ الخليفة قراره المناسب في الوقت المناسب ، وهو ان يثبت سعد في مواقعه لا يبارحها ، وان لا يبادر العدو بالقتال ، بل يترك له أمر هذه المبادرة ، وأن يعمد على استثمار الفوز ويطارد العدو حتى المدائن فيقتحمها(١١) ويطرده منها . يقع ميدان القادسية(١٢) غربي ميدان أبي صخير ، والى الشمال الشرقي من خان الرحبة(١٣) (في محافظة القادسية) وهي ارض منبسطة خالية من الاشجار ، إلا من حشائش الصحراء ، وإلى الغرب منها خندق ممتد من الشمال الى الجنوب ، ويسمى خندق سابور(١٤) ، وكان يمتد من (هيت) حتى جنوبي العراق لحماية الفرس من هجوم القبائل العربية ، وربما كان مشروعاً إروائياً على ما يقال .

وإلى الشرق من القادسية ، يقع فرع من الفرات يسمى (العتيق)(١٥) والى الشرق منه كان يمتد نهر الفرات ، ويسمى (فرات باد قلي) . وعلى يمين القادسية كان هناك منخفض أو مستنقع ممتلئاً بالماء .

وعلى هذا ، يشكل ميدان القادسية المنطقة المحصورة بين المشخاب والحيرة وأبي صخير والنجف ومخفر خان الرحبة الواقع على مسافة ثلاثين كيلو مترا جنوبي النجف .
[راجع خريطة ميدان معركة القادسية] .

لقد وجد سعد في موضع القادسية ميداناً حصيناً يستطيع البقاء فيه دون أن تتعرض قواته لاخطار المفاجآت ، فشرقها محمي من جهة الفرات ، وفي شمالها مجرى صغير من الفرات ترعة (العتيق) وفي جنوبها خندق عميق ، يشكل حاجزاً طبيعياً جيداً ، وبذلك زال خطر المفاجاة أثناء الهجوم . وإذا ما هجم الفرس من الفرات ، ومن ترعة العتيق ، ليقابلوه في الأرض التي اختارها هو ، فإنهم يتعرضون لخطر التفكك والانحلال في حالة الانسحاب . بينما تبقى الجهة الغربية المطلة على الصحراء مفتوحة أمامه لتلقي الامدادات من (المدينة) أو الشام ، وللانطلاق منها الى داخل الحدود ، إذا ما أصابت قواته الانتكاسة أو التعرض لموقف صعب .

بضوء هذه الحقائق ، ناقش سعد الموقف ، فوجد ان التقدم من اقصر طريق الى المدائن ، ومن ثم إسقاطها ، سيعجّل من تقويض أركان الامبراطورية الساسانية .

بيد أن هذا المسلك ، تعرّض لانتقادات عنيفة لانه يؤدي بالعرب الى الاصطدام بالموانع المائية عند نهري دجلة والفرات ، وبديهي ان العبور مرتين في وجه مقاومة العدو ، يستلزم استعداداً واستحضارات وتدريبات مسبقة قبل الإقدام على مناورة من هذا النوع ، اضافة الى قوة الجيش الفارسي القادر على توجيه الضربات برغم هزيمته في موقعة (البويب) في (رمضان ١٣ هـ / تشرين الثاني ٦٣٤ م) ، فإذا ما تمكن من انزال ضربة قوية بالعرب بعد تورطهم في الدخول الى العمق ، فمعنى ذلك استهداف الجيش العربي وجعل خط انسحابه الطويل عبر المواقع المائية أمراً في غاية الصعوبة .

لذا قرر سعد البقاء في مكان مناسب في الجنوب ، انتظاراً لمقدم الجيش الفارسي ، وهو الحل الذي ركن إليه سعد في الأخير ، على اعتبار أن الجيش الفارسي سيأتي بكامل قوته واندفاعاته . وقد يضطره سعد الى خوض غمار المعركة في الأرض التي اختارها هو ، فإن تمكن العرب من إنزال ضربة قاصمة بجيش الفرس ، فسوف يجدون الطريق مفتوحاً أمامهم الى (المدائن) .

أما إذا حدث العكس ، وحلّت الانتكاسة بالعرب ، فسوف يكون من الميسور عليهم الانسحاب بسرعة والانكماش داخل الحدود العربية دون التعرّض لخطر المطاردة ، فإن الفرس لن يتورطوا بمتابعة العرب داخل الصحراء القاحلة المترامية الأطراف ، وينبغي أن لانغفل ذكاء الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) وألمعيته ، فقد قدّر الموقف قبل سعد بن ابي وقاص ، وكان قد اوصل إليه بذلك وألهمه الصواب حين أرسل اليه كتاباً ضمنّه هذا التقدير .

ولقد كان الخليفة يتتبع أنباء جيشه باهتمام عميق ، وكان لآرائه السديدة أثر بالغ على سير المعارك بين العرب والفرس .

خطة العرب

لقد بنيت خطة العرب التي وضعها الخليفة عمر (رضي الله عنه) لضرب الفرس في القادسية على نقطتين اساسيتين هما :

١ ـ استدراج الفرس الى القادسية والاشتباك معهم في معركة كبيرة وحاسمة تقضي على قوتهم الرئيسية بشقيها المادي والمعنوي ، فيكون من نتائج هذه الضربة أن ينفتح ما وراءها ، فلا تقوم للفرس قائمة ، ولا يعود لهم اجتماع قوة بعدها . فإن تحقق ذلك ، تصبح معنويات الفرس في الحضيض ، ويسهل أمر اجتياح الاراضي العربية التي احتلها الفرس منذ عهد كورش الاخميني سنة ٥٣٩ ق . م .

٢ ـ اختيار مكان محدد لتجري على ارضه المعركة ، تتوافر فيه شروط خاصة اهمها ان يكون على الحدود الطبيعية بين الصحراء وبين الشبكة المعقدة للمسالك والمسطحات المائية ، تجنباً للتورط في القتال على ارض هذه الموانع .

٣ . تامين خط الرجعة ، لان المعركة إذا ما دارت على غير ما يرام ، وليس لصالح العرب ، فليس وراءهم الا الصحراء ، في حين تكون هذه الموانع أو العوائق المائية كارثة على الفرس إذا ما دارت المعركة في غير صالحهم ، لانها ستعيق انسحابهم ، وبالتالي يسهل تمزيقهم على أيدي العرب بسهولة .

التهيؤ للمعركة

استدعى سعد كبار قادته وأمرهم بالاستعداد للمعركة الحاسمة ، وأصدر تعليماته النهائية لهم ، بعد ان قرر قبول المعركة بين نهر العتيق وخندق سابور . لذلك لم يتحرك من محله ، وسيطر على القنطرة المنصوبة على (العتيق) بواسطة مفرزة (زهرة بن الحوّية) التي سبق أن وضعها بالقرب منها .

وبعد أن انتظمت صفوف الفرس للقتال ، ظلّ العرب بالمقابل ينتظرون خصمهم حتى يكون هو البادىء بالهجوم بهدف تحطيم حدة هجومه ، وكشف نيّاته قبل زج قواتهم في المعركة .

وبعد ان طال إنتظار رستم ، بعث الى سعد يقول : (إما تعبروا إلينا أو ان نعبر اليكم) . فاجابه سعد : بل اعبر أنت .

وجلس رستم على سريره ، وقد نصبت له مظلة كبيرة ! وعبّأ في (القلب) ثمانية عشر فيلًا ـ مدرعات ذلك الزمان ـ عليها الرجال في صناديق خشبية ، وكل فيل يحمل عشرين رجلًا ! وقسّم باقي الفيلة على المجنبتين ، فوضع في الميمنة ثمانية ، وفي الميسرة سبعة .

أما الجيش العربي ، فقد نظّم صفوفه غربي القنطرة ، ميمنة وميسرة وقلباً ، وكان كل قسم معبأ بثلاثة صفوف :

١ . الصف الاول : وهم الفرسان ، وكانوا يقفون في الامام والى الجانبين ، لتمكين الرماة من مزاولة رميهم وللقيام بحماية المجنبتين .

٢ . الصف الثاني : وهم المشاة ، أصحاب الرماح والسيوف .

٣ . الصف الثالث : وهم الرماة ، حملة النبال .

لقد اعتمد العرب في التخطيط للمعركة وتنفيذها على الفرسان كقوة ضاربة واجبها : دعم هجوم المشاة ، واجراء المطاردة ، وعدم السماح للعدو بالتطويق .

ونظراً لاصابة سعد بمرض جلدي (الحبون) ـ الدمامل ـ أعاقة عن الاشتراك الفعلي بالمعركة ، فقد انتدب لقيادة الجيش (خالد بن عُرْفُطة) ، واختار سعد لنفسه مكاناً مرتفعاً يشرف على ميدان القتال ، وهو « قصر قُديس » ، وأعلم القادة أنه سوف يقود المعركة بنفسه ، وانه سيرسل تعليماته وأوامره أثناء سير القتال الى مُساعدِهِ (خالد بن عرفطة) بواسطة (الرقاع) أي الاوامر الخطية ، باصلاحاتنا العسكرية المعاصرة .

النهار ـ كان ينتصف ، والفرس في مواقعهم ، لا يتزحزحون ، وكانوا قد عبروا الى الجهة الثانية من العتيق على الردم الذي أقاموه بالاستفادة من ظلام الليل . لذلك قرر سعد البدء بالهجوم بعد اتفاقه مع قادة جيشه .

اليوم الاول ـ يوم أرماث

جلس رستم على سريره[١١] وضرب عليه الطيّارة أي « السرادق » وحشد الافيال المحملة بالجنود في صناديق مثبتة على ظهورها بالحبال ، ولبس درعين ومغفراً وأخذ سلاحه وأمر بفرسه فاسرج وأتى به ثم قال بعنجهية وغطرسة فارسية : (غداً ندقهم دقاً) !

فقال له رجل : إن شاء الله . فقال رستم وإنْ لم يشأ !! .

كان رستم يعتقد بانه سيديل دولة العرب في هذه

المعركة ، وكان يحلم بالمزيد من التوسع والاستيطان في بلاد العرب .

وبعد مطاولة ومراوغة ، تقدم رستم بجيشه اللجب نحو القنطرة التي فوق نهر العتيق ، فمنعه العرب ، ثم انتقل الى موضع آخر ، حيث سدَّ العتيق بالتراب والقصب حتى جعل منه طريقاً ممهداً تزحف فوقه رجاله وأفياله .

وبعبور الفرس (العتيق) صار الجيشان بين ما نعين ، فالعرب وراءهم الخندق ، والفرس خلفهم (العتيق) لا تفصلهما سوى الأرض التي قُدِّرَ لها ان تكون ميدان المعركة الفاصلة بين أمتين .

وقف الجيشان متقابلين ينتظران أمر الصدام ، وكان أول أمر يصدره سعد بن أبي وقاص لقواده وجنوده .

— (إلزموا صفوفكم ، ولا تحركوا شيئاً حتى تصلّوا الظهر ، فإذا صليتم الظهر ، فإني مكبرٌ تكبيرة ، فكبّروا واستعدوا ، واعلموا ان التكبير لم يعطه أحدٌ قبلكم ، واعلموا إنما أعطيتموه تأييداً لكم ، ثم إذا سمعتم التكبيرة الثانية فكبروا ولتستتمّ عُدّتكم ، ثم إذا كبّرتُ الثالثة فكبروا ، ولينشط فرسانكم الناس ليبرزوا وليطاردوا ، فإذا كبرتُ الرابعة فازحفوا جميعاً حتى تُخالطوا عدوكم ، وقولوا : لا حول ولا قوة الا بالله !) .

وما إنْ قُضيت صلاة الظهر ، وفرغ الجند من الاستماع الى سورة (الانفال) حتى كبر سعد التكبيرة الأولى ، فكبّر الجند من خلفه وارتج المكان ، واسرع كل واحد الى صفه ، ثم ثنّى ، فاستتموا وتهيأوا للقتال ، وما كاد يكبر التكبيرة الثالثة حتى انطلق أهل النجدات من عقالهم يطلبون النزال والمبارزة بحسب الترتيب الذي وضعه (سعد) ، فقابلهم الفرس بالمثل ، وخرج فرسانهم للمبارزة ، فانطلق غالب بن عبد الله الأسدي الى الميدان وهو يرتجز :

لقد علمت واردة المسائح
ذات اللبان والبنان الواضح
إنّ سهام البطل المشايح
وفارج الامر المهم الفادح

فخرج اليه (هرمز) ، أحد قادة الفرس ، وفي ظنّه انه سرعان ما يقهره وقتله ، ولكن غالباً صمد له ، وما زال يبارزه ويحاوره حتى تمكن منه فاسره ، وذهب به الى سعد .

وخرج أيضاً عاصم بن عمرو التميمي منشداً :

قد علمت بيضاء صفراء اللبب
مثل اللجين إذ تغشاه الذهب
إني امرؤٌ لا من يعييه السبب
مثلي على مثلك يعزيه العتب

فتصدى لعاصم رجل من أهل فارس ، وما كادا يتبادلان الضربات حتى فرّ الفارسي ، فجدَّ عاصم في أثره ، فاختفى بين صفوف الفرس ، بعد أن ترك بغله ، وتبين ان الرجل كان (خبّاز) رستم .

وأخذ يخرج من العرب ومن الفرس أبطال يطلبون النزال ، فما كاد يلتقي الفارسي والعربي حتى ينتصر العربي على خصمه ، إما ان يقتله أو يأسره .

ولم يطق (قيس بن جذيم) قائد رجّالة (مشاة) بني نهد صبراً حتى يكبّر سعد التكبيرة الرابعة ؛ حيث الهجوم العام ؛ فاخذ يحرّض رجاله :

— (يا بني نهد .. انهدوا ، إنما سميتم بهذا لتفعلوا) .

وبلغ (خالد بن عرفطة) أركان حرب سعد ، تحريض قيس لرجاله ، فخشي أن يختلّ نظام الجيش وتعمه الفوضى ، فارسل اليه يامره أن يلزم مكانه ، وأن يتريث حتى يكبّر سعد التكبيرة الرابعة ، حتى إذا سمعها انطلق برجاله كيفما يشاء .

وتعجّل الفرس القتال ، فقبل أن يكبّر سعد التكبيرة الرابعة ، هجمت فرقة من جيش فارس ومعها ستة عشر فيلاً على (بني بجيلة) . وكان سبب تعجّل الفرس للقتال وهجومهم على بني بجيلة بالذات ، هو خيانة رجل من بني ثقيف — من الناقمين على العرب المسلمين — فقد لحق الخائن بالفرس يكشف لهم عن ثغرات الجيش العربي الاسلامي ، وانه في (بجيلة) المشهورة بالبطولة والفروسية والصبر في القتال ، وهم وحدهم يكوّنون رُبع جيش المسلمين .

وأخذ الخائن يحرّض الفرس على أن يبدأوا الهجوم على (بجيلة) ، فاذا استطاعوا القضاء عليها ، فإنهم يوهنون الجيش كله ويضعفونه ، فلا تقوم له بعد ذلك قائمة ، ولا يصمد لحرب ، فيولي الأدبار .

وبناء على نصيحة الخائن الموتور ، أصدر (رستم) قائد جيش الفرس ، أمره الى فرقة كبيرة من الفرس أن تهاجم (بجيلة) وحدها ، فانطلقوا نحوها ، وأخذوا يرشقونها بالنشاب فاضطرب (بنو بجيلة) واختلط عليهم الامر ، خصوصاً بعد أن فزعت خيلهم من الافيال ، فهاجت ونزت بمن عليها من المقاتلين ، فلم يبق الا الرجّالة (المشاة) ، فاحاط بهم الفرس من كل جانب ، وهجموا عليهم بافيالهم ، ولكن

المشاة العرب صمدوا لهم صموداً بطولياً ، والفرس يضغطون عليهم ضغطاً عنيفاً ، حتى كادوا أن يفنوهم عن آخرهم .

ولما رأى سعد ــ وهو فوق سطح القصر ما حل ببجيلة ، ورأى خطورة موقفهم ، اشتد قلقه فأوعز الى (بني أسد) بالتقدم لنجدة بني بجيلة ، وأنْ يدفعوا عنهم ضغط العدو . فقام (طليحة الأسدي) قائد الكتيبة الأسدية ، وقد هزّه استنجاد سعد به وبقومه ــ ينادي :

ــ (يا عشيرتاه !! إنّ المنوه باسمه ، الموثوق به ــ يعني سعداً ــ إن هذا لو علم ان أحداً أحق بإغاثة هؤلاء منكم استغاثهم ، إبدأ وهم الشدّة واقدموا عليهم إقدام الليوث الحربة ، فانما سميتم أسداً لتفعلوا فعله ، شدّوا ولا تصدّوا ، وكرّوا ولا تفرّوا) .

ثم أخذت القبائل تتناخى ، وكل منها تتغنى بشجاعة أبنائها وبطولاتهم ، وقد اخذت منها الحماسة كل ماخذ ، فما كاد بنو أسد ينطلقون لنجدة (بجيلة) وفي مقدمتهم (طليحة) ، حتى انطلق وراءهم (بنو كندة) ، وعليهم (الأشعث بن قيس) ، فشدّوا على الفيلة يطعنونها حتى أبعدوها عن بجيلة ، ثم اتجهوا الى الفرس ينزلون بهم الضربات القاصمة ، فلما رأى رستم صدق ضرب بني أسد في جنده وفي افياله ، أطلق عليهم رجاله يقودهم الحاجب والجالينوس .. فاحاطوا بهم ، ثم عادت أفيالهم تضربهم ضرباً شديداً حتى أجهدهم ، ولكن بني اسد ثبتوا لهم كما ثبت لهم بنو بجيلة .

كل هذا حدث ، وسعد لم يامر بقية الجيش بالهجوم العام ، وقد ظلوا يشاهدون ما يدور بين اخواتهم وبين عدوهم ، وهم في قلق شديد على هؤلاء الاخوة ، وقد آثر سعد الانتظار وتأخير الهجوم العام حتى تتجلى نتيجة المعركة الدائرة بين أجزاء الجيشين ، لكي يكون بوسعه بعد انتصار فريقه إعادة تنظيم القسم الاكبر من جيشه . بيد أنه لما رأى ان رستماً قد أطلق جيشه كله على بني بجيلة وبني أسد ، أيقن ان الوقت قد أزف لان يامر بقية جيشه بالهجوم العام ، فالموقف بالغ الدقة والخطورة ، ويتطلب المبادرة وسرعة العمل ، والا التهم الفرس بني بجيلة وبني أسد ، فكبّر سعد التكبيرة الرابعة ، فكانت الصدمة الهائلة ، حيث انطلق الجيش العربي مردداً الله اكبر باصوات كالرعد ، ثم زحفوا على الفرس ، زحفة واحدة ، والتحم الفريقان ، وأبلى الابطال العرب بلاءً حسناً ، غير حاسبين حساب الافيال التي أخذت تجول في ميمنتهم وميسرتهم ، وخيولهم تفزع لمنظرها وتفرّ من الميدان ، فقد وجه الفرس الى العرب ستة عشر فيلاً عليها التوابيت ، وعلى كل فيل عشرين راكباً ، وحمل أصحاب الفيلة على بُجيلة ، ففرقّت بين الكتائب ، ونعرت الخيل ونفرت ، وبث الفوضى بينهم . وكادت الأفيال تبيد الرجال ، فانزعج سعد واشتد ضيقهُ وحرجه على رجاله ، فقد خشي أن تدور الدائرة على جيشه ، وقد زاده ضيقاً وحرجاً موقف زوجته [سلمى] التي كانت زوجاً للمثنى بن حارثة ، فإنها لما رأت الكرب الذي نزل بالعرب ، والضيق الذي يكتنفهم ، خشيت أن تحلّ بهم هزيمة كهزيمة موقعة الجسر التي شهدتها مع زوجها الاول ، وتذكرت وقفته وفروسيته ونجدته في المعارك ، فلم تملك نفسها ، فصرخت جازعة هاتفة خائفة باسم زوجها السابق [المثنى] دون وعي منها :

ــ [وامثناه ! ولا مثنى للخيل اليوم] !

فاشتد غيظ سعد ، فلطمها على وجهها وقال لها ، وقد أثر فيه الموقف الذي عليه رجاله :

ــ [أين المثنى من هذه الكتيبة التي تدور عليها الرحى] ؟ !

فاغتاظت[سلمى] بدورها ، وقالت لتزيد نكايته :

ــ [أغيرةً وجبناً ؟ !] فقال سعد يلومها :

ــ [والله لا يعذرني اليوم أحد إذا أنت لم تعذريني ، وانت ترين ما بي] .

فاسترضته سلمى واعتذرت اليه بانها لم تقل ما قالت إلا هلعاً وجزعاً على المسلمين .

وتذكر سعد (عاصم بن عمرو) بطل بني تميم ، وكان على خبرة كبيرة بفنون القتال والحرب ، فارسل اليه يقول :

ــ (يا معشر تميم ... ألستم أصحاب الإبل والخيل ؟ أما عندكم لهذه الفيلة من حيلة ؟)

قال عاصم وقد أثار حميته استنجاد سعد به :

ــ (بلى والله !) ثم اختار رجالاً من قومه يحسنون الرمي وآخرين يحسنون الطعن ، فأمر الرماة أن يواجهوا جند الفرس الذين كانوا على الفيلة ، ويضربوهم بالنبال ، ليشغلوهم عن الطعانة ، وليمكنوهم من الالتفاف حول الفيلة فيضربونها من وراء ، ويقطعوا (وضنها)(١٧)

وتقدم الرماة والطعانة الى الفيلة يرافقهم عاصم يحمسهم ويوجههم ، فنال الرماة من راكبي الفيلة أشد منال ، فقتلوهم عن آخرهم ، واستدبر الطعانة الفيلة ، فاخذوا بأذنابها / وذنابب / توابيتها ، فقطعوا وضنها(١٨) .

فارتفع عواؤها ، وخرت من أماكنها . فانفرجت الكربة عن

بني أسد ، وقد كانت رحى الحرب تدور عليهم فتحصدهم حصداً ، وبذلك خلا الميدان لفرسان العرب ومشاتهم ، فشدوا على الفرس شدّ رجل واحد ، واعملوا فيهم الضرب والطعان ، حتى اجلوهم عن بني اسد ، بعد ان استشهد من بني بجيلة وحدها أكثر من خمسمائة رجل خلال هذا اليوم .

انقضى النهار والقتال ما انفكّ دائراً ، وعندما أظلمتْ الدنيا ، أخذت المعركة تخف شيئاً فشيئاً حتى توقف القتال ورجع كل من الفريقين الى مواقعه دون نتيجة حاسمة ، وسمي هذا اليوم بيوم (أرمات)[19]

اليوم الثاني ـــ يوم أغوات :

انقضى يوم أرمات ، وعند الصباح ، وكلّ سعد بالجرحى من يداويهم ، وبالشهداء من يواريهم الثرى ، وانصرف الى تعبئة الجيش استعداداً للجولة الجديدة .

وبينما كان الجيش العربي ينتظر إشارة بدء القتال ، حتى كانت أمواج الغبار تنطلق الى كبد السماء ، وبعد لأي ، ظهرت نواصي الخيل . كان سعد ينظر الى هذه الخيل المقبلة وهي تنهب الأرض نهباً ، بشيء من الريبة . ترى ، أهي خيل الفرس ام خيل العرب ؟ أهو هجوم للفرس من الخلف ام نجدة عربية ؟

الفارسُ كان يقترب رويداً نحو سعد ، فيما ترك الفرسان خلفه بمسافة . وما إنْ يصل حتى يتبين أنه (القعقاع بن عمرو) رجل المهمات الصعبة ، حيث جاء على رأس مقدمة الجيش التي أمر الخليفة بان تغادر الشام الى العراق لمساعدة جيش سعد في المعركة .. انها نجدة الشام .

وبعد ان بشرّ القعقاع سعداً بالمدد القادم من الشام بقيادة هاشم بن عُتبة بن أبي وقاص المعروف بـ(المرقال)[20] ، لم يشأ ان يستريح ، بل تقدم الصفوف واستفتح القتال مخاطباً جند العرب :

ـــ (أيها الناس .. اني قد جئتكم في قوم والله لو كانوا بمكانكم ثم حسدوكم ، حسدوكم حظوتها ، وحاولوا ان يطيروا بها دونكم ، فاصنعوا كما أصنع) .

وقد استبشر الجند بقدوم القعقاع ووجوده بينهم ، فقد سمعوا ان ابا بكر الصديق (رضي) قال عنه . (لا يهزم جيش فيه مثل هذا .) اي القعقاع .

وبدأ القعقاع يتحدى العدو ، فلما كان بين الصفين هتف باعلى صوته :

ـــ من يبارز ؟

فخرج اليه فارس ، فساله القعقاع : من أنت ؟

فقال : انا (بهمن جاذويه) ، فعرفه القعقاع انه صاحب (موقعة الجسر) التي استشهد فيها ابو عبيد وغيره من فرسان العرب . فصاح القعقاع .

ـــ (يالثارات ابي عبيد وسليط واصحاب الجسر) ... ثم تقدم اليه القعقاع فتصارعا . وانقضّ عليه القعقاع مسدداً اليه ضربة اوردته حتفه .

ثم خرج الى القعقاع (البيرزان) و(البندوان) لمبارزته ، فانضم الى القعقاع (الحارث بن ظبيان) فبارز القعقاع (البيرزان) وضربه ضربة أطاحت برأسه . وبارز ابن ظبيان (البندوان) وضربه فاطاح برأسه ايضاً . وعلى هذا النحو ، فقد جيش الفرس ثلاثة من كبار قواده قبل بدء الالتحام ، ولم يبق من كبار قادتهم الا الجالينوس ورستم .

وتلاحم الجيشان ، فدارت رحى معركة بالغة العنف والضراوة ، حتى اصبح قتال اليوم الأول (يوم أرمات) شيئاً لا يذكر الى جانب قتال اليوم الثاني ، يوم أغوات .

وبينما كان القتال محتدماً ، ظهر فارس عربي بين الصفين ، حتى اذا كان بحيال ميمنة العرب كبّر ، ثم حمل على ميسرة الفرس ، يلعب برمحه وسلاحه بينهم ، فاوقف مسيرتهم ، فاوقف مسيرتهم ، وقتل عدداً كثيراً منهم ، ثم غاص في صفوف المسلمين ، وخرج من ميسرتهم ، وحمل على ميمنة الفرس فاوقفهم ، لا يبدو له فارس من فرسان الفرس الا قتله . ثم غاص في قلب صفوف العرب ، وبرز أمامهم ووقف بإزاء قلب الفرس ، فاوقف القلب ، ولم يبرز له من الفرس فارس الا اختطفه ، وحمل عن العرب وزراً كبيراً من المعركة .

لم يعرف الجند العرب هذا الفارس التحرير ، وتعجبوا من أفعاله وحاروا في أمره ، فكان بعضهم يقول :

ـــ (إن كان « الخضر » يشهد الحروب .. فنظن صاحب البلقاء الخضر)[21] وقال بعضهم الاخر :

ـــ (لولا ان الملائكة لا تباشر القتال ، لقلنا ملك) .

وكان اكثر المعجبين بالفارس المجهول ، (سعد بن ابي وقاص) الذي كان يدير المعركة من فوق القصر ، وراح يفكر فيمن يكون هذا الفارس الذي لا يهدأ ، حتى جعل يقول :

ـــ (والله لولا محبس ابي محجن[22] لقلتُ هذا أبو محجن .

وهذه البلقاء) الفرس.

وبلغ من شك سعد في أمر هذا الفارس ان تحامل على نفسه — رغم مرضه — ونزل ، فوجد فرسه (البلقاء) يعرق ! فسأل زوجه (سلمى) عن سبب عرق الفرس فقالت له :

— (لقد جاءك ابو محجن بالامس طالباً منك اطلاق سراحه من الحبس ليشترك في المعركة ، لكنك رفضت ان تجيبه ، وامرت بان يعود الى حبسه . فلما نزل من سطح القصر ، التقى بي ، فرجاني ان اطلق قيده ليخوض المعركة ، واقسم لي ان يعود الى محبسه ويضع قيده بنفسه ، اذا هو خرج من المعركة سالماً ، فاطلقت قيده عن غير إذن منك .. فسالني ان اعيره البلقاء ، فرسك هذه ليقاتل عليها ، ولكني أبيت ، فخرج من باب القصر الذي يلي الخندق ، فوجد الفرس قائمة ، فامتطاها وهي عارية ، وكان بجانبها رمحك وسلاحك ، فاخذهم ، وأسرع الى ميدان المعركة ، وفعل ما رأيت

استحسن سعد صنيع أبو محجن وعفا عنه.[٢٣]

لقد دخل الفرس المعركة في هذا اليوم ، من غير أفيال مكرهين ، بسبب فرارها ، وقد حطم العرب صناديقها يوم (أرماث) ، وعجز الفرس عن إصلاحها . وبذا تخلص العرب من عبء كبير ، هو سلاح الدرع الفارسي ، وتفرغوا لطعان الاعداء ، فعملت السيوف العربية في جيوش الفرس عملاً لا يضاهيه عمل . ثم احتال العرب لإفزاع خيول الفرس وإخراجها من الميدان كما أخرجوا الافيال بالامس . فقد أخذ بنو عم القعقاع عشرة من الابل فبرقعوها ، وركبوها ، وانطلقوا بها الى خيل الفرس ، فما كانت الخيل ترى الإبل وهي مبرقعة حتى فزعت وأخذت تفز بمن عليها . فكان العرب يطاردونهم ويعملون السيف في رقابهم ، أو تجمح بهم فيسقط من عليها صريعاً فيجهز عليه العرب .

ولما رأى العرب نجاح الحيلة وفزع خيل الفرس من الابل المبرقعة ، أخذوا يبرقعون إبلهم كلها حتى فزعت خيول فارس جميعاً . فلقي الفرس من الإبل في هذا اليوم — يوم أغواث — أعظم مما لقي العرب من الافيال — يوم أرماث — ، وانفصل الفريقان بعد أن حجز بينهما الليل .

أما القعقاع ، فلم ينم بعد ان تحاجز الفريقان ، فإنه بسبيل حيلة جديدة يوهم بها الفرس والعرب في آن معاً . وذلك بان يوحي بقدوم نجدة عربية جديدة من الشام ، فيدب الوهن في قلوب الفرس ، فيما تشتد عزيمة العرب .

ومن أجل ذلك ، جمع القعقاع رجاله الالف الذين قدم بهم من الشام وخرج بهم تحت جنح الليل دون ان يعلم بهم أحد ، وسرّحهم خارج الميدان ، وأمرهم ان يقبلوا مع طلوع الشمس الى ميدان القتال جماعة إثر جماعة ، في كل جماعة مائة رجل ، كلما توارت جماعة تتبعها الاخرى .

وطرأت حيلة القعقاع على ذهن اخيه عاصم ، او هو علم بما ينتويه اخوه ، فعزم على ان يقتدي به ، فجمع رجاله ايضاً وسرّحهم الى (خفان) وأمرهم ان يدخلوا ميدان القتال جماعة بعد اخرى مع طلوع الشمس .

وبذلك جدد القعقاع وعاصم الامل في قلوب الجند — بوصول الإمدادات والنجدات ، فازدادوا إقداماً في الحرب وايماناً بالنصر .

لقد استمر قتال يوم أغواث[٢٤] حتى منتصف الليل ثم توقف ، فسميت تلك الليلة بليلة السواد ، وقد كانت كفة العرب هي الراجحة ، وبلغت تضحياتهم في هذا اليوم قرابة ألفين، بين شهيد وجريح ، بينما كانت خسائر الفرس تربو على العشرة آلاف بين قتيل وجريح .

اليوم الثالث — يوم عماس

أصبح صباح اليوم الثالث من أيام القادسية والعرب على مواقعهم لا يريمون عنها قيد أنملة والفرس في أماكنهم لا يبرحونها ، وبين الصفين من جرحى وشهداء العرب ألفان ، فأمر سعد : بمواراة الشهداء الثرى ، وخيّر الناس بين غسل الشهداء أو دفنهم بملابس القتال .

أما قتلى الفرس ، الذين كانوا يزيدون على العشرة آلاف ، فلم يُخلوا جثتهم ، وظلت طعاماً لجوارح الطير . ويبدو أن ترك الفرس لجثث قتلاهم متوارث عن العقيدة المجوسية وهي عادة يحرصون عليها . ولله في خلقه شؤون .

وعندما بزغت الشمس ، وقف القعقاع في المؤخرة ينظر الى الصحراء ، فلما رأى خيله تُقبِلْ ، كَبَّرَ ، وكَبَّرَ الناس معه وقالوا : (جاء المدد من الشام) ، فقد ظنَّ العرب أنَّ هاشم بن عُتبة قد قَدِمَ مع رجاله ، فازدادت قوتهم ، واشتدت عزيمتهم . ولم يلبث أن ظهر أيضاً رجال عاصم بن عمرو ، قادمين من (خفّان) ، فتقدم الفرسان ، وتكتّبت الكتائب ، وابتدأ القتال ، ورجال القعقاع بن عمرو التميمي يأتون مائة مائة ، فيشدّون أزر إخوانهم شدّاً ، حتى اذا كانت آخر طليعة تَهُمُّ بالتقدم الى

المعركة وصل اليها هاشم في سبعمائة ، فاخبر رجال الطليعة هاشماً بتدبير القعقاع ، فاستحسنه ، واقتدى به ، فقسم رجاله بدوره ــ سبعين سبعين ، فلما وصلت آخر طليعة للقعقاع الى الميدان ، تقدم هاشم في سبعين ، فدخل الميدان سريعاً دون أن يستريح أو يريح رجاله حتى إذا خالط القلب ، كبَّر وكبر العرب المسلمون ، وقد أخذوا مواقفهم في ميدان القتال استعداداً للجولة الحاسمة .

أما الفرس ، فقد عينوا على الفيلة حُراساً بعد ان أصلحوا توابيتها خشية ان تقطع وضنها ، كما حدث في اليوم السابق ، وأنزلوا أفيالهم الى الميدان كيوم « أرمات » ، يحرسها رجّالتهم (مشاتهم) ومع الرجّالة فرسان يحمونهم ، وأخذوا يغيرون على كتائب العرب بأفيالهم وهم يظنون أنهم سينالون من العرب كما نالوا منهم في يوم (أرمات) ، ولكن الافيال جفلت فخيبت آمالهم هذه المرة .

وتفصيل ذلك أن سعداً لما رأى أن الفرس قد عادوا يقاتلون على الافيال ، انتابه القلق خشية أن تتكرر ماساة يوم (أرمات) فدعا بعض الفرس الذين أسلموا وسألهم عن الفيلة ومقاتلها ، فقالوا : إن مقاتلها في مشافرها وعيونها ، فارسل القعقاع وعاصم يأمرهم بقتل الفيل الابيض ، فقد كانت الافيال كلها تنقاد له وتالفه ، ثم أمره « حمال » و « الربيل » ، وهما من بني أسد ، بقتل الفيل الاجرب ، وكانت الافيال تالفه أيضاً ، وتنقاد له ، فخرج الأبطال الاربعة برجالهم ، فحملوا على حراس الفيلين من الفرس فقضوا عليهم حتى أصبح الفيلان من غير حراس فاحاط العرب بالفيلين والتفوا حولهما وشاغلوهما حتى تحيرا واضطربا وشُلَّت حركتهما ، فاخذ القعقاع وعاصم رمحين وتقدما نحو الفيل الابيض وصوّبا رمحيهما الى عينيه فقبع ونفض رأسه ثم دلي مشفره فضربه القعقاع ضربةً قاضية فوقع لحينه ، وسقط من كان عليه من الجند الفرس فقتلهم العرب . وكذلك حمل (حمال) و « الربيل »[٢٥] على الفيل الاجرب فطعنه « حمال » في عينيه فاقعى[٢٦] ثم قام فنضحه[٢٧] « الربيل » ، فكاد الفيل أن يفتك بسائسه ، فضرب السائس[٢٨] أنفه وجبينه بفأسه ، فولى الفيل هارباً ، ووثب في « العتيق » . فلما رأت الفيلة ــ هروبه تبعته وعبرت العتيق الى (المدائن) . وهكذا خلا الميدان من الفيلة واستراح العرب منها ، فأطلقوا لسيوفهم العنان في رقاب الفرس ، لا يمنعهم من الطعن مانع حتى ذاق الفرس من اسياف العرب المسلمين ما لم يذوقوه من قبل وخاصة من سيف القعقاع[٢٩]

وكان يوم (عماس) هذا يوماً مشهوداً في تاريخ الحروب ، فقد استمر القتال ، وتبادل الفريقان الضرب والطعن ، واستمرت الحرب حتى دخل الليل ، وكان إذا نال العرب من الفرس ، عاد الفرس فنالوا من العرب ، وصبر الفريقان حتى علموا أن لا فائدة ترجى من هذا القتال ، فتحاجزوا ، بعد ان استمروا يتقاتلون وثبت كل من الفريقين في مواقعه ، وصمت العرب لا يتكلمون وإنما كانوا يهرّون هريراً ، ولذلك سميت تلك الليلة بـ (ليلة الهرير)[٣٠]

ثم كان بعد تقدم الليل قتال غير متوقع ، فقد دار (سعد) تلك الليلة بنظرهِ على ميدان الحرب وما حوله ، من فوق القصر ، فوجد مخاضة هامة أسفل معسكر العرب ، فخشي أن ينتبه لها الفرس فيأتون منها ويباغتون العرب ، فارسل إليها طليحة بن خويلد الأسدي ، وعمرو بن معد يكرب الزبيدي ، وأمرهما بالشخوص إليها فإن وجدا أن الفرس قد عرفوها ورابطوا عندها ، فليرابطا بالقرب منهم ويراقبا حركاتهم وينذرا العرب ــ على عجل إنذاراً مبكراً ــ إذا هجم الفرس ، وإلا فليرابطا عندها حتى يأتيهما أمره .

فلما انتهيا الى المخاضة ، لم يجدا بها أحداً ، فأراد طليحة أن يفاجيء الفرس فاقترح على عمرو أن يفاجئهم من خلف معسكرهم ، ولكن عمراً فضل أن تكون المفاجاة من اسفل المعسكر ، فلم يتفقا وافترقا ، فاتجه طليحة وحده نحو المعسكر من وراء « العتيق » ، وسار عمرو الى اسفل المعسكر باصحابه جميعاً ، فاغاروا عليهم فثار بهم الفرس ، وخشي سعد من تصرفهما فبعث قيس بن المكشوح المرادي في أثرهما ومعه سبعون رجلًا ، فخرج قيس ، فلما كان عند المخاضة ، وجد جماعة من الفرس قد حاصروا عمراً وأصحابه ، فتقدم إليهم لإنجادهم ، واستطاع انقاذهم برجاله . أما طليحة فقد أقبل على الفرس ، فكبّر ثلاث تكبيرات ليوقع الاضطراب في صفوفهم ، ثم اختفى عنهم ، عندئذ دار في خلد الفرس ان العرب على وشك الهجوم عليهم ومفاجاتهم ، فاستعدوا للقتال ، وصفوا صفوفهم ، حتى بلغت ثلاثة عشر صفاً في القلب وفي المجنبتين ، ثم تقدموا للقتال والليل ضارب بسوائه .

أما العرب ، فلما سمعوا التكبيرات ظنوا أن عمراً ورفاقه في مأزق وانهم يطلبون النجدة ، فاستعدوا على عجلٍ ورتبوا

صفوفهم ، حتى اذا اقترب الفرس من العرب ، تصدى القعقاع برجاله للفرس الذين اقتربوا منه ، وأنشب معهم القتال ليشغلهم ويشل حركتهم وذلك من غير إذن من (سعد) .

فظن بعض الجيش ان ذلك بإذن منه ، فهجموا بدورهم . فلما علم سعد بما حدث أسف ، ولكنه لم يغضب لفعل القعقاع ، وإنما دعا له بالنصر ، ولم يجد بدأ من مواصلة القتال ليلًا ، بعد أن تحرّج الموقف وأصبح القعقاع ومن معه في قتال مع الفرس مرير ، حتى كادت الدائرة عليه تدور ، فأرسل سعد الى الجند كلهم ان يتهيأوا للقتال ، وأن ينتظروا تكبيراته الثلاث ، فلما كبر التكبيرة الأولى ، تهيأ الجند وقام القادة يخطبون في رجالهم ليثيروا فيهم الحماس ، ثم كبر سعد التكبيرة الثانية والعرب يتململون يريدون الانطلاق للقتال ولم يستطيعوا انتظار التكبيرة الثالثة ، فانطلق (عاصم بن عمرو) نحو أخيه (القعقاع) لينصره . ثم حمل بنو النخع كلهم بعده حملة رجل واحد ، ثم تتابع الجند يزحفون . فوقف رؤساء الجند ينتظرون التكبيرة الثالثة ، فلما سمعوها زحفوا زحفهم العام ، ولحقوا برجالهم الذين سبقوهم ، والتحموا بالفرس ليلًا ، فاستقبلوا الليل بالقتال الشديد ، وكان لقعقعة السيوف وصليلها صوت كصوت الرعد القاصف .

وصبر العرب صبراً جميلًا ، وقد رأي الفريقان المتقاتلان على السواء أمراً لم يروا مثله من قبل ، لضراوة المعركة . وبات سعد ليلة ليلاء .

وفيما كان سعد في قلق على نتيجة المعركة ، إذ سمع القعقاع ينشد بأعلى صوته :

نحنُ قتلنا معشراً وزائداً
أربعة وخمسة وواحداً
تحسب فوق اللبدِ الاساودا
حتى اذا ماتوا دعوت جاهدا
الله ربّي واحترزت عامدا

لقد كانت أرجوزة القعقاع تنساب كالماء البارد على قلب سعد ، فشعر بالراحة ، إذ علم أن رجاله هم الاعلون . ولم يطق سعد صبراً حتى تأتيه أخبار الظفر ، فبعث غُلامه (بجاد) ليستطلع أخبار القتال ويأتيه بالنتائج ، ولما رجع (بجاد) تملكه العجب العُجاب . فلما سأله سعد : (ماذا رأيت أي بُني ؟) قال ببراءة : (رأيتهم يلعبون) . فقال سعد مازحاً :

(أوَ يجدّون !!)

وجملة القول ، لقد كان التفوق ظاهراً للفرس (يوم أرمات) وكان التفوق ظاهراً للعرب (يوم أغواث) أما يوم عماس[٣١] فقد كانت نتيجته شديدة على الطرفين ، لدرجة أن الجيشين لم يريا مثل ذلك القتال الشرس .

وكان الطرفان ينتظران ماذا سيفسر عنه الصبح ليقرر مصير (الأمتين بعد ذلك .

اليوم الرابع — يوم القادسية

كانت أنباء القتال في حرب القادسية تأتي الخليفة الفاروق وتصله أسماء الابطال الذين يبلون البلاء الحسن ، فيرسل الجوائز خيلًا وسيوفاً الى الفرسان المبرزين ، وبذلك كان المقاتلون يشعرون أن أمير المؤمنين معهم في الميدان .

ولم يكن الخليفة وحده هو الذي يعيش بكيانه وطاقاته تلك المواجهة الحاسمة بين العرب والفرس في القادسية ، بل كانت معه في ذلك الامة كلها .. حتى ليحكي المؤرخون ان الناس قد علقوا ثبات الدولة وزوالها على نتائج تلك المعركة ، وأصبحت في كل بلد جماعة ، تخصصت في جمع أخبار المعركة وإبلاغها الى عامة الناس . بل لقد علّق الناس الكثير من أمور حياتهم عليها (حتى أن الرجل يريد الأمر فيقول : لا أنظر فيه حتى أنظر ما يكون من امر القادسية) . وفي القادسية ، ارتفع وجه الصباح الرابع والمعركة لا تزال محتدمة ، وقد نال التعب من كلا الجيشين . وعرف القعقاع ذلك فخاطب أصحابه : (... إصبروا ساعة واحملوا ، فان النصر مع الصبر).

وسرعان ما اجتمعت إليه جماعة من رؤساء القبائل فشكّلوا رأس حربة ، وجعلوا هدفهم (رستم) .

وما إن أحدث المقاتلون العرب فدْغاً (شرخاً) في قلب جيش الفرس ، حتى صمموا على أن يدقوا (إسفيناً في نعش (رستم) ، فقام قيس بن عبد يغوث المرادي ، وقام الاشعث بن قيس الكندي ، وقام عمرو بن معدي كرب الزبيدي وقام عبدالله بن ذي السهمين الخثعمي ، وقام ابن ذي البردين الهلالي فقالوا :

(لا يكونن هؤلاء أجدّ في أمر الله منكم ، ولا يكونن هؤلاء القلف[٣٢] أجرأ على الموت منكم ولا أسخى أنفساً عن الدنيا ، تنافسوها) .

فحمل كل من جهته حتى ضغطوا على أمامهم وقام

رجلان من ربيعة ـ بكر بن وائل وعبد القيس ـ فقالا :

(أنتم أعلم الناس بفارس وأجرؤهم عليهم فيما مضى ، فما يمنعكم اليوم ان تكونوا أجرأ مما كنتم بالجرأة !) . فحملوا كما حمل غيرهم ـ حتى (اذا كان وقت الظهيرة ، انكسر معظم الجيش الفارسي ، وحالفت الرياح العرب فاثارت النقع[33] في وجوه الفرس ، واشتكت الرياح وتحولت الى عواصف هوجاء ، اقتلعت (طيّارة) رستم عن سريره فهوت في (ترعة العتيق) فانكشف بذلك رستم للعرب . فلما رأى القعقاع ذلك ، انطلق كالسهم الخاطف إلى رستم ليأسره ، ولكنه لم يجده ، إذ كان قد اختفى بين بغال جاءت إليه يومئذ بأحمال من (يزدجرد) . وقد ظنّ أنه نجا ، ولكن لم يلبث ان جاء (هلال بن علقمة) الى بغل ليستولي على ما يحمله ، فقطع حبال الحمل فوقع على رستم ، وهلال لا يراه ولا يشعر به ، فانتهز رستم فرصة انشغال هلال بالحمل ، ففرّ هارباً الى « العتيق » ، فرآه هلال وجرى خلفه ليقبض عليه ، فاسرع رستم وقذف بنفسه الى الماء لينجو ، وقد قذف الله في قلبه الرعب ، فاندفع هلال وراءه وأمسك بقدمه وأخذ يجره جزءاً حتى أخرجه من الماء ، ثم ضرب جبينه بالسيف فسقط بين يديه ، فحزّ هلال رأسه ثم حملها وصعد فوق سرير رستم ملوحاً به وقد هزته نشوة الظفر ، ونادى بأعلى صوته :

(قتلتُ رستم ورب الكعبة) ، فجاء العرب ينظرون الى من قتل رستماً ، فلما تحقق لهم قتله أخذوا يتنادون ويكبّرون حتى سمعهم الفرس ، وحمل هلال رأس رستم فوضعه بين يدي سعد بن ابي وقاص فتهلل وانفرجت أساريره ، وأيقن ان النصر أصبح قاب قوسين أو أدنى .

لقد قتل رُستم هذه القتلة الذليلة ، وبمقتله تضعضعت قوّة الفُرس ، وخارت عزائمهم ، وأصبحوا طعمة هيّنة لينة لاسياف العرب . عندئذٍ أمر القائد الفارسي (الجالينوس) ـ وقد رأى مصرع قائدهم العام ـ رجاله أن يتركوا الميدان ويعبروا العتيق ، لينجوا بانفسهم ، فاخذوا يتهافتون على المعبر والعرب يطاردونهم ويعملون فيهم السيف ، ويوخزونهم بالرماح فما أفلت منهم أحد ، اولئك الفرس كانوا ثلاثين ألفاً .

ووصل (ضرار بن الخطاب القرشي) الى ساري « درفش كابيان » ـ راية الفرس ـ فانزلها من عليائها لآخر مرة فلم ترتفع بعدُ أبداً .

وفي رواية عن الأسود النخعي قال :

(شهدت القادسية ، فلقد رأيت غلاماً مِنّا (من النخع) يسوق ستين أو ثمانين رجلًا من أبناء الاحرار ـ يعني الفرس ـ فقلت أذلّ الله ابناء الاحرار) .

أرسل سعد بن ابي وقاص الى القعقاع وقد مالت الشمس عن كبد السماء ليطارد من فرّ من جند الفرس من ارض المعركة وصحب القعقاع في مطاردته تلك شقيقه (عاصم بن عمرو) .

كما أمر سعد « شرحبيل بن السمط » وجنده بمطاردة من فرّ من جند الفرس باتجاه الشمال من أرض المعركة ، وطلب من القعقاع وشرحبيل ألا يوغلا في مطاردتهما للفرس .

وعادا من مطاردتهما ، فاوكل سعد للقعقاع مهمة الاتجاه نحو الشمال للقضاء على جيوب المقاومة الفارسية ، وأوكل لشرحبيل الاتجاه نحو الشرق .

وانجلت المعركة بانتصار العرب العظيم على الفرس المتغطرسين ، بعد ان غطّت جثث تتلاهم أرض المعركة بين قديس والعتيق كان ذلك يوم الحسم في يوم الاحد ١٦ شعبان ١٥ هـ ـ ٢٢ أيلول ٦٣٦ م[34] .

لقد كان انتصار القادسية الكبير انتصاراً رائعاً للعروبة والاسلام ، وكان الخليفة عمر بن الخطاب (رضي) منذ ان بدأت الحرب في قلق شديد من هذه الهجمة الفارسية الشرسة التي كانت تتوقف على نتائجها كرامة العرب والمسلمين ، لذلك كان (رض) لاينفك عن الخروج في كل يوم الى ظاهر (المدينة) يستطلع الاخبار ، ويظل في مكانه لا يبرحه ينظر الركبان منذ الصباح الى ان ينتصف النهار ثم يعود .

بيان البيانات

وفيما كان الخليفة واقفاً يوماً كمادته ، إذ رأى قادماً يجدّ على راحلته ، فاعترضه وأخذ يسأله عن خبر سعد ، والرسول في عجلة من أمره لا يرد عليه لجهله بشخصيته وأخذ عمر (رض) يلاحقه على قدميه ، ثم قال له وقد تملكه القلق .

ـ يا عبد الله ! حدثني !!

وما زالا على ذلك ، الرسول على راحلته يسرع لا يلتفت الى عمر ، وعمر على قدميه يلاحقه ، حتى دخلا المدينة ، فإذا بالناس يسلمون على عمر (رض) بإمارة المؤمنين .

وهنا التفت الرجل الى عمر (رض) وقال ببساطة معاتباً : فهلا أخبرتني رحمك الله أنك أمير المؤمنين ؟!

فقال له الخليفة : (لا عليك يا أخي) ، فسلمه الرسول

كتاب سعد ، فقرأه الفاروق على الناس من فوق المنبر فإذا به :

(أمّا بعدُ ، فإنَّ الله نصرنا على أهل فارس ومنحهم سُنَنَ من كان قبلهم من اهل دينهم بعد قتال طويل وزلزال شديد . ولقد لَقُوا المسلمين بُعدّةٍ لم يَرَ الراءون مثل زهائها ، فلم ينفعهم الله بذلك ، بل سلبهموه ، ونقله عنهم الى المسلمين واتبعهم المسلمون على الانهار ، وعلى طفوف الاجام وفي الفجاج ، وأصيب من المسلمين سعد بن عبيد القاريء وفلان وفلان ... ورجال من المسلمين لانعلمهم ، الله بهم عالم ، كانوا يدوون بالقرآن إذا جنَّ عليهم الليل دويَّ النحل ، وهم آساد الناس لا يشبههم الأسود ، ولم يفضل من مضى منهم من بقي إلا بفضل الشهادة إذْ لم يكتب لهم) .

ولم يكد الخليفة ينتهي من قراءة بيان البيانات حتى هلّل العرب وكبّروا سروراً ، وحمدوا الله ان نصرهم وبحر المجوس . وكان إعجاب الفاروق بهذا النصر الجليل بالغاً أشدّه ، حيث قال عن أبطال القادسية المجيدة جنداً وقواداً : (اولئك أبطال العرب) .

الخاتمة

لقد كانت القادسية المجيدة هي المعركة الفاصلة التي دارت على أرض العراق بين دولة إقطاعية غازية ذات نظام طبقي ظالم ، وفكر مثقل بالخرافات والاستغلال ، وأمة شابة ، خرجت جيوشها من جزيرة العرب لتحرر الارض والانسان العربي من العبودية والهيمنة الاجنبية ، ولتجدد شباب الدنيا بعدالة الاسلام ومساواته وفكره السامي المتسامح والواضح .

وبعد نصر القادسية اللامع انفتحت أبواب فارس ، أمام العرب فتحررت المدائن وجلولاء ، وهما مدينتان عربيتان في العراق العريق ، حررهما العرب المسلمون بعد أن ظلتا في الأسر الفارسي عدة قرون .

لقد تغيرت بنصر القادسية في العراق ، ومن قبله بنصر (اليرموك) في الشام صورة الامم ومراكز الشعوب في الشرق . فمن قبلها كان العرب مستضعفين ، تفترسهم المخاطر والتحديات ، ثم حدث التحول العظيم في مكانة العرب في التاريخ ، وأصبحت لهم القيادة في الشرق بدلًا من الفرس والروم[٣٥] وتلك الايام نداولها بين الناس .

الشروح

(١) السواد : سهول بابل المنبسطة الواقعة بجانب الفرات وتتاخم شبه جزيرة العرب الجرداء ، وسميت بهذا الاسم بسبب ما تحويه من زروع وأشجار ونخيل ، ولان الخضرة تقارب السواد ، قال صاحب لسان العرب : (السواد : جماعة النخل والشجر ، لخضرته واسوداده) .

(٢) يراجع كتاب : (سير ومناقب كبار الصحابة) ص ١٥ للشيخ نجم الدين الكيلاني ـــ مكتبة النهضة / بغداد ١٩٨٩ .

(٣) الاعراب : قال صاحب لسان العرب : النسب الى الاعراب : أعرابي ، وهو البدوي صاحب النُجعة والانتواء وارتياد الكلا ، وتتبع مساقط الغيث ، والاعاريب جمع الاعراب . والعربي منسوب الى العرب ، وإنْ لم يكن بدوياً . والعربي اذا قيل له : يا أعرابي ! غضب له . فمن نزل البادية أو جاوز البادين ، وظعن بظعنهم وانتوى بانتوائهم ، فهم أعراب ، ومن نزل بلاد الريف واستوطن المدن والقرى العربية وغيرها ممن ينتمي الى العرب : فهم عرب وان لم يكونوا فصحاء .

قال تعالى : (قالت الاعراب آمنّا ، قل لن تؤمنوا ، ولكن قولوا أسلمنا) فهؤلاء قوم من بوادي العرب قدموا على النبي (ﷺ) المدينة ، طمعاً في الصدقات ، لا رغبة صادقة في الاسلام ، فسماهم الله تعالى « الاعراب » ، ومثلهم الذين ذكرهم الله تعالى في سورة التوبة :

(الاعراب أشدّ كفراً ونفاقاً) الاية .

والذي لا يفرّق بين العرب والاعراب والعربي والاعرابي ، ربما تحامل على العرب . للمزيد من المعلومات يراجع (لسان العرب) مادة (عرب) .

(٤) يراجع كتاب (معارك الاسلام الكبرى ص ٣١ ـــ ٤١ لجمال الدين حماد ـــ مكتبة النهضة المصرية ـــ القاهرة ١٩٥٢ .

(٥) شراف : تقع على مسافة ٨٠ ميلًا جنوب غربي الكوفة الحالية في أواخر عام ٦٣٦ م .

(٦) يراجع تاريخ الطبري ٣ / ٤٨٧ مطبعة الاستقامة .

(٧) العذيب : أو عذيب الهجانات ، ماء بينه وبين القادسية أربعة أميال ، وكان (مسلحة) أي (نقطة عسكرية) للفرس على ما يذكر ياقوت في معجم البلدان .

(٨) سابور : تولى حكم الامبراطورية الساسانية سنة ٣٠٩ م ، هاجم العرب بقسوة ، وتعمّد إخراجهم من العراق ، وغزا سواحل الجزيرة الشرقية ، وفتك بسكانها العرب فتكاً ذريعاً . وسابور هو الذي غزا إمارة (الحضر) العربية القائمة في الجزيرة فدمرها تدميرا ، وأمر بحفر خندق عرف باسمه ، يمتد على طول بادية العراق من (هيت) على الفرات الى (كاظمة) شمال الخليج

العربي ، وقد شيّد عليها الحصون ليحول دون تسرب عرب الجزيرة الى العراق .

وكان يسمى (سابور ذا الاكتاف) لانه خلع اكتاف الاسرى من العرب !

(٩) تاريخ الطبري جـ ٣ ص ٤٩١ طبعة دار المعارف بمصر ــ القاهرة / ١٩٦٠ ــ ١٩٦٩ .

(١٠) المصدر نفسه جـ ٣ ص ٤٩٢ .

(١١) الفن العسكري الاسلامي ــ للدكتور ياسين سويد ص ٢٥٢ ــ ٢٥٣ بيروت / ١٩٨٨ .

(١٢) ميدان القادسية : هو ميدان المعركة ، عبارة عن سهل فسيح يمتد الى الحيرة تعلوه من الغرب ظهرة رملية ، حيث تبدأ الصحراء ، ويمتد طريق الحجم القديم بمحاذاتها ، من النجف ، ويعرف بطريق (زبيدة) زوج الرشيد .

(١٣) خان الرحبة : كانت عين الماء فيه مورداً يستقي منه الجيش العربي .

ويذكر ياقوت (الرحبة) قرية بحذاء القادسية على مرحلة من الكوفة على يسار طريق الحجاج اذا ارادوا مكة .

(١٤) خندق سابور : نسبة الى سابور الفارسي ، والخندق واضح المعالم في منطقة الكوفة ويسمى (كري سعدة) ، واضح أثره بين كربلاء والنجف ، وعلى مسافة كيلو مترين جنوب خان الحماد وفي جواره .

(١٥) العتيق : ويسمى أيضاً (الحضوض) وربما هو نهر (الهاشمي) الذي تقع عليه حالياً قرية (الدسم) ويمتد من اتجاه ومكان العتيق وينتهي في المستنقع وهو (هور الصليب) كما كان ينتهي العتيق .

(١٦) وصف ابن خلدون في مقدمته السرير الذي كان يتخذه الروم والقوط بالاندلس والفرس فقال :

(ينصبون للملك سريره في حومة الحرب ، ويحف به خدمه وحاشيته وجنوده ... وترفع الرايات في أركان السرير ويحدق به سياج آخر من الرماة والرجالة فيعظم هيكل السرير ويصير فئة للمقاتلة وملجأ للكر والفر ، فقد كان رستم جالساً على سرير نصبه لجلوسه) .

(١٧) الوضن : جمعها وضين ، بطان عراض منسوج من سيور أو شعر ولا يكون الا من جلد . والوضين : السير او الحزام الذي يربط الصندوق الذي على الفيل .

(١٨) وفي رواية ان عاصماً أمر بوضع نبات الشيح والقيصوم على ظهور الإبل وحرق ذلك النبل الذي كان العرب يشاغلون به راكبي الفيلة ، ووخز الإبل بالاسنة ، فوطئت الإبل مقدمة الفرس وهي مذعورة من النيران التي فوقها والاسنة التي وخزتها .

(١٩) أرمات : يقول ياقوت : أرمات جمع رمث ، وهو اسم نبتة بالبادية ، كان أول يوم من ايام القادسية ، ولا أدري أهو موضع أم أرادوا النبت المذكور .

وكان تاريخ هذا اليوم في ١٣ شعبان ١٥ هـ / ١٩ أيلول ٦٣٦ م .

(٢٠) المرقال : الرجل الذي يرقل في سيرة ، اي يسرع (أساس البلاغة) . والارقال : ضرب الخذو فوق الخبب . ولُقّب هاشم بن عتبة بالمرقال لان الامام علي عليه السلام دفع إليه الراية يوم صفّين فكان يرقل بها إرقالا (لسان العرب .

(٢١) الخضر : نبيّ معمّر من بني إسرائيل ، وهو صاحب موسى ، صلوات الله على نبينا محمد وعليه ، الذي التقى معه بمجمع البحرين (لسان العرب) (٢٢) أبو مُحجَن الثقفي : أرسله الخليفة عمر (رض) الى سعد بن ابي وقاص ، لتغذّيه بالخمر في شعره ، وأمره بحبسه عنده ولا يطلقه ، فحبسه سعد في قصر العذيب وقيده ، فلما كان أول يوم من أيام المعركة ، كان أبو محجن ينظر من نافذة محبسه على ميدان القتال ، فقلق وانتابه الضيق لعدم اشتراكه ، عندما رأى الفرسان تصول وتجول وهو الفارس المغوار الذي لم ينهزم من خصم له قط .

(٢٣) وقيل ان سعد بن ابي وقاص أكبر أبي محجن لما أيقن بطولته وشدة بأسه وصدق نياته ، فاطلق سراحه وهو يقول له : (اذهب .. فما أنا مؤاخذك بشيء تقوله حتى تفعله فقال أبو محجن : لا جَرَمَ ، والله لا أجيب لساني الى قبيح أبداً .

(٢٤) أغواث : اليوم الذي بلغ الغوث فيه العرب بوصول القعقاع وهاشم بن عتبة واشتراكهما في المعركة . وبظهور أثرهما وفاعليتهما فيها ، وبغياب الافيال حيث كان الفرس يعوّلون عليها كثيراً في المعركة ، كان ذلك غياثاً للعرب استحق به اليوم هذا الاسم (أغواث) .

(٢٥) الربيل : كثير اللحم .. وتربّل جسمه اذا انتفخ وربا (لسان العرب)

(٢٦) أقعى : اذا جلس على استه مفترشاً رجليه وناصباً يديه . والاقعاء : ان يلصق الرجل أو السبع إليتيه بالارض وينصب ساقيه وفخذيه ويضع يديه على الارض كما يقعي الكلب . (لسان العرب) .

(٢٧) النضح : يأتي بمعنى الرشق . ونضحناهم بالنبل : رميناهم ورشقناهم . وفي حديث هجاء المشركين : (كما ترمون نضخ النَبل) . ويقال : انضح عنا الخيل ، أي ارميهم . وفي الحديث انه قال للرماة يوم أحد : (انضحوا عنا الخيل لا تُؤتَى لمن خلفنا) أي ارموهم بالنشّاب . (لسان العرب) .

(٢٨) السائس : من السياسة . والسياسة : القيام على الشيء بما يصلحه . والسياسة : فعل السائس .

يقال : هو يسوس الدوابّ ، إذا قام عليها وراضها (لسان العرب) .

(٢٩) القعقاع : رجل قُعقاع وقعقاني : تسمع لمفاصل رجليه تقعقعاً إذا مشى . (لسان العرب) .

(٣٠) الهرير : من هز الشيء : كرهة . وهز الكلب إليه يهز هريراً وهزة . وهرير الكلب : صوته وهو دون النباح من قلة صبره على البرد . جاء في الحديث : أنه ذكر قارىء القرآن وصاحب الصدقة فقال رجل : يا رسول الله ، أرأيتك النجدة التي تكون في الرجل ؟ فقال (ﷺ) : ليست لهما بعدل ، إنّ الكلب يهرّ من وراء أهله . معناه ان الشجاعة غريزة في الانسان فهو يلقى الحروب ويقاتل طبعاً وحمية لا حسبة . فضرب الكلب مثلاً إذا كان من طبعه ان يهز دون أهله ويذبّ عنهم . يريد أن الجهاد والشجاعة ليس بمثل القراءة والصدقة .

وقد يطلق الهرير على صوت غير الكلب ، ومنه الحديث : (إني سمعت هريراً كهرير الرحى) اي صوت دورانها (لسان العرب) .

وهرّت القوس هريراً : إذا صوّتت .

نستنتج ان ليلة الهرير الليلاء الطويلة الصعبة الشديدة اشتقت اسمها من كل ما تقدم ; والله اعلم بالصواب .

(٣١) عماس : غمس اليوم وغمس اذا اشتدّ وأظلم ، ويوم عماس : شديد ، وحرب عماس وعميس شديدة ، وليل عماس : شديد الظلام (المنجد) . والعماس : الاسد الشديد . ولقد كان يوم عماس شديداً ، وهو أسم على مسمىً .

(٣٢) القلف : غير المختونين والمقصود بهم المجوس .

(٣٣) النقع : الغبار الساطع . قال تعالى : (فاثرن به نقعا) اي غبارا . يراجع (لسان العرب)

(٣٤) راجع دراستنا : (تحقيق تاريخ معركة القادسية الاولى) في جريدة (القادسية) العدد ٦٤٦ بغداد ٣٠ تموز ١٩٨٢ . واللافت للنظر ان واقعة القادسية الثانية (قادسية صدام) وقعت في يوم الرد على العدوان في التاريخ نفسه (٢٢) أيلول / من عام ١٩٨٠

وسمى السيد الرئيس القائد المجاهد صدام حسين (حفظه الله ورعاه) هذا اليوم بـ (يوم القادسيتين) لان التاريخ قد أعاد نفسه .

(٣٥) د . محمد عمارة ; دراسات في الوعي بالتاريخ ص ٤٨ .

اهم المراجع والمصادر

١ . الطبري :
تاريخ الرسل والملوك ج ٣ / دار المعارف بمصر
٢ . احمد عادل كمال :
القادسية . دار النفائس . بيروت / ١٩٧٧ .
٣ . بسام العسلي بـ فن الحروب جـ ١ دار الفكر ١٩٧٤ .
٤ . صالح مهدي عماش :
من ذي قار الى القادسية . وزارة الثقافة والاعلام . بغداد / ١٩٧٣ .
٥ . محمد أبو الفضل البجاوي :
أيام العرب في الاسلام ـ بيروت / ١٩٦٨ .
٦ . عبد القادر أحمد طليمات :
سعد بن ابي وقاص ـ دار القلم ـ القاهرة / ١٩٦١ .
٧ . جمال الدين حماد :
معارك الاسلام الكبرى ـ مكتبة النهضة المصرية /١٩٥٧ .
٨ . محمد أمين الميداني :
القعقاع بن عمرو ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٩٧٨ .
٩ . د . ياسين سويد :
الفن العسكري الاسلامي ، أصوله ومصادره شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ـ بيروت / ١٩٨٨ .
١٠ . د . محمد عمارة :
دراسات في الوعي بالتاريخ / دار الوحدة ـ بيروت / ١٩٨١ .

• • •

معركة الأرك

ذروة جهاد الموحدين في الاندلس

٥٩١ هـ

د . مزاحم علاوي الشاهري

لم تكن معركة الارك بمقدماتها ونتائجها بمعزل عن مخطط التحدي الشامل الذي واجهته الامة شرقاً وغرباً . وبوجه خاص بعد أن صعدت الكنيسة من حدته وأعلنت ما يسمى بالحرب المقدسة ، يقول المستشرق ستيفن رنسيمان «ما نشب من القتال ضد المسلمين في اسبانيا ، اتخذ صفة الحرب المقدسة .. ولم يلبث البابوات ان صار لهم يد في توجيهها .. ولم ينته القرن الحادي عشر حتى تحولت فكرة الحرب المقدسة الى اتجاه عملي . إذ ان الفرسان والعساكر المسيحيين لقوا التشجيع من السلطات الكنسية ، بأن يتخلوا عن منازعاتهم الصغيرة ، وان يتوجهوا الى اطراف العالم المسيحي لقتال (الكفرة)! وان ما يصيبونه من المكافأة هو على ما يؤدونه من خدمة ، وهكذا فكلما انحسر المد الاسلامي في اسبانيا ، لم يجد البابا صعوبة في توطيد سلطته على ما قام من الكنائس بالبلاد التي جرى فتحها »[١]

لقد واجه الموحدون منذ اعتلائهم الحكم ، الصليبيين في المغرب الاسلامي ، وشرعوا في تدعيم دفاعاتهم العسكرية للحد من اطماع الممالك والامارات الاسبانية التي مافتئت تستولي على المدن الاندلسية الواقعة امام اراضيها ، واذا كان الصراع بين الامة والصليبيين ابان تلك المدة قد تكلل على صعيد المشرق بانتصار صلاح الدين الايوبي في معركة حطين الخالدة[٢] ، فان جهاد الموحدين مازال على اشده ، خاصة بعد مجيء الخليفة يعقوب المنصور ٥٨٠ - ٥٩٥ هـ/ ١١٨٤ - ١١٩٨ م) الذي بويع بالخلافة بعد استشهاد والده الخليفة يوسف بن عبد المؤمن وهو في طريق عودته الى عدوة المغرب من جرح اصابه في معركة شنترين[٣] Santaren التي خاضها ضد البرتغال سنة ٥٨٠هـ/ ١١١٤م[٤] .

تأهب الخليفة يعقوب الموحدي للعبور الى الاندلس بعد ان تناهت اليه اخبار اشتداد عدوان ملك البرتغال الفونسو ابن الرنك على ولايات الاندلس الغربية ، وقيام ملك قشتالة بالعدوان على ولايات الاندلس الوسطى ، فعبر بجيوشه سنة ٥٨٥هـ/ ١١٨٩م من قصر المجاز الى الجزيرة الخضراء ، وتقدم حتى وصل مدينة شنترين ، حيث بث الغارات على لشبونة عاصمة البرتغال ، مكبداً اياهم خسائر فادحة بالارواح والاموال ثم عاد بعدها الى المغرب حيث وصل فاس في آخر رجب من السنة نفسها[٥] .

وقد اسفرت تلك المنازلة عن نتائج مرضية للخليفة الموحدي تمثلت بسعي قشتالة وليون الى طلب الصلح منه ، اذ حضر الى مراكش سفير من قشتالة يطلب الصلح ، ويؤكد استعداد بلاده للتحالف مع الموحدين ضد البرتغال ، غير ان الخليفة يعقوب كان يدرك ان رغبة قشتالة الى الصلح يأتي بدافع الخوف لا الاخلاص ، وقد جددوا رغبتهم للصلح مرة ثانية بسفارة اخرى قدمت الى اشبيلية فوافق المنصور على هدنة امدها خمس سنوات ، كما جدد مضمون المعاهدة المبرمة مع ليون رغبة في عزل البرتغال[٦] .

وحدث ان كرر البرتغاليون عدوانهم على ولايات الاندلس الغربية سنة ٥٨٦هـ/ ١١٩٠م شلب وباجه ويابورة ، واحتلوا شلب التي تعد عاصمة غرب الاندلس بعد ان استعان ملك البرتغال بقوات اوربية ، فيذكر ان احتلالها جرى باتفاق ملك البرتغال مع قراصنة من الدنمارك والفلمان يخولهم فيه سبي المدينة بعد احتلالها ، مقابل احتفاظه بالمدينة نفسها[٧] ، وفي رواية اخرى ان الدون شانجة ملك البرتغال استعان بقوات انكليزية كانت في طريقها الى المشرق لحرب صلاح الدين الايوبي فاعانوه على اخذها فهاجمها الملك براً والانكليز بحراً حتى سقطت[٨] .

ولما علم المنصور الموحدي بذلك استعظم النبأ ، واصدر امراً يقضي بتعيين محمد بن يوسف الوالي على قرطبة قائداً على جيوش الاندلس وامره بالتحرك نحو المدن التي احتلها البرتغاليون ، فخاض سنة ٥٨٧هـ/ ١١٩١م معارك طاحنة كان من نتائجها تحرير شلب وقصر ابي دانس وباجه ويابورة ، وغنائم كثيرة من الاموال والاسرى ، قدر الاسرى بثمانية عشر ألف أسير[٩] .

ولقد شهدت بلاد الموحدين احداثا مهمة صرفت انظار الخليفة عن بلاد الاندلس كان في مقدمتها تجدد صراع الموحدين مع بني غانية الذين استغلوا انشغالهم بالاندلس ليفرضوا سيطرتهم على عدد من مدن افريقية (تونس الحالية) ، فاتجه نحوهم حيث اجبرهم على الانسحاب نحو الصراء ، بينما رجع

هو الى تلمسان ، فاقام بها . فالمّ به مرض ، حار في علاجه الاطباء ، فحمل الى فاس في اول محرم سنة ٥٨٨ هـ / ١١٩٢ م ، ولما طالت علته وأيقن منافسوه بهلاكه . تطلعوا الى الحكم ، وكان من ابرزهم اخوه يحيى والي الاندلس الذي راح يدعو لنفسه متذرعاً بحجة ان المرض قد نال من الخليفة ، ولا أمل من شفائه ، ووصل به الامر ان اجبر اشياخ الاندلس على مبايعته ، اما الخليفة فقد كان يتماثل للشفاء شيئاً فشيئاً ، وبعد سبعة اشهر استعاد عافيته تماما فتحرك نحو عاصمته مراكش ، وهنا سارع اخوه يحيى لطلب العفو الا ان الخليفة رفض طلبه وحاكمه امام حشد من شيوخ الموحدين ، فصدر الحكم بقتله[١١] .

ثم انصرف الخليفة المنصور في تنظيم شؤون البلاد ، ومعالجة ما تقتضيه مصلحة العامة ، فانجز اعمالاً طيبة في شتى مناحي الحياة ، ولطول ما امضاه من وقت في تلك الاعمال ، اعتقد الكثير ان المرض قد حال بين الخليفة واداء فريضة الجهاد ، وقد شجع ذلك بعضاً من خصومه ، فتطاولوا على بلاده ، منهم الفونسو الثامن حاكم قشتالة الذي استغل غيابه ، فشن الغارات وعاث بالبلاد ، مزهواً بقوته ، حيث لم يجد بتلك البلاد من يقف بوجهه ، ويصده عن غيه وزيادة في الاساءة ارسل سفيراً الى الخليفة المنصور يحمل معه خطاباً يفيض غروراً وعنجهيةً ، ويستدعيه للمنازلة[١٢] . يقول فيه « ... فانه لا يخفى على كل ذي عقل لازب ، ولا ذي لب وذكاء ثاقب ، انك امير الملة الحنيفية ، كما اني امير الملك النصرانية ، وانك من لا يخفى عليه ما هم عليه رؤساء الاندلس من التخاذل والتواكل ، واهمال الرعية ، واشتمالهم على الراحات ، وانا اسومهم الخسف واخلي الديار ، واسبي الدراري وامثل بالكهول ، واقتل الشباب ، ولا عذر لك في التخلف عن نصرتهم وقد امكنتك يد القدرة وانتم تعتقدون ان الله فرض عليكم قتال عشرة منا بواحد منكم ، والان خفف الله عنكم ، وعلم ان فيكم ضعفاً ، فقد فرض عليكم قتال اثنين منا بواحد منكم ، ونحن الان نقاتل عدداً منكم بواحد منا ، ولا تقدرون دفاعاً ، ولا تستطيعون امتناعاً ثم حكي لي عنك انك اخذت في الاحتفال واشرفت على ربوة القتال ، وتمطل نفسك عاماً بعد عام تقدم رجلاً ولا ادري الجبن ابطأ بك ام التكذيب بما أنزل عليك ثم حكي لي عنك انك لا تجد سبيلاً للحرب لعلك ما يسوغ لك التقحم فيها فها أنا اقول لك ما فيه الراحة ، واعتذر عنك . ولك ان توافيني بالعهود والمواثيق والايمان ان تتوجه بجملة من عندك في المراكب والشواني ، واجوز اليك بجملتي وابارزك في اعز الاماكن عندك ، فان كانت لك فغنيمة عظيمة جاءت اليك ، وهدية مثلت بين يديك ، وان كانت لي كانت يدي العليا عليك ... »[١٣] .

ولما قرأه الخليفة المنصور استشاط غضبا ، فمزقه وكتب على قطعة منه قال الله العظيم : « ارجع اليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ، ولنخرجنهم منها اذلة وهم صاغرون » . الجواب ما ترى لا ماتسمع ، ثم سلمه الى السفير القشتالي ويضيف ابن ابي زرع ان المنصور استشهد ببيت للمتنبي :

ولاكتب الا المشرفية عنده ولا رسل الا ذا الخميس العرمرم[١٤]

وزيادة على ذلك فقد امر الخليفة بتوزيع نسخ من الكتاب على جميع ولاياته ، لاعمامه على الناس ، ايقاظاً لحماستهم واستعداداً لمواجهة الفونسو الثامن وحلفائه ، فهب الناس لنداء الجهاد ، وتطوع في جيشه عدد كبير قدر باكثر من « مائة ألف مقاتل منظم من غير عدد المتطوعين »[١٥] ثم عقد لابي يحيى بن ابي حفص كبير وزرائه على قيادة الجيش فيما اسند للقائد ابن صناديد عساكر الاندلس ، ولجرمون بن رياح على قبائل العرب ، ولمنديل المغزاوي على مغزاوة ولمحيون بن ابي حمامة على قبائل بني مرين ولتجليدين على قبائل هسكورة وسائر المصامدة ولمحمد بن منغفاد على قبائل غمارة ولابي خزر يخلف الاوربي على المطوعة ، ثم اعطى لعساكر الاندلس الميمنة ولزناتة والمصامدة وسائر قبائل المغرب الميسرة بينما وضع المطوعة والاغزاز والرماة في المقدمة وظلت قبيلة هنتانة في القلب ومعها القائد ابا يحيى ، ملتزمة كل قبيلة برايتها وخطتها في الحرب[١٦] .

اما الفونسو الثامن فقد راح يدعو للحرب المقدسة ضد المسلمين ، محشداً ما استطاع من قوات ، فاستجاب له الدون سانشو ملك النافار ، والفونسو التاسع ملك ليون . فيما تقدم الجيوش المتحالفة بطريق طليطلة الدون مارتن[١٧] ، كما وصلت اليه الامدادات من خارج اسبانيا فوصلته قوات من فرنسا والمانيا وهولندا وغيرهم بدعم من البابا نفسه حتى بلغت القوات المنضوية تحت امرته اكثر من مائة وخمسين الف جندي[١٨] ، لاكما يعزو البعض منهم ان الخسارة كانت سبب ضعف الاعانات ونقص التنظيم والانضباط في جيش قشتالة[١٩] ، ويضيف آخر انر استاجر فرقاً عسكرية من كاسكونيا وبروفانسيا[٢٠] ، واخيراً فقد قدر ابن ابي دينار مجموع قواته باكثر من ثلثمائة الف ما بين راجل وفارس[٢١] .

ومهما يكن من امر فقد خرج الخليفة المنصور من عاصمته مراكش يوم الخميس الثامن عشر من جمادي الاولى سنة ٥٩١ هـ / ١١٩٥ م ، فلما وصل قصر المجاز اشرف بنفسه على عبور قواته التي استقرت بالجزيرة الخضراء ، يرافقها فقهاء المغرب وصلحاؤه ثم ساروا باتجاه قوات الفونسو الثامن التي نزلت . في مدينة الارك الواقعة غربي موقع سيوداد الحالي « Ciudad real »[٢٢] . وقد كانت حصناً تابعاً لقلعة رباح ، عدت النقطة الحدودية الفاصلة بين قشتالة والمسلمين ، وتقوم

فوق ربوة عالية تصل الى نهر وادي يانه[٢٣] .

ولقد ابتدأت المعركة بتقدم قوة من جيش قشتالة قوامها سبعة الاف الى ثمانية الاف فارس نحو الموحدين ، فلم يتمكنوا من خرق جيش الموحدين ، وكرروا اندفاعهم مرة ثانية وفي المرة الثالثة اندفعوا باتجاه القلب وكانوا يظنون انه موقع الخليفة ، فتصدى لهم القائد ابو يحيى ، وابلى بلاءً حسناً ، وقاتل حتى استشهد ومعه عدد من فرسان هنتانة والمطوعة وغيرهم ، عندها اندفع ابن صناديد بجيوش الاندلس الى المعركة ، وهاجم قوات الفونسو ، حيث تمكن من احتلال ربوة الارك ، فعظمت المنازلة ، واشتد القتال ، فدفع الفونسو بقوة اقتحامية تقدر بعشرة الاف مقاتل ، فلما بان لتلك القوة عجزها ، فرت الى موقع الفونسو ، حيث باغتتها قوة الموحدين التي عزلتها عن جيش قشتالة ، ولما تم القضاء عليهم ، زحفت قوة الخليفة الموحدي يتقدمها اللواء الابيض وقد خط عليه : لا اله الا الله ، محمد رسول الله ، لا غالب الا الله ، ولما أيقن الفونسو بهزيمته وانه لا قدرة له على مواجهة الموحدين ، ولى هارباً ، فدخل حصن الارك ثم خرج من الجهة الثانية ، فاحاطت القوات الموحدية بالحصن وكانوا يظنون ان الفونسو بداخله ، ولما ايقنوا من هربه ، اضرموا النيران بالحصن ، بعد أن اخلوه من الناس ، واستثماراً للانتصار الذي تحقق ، زحفت القوات الموحدية وهي تطارد فلول الفونسو المندحرة حتى وصلت الى جبل سليمان ثم رجعت الى اشبيلية ، حيث امر المنصور الموحدي ببناء جامعها الكبير تخليداً لانتصاره[٢٤] .

وفي سنة ٥٩٢ هـ / ١١٩٦ م خرج الخليفة المنصور باتجاه قلعة رباح ففتحها ثم وادي الحجارة فمجريط (مدريد) واقليج حتى وصل طليطلة البالغة المَنَعَة فحاصرها وحرق زرعها ، ثم غادرها الى مدينة طلمنكة ففتحها ، وفي طريق عودته فتح البلاط وترجالة وفي رواية اخرى انه فتح اوريشا وبلش ووبده وقونقه وعرقلون ، بعدها دخل اشبيلية في صفر سنة ٥٩٣ هـ / ١١٩٧ م[٢٥] ، ويضيف ابن عذاري الى ان المنصور اجتاح مدينة طلبيره اكبر قواعد طليطلة واعظمها مَنَعَة[٢٦]

لقد تكبدت القوات القشتالية وحلفاؤها خسائر كبيرة في الارواح والمعدات ، فقد ذكر ابن عذاري ان عدد قتلاهم يقدر بنحو ثلاثين الفاً فيما استشهد من المسلمين نحو الخمسمائة مقاتل[٢٧] . بينما يزداد هذا الرقم عند مؤرخين آخرين من حيث تقدر خسائرهم بمائة الف وبستة واربعين الفاً عدا خسائرهم بالخيام والخيول والبغال والحمير والسلاح الذي احصي عدده باكثر من سبعين الفاً[٢٨] .

اما الذين وقعوا في الاسر ثم اطلق المنصور سراحهم فيذكر البعض ان عددهم خمسة الاف فارس[٢٩] بنيما يحصيهم ابن ابي زرع باربعة وعشرين الفاً[٣٠] وفي رواية ثالثة انهم كانوا ثلاثة عشر الفاً[٣١] ، ومهما يكن من امر فقد اعترف المنصور ان اطلاقه لاسرى الارك يعني عودتهم ثانية طلباً للثار[٣٢] .

لقد اجمع المؤرخون على قيمة انتصار الموحدين في الارك[٣٣] ، فبعد ان كان الناس قبلها يضربون الامثال بوقعة الزلاقة ويعظمونها ولا يذكرون غيرها .. جاءت الارك بنتائجها « هنئة الموقع عامة المسرة ... فانست كل فتح بالاندلس تقدمها ، وبقي بافواه المسلمين الى الممات ذكرها »[٣٤] ومن بين النتائج ان الفونسو الثامن « حلق راسه ونكس صلبانه ، وركب حماراً واقسم ان لا يركب فرساً ولا بغلاً حتى ينصر »[٣٥]

واخيراً فقد ادركت الممالك الاسبانية انها لا طاقة لها بمواجهة قوات المنصور بعد هزيمتهم الساحقة في الارك ، فمالوا الى السلم والمهادنة ، وبسبب الاحداث التي بلغته عن قيام بني غانيه مرة اخرى في افريقية ، وافق المنصور على عقد هدنة امدها خمس سنوات[٣٦] وفي رواية اخرى عشر سنوات وعاد الى بلاده منصوراً[٣٧] .

الهوامش

١ - تاريخ الحروب الصليبية . دار الثقافة (بيروت ، ١٩٦٧) : ١/ ١٢٤ - ١٤١ .

٢ - ابو شامة - الروضتين في اخبار الدولتين (بيروت ، بلا) ٢ /٧٨ ؛ ابن الاثير الكامل في التاريخ ، دار صادر وبيروت (بيروت ، ١٩٦٦) ١١ /٥٣٩ - ٥٤٠ .

٣ - شنترين ، وتسمى شنتمرية وهي من كور باجه ، وتقع على جبل كثير العلو ، وبينها بطليوس اربع مراحل للمزيد ينظر محمد بن عبد المنعم الحميري - الروض المعطار في خبر الاقطار ، حققه احسان عباس ، مكتبة لبنان (بيروت : ١٩٨٤) ٣٤٦

٤ - مؤلف مجهول - الحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية ، حققه سهيل زكار وعبد القادر زمام دار الرشد الحديثة (الدار البيضاء ، ١٩٧٩) : ١٥٧ - ١٥٨ .

٥ - ابن ابي زرع - الانيس المطرب بروض القرطاس ، دار المنصور للطباعة والوراقة . (الرباط ، ١٩٧٣) ٢١٨ .

٦ - محمد الرشيد ملين - عصر المنصور الموحدي ، مطبعة الشمال الافريقي ، ١٢٨ .

٧ - ملين - عصر المنصور الموحدي : ١٣٣ - ١٣٧ .

٨ - مارمول كربخال - افريقيا ، ترجمة محمد حجي واخرون ، مكتبة المعارف (الرباط ١٩٨٤) ١ /٣٥٦

٩ - ابن ابي زرع - الانيس المطرب : ٢١٩ .

١٠ - بنوغانيه : ينتسبون الى قبيلة مسوفه الصهاجية ، وجدهم علي المسوفي ، وكان لهم دور في دولة المرابطين ، وقد اشتهر من اولاده يحيى

ومحمد حيث تربيا في كنف الامير يوسف بن تاشفين ، ثم عقد لمحمد على الجزائر الشرقية سنة ٥٢٠ هـ - ١١٢٣ م ولاخيه على غرب الاندلس ، وقد نشبت بينهم وبين الموحدين صراع مرير كبد الطرفين خسائر جسيمة للمزيد ينظر ابن خلدون - ابعد دار الكتاب اللبناني (بيروت ؛ ١٩٦٨) ٦/ ٣٩٠ - ٤٠٨ ، مراجع عقيلة الفناني - سقوط دولة الموحدين ، منشورات جامعة بنغازي (بيروت ١٩٧٥) ١٦٧ وما بعدها .

١١ - ملين - عصر المنصور الموحدي ؛ ١٤٥ - ١٤٧ .

١٢ - ابن ابي زرع . الانيس المطرب ، ٢٢٠

١٣ - ابن الاثير - الكامل : ١٢ / ١١٣ - ١١٤ .

١٤ - الانيس المطرب : ٢٢١ .

١٥ - شذرات الذهب ، ٤ / ٣٠٦ .

١٦ - ابن ابي زرع - الانيس المطرب : ٢٢٥ - ٢٢٦ .

١٧ - ضيا باشا - الاندلس الذاهبة ، تعريب عبد الرحمن ارشيدات ، راجعه وحققه صلاح ارشيدات ، نشر وزارة الثقافة والاعلام (عمان ، ١٩٨٩) ٣/ ٢٨ .

١٨ - عبد الفتاح مقلد الغنيمي ، كيف ضاع الاسلام من الاندلس بعد ثمانية قرون ، (الملك فيصل ١٩٩٣) ٣١٠ .

١٩ - شارل اندري جوليان - تاريخ افريقيا الشمالية ، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلام ، الدار التونسية للنشر (تونس ، ١٩٨٥) ٢/ ١٠٥ .

٢٠ - مارمول* - افريقيا : ١ / ٣٥٧ .

٢١ - المؤنس في اخبار افريقية وتونس . تحقيق محمد شمام ، ط ٣ ، (بلا ، ١٣٨٧ هـ) ١٢١ .

٢٢ - ابن ابى زرع - الانيس المطرب ، ٢٢٣ ؛ جوليان - تاريخ افريقيا الشمالية : ٢ / ١٥٠

٢٣ - باشا الاندلس الذاهبة ، ٢ / ٢٨ .

٢٤ - ابن ابي زرع - الانيس المطرب : ٢٢٣ - ٢٢٨

٢٥ - ابن ابي زرع - الانيس المطرب ، ٢٢٩ ؛ يذكر مارمول ان المنصور دخل بقواته الى استرامادور وفتح مدينة فرسان المعبد ثم خربها وعقد صلحاً على مدينة ترجالة والمدن الواقعة على امتداد نهر تابو الى طلبيره ، افريقيا ؛ ١ / ٣٥٨ .

٢٦ - البيان المغرب في اختصار اخبار ملوك الاندلس والمغرب ، عُني بنشره امبروسي هويسي ميرانده ومساهمة محمد بن تاوين ومحمد ابراهيم الكتاني ، دار كريماديس (تطوان ، ١٩٦٠) ٣/ ١٩٩ ، ٢٠٢

٢٧ - البيان المغرب : ٣/ ١٩٥ ؛

٢٨ - ابن الاثير - الكامل : ٢/ ١١٥ ، احمد بن عب الوهاب النويري - نهاية الارب في فنون الادب ، تحقيق وتعليق مصطفى ابو ضيف احمد ، دار النشر المغربية (الدار البيضاء ١٩٨٤) ٤٣٩ .

٢٩ - ابن عذاري - البيان المغرب ؛ ٣/ ١٩٥

٣٠ - الانيس المطرب ؛ ٢٢٨

٣١ - ابن الاثير - الكامل : ١٢ / ١١٥ ؛ النويري - نهاية الارب : ٤٣٩ .

٣٢ - احمد بن خالد الناصري - الاستقصار لاخبار دول المغرب الاقصى ، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري ، مطبعة دار الكتاب (الدار البيضاء ، ١٩٥٤) ٢/ ٢٠٦

٣٣ - ابن ابي زرع - الانيس المطرب : ٢٢٨ - ٢٢٩ ؛ مجهول - الحلل الموشية ؛ ٥٩ ؛ شهاب الدين احمد بن محمد المقري - نفح الطيب ، تحقيق احسان عباس ، (بيروت ١٩٦٨) ٤ / ٣٨١ الناصري - الاستقصا : ٢ / ١٩٣ - ١٩٤ .

٣٤ - ابن عذاري - البيان المغرب : ٣/ ١٩٦ .

٣٥ - النويري - نهاية الارب ؛ ٤٣٩ .

٣٦ - ابن الاثير - الكامل - ١٢ / ١١٦ ؛ النويري - نهاية الارب ؛ ٤٤٠ ؛ بطرس البستاني - معارك العرب في الاندلس ، دار مارون عبود (بيروت ١٩٨٠) ٩٥

٣٧ - الغنيمي - كيف ضاع الاسلام من الاندلس ؛ ٣١٣ .

الرباعيات فن عربي النشأة

أ . د . عباس مصطفى الصالحي

كلية التربية ابن رشد / جامعة بغداد

قضية البحث ومنهجه

ليس من فن اشتجرت حوله الاراء ، وتضاربت الافكار ، واختلف الدارسون عليه ، كالرباعيات ، بحيث لم يقتصر ذلك على جانب واحد فقط ، بل تعداه الى : النشأة واصلها وتاريخها ، والتسمية ، والوزن ، والانتشار .

قد يتعرض تاريخ كل امة وادبها ، ولا سيما الامم ذات التاثير الفعال في مسار الحضارة الانسانية ، الى اجتهادات حادة ، قد تتناول وجوده وكيانه ، ومن ذلك ادب الامة العربية .

فكثيراً ما نفاجأ باراء تتسم بالغرابة ، تحملها دراسات ظاهرها العلمية ، وطلب الحقيقة ، ودوافعها معروفة احياناً ، وخفية حيناً . من ذلك مثلاً ما روّج له جمع من المستشرقين ، منهم :

تيودور نيلدله (١٨٣٦ - ١٩٣١) ، وفلهم الفرت (١٨٢٨ - ١٩٠٩) ، وداڤيد صمويل مرجليوث (١٨٥٨ - ١٩٤٠) ، وآرش برونيلش (١٨٩٢ - ١٩٤٥) ، وريجي بلاشير (١٩٠٠ - ١٩٧٣) وفرتس كرنكوف (١٨٧٢ - ١٩٥٣)[1] .

وقد شايع هؤلاء المستشرقين باحثون من الوطن العربي ، بحيث أدّت بهم دراساتهم ، حول الشعر الجاهلي ، الى إنكار غالبيته ، كما وقع - مثلاً - للدكتور طه حسين ، في كتابه : « في الشعر الجاهلي »[2] ، الذي احدث زوبعة هائلة ، لمّا تزل اصداؤها تتردد في مجالات البحث ، واروقة التحصيل ، على الرغم من انطلاقها في عشرينيات هذا القرن .

وكانت خلاصة دعاواهم ، شكاً صريحاً في كل ما وصلنا من تراث ، وبخاصة الشعر الجاهلي ، وانعكس ذلك على اخبار شعرائه ، وروايات احداثه .

وتجابه دارس الادب الاندلسي زوبعة اخرى من هذا القبيل ، حين يتعرض لدراسة الموشحات الاندلسية .

ان فريقاً يذهب الى اسبانية الموشحات ؛ لانها محاكاة للغناء الاسباني القديم ، وفي مقدمتهم المستشرق الاسباني خوليان ريبرا ، وتلميذه المستشرق غارسيا غومس ، ورافقهما باحثون عرب ، منهم : د . عبد العزيز الاهواني ، ود . مصطفى عوض الوكيل ، وبطرس البستاني[3] .

وذهب فريق الى كون الموشحات مرحلة ، تناهت اليها محاولات التجديد ، ابتداء من الجاهلية وانتهاء الى عصر ظهورها ، ساعدت البيئة الاندلسية ، بعناصرها السياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، والفنية ، على انضاجها ، وبلورتها ، منهم « نيكل » من المستشرقين ، و د . مصطفى الشكعة من العرب .

و« الرباعيات » هي الاخرى من تلك الظواهر الادبية التي طالها الشك : أهي دوبيت او ذوبيت « باعجام الذال » ، ام هي رباعي او رباعية ، ام مثناة او مثنوي ، ام سلسلة او دوبيتي ...؟

وطال الشك ايضاً مكان نشأتها ، اهي في غزنة (ايران) ، ام في بغداد (العراق) ؟

ان من الذين صرحوا بفارسية الرباعيات محمد خليل المرادي (١١٧٣ - ١٢٠٦هـ) ، فقد نص وهو يترجم للسيد علي الكيلاني : « اقول والدوبيت اول من اخترعه الفرس ونظموه بلغتهم ... »[5] .

ويقرر مصطفى صادق الرافعي (١٢٩٨ - ١٣٥٦هـ / ١٨٨١ - ١٩٣٧م) ، ان الرباعيات مما (اخذه ادباء العرب عن الفرس ، ويعرف عندهم بالرباعي ...)[6] ، ومثله السيد احمد الهاشمي (١٢٩٥ - ١٣٦٢) ، اذ قال : (ان وزن هذا الفن نقل من الفارسية الى اللغة العربية ...)[7] ، وكذلك معروف الرصافي (١٢٩٤ - ١٣٦٤هـ / ١٨٧٧ - ١٩٤٥م) عدَّ الرباعيات (من الاوزان الخارجة عن اوزان البحور الستة عشر ... فهو وزن اخذه المولدون من الفرس)[8] ، ود . ابراهيم انيس يقول : (هذا وزن يكاد الرواة يجمعون على انه فارسي ، صالح لنظم اللغة الفارسية ، واستعاره بعض الناظمين باللغة

العربية الفصيحة . في النادر من الاحيان ..)[9] . ومن الباحثين الجادين ايضا هلال نلجي ، فانه جارى الرأي السائد فقال : (كان الدوبيت قالبا شعريا قد دخل العربية من الفارسية ، واصطلح عليه بالرباعية ...)[10] ، ثم قال (ان رسالة ابن المرحل الاولى تواكب زمنيا اقدم ما كتب عن عروض الدوبيت في الفارسية ، رغم ان الدوبيت ذاته ابتكار شعري فارسي ...)[11] .

ومن المستشرقين ادورد جرانفيل براون (١٢٧٨ ـ ١٣٤٣هـ / ١٨٦١ ـ ١٩٢٦م) كذلك ، بقوله : (اما الرباعي والمثنوي فهما ضربان من النظم ابتكرهما الفرس ابتكاراً ، وفي رواية معروفة عن اول ما قيل من الشعر الفارسي ان « الرباعي » او « الدوبيت » هو اول ضروب النظم التي نشأت في ايران)[12] ، معتمداً على المصادر الايرانية .[13]

ونحن اذا دققنا النظر فيما ذكرنا من أراء ، وهي لا تمثل الا عينه محدودة مما قيل ، فسنجد ان اغلبية الباحثين المذكورين ، ان لم نقل كلهم ، قد قال ما قال جرياً مع الشائع ، وانطلاقاً من واقع راهن ، وليس تصديقاً له ، واعترافاً به ، ولم يلتفتوا الى مراجعة تلك الفرضيات ، وتدقيق ادلتها ، ومناقشة قائليها ، عدا باحثاً جاداً محققاً ، وهو د . كامل مصطفى الشيبي ، فانه قدم عملاً رائعاً بجمعه نصوص ما قيل من هذا الفن في الشعر العربي ، خلال عشرة قرون ، سماه « ديوان الدوبيت » ، قدم له بدراسة قيمة فريدة في بابها ، رائدة في مجالها ، لم تخلُ من هنات الريادة ، لكنها جديرة بالاعجاب والتقدير ، وهي ، على نفاستها ، تثير في اذهان الدارسين تساؤلات كثيرة ، تتناول الروايات والاحداث والشواهد .

ان لهذه الدراسة ، بل لكتاب « ديوان الدوبيت » ، افضالاً عليّ لا تحصى ، فزيادة على ما افدت منها من معلومات نادرة ، حول فن الرباعيات ، فقد وضعت يدي على اهم مصادر البحث ومراجعه ، وعلمتني تلك الدراسة ايضاً ، بما تكدس فيها من روايات واراء ، لم تنجُ من الاضطراب حيناً ، والتناقض حيناً أخر : بحيث يغتال بعضها بعضا ، اقول : علمتني كيف اتعامل بوعي مع المصادر والمراجع ، وما تحتمل ، وتحمل من فرضيات وتصورات وبتجرد ، ادعو الله تعالى ان يكون تاماً . سأتفرغ لمناقشتها ففي ذلك ما يغنيني عن مناقشة سواها .

حشد هائل من الاراء والاجتهادات ، قد استرعى فضولي العلمي ، واسره زمناً ليس بالقصير ، افحص الاراء ، واقلب الروايات ، واعود الى مصادرها ومراجعها ، ما استطعت الى ذلك . ووفقت غالباً ، حتى قررت المساهمة بجهدٍ ما في هذه المسألة ، مطبقاً مبدأ « الشك اساس اليقين » ، وهذا يقتضي دراسة دقيقة لكل ما قيل ، واستكناه السطور ، واستنطاق العبارات ، وما وراء العبارات ، ثم الوصول ، في نهاية المطاف ـ الى محصلة كل الجهود ، فأما قبول مطمئن ، او رفض معزز بالدليل ، معوض بالبديل .

وارتأيت ، تحقيقاً لمرامي الدراسة ، ان تشتمل عل ثلاثة اقسام ، يتولى القسم الاول عرض الروايات والاراء بحيادٍ تام ، واما الثاني ، فستكون مهمتي فيه مناقشة تلك الروايات والاراء ، بالادلة العقلية ، والنقلية ، ويحتوي القسم الثالث « استنتاجات » نهاية المطاف ، تكثف حصيلة تلك المناقشات ، وتسبق الاقسام الثلاثة مقدمة فيها عرض « قضية البحث ومنهجه » .

وختاماً آمل ان تقودني دراستي الى نتائج رصينة ، يرتضيها منهج البحث العلمي ، ويقبلها الحريصون على الحقيقة ، وان كانت لا تراود قناعات بعضهم السابقة .

ومن الله تعالى العون والتوفيق

روايات وآراء

تسميات الرباعية

عُرفت « الرباعية » بتسميات عدّة : مصطلحاً على هذا الفن ، منها :

١ ـ الدوبيت :

وهو المتداول بين مصنفي « العروض والقوافي » ، و« تاريخ الادب » وسواهما . ورد هذا في « سلك الدرر : ٣ / ٢٥٠ » ، و« ميزان الذهب : ١٥٦ » ، و« في التراث العربي : ١ / ٣٦٦ ، ٢ / ٢١٥ » ، و« الادب الرفيع : ١١٢ » ، و« ديوان الدوبيت » ، و« ديوان الكان وكان : ١٦ » ، و« الفلك المحملة بأصداف بحر السلسلة : ٥ ، ٨ ... » ، و« موسيقى الشعر : ٢١٦ » ، و« الشعر القومي في السودان » افرد د . عز الدين اسماعيل معظم الفصول لدراسة « الدوبيت » بوصفه فناً شعبياً شائعاً في السودان ، ومثله تناول احمد صادق الجمال هذا الفن في كتابه « الادب العامي في مصر في العصر المملوكي : ١٣٩ ـ ١٤١ » .

وفي الحقيقة ان المصادر والمراجع التي تناولت هذا الفن باسم الدوبيت كثيرة ، وكثيرة جداً ، تتعذر الاحاطة بها ، مهما رزق الباحث من سعة في الاطلاع ، وقوة في الذاكرة ، وما ذكرناه ان هو الا شيء قليل منها ، اوردناه على سبيل المثال ، لا الاستقصاء والاحاطة .

قيل : « الدوبيت » كلمة فارسية ، معناها : بيتان ، على حد تعبير د . مصطفى جواد[١٤] ، والواقع انها « لفظة مركبة من لفظتين ، فارسية دو) معناها اثنان ، وعربية (بيت)»[١٥] .

٢ ـ وللرباعية اسم اخر هو « الذوبيت » ، وهذ ما صرح به المرادي في ترجمة السيد على الكيلاني [١٦] ، بقوله : (... وقد اشتهر باعجام داله)[١٧] .

ويبدو ان الرصافي يشير الى هذا الراي بقوله : « وقال بعضهم ان لفظة « دوبيت » عربية ، افسدتها العامة ، وان اصلها « ذوبيت »[١٨] .

وقد أقرّ د . مصطفى جواد هذا الراي ، وعززه بقوله : « وفي قول المرادي : انه اشتهر باعجام داله ، اي (ذوبيت) فائدة جليلة ، فمنه يظهر لي ان الغناء المعروف في عصرنا بابوذية هو تصحيف [ذوبيت] وذلك لان العامة يقلبون احياناً الكلمة ، فالذوبيت صارت « البوذيت » ثم صارت « بوذية » ، والتحريف في اللغات يحتمل اغرب الاشياء ، واعجب الاطوار من قلب وغيره »[١٩] .

ويذهب الرصافي الى تعريبه بالمصطلح « ذو بيتين »[٢٠] ، معتمداً على ما جاء في مقدمة ابن خلدون .

٣ ـ وورد ايضاً « دوبيتي » ، قال صاحب القاموس المحيط[٢١] في معاني « المثناة ... او هي الغناء ، او التي تسمى بالفارسية دوبيتي » .

٤ ـ وعرف هذا الفن ايضاً بـ« الرباعي » لاربعة مصاريعه[٢٢] ، وينقل د . الشيبي عن شمس قيس قوله : « ان المستعربة من شعراء الفرس اطلقوا على الدوبيت لفظ « الرباعي » على مقولة ان بحر الهزج ياتي في اشعار العرب مربع الاجزاء ، وبذلك يقوم كل بيت فارسي من هذا الوزن مقام بيتين من الشعر العربي »[٢٣] ، وورد المرادي ذلك عند حديثه عن الدوبيت « يقال له الرباعي ، لاربعة مصاريعه » ، ويلاحظ ان تعليل التسمية عندهما مختلف .

اما براون فيعرفه بقوله : « عبارة عن بيتين ، ومن اجل ذلك اسموه في الفارسية باسم الـ« دوبيت » ، وعبّره البعض اربعة شطرات ، ومن اجل ذلك سموه بالرباعي . او الرباعية »[٢٤] .

ومن المفارقات الغريبة ما صاغه د . الشيبي قائلاً : « وهكذا استعمل الفرس المصطلح العربي « رباعي » ، واستعمل العرب المصطلح الفارسي « دوبيت » علماً على هذا الضرب ؛ تمييزاً له ، وتحديداً للمقصود منه »[٢٥] .

٥ ـ المثناة :

ومن الباحثين د . مصطفى جواد قال : « ... وكان الدوبيت العراقي القديم نظماً ولحناً معاً ، وسمته العرب المثناة »[٢٦] .

وبعضهم يطلق اسماً آخر على الدوبيت « إذ وصفه الاستاذ علي الخاقاني بالمثنوي »[٢٧] .

٦ ـ السلسلة :

قال د . مصطفى جواد : « ... ووزن الدوبيت يعرف ايضاً ببحر السلسلة »[٢٨] ، ومثله معروف الرصافي بقوله : (ويسميه الشعراء المحدثون بحر السلسلة ...)[٢٩] .

تلك ـ اذن ـ اشهر التسميات التي اطلقت عبر التاريخ على هذا الفن ، استقيتها من المصادر التي تيسر لي الاطلاع عليها .

وزن الرباعيات

للرباعيات وزن عند الفرس ، ينسبونه الى شاعرهم الرودكي (عبد الله بن جعفر بن محمد السمرقندي ، نحو ٢٦٠ ـ ٣٢٩هـ / ٨٧٣ ـ ٩٤١م) ، في قصة سنتعرض لها في فصل قابل ، وذلك الوزن « من فروع الهزج » وذكرته المصنفات الفارسية ، هو :

مفعولُ مفاعيلنْ مفاعيلنْ فاع « اربع مرات »[٣٠]
لكنه يرد في كتب العروض العربية[٣١] :
فَعْلُنْ متفاعِلُنْ فعولنْ فَعْلُنْ « اربع مرات »

وقد نبه هلال ناجي[٣٢] على ان ابن سعيد المغربي (علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك ... مؤرخ اندلسي من الشعراء ، العلماء بالادب ، .... ٦١٠ ـ ٦٨٥هـ / ١٢١٤ ـ ١٢٨٦م) ، قد جهر برأي يتعلق بوزن الرباعيات ، بقوله : « وتولع المشارقة بملح الدوبيتات كما تولع المغاربة بالموشحات ، واستنبطوا وزنها من بحر الرجز ، ولا يتعدون بها وزناً واحداً ، وفيه متحرك وساكن زائد على الرجز المثلث المسمى بالمشطور » .

ولكن د . عز الدين اسماعيل يصوغ رأي المغربي باسلوبه ، مبسطاً ، ومتمثلاً ، فيقول : « اننا لو تركنا الصورة الوزنية التجريدية التي وضعها العروضيون للدوبيت ، وتأملنا في

الشعر ذاته ، في النماذج التي بين ايدينا ، واحسنا الاستماع اليها ، لاحسسنا منذ البداية احساساً تلقائياً بان موسيقى هذا الشعر اشبه ما تكون - في صورتها المجردة - بموسيقى بحر الرجز المعروف ، وهكذا تتساقط نغمات هذا البحر في اسماعنا ويتراءى لنا شيئاً فشيئاً هيكله البنائي الموسيقي ، كل ما في الامر اننا سنحس بشيء غريب في هذا الهيكل لم نألفه من قبل في وزن الرجز ، شيء يتمثل في المقطع الاول المكوّن من حركة فساكن من كل شطرة فلو اننا تجاوزنا المقطع الاول من كل شطرة لكانت البقية على زنة الرجز .

ثم يستشهد بقول الشاعر :

اصبحت متيمـــاً حـــزينـــاً بـــالي
مضنى ، ولقـــد تغـــيرت احـــوالي
يـــا جمـــع شـــوامتي ويـــا عـــذالي
قلـــوا عـــذلي فليس قلبي خـــالي

التقطيع : أصْبَحْـ تُ متيماً حزيناً بالي
الوزن : فعلن متفاعلن فعولن فعلن

ويقول : « ولكننا نستكشف فيها وزن الرجز لو اجرينا التقطيع ، والوزن على النحو التالي :

التقطيع : (أصـ) بحت متيـ يماً حزيـ نا بالي
الوزن : (فع) مستعلن متفعلن مفعولن

فبدون المقطع الاول يكون لدينا ثلاث تفعيلات محورة تحويراً مقبولاً في وزن الرجز ، اصلها مستفعلن مستفعلن مستفعلن ... »[33].

والصفدي (خليل بن ايبك ٦٩٦ - ٧٦٤هـ) يخرج وزن الرباعيات من بحر الوافر ، « الا انه دخل فيه العقص ، وهو اجتماع الخرم ، بالراء ، والنقص ، فيخلفه مفعول (بعد مفاعلتن : اساس الوافر) بتحريك اللام ، وشاهده :

لـــولا ملـــك رؤوف رحيم
تـــداركني بـــرحمتـــه هلكت[34]

وتابعه في ذلك الدماميني (بدر الدين محمد بن ابي بكر بن عمر المخزومي القرشي ٧٦٣ - ٨٢٧هـ) ، « فرد على من ذكر ان هذا الوزن مهمل بانه ليس هذا من الاوزان المهملة ، بل هو من بحر الوافر ، غير انه معقوص الاول (= مفعول) والرابع (= مفعول) معقول الثاني (= مفاعلن) والخامس (= مفاعلن)»[35].

هذه هي اهم الاراء التي سيقت حول وزن الرباعيات ، وهي محصورة كما هو واضح في اوزان الخليل : الهزج ، الرجز ، الوافر .

انتشار الرباعيات

بالنسبة الى انتشار الرباعيات ، فللدكتور الشيبي ، صانع « ديوان الدوبيت » راي نصه : « قد طافت المشرق العربي والعالم الاسلامي ، لكنها لم تعبر مصر الى شمال افريقية ، ولم تصل الى الاندلس اصلاً ، وقد جهدنا في البحث عن رباعية واحدة من نظم شاعر مغربي او اندلسي ، فذهبت جهودنا سدى ... »[36].

وكرر رايه هذا في معرض رده على مؤلف « روضة التعريف بالحب الشريف » لا براده رباعيتين لمصنف مغربي بقوله : « ان هاتين الرباعيتين - في ورودهما لمصنف مغربي - تشكلان ظاهرة نادرة جداً ؛ اذ الملاحظ ان هذا الفن لم يعبر الحدود المصرية من ناحية الغرب لا براً ولا بحراً ، ولم تتضمن كتب الادب والتاريخ والتراجم نماذج من نظم رجال من هذه الناحية من العالم العربي ، الا متأخراً جداً ، وتحت اسم الموشح »[37].

وبعد صدور ديوان الدوبيت (١٣٩٢ - ١٩٧٢) بسنتين يفاجئنا الباحث المحقق هلال ناجي بنشر رسالتين بعنوان : « رسالتان فريدتان في عروض الدوبيت » ، من تصنيف ابي الحكم مالك بن عبد الرحمن ابن المرحل المالقي السبتي ٦٠٤ - ٦٩٩هـ . ويعلق « وابن المرحل يؤكد ان الدوبيت من اوزان الكلام المنظوم المستقيم البناء ، المستعذب في الغناء ، فيكشف عن حقيقة مهمة ، هي ان الدوبيت في عصره كان يغنى به فيستعذب (فالترانه) اذن زحفت الى المغرب ، ولم تقتصر على المشرق كما توهم بعضهم »[38] . ويصرح في الهامش (٣٩) : « وفي طليعة هؤلاء الواهمين الدكتور كامل مصطفى الشيبي ... »[39] .

ويبقى انتشار الرباعيات في الاقطار الاسلامية من المسائل المتفق عليها ؛ اذ لا سبيل الى نكرانه ، وثمة نصوص تؤيده ، فقد وصلت الهند ، وتغلغلت في الاوساط الاسلامية ، ونظمت كذلك باللغة الاردية ، واللغة التركية ، سواء في تركيا ، او في اقاليم الجمهوريات الشرقية[40] ، من الاتحاد السوفياتي سابقاً .

كما يبدو ان فن الرباعيات « يتمتع في السودان ، بواديه وحواضره ، بشعبية لا يتمتع بها الشعر الفصيح ، بل لعلنا لا نغلو في القول حين نذهب الى ان الاغلبية - بما في ذلك المدنيون والمتعلمون - ينفعلون بهذا الفن الشعري اكثر من انفعالهم بالشعر الفصيح ، وهذه هي السمة الشعبية لهذا الفن القولي »[41] .

وسواء انتقل هذا الفن من مصر ، او غيرها الى السودان

عن طريق درب الاربعين او عن طريق الصحراء الشرقية ! فهذا لا يؤثر في شعبيته ، ولا يغير من كونه باقياً الى يومنا مزدهراً ، وان ابتعدت لغته عن الاعراب ، لكن مفرداتها (في معظمها فصيحة ، بل من اللهجات العربية القديمة)[٤٢]

مناقشات

اولية الرباعيات

حكاية الرودكي :

لقد تحدثت كتب الطبقات الفارسية ، القديمة والحديثة ، عن اولية الشعر في ايران ، ونسب الى بهرام كور ، الملك الساساني الشهير ، بواكير في الشعر الفارسي ، كما روت مصادر عربية ، في اواسط القرن الاول الهجري ، جملًا موزونة مقفاة ، ومع ذلك فمن الصعوبة تحديد اسم اول شاعر نظم باللغة الفارسية في العهد الاسلامي ، ولا سيما ان لغة الادب ظلت مقتصرة على اللغة العربية ، ولكن ليس من المستبعد ان ينظم شعراء ، ظلوا مجهولين ، شيئاً باللغة الفارسية ، ويبقى ذلك الشيء ، على اية حال ، نادراً جداً .[٤٣]

« وعلى هذا لا يمكن ان نعين احداً مبتكراً ، او واضعاً في الشعر ، وليس من الميسور الاعتماد على ما تذكره احياناً كتب الطبقات ؛ فانها مشوهة الى حدٍ ما ، وخالية من التحقيق ، فقد يكفي ان يسند احد المشهورين اولية الشعر الى أحد الشعراء بدون تحقيق ، فيجاريه غيره »[٤٤]

اذا صمم اي باحث على ربط ظهور الرباعيات بشخصية الشاعر الفارسي الرودكي (أبي عبد الله جعفر بن محمد بن حكيم بن عبد الرحمن بن ادم السمرقندي نحو ٢٦٠ ـ ٣٢٩هـ) ، فلا اعتقد انه سيوفق في اثبات ذلك ، فمن (المفروض ان تروي لنا المصنفات شيئاً من رباعيات الرودكي القديمة ، لكن الزمان لم يبق على رباعية واحدة من رباعياته ، وانما بددها في زوايا نسيانه)[٤٥] ، كي يتسنى للباحث تحليلها . واثبات نسبتها ثم يصح له ان يعده من شعراء الرباعيات ، اما وقد ضاعت ، فليس بوسعنا الاقرار بالحكايات السانحة ، مصدراً لظاهرة خطيرة في مسيرة الشعر العربي .

ان الرودكي ممن (يبالغ النقاد في تقدير شعره ، فيقول صاحب « لباب الالباب » ان اشعاره بلغت المئة دفتر ... ومما يؤسف له ان الباقي من ذلك كله جزء ضئيل من الديوان ، وكثير مما ورد فيه ينسب الى قطران التبريزي[٤٦] ، وقد وقع الخلط بين الشاعرين عند المتاخرين عن طريق الاشتباه في اسم ممدوحيهما)[٤٧] .

ومن الملاحظ ان الفاصل الزمني بين الشاعرين كبير جداً ، يتجاوز القرن ، فضلًا عن ان الرودكي من الشعراء في عصر الساساني ، وقطران من شعراء السلاجقة ، ومع ذلك ، فان صانع ديوان الدوبيت د . الشيبي ينقل عن شمس الدين قيس الرازي ، المتوفى بعد سنة ٦٢٨هـ ، اي بعد وفاة الرودكي (ت ٣٢٩هـ) بحوالي ثلاثة قرون ، انه ذكر في كتابه : « المعجم في معايير اشعار العجم » : ان الرودكي ... كان يتجول في بعض متنزهات غزنين ... فلفت نظره جماعة من الصبية يلعبون بالجوز ، وكل منهم يحاول ان يدفع جوزته بيده لتدخل حفرة صغيرة ، يربح اللعب من ادخل جوزته فيها ، وكان بين الصبية واحد بين العاشرة والخامسة عشرة ، فكان منغمراً في اللعب ، مندفعاً فيه ، يردد في اثناء لعبه ـ اسجاعاً متوازنة في التيه بنفسه ويلعبه ، ولا يكف عن الرقص والميلان مع حركات جوزته ، وبينا الصبية يلعبون ، اخطأ هذا الصبي الرمية ، فضلت جوزته سبيلها الى الحفرة مرتين على ولاء ، فما كان منه في المرة الثالثة الا ان اخذته الحمية ، واستبدت به الحماسة ، وجعل يخاطب جوزته بعبارة رقيقة ، صدرت عفو الخاطر وعلى السليقة فجعل يهتف بها :

غلتان ، غلتان ، همى رود تابن كو

اي : تتدحرج ، تتدحرج ، ماضية الى قعر الحفرة

واسترعت هذه العبارة الموسيقية التي قالها الصبي مترنماً حاسة الرودكي الموسيقية فاعجبه ايقاعها ، ووجد فيها وزناً مقبولًا ونظماً مطبوعاً ، وراح يعرضها على مقاييس العروض ، فوجدها من فروع الهزج ، انتهى الامر بوقوع هذا الوزن منه ـ بعد اصلاحه ـ موقع الاعجاب والقبول ، فنظم على نسقه اشعاراً ، اقتصر من كل قطعة منها على بيتين ، احدهما مصرع ، والاخر مقفّى)[٤٨] .

هذه هي حكاية الرودكي مع الرباعيات ، ثم يستطرد د . الشيبي قائلًا « ومهما يكن فيبدو ان ذلك [ويقصد زمن اكتشاف الرودكي لوزن الرباعيات] قد وقع في اواسط القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) » .[٤٩]

ولا ادري باي شيء اعلق ؛ فان ولادة الرودكي قد وقعت في اواسط القرن الثالث الهجري (نحو ٢٦٠هـ) .

فاين ـ اذن ـ موقع الحكاية زمنياً ، وما دوره فيها ؟!

وعن الرودكي يقول د . محمد غنيمي هلال : « وكانت له خبرة بالموسيقى يوقّع اشعاره بصوت عذب ، حتى لقد حيكت

اساطير حول براعته الموسيقية ، وعذوبة صوته »[٥٠] .

واعتقد ان حكاية صلته بالرباعيات واحدة من تلك الاساطير .

اما براون[٥١] فيقول : « ولدى دولتشاه قصة اخرى ينسب فيها اول سطر فارسي موزون الى طفل انشده وقت لعبه ومرحه . هذا الطفل هو ابن يعقوب بن الليث الصفاري زعيم الاسرة الصفارية (٨٦٨ - ٨٧٨م) » .

ولكن د . الشيبي صاغ هذا الخبر بصورة اوضح ، بقوله : « وحرص المصنفون من الفرس على الرفع من شان هذا الاكتشاف ، فزعموا ان الصبي المذكور [يقصد الذي سمعه الرودكي] كان ولداً للامير يعقوب بن الليث الصفار ، الذي حكم ايران بين (٢٤٧ - ٢٦٥هـ / ٨٦١ - ٨٧٩م) ، وان رجال الحاشية هم الذين فطنوا الى « ان هذا المصراع ضرب من الهزج ، ثم اضافوا اليه مصراعاً ثانياً من البحر نفسه ، وعقبوا عليه ببيت اخر ، واسموا الجميع دوبيتي اي ذابيتين ، وهو رأي لا يستقيم » .

ثم يعلق في هامش (٤) : (وواضح من هذا الخبر ان المؤرخين ارادوا لهذا الاكتشاف ان يقترن بشخص عظيم ، يستحق هذا الشرف الادبي الكبير ، والا فان هذا الحدث يتقدم سنين طويلة عن التاريخ المقدر له ، بحيث يلغي من تفصيلاته اي دور للرودكي الذي ولد بعد وفاة الصفار نفسه ، وهذا امر يبدو غير طبيعي اصلاً . وان كان كل شيء محتملاً[٥٢] .

حقاً انه لامر غير طبيعي ، مع قول د . الشيبي محتاطاً : « وان كان كل شيء محتملاً » .

فكيف يحرص المصنفون من الفرس على الرفع من شان اكتشاف الرودكي ، قبل ولادة الرودكي ؟

مؤرخ الرودكي يتجاهل قصة الامير الصغير :

ولست ادري لماذا جوز سعيد نفيسي لنفسه - وهو مؤلف اوفى المراجع عن الرودكي -[٥٣] اهمال قصة الامير الصغير[٥٤] الم يفتح بعمله هذا الباب امام الاخرين لاهمال حكاية صبي الرودكي ؟ ولا سيما انها قصة مهلهلة ، ينقصها السند المتين في روايتها ، وتفتقر الى النصوص ، التي قد تنفع في اثباتها ، ولو ان النصوص ، ومنها المعلقات ، لم تدرأ الشك عن الشعر العربي القديم ، على الرغم من بدء تدوينه بعد قرن ، او اقل قليلاً ، من تاريخ انصرام العصر الجاهلي[٥٥] ، وليس ثلاثة قرون ، كان الادباء والمؤرخون الفرس خلالها ميهورين بالثقافة العربية : لغةً ، وشعراً ، وبلاغة ، وعروضاً[٥٦] ، في وقت (ان اوزان الشعر الفارسي ما زالت مجهولة للباحثين ، وهي تلك الاوزان التي يمكن ان تعد فارسية اصيلة ، وذلك لضياع الشعر الفارسي القديم)[٥٧] .

اذا استطاع سعيد نفيسي - وهو يؤرخ الرودكي - ان يتجاهل قصة الصبي الامير : لانها - على ما يبدو - لم تصح لديه ، او لانه وجدها تنقض دور شاعره الرودكي ، وتمحق صلته باكتشاف الرباعيات ، فمن حق اي باحث آخر ان يتجاهل بالمقابل قصة الرودكي ؛ ولا سيما ان كلتا الروايتين لا تمتلكان مقومات التصديق بهما ، وكلتاهما متداعيتان ، اذ قضت كل واحدة منهما على الاخرى .

ومن الواضح ان ظهور مثل هذه الدعوات قد زامن (تحقيق الكيان السياسي لايران ، ممثلاً في الدويلات الايرانية التي قامت في العصر العباسي ، منذ الطاهريين والصفاريين ، والسامانيين ، ثم الدولة الغزنوية وما وليها)[٥٨] ، حيث شرع الفرس يصطنعون لانفسهم لغة ادبية ، هي اللغة الدرية[٥٩] ، وبدأوا يكتبون بها رسائل السلطان ، وتكتب بها القصص[٦٠] ، منطلقين من شعورهم القومي ، بعيداً عن اللغة العربية ، ويعد دقيقي (ابو منصور محمد بن احمد المتوفى سنة ٣٦٨هـ / ٩٧٨م) اول شاعر بدأ بنظم الشاهنامه بتلك اللغة ، مبتدئاً (بعهد كشتاسب ، وهو الملك الذي ظهر في ايامه « زرادشت » ، وفي هذا تتضح ميول دقيقي الزرادشتية ، ولذلك يسمونه الشاعر الزرادشتي)[٦١] .

فلا غرابة - اذن - ان تتجه انظار البعض منهم ، الى اختلاق الحكايات ، وانتحال الروايات ، وادعاء الاكتشاف والابتكار ، تعزيزاً لتوجهات سياسية جديدة ، واحياء لامجاد قومية مزعومة ، ومن ذلك قصة الرباعيات .

الصوفية والرباعيات :

طالما ان الرباعيات قد استهوت الصوفية والزهاد ، فلهجوا بها في خلواتهم ، وغنوها في مجالسهم ، فعلينا - والحال هذه - استقصاء شيء من اخبارهم ، وتسقط بعض رواياتهم واقوالهم ، لعلنا نظفر بما يهدينا الى حقيقة نشأة هذا الفن ، وزمان ظهوره ، بعدما تبين لنا بطلان ان (وزن الرباعي المعروف الذي يزعم صاحب المعجم ان اختراعه كان في زمن الرودكي)[٦٢] ، على حد تعبير الباحث الايراني د . علي اكبر فياض .

يقول السلمي (ابو عبد الله عبد الرحمن بن الحسين بن محمد النيسابوري ، ت ٤١٢هـ) في معرض حديثه عن الصحبة :

(ومن ادابها القيام باعذار الاخوان والاصحاب، والذب عنهم، والانتصار لهم. سمعت ابا الحسن علي بن عمر القزويني يقول: سمعت ابا الحسين المالكي يقول: قيل للجنيد: ما بال اصحابك يأكلون كثيراً. قال: لانهم لا يشربون الخمر فيكون جوعهم اكثر. وقيل له: فما بالهم بهم قوة شهوة. قال: لانهم لا يزنون ولا يدخلون تحت محظور. فقيل له: فما بالهم لا يطربون اذا سمعوا القرآن: قال: ما في القرآن ما يوجب الطرب. وكلام الحق نزل بامر ونهي، ووعد ووعيد فهو يقهر. قيل: فما بالهم لا يطربون عند القصائد. قال: لانها مما عملت ايديهم. قيل له: فما بالهم لا يطربون عند الرباعيات. قال: لانه كلام العشاق والمجانين [وفي نسخة متحف شهيد علي في قسطنطينية رقم ١١١٤، وهي قسم من مجموعة: ص ٥٣ ـ ٥٤، قيل له: فما بالهم يطربون عند الرباعيات. قال: لانه كلام المحبين والعشاق]. قيل له: فما بالهم محرومين من الناس. قال: انا لا اقول في هذا شيئاً، ولكن قال استاذنا محمد القصاب حين سئل عن ذلك، فقال: لثلاث خلال: احداها ان الله لا يرضى مال هؤلاء لهؤلاء، والثانية انه لا يرضى ان يجعل حسناتهم في صحائف هؤلاء، والثالثة انهم قوم لا يشيبون الا الى الله، فمنعهم عن كل شيء سواه، وافردهم له)(٦٣).

محاورة الجنيد ودلالتها الزمنية :

ان محاورة الجنيد (بن محمد بن الجنيد البغدادي الخزاز، ابي القاسم: صوفي من العلماء بالدين، مولده ومنشأه ووفاته ببغداد، ت ٢٩٧هـ / ٩١٠م)(٦٤)، حول الرباعيات بالذات، تشعرنا بانها كانت شائعة شيوعاً واسعاً، حتى بات لها محبذون ومعارضون، ولا سيما انا وجدنا التساؤل عنها قد تم بتلقائية كاملة، وكذلك كان الرد، وكل هذا يؤيد تبلور الرباعيات وانتشارها في اوساط الصوفية، في بغداد، ولما كانت (عملية الاختراع والانتشار ... تدوم في الغالب قرناً، او يزيد)(٦٥). على حد تعبير د. كامل مصطفى الشيبي نفسه، وهو راي معقول جداً، مع افتقاد وسائل النقل والنشر السريعة المالوفة في عصرنا، وبالقياس على سنة وفاة الجنيد البغدادي (٢٩٧هـ) يكون ابتداء ظهور الرباعيات في حدود سنة (١٩٧هـ)، وحينئذ لابد ان تنضوي رباعية الامام الشافعي (محمد بن ادريس بن العباس بن عثمان بن شافع الهاشمي ١٥٠ ـ ٢٠٤هـ / ٧٦٧ ـ ٨٢٠م) تحت العباءة الزمنية للرقم (١٩٧)، وهي:

رزقي يـــاتي وخـــالقي يكفلـــه
لا افضـــل غـــيره ولا اســالـــه
ان كنت اظن انـــــه من بشر
لا قـــدره اللـــــه ولا يسره(٦٦)

ويمكن قبول كذلك ما نسب الى ابي علي الخواص (ابراهيم بن احمد الصوفي المتوفى سنة ٢٦١هـ او ٢٨٤هـ):

هـــذا ولهي وكم كتمت الـــولهـــا
صـــوناً لحديث من هـوى النفس لهـــا
يـــا آخـــر محنتي ويـــا اولهـــا
ايـــام عنـــاي فيـــك مـــا اطـــولهـــا(٦٧)

ان محاورة الجنيد البغدادي لتسقط ايضاً دور الرودكي (نحو ٢٦٠ ـ ٣٢٩هـ)، ودور ابن الامير يعقوب بن الليث الصفار الذي حكم ايران (٢٤٧ ـ ٢٦٥هـ)، قبلها ويتم ذلك بتطبيق مبدأ « ان عملية الاختراع والانتشار التي تدوم في الغالب قرناً او يزيد »(٦٨)، اضافة الى كل ما مر من مناقشات وتفنيدات.

العراق منطلق التجديد :

لقد كانت بيئة العراق الثقافية والفنية، بمدنه العلمية العريقة: بغداد والبصرة والكوفة والموصل والحلة، وبطائحه ومربده، وسهوله وجباله، البودقة التي انصهرت فيها تجارب الشعراء، والعلماء، والادباء والفنانين، ومحاولاتهم، فتبلورت ابتكاراتهم، وتكثفت اكتشافاتهم، لتنتشر في اصقاع العالم العربي والاسلامي، تحملها قوافل الحجاج والتجار والعلماء وطلبة العلم. فكانت نماذج بهرت المتلقين، لانها وليدة العبقرية، وخلاصة الملكات الفنية، ونتاج الاذواق النقدية، ورحيق التلاقحات العقلية.

فعدا الموشح والزجل، الفنين اللذين اتحفتنا بهما البيئة الاندلسية، فان الفنون الاخرى قد انطلقت من العراق، المواليا، والكان وكان، والقوما، وبحر السلسلة، والبند، زيادة على المربعات والمخمسات، والمعشرات، والمسمطات ... الخ كلها انطلقت من احضان هذا البلد العريق، انه العراق.

فعلام ـ اذن ـ يشذ فن الرباعيات، وتسوغ له روايات مفتعلة، واخبار ساذجة، رفضها مؤرخون ايرانيون قبل سواهم، فهي لا تصمد ازاء النقاش المنطقي، اقول يسوغ لهذا

الفن عقوقه للبيئة التي نشأ فيها ، وازدهرت فيها فنون كثيرة ، معربة وغير معربة سواه ؟

بشار بن برد له رباعية :

ليس من المقبول التسليم بظهور فن الرباعيات دون حلقات تسبقه في مجال التطور النوعي ، ومراحل تهيىء له خصائصه الفنية ، فالمصادفة وحدها قد تصلح مناسبة لاكتشاف بعض السمات لفن ما ، ولكنها لا تصلح ظرفاً لابتكار نوع ادبي متكامل مثل الرباعيات .

فهذه الظاهرة لم تكن مقطوعة عن مسيرة الشعر العربي في العراق ، فقد برزت على صفحات التاريخ الادبي محاولات تشبهها ، او انها قريبة منها الى حد كبير ، بل كبير جداً ، لانها تحمل خصائص واضحة من هذا الفن ، تروى في هذا المصدر ، اوذاك ، ونحن لا نستطيع من منطلق الحياد العلمي - ان نتجاهل محاولة بشار بن برد (٩٥ - ١٦٧هـ) ونجعلها بمعزل عن مسيرة فن الرباعيات ، وذلك حين انشد شعره المشهور ، من الهزج :

ربابة ربة البيت
تصب الخل في الزيت
لها سبع دجاجات
وديك حسن الصوت

لقد توافر في محاولة بشار كل خصائص الرباعية الشكلية ، من وزن وتقفية وبنية فنية (المصاريع الاربعة) ، وهذه مسائل لا علاقة لها بمبدأ « لكل وجه موضع » ، او « مراعاة مقتضى الحال » .

فتلك مسالة بلاغية تخص المضمون ، اي المعنى ، بالدرجة الاساس ، وهو الذي عناه بشار بقوله : « .... فهذا عندها من قولي احسن من « قفا نبك .. »[٦٩] عندك ، وان قضية المضمون مما ينبغي مراعاته في انواع الفنون كافة ، ولا تقتصر على فن دون آخر ، والرباعية شكل بالدرجة الاولى .

ونص بشار بن برد هذا مما لا سبيل الى نكرانه ، كما ان زمانه معروف ، وهو حياة الشاعر نفسها (٩٥ - ١٦٧هـ) ، التي لا تتعدى اواسط القرن الثاني الهجري ، الا قليلاً ، اذا افترضنا انه نظمها في السنة التي قتل فيها .

اما موطن انطلاق هذه المحاولة فهو العراق حتماً .

رأي محايد :

لقد علق المستشرق الالماني يوهان فك على محاولة بشار بقوله : « وربما يرجع الى القرن الثاني ايضاً تاريخ الدوبيت ، او الرباعي الذي تتحد مصاريعه في القافية ، ما عدا المصراع الثالث ، فهذا القالب الذي لعب ، فيما بعد ، دوراً عظيماً في الشعر الفارسي ، يقرن ايضاً ببشار بن برد ، اذ روي انه قال في بائعة طيور كان يشتري منها الخل هذا الرباعي ... »[٧٠] .

شعراء آخرون : حماد عجرد

لم تكن رباعية بشار يتيمة ، اذ لم يقتصر هذا النظم عليه ، ليقال محاولة لعبت المصادفة في خلقها ، بل يروى لمعاصره ، وخصمه حماد عجرد (ت ١٦١هـ) ، (من رباعياته غير الدينية قوله يهجو غيلان جد عبد الصمد بن المعذل ، وكان على اعشار البصرة ، وظهرت منه خيانة :

ظهر الامير عليك يا غيلان
اذ خنته ان الامير معان
امع الدمامة قد جمعت خيانة
تبسح الدميم الفاجر الخوان)[٧١]

الوليد بن يزيد :

وابعد من ذلك فانني وجدت في ديوان الوليد بن يزيد (٩٠ - ١٢٦هـ) نصاً ، تتمثل فيه بنية الرباعية ، وهو ليس جزءاً من قصيدة ، ولا غرابة فقد عرف شعر الوليد بالرقة واللين ، وهو مطبوع لا يتكلف[٧٢] ، زيادة على انه يخالط شعراء عرفوا بذلك ، منهم حماد عجرد ، وحماد الراوية ، وكان يستدعيهما من كل طرف ، ويغدق عليهما العطايا[٧٣] . اما النص فهو :

أتصرا عن ملامتي عاذليا
ان عذلي يزيدني اليوم غيا
لا تلوما ، هديتما ، ان قلبي
عشق اليوم شادناً قرشياً[٧٤]

ابو نواس :

ولابي نواس (١٤٦ - ١٩٨هـ) رباعيات كثيرة ، يقول عنها - شوقي ضيف : (نستبعد ان تكون مقتطعة من مطالع قصائد له ضاعت ؛ لكثرتها عنده) ؛ ولانها مستوفية خصائص الفن الشكلية ، من بنية ووزن وتقفية ، ومنها يرثي الرشيد :

الناس ما بين مسرور ومحزون
وذي سقام بكف الموت مرهون
من ذا يسر بدنياه وبهجتها
بعد الخليفة ذي التوفيق هارون

وله :

يموت مني كل يوم شيُ
والجسم مني ثابت وحي[٧٦]
والمرء يبلى نشره والطي
وكم عسى من ان يدوم الحي[٧٧]

وله :

اسقني يا ابن مصعب
من سلافات زرنب
اسقنيها وغنني
من لصب معذبَ[٧٨]

وله يهجو احمد بن يسار الجرجاني :

بما اهجوك لا ادري
لساني فيك لا يجري
اذا فكرت في عرضك
اشفقت على شعري[٧٩]

وله في الخمر :

ادر الكأس واعجل من حبس
واسقنا ما لاح نجم في الغلس
قهوة كرخية مشمولة
تنقض الوحشة عنا بالانس[٨٠]

وله :

رايت هواي سيقه الوجيف
وتجربتي اذا اعترضت ثقيف
فان اتي وذلك بعد كد
فدار محمد ثم الوقوف[٨١]

وقال في عنان :

عنان يا من تشبه العينا
انتم على الحب تلومونا
حسنك حسن لا ارى مثله
قد ترك الناس مجانينا[٨٢]

وقال :

يا من حوى الحسن محضا
واهتز كالغصن غضا
لو اسخطتك حياتي
قتلت نفسي لترضى[٨٣]

واخيرا :

حبك يا احمد اضناني
يا قمراً في شخص انسان
يا وردة اعجلها قاطف
مر بها من باب عثمان[٨٤]

ابو العتاهية :

وابو العتاهية (١٣٠ - ٢١١هـ) ايضاً ممن يكثرون من نظم الرباعيات (سواء في الغزل ، او الزهد ...)[٨٥] ، ففي الحكمة قوله :

انما الذنب على من جناه
لم يضر قبل جهولاً سواه
فسد الناس جميعاً فامسى
خيرهم من كف عنا اذاه[٨٦]

وقال في صالح الشهرزوري :

اعيني جودا وابكيا ود صالح
وهيجا عليه معولات النوائح
فما زال سلطاناً اخ لي اوده
فيقطعني جرما قطيعة صالح[٨٧]

وقال في الزهد :

هي الايام والعبر
وامر الله ينتظر
اتيأس ان ترى فرجاً
فاين الله والقدر[٨٨]

وقال ايضاً :

ما بال نفسك بالامال منخدعه
وما لها لا ترى بالوعظ منتفعه
اما سمعت بمن اضحى له سبب
الى النجاة بحرف واحد سمعه[٨٩]

وفي الاغاني (قال ابو العتاهية لابنته رقية في علته التي مات فيها : قومي يا بنية فاندبي اباك بهذه الابيات ، فقامت فندبته بقوله :

لعب البلى بمعالمي ورسومي
وقبرت حياً تحت ردم همومي
لزم البلى جسمي فاوهن قوتي
ان البلى لموكل بلزومي[٩٠]

وله ايضاً :

ان المنــون غــدوهــا ورواحهــا
في النــاس دائبــة تجيــل قــداحهــا
يــا ســاكن الــدنيــا لقــد اوطنتهــا
ولتنــزحن وان كــرهت نــزاحهــا[91]

وقال :

ما خير دار يموت ساكنها
واغفل الغافلين امنها
الم تر القادة التي سلفت
قد خرجت بعدها مدائنها[92]

وقال :

لمن الالــــه ســـواحق الـــراس
فلقــــد فضحن حـرائــــر الانس
ابــدين حــريــاً لاطعــان بهــا
الا اتقــاء التــرس بــالتــرس[93]

وقال :

زاد حبي لقــرب اهــل المعــاصي
دون اهــل الحــديث والاخــلاص
كيف اغتــر بــالحيــاة وعمــري
ســاعــة بعــد ســاعــة في انتقــاص[94]

وله :

المــــوت بــين الخلق مشتــــرك
لا ســـوقــــة يبقى ولا ملــــكُ
مــا ضر اصحــاب القليــل ومــا
اغنى عن الامــلاك مــا ملكــوا[95]

احتمال ونقاش :

وقد يقال : ان كل الشعراء الذين ذكرتهم ، عدا الوليد بن يزيد ، من اصول غير عربية (حماد عجرد ، وبشار ، وابي نواس ، وابي المتاهية).

وعلى وجه التحديد ، انهم من موالي الفرس ، وهذا صحيح ، ولكن نشاتهم كانت في بيئات عربية ، وثقافتهم كذلك ، وانهم في زمن خلت بلاد فارس فيه من كل ابداع ، في الشعر وغيره ، وقد مر بنا انهم ينسبون لشاعرهم الرودكي ـ الذي قال عنه د . رضا زادة شفق ، في كتابه : (تاريخ الادب الفارسي : ٢٨) : « يمكن ان نعده اول شاعر كبير مشهور في ايران » ، اكتشاف وزن الرباعية في حكاية لفقوها . والرودكي (نحو ٢٦٠ ـ ٣٢٩هـ) من معــــاصري المتنبي (٣٠٣ ـ ٣٥٤هـ) ، اي في عصر تالٍ لعصر هؤلاء الذين ذكرناهم .

فيبقى ـ والحال هذه ـ الابداع الذي شاب شعرهم من غرس البيئة العربية وثقافتها ، علماً ان التجديد والابداع ، في تاريخ الثقافة العربية والاسلامية ، لم يكن مقتصراً على امثالهم ، بل تطالعنا اسماء كثيرة في هذا المجال ، اصولهم عربية وان نسب فريق منهم الى البلدان الاعجمية في المشرق الاسلامي.[96]

مسيرة طبيعية :

وهكذا تتسق حلقات الرباعية ، ابتداء بمحاولة بشار ، بل الوليد بن يزيد وحماد عجرد وابي نواس وابي المتاهية ، وانتهاء بمحاورات الصوفية مع الجنيد البغدادي ، مروراً بمحاولة الامام الشافعي ، وابي علي الخواص ، لتنطلق مع سياحات الصوفية ، متى ما هاموا على وجوههم ، وايتما حلوا في الربط ، والزوايا ، وحلقات الذكر ، ومجالس الوجد ، وهذا مما يفسر شيوعها في بلاد الهند في اقصى المشرق ، والروم في اقصى الشمال ، وبلاد المغرب والاندلس في اقصى الغرب ، ومن البديهي ان تلك السياحات قد شملت كذلك بلاد فارس ، فتلقف شعراؤها هذه التجربة ، ونبغ فيها من نبغ ، وتطبيقاً لمبدأ الانتشار ، فان الرباعيات قد وصلت ايران في اواسط القرن الثالث الهجري ، او بعد ذلك بقليل ، وهذا بعض ما يعلل خلو الشعر الفارسي من الرباعيات حتى ظهور الصوفي المعروف ابي سعيد بن ابي الخير (فضل الله بن محمد بن احمد الميهني ٣٥٧ ـ ٤٤٠هـ) ، وانتشارها بعده .

استنتاجات

الرباعيات عربية

تفنيد واثبات

من البداية قررت ان اتعامل مع الروايات والاراء بحرص وحذر شديدين ، معملا شكي في كل ما يقال هادفاً اليقين ، وقد هالني تضارب الروايات ، وتعاضل الاراء ، وتملكني استغراب ؛ من سذاجة الحكايات ، مع افتقارها النصوص ، والرواة الثقات .

لا ادري كيف وقر في اذهان دارسي الادب ومؤرخيه ، وبخاصة العروضيون ، ان فن الرباعيات من اصل فارسي ، فانهم

تواطؤوا على ذلك جميعاً ، حتى ليخيل الى اي متصد لدراسة هذه القضية بداهة هويتها ، وهو يطلع على سيول تترى من المقولات عبر الاجيال والعصور .

لقد ورثنا عن العصر الجاهلي نصوصاً واخباراً ، وسيراً ، لا يحصرها عدد ، قد بلغت عصر التدوين ، بعد ان خضعت لتدقيق نخبة من العلماء الرواة ، وتمحيصهم ، لعل من اشهرهم ابن سلام الجمحي(ت ٢٣١هـ) ، وغير ابن سلام ، بل تبلور منهجان في اسس الرواية والتدوين ، هما : مدرسة البصرة ، ومدرسة الكوفة ، ولكل فريق منهما علماء لهم سننتهم في تلقي التراث .[٩٨]

ومع كل ذلك الحرص والتدقيق تعرض الشعر الجاهلي لعاصفة من التشكيك ، والاتهام بالوضع ، والانتحال ، قد هبت من اوساط المستشرقين [٩٩] ، على الرغم من وجود نص مقدّس ، لغته ، في اغلبها ، لغة الشعر الجاهلي ، لا مجال للشك فيه ، وفي اسلوبه العربي الفصيح ، انه القرآن الكريم .

فكيف ـ والحال هذه ـ يريد هذا البعض ان نصدق حكايات عن الصبية ؟ يتشكك بها مؤرخـون من الفرس قبل سواهم [١٠٠] ، مع عدم وصول نصوص تعزز تلك الحكايات .

خطة وحصيلة :

لقد بنيت مناقشاتي وفق اتجاهين ، اولهما : الايقاع بين تلك الروايات والاخبار ، وعرضها فئة ضد اخرى تناقضها ، بحيث يفند بعضها البعض الاخر ، موظفاً المحاججة المنطقية ، والمقايسة العقلية ، فوفقت تماماً في مسعاي ؛ إذ تهافتت كل تلك الروايات والاراء ، واغتالت فئة الفئة الاخرى .

اما الاتجاه الثاني ، فتوظيف الروايات والاراء ، المتفق عليها ، والنصوص التي لا سبيل الى جحدها ، وكان من اقوى تلك الروايات ما نقله السلمي عن الجنيد البغدادي ، فلقد كانت هذه الواقعة فاتكة فاكتسحت كل الحكايات الاسطورية ، بل الخرافية ، عن دور الرودكي ، او الامير الصغير ، في اكتشاف وزن الرباعيات .

وبعد ان خلا المجال من الاراء المضادة شرعت ارسي ارائي المعززة بالنصوص ، فاذا تجاوزنا عما قاله الوليد بن يزيد (٩٠ ـ ١٢٦هـ) لان رباعيته ـ وان وردت في ديوانه ـ فريدة ، ولو تناسينا ايضاً ما نسب الى الامام الشافعي (١٥٠ ـ ٢٠٤هـ) ، وابي علي الخواص (ت ٢٦١ ـ ٢٨٤هـ) ، فماذا يقال عن محاولة بشار بن برد (٩٥ ـ ١٦٧هـ) ، وحماد عجرد (ت ١٦١هـ) ، بل ماذا نتصرف ازاء محاولات ابي نواس (١٤٦ ـ ١٩٨هـ) ، وقد بلغ عدد رباعياته الثماني ، ومثله ابو العتاهية (١٣٠ ـ ٢٢٢هـ) ، الذي وجدت له في ديوانه حوالي عشر رباعيات ، وكل اولئك معروفون بنزعة التجديد .

وحرصت على ان اسجلها جميعها ، هاملاً من النصوص ما اختل فيه شرط التقفية ، وان كان من المستطاع تسجيل واحدة ، او اثنتين ، ثم الاحالة في الهامش الى الاخريات ، ولكني تقصدت ذلك ؛ كي نقف جميعاً على حقيقة النصوص التي تشهد ـ بل تصرخ ـ وتؤيد ان :

« الرباعيات فن عربي النشأة »

مصطلحات مقترحة

من المسميات التي عرف بها هذا الفن « الرباعيات » ، مفردها الرباعية ، والرباعي .

ويصح ـ ايضاً ـ عندي ما ذكره المرادي انه (قد اشتهر باعجام دالة) ، وليس باهماله . فتكون « ذو » بمعنى « صاحب » اي ان اسم هذا النوع الشعري « صاحب بيت » .

ونحن نعرف جيداً ان للفنون الشعرية المستحدثة مصطلحات مختلفة عن مصطلحات القصيدة القديمة ، فالبيت هنا يتكون من شطرين : صدر وعجز ، وهذا شيء مألوف .

اما البيت في الموشحة فغيره في القصيدة ، فهو يتكون من المطلع ، او القفل ، مع الدور الذي يليه[١٠١] ، ومن ذلك ـ مثلاً ـ موشحة ابن زهر الحفيد (محمد بن عبد الملك بن زهر الايادي ٥٠٧ ـ ٥٩٥هـ) .

ايها الساقي اليك المشتكى   قد دعوناك وان لم تسمع[١٠٢]

دور :

ونديم   همت   في   غرته
وبشرب   الراح   من   راحته
كلما   استيقظ   من   سكرته

كما (يطلق على وحدة ـ الكان وكان ـ ذات الفصوص ، او المصاريع الاربعة ، مصطلح ، البيت ، ويطلق على المصراع الواحد منه مصطلح العضو)[١٠٣] .

وتسمى وحدة « القوما » بيتاً ، اوقامة ، واما وحدة « المواليا » فتدعى صوتاً .[١٠٤]

فاذا كان الامر كذلك ، فلماذا لا يكون من اسماء هذا الفن « ذوبيت » كما نص المرادي ، وليس « دوبيت » باهمال الدال ، ويكون لهذا البيت اربعة فصوص ، او اسماط ، او اغصان ، او اعضاء ، كما هو رائج في الفنون المستحدثة التي ذكرناها ؟ .

وفي ضوء ذلك افهم ان مصطلح « البيت » في فن الدوبيت

يقصد به فصوصه الاربعة ، ومثل هذا ليس بالغريب في مثل هذه الفنون الجديدة .

وطالما كان « النوبيت » مؤلفاً من اربعة فصوص ، فمن الانسب جداً تسميته بـ« الرباعية » وهي مما اطلق عليه قديماً .(١٠٥)

ويمكن - بناء على كل ما مر - ان اقترح مسميات لاجزاء الرباعية ، اذ وجدت الذين تحدثوا عنها قد اهملوا ذلك ، كالاتي

قال ابو الفرج بن الجوزي (جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد التيمي البكري ، ٥١١ - ٥٩٧هـ) :

ناحت سحراً حمامة في غصن
قد جرعها الفراق كأس الحزن
تبكي شجناً تلقنته مني
ما يبكي باكِ الا ويروي عني(١٠٦)

لما كان بيت الرباعية اربعة فصوص ، فارى ان يحمل الاول مصطلح « المبدأ » ، والاخير « المخلص » ، وما بينهما : الثاني والثالث الذي يخالف الفصوص الاخرى في القافية غالباً ، « المسرد » .

فالمبدأ : يشرع ببيان مضمون الرباعية : ناحت سحراً حمامة في غصن ، اما « المسرد » ففي فصيه تحليل المضمون .

.... قد جرعها الفراق كأس الحزن
تبكي شجناً تلقنته مني ....

وفي الفصل الرابع تلخيص ، اوتكثيف المضمون : ما يبكي باكِ الا ويروي عني .

ومثل هذا مألوف في بيت (= صوت) المواليا ايضاً . ففي نص المواليا الاتي :

١ - يا ذا الغزال الذي اضحى يجافينا
٢ - ومن بسيف لحاظه قد غزا فينا
٣ - دع الصدود وواصلنا و وافينا
٤ - فنحن للصدود والهجران ما فينا

يسمى الفص الاول مستهلاً ، اما الثاني والثالث فهما « عتبة المواليا » ، والرابع « غطاء المواليا » ، او (الرباط) .

عروض الرباعيات

على ما يبدو ان هناك اختلافاً في استخلاص وزن الرباعية ، (فهو كما يرد في المصنفات الفارسية على :

مفعول مفاعيل مفاعيلن فا(١٠٨)

أربع مرات ولقد كان المقصود بالمصنفات الفارسية « المعجم في معايير اشعار العجم »

الذي الفه شمس الدين محمد بن قيس الرازي ، بعد ان (استقر آخر الامر في شيراز ، واتصل بالاتابك سعد بن زنكي في سنة ثلاث وثلاثين وستمائة ، ولازم بعده الملك ابا بكر بن سعد ، والف هناك كتابه المعجم ، او بالاصح نقله الى الفارسية ؛ لانه كان الفه اولاً بالعربية ، ويظهر ان المؤلف كان له تأليف آخر بالعربية اسمه : المعرب في معايير اشعار العرب ، لم يصل الينا)(١٠٩) ، وقد اخذ معلوماته من (كتاب مختصر في علم العروض ، صنفه الامام حسن القطان من ائمة خراسان)(١١٠) .

ان وزن الرباعية (كما يرد في المصنفات العربية على :

فَعْلُنْ متفاعلن فَعُولُنْ فَعِلن(١١١) .

أربع مرات

ويكاد يتفق جميع المصنفين على هذه الصيغة ، وكما هو واضح فانها غير واردة في بحور الخليل بن احمد الفراهيدي (١٠٠ - ١٧٠هـ) ، لذا حار الباحثون في تخريجها ، ففريق استخلصوها من بحر الهزج « مفاعيلن » ، واخر من الرجز « مستفعلن » ، وثالث من الوافر « مفاعلتن » ، مسلطين على التفعيلات ما استطاعوا من زحافات ترد في البحر الذي عدوه اصلاً لوزن الرباعيات ، واستولدوا بها صوراً وصيغاً ، كي يستقر الامر - في اعتقادهم - وفق صيغة الرباعية .

محاولات كثيرة ، رافقت هذا الفن منذ بدايته حتى شيوعه ، وعقدتهم انهم لا يريدون الابتعاد عن العروض الخليلي ، ولو انصفوا لتمكنوا من بناء اجزاء جديدة لوزن ، او بحر جديد ، ولكان البحر السابع عشر ، امتداداً لبحور الخليل .

وما ضرنا لو فعلنا ذلك ، فلن نكون - حينئذ - اصحاب بدعة فقد (نقل عن الاخفش [ابي الحسن سعيد بن مسعدة المجاشعي بالولاء ، البلخي ، ثم البصري ، المعروف بالاخفش الاوسط ، نحوي عالم باللغة والادب ، توفي سنة ٢١٥هـ] انه استدرك عليه البحر السادس عشر الذي سماه بالمتدارك ، وقيل انه اضاف بعض اضرب المديد ، وضرباً في البحر الطويل)(١١٢) .

الموشحات والرباعيات

وتلك - ايضاً - مشكلة الموشحات التي لما نزل نعانيها (فاوزان الموشحات الاندلسية على اربعة اقسام ، اولها : ما جاء على اوزان الشعر العربي صافياً ، والثاني : ما جاء بعضه على هذه الاوزان ، والبعض الاخر من الاوزان الجديدة

المبتدعة . في الاقفال والادوار معاً ، والقسم الثالث ما جاء ادواره من اوزان الشعر العربي المألوفة ، واقفاله منها ، ومن غيرها ، اما القسم الرابع فهو ما جاء كله على اوزان غير مألوفة في الشعر العربي ....)(١١٣) ، مما شجع باحثين ، مستشرقين وعرباً ، على اعلان كون الموشحات محاكاة لاغانٍ اسبانية قديمة .

ولقد جرت محاولات لتقعيد اوزان الموشحات ، من ذلك محاولة (المستشرق الالماني « هارتمان » في كتابه القديم عن الموشح قد حاول ارجاع اوزان الموشحات الى (١٤٦) وزناً او بحراً مشتقة من بحور الشعر العربي الستة عشر ، ولكن لا يمكننا ان نرى في هذه المحاولة الا التصنع والتكلف ؛ اذ هناك موشحات تشذ عن التي ذكرها هارتمان ولا تخضع لها)(١١٤) .

وصدرت محاولة اخرى ، قدمها د . مقداد رحيم ، بعنوان « عروض الموشحات الاندلسية ، دراسة وتطبيق ، بغداد ١٩٩٠ » ، وهي دراسة جادة جريئة ، لو لا انها بقيت في اسار العروض الخليلي ، ولم تحاول ان تثريه ، فتكون امتداداً له ، مما طبعها بميسم التوفيقية ، شأنها شأن ما جرى في تخريجات اوزان الرباعيات .

وامر « الرباعيات » ايسر من الموشحات ، فالاولى قد استقر لها ايقاع واحد يكاد يتفق الدارسون عليه ، خلافاً للموشحات التي تتلون ايقاعها ، وتتمرد تفعيلاتها باشكال عدة ، وصور لا حصر لها ، مما يوقع المتصدين لصنع عروض لها في حيرة من امرهم ، فيضلون في متاهات لا نهاية لها ، وهذا ما يعلل استمرار وضعها العروضي على حاله الى الان .

ابن المرحل يصمم عروض الرباعيات :

لقد بقي وزن الرباعية ، غارقات تفعيلاتها في حلقات وصور متعاقبة من الزحافات ، فمرة يكون (هزجاً) ، وثانية (رجزاً) ، واخرى (وافراً) ، حتى القرن السابع الهجري ، حين نبغ عالم قدير في العروض ، هو ابن المرحل المالقي (٦٠٤ - ٦٩٩هـ) ، فانبرى له ، يدرس ويحلل ويصوغ نوجد هذا الفن (من اوزان الكلام المنظوم ، مستقيم البناء ، مستعذباً في الغناء ، الا ان بعض الناس يخلط في النظم عليه ، ويسلك مسلك العجم في الزيادة فيه ، والتقصير منه حتى يخل به) ، لذا يقول : (فصنعت له ميزاناً ، وبينت ما يجب ان يلتزم فيه ، وما يحسن ، وما يقبح ، قياساً على الانواع العربية ، واتباعاً للاكثر في المساق ، والاعذب في المذاق ...)(١١٥) .

يندرج عمل ابن المرحل ضمن سلسلة عمليات التنظير ، اي التقعيد ، التي ابتدرها الخليل بن احمد الفراهيدي ، وعمله مكمل لعمله ، فكما استبدل الخليل تفعيلات « التنعيم » باخرى تشبهها في الايقاع الموسيقي ، لكنها اكثر شمولاً ، وادق انطباقاً على تفعيلات الدوائر العروضية(١١٦) ، قام ابن المرحل ببناء وزن الرباعيات ، فقد وجد فناً ناضجاً ، سبقه باكثر من خمسة قرون ، ويقيناً انه قد اطلع على محاولات سابقيه في الحاق وزن هذا الفن بواحد من بحور الخليل ـ كما مر ـ فتجاهل كل ذلك ، وكأنه لا يقرها ، فقال (وضعت له اربعة اجزاء ، اما الاجزاء فهي :

فَعْلُنْ   مُتَفاعلن   فَعُولن   فَعِلُنْ
فَعْلُنْ   مُتَفاعلن   فَعُولن   فَعِلُنْ

فهذا خط الدوبيت ، وله خمس اعاريض وسبعة اضرب)(١١٧) .

واجدني ـ اكمالاً للبحث ، وزيادة في الفائدة ـ ملزماً بتثبيت ما دونه ابن المرحل المالقي نصاً في ما يأتي :

(فالعروض الاولى « فَعِلُنْ » وهي التامة الثقيلة ، وانما قيل لها تامة : لان بيتها من ثمانية اجزاء بحسب الخط . وانما قيل لها ثقيلة لانها متحركة العين . ولها ضربان : ضرب مثلها ، وبيته :

قالوا ، ومقالهم يثير الشجنا
والقلب يذوب من سقام وضنا

وتقطيعه كما تقدم في الخط . فهذا بيت واحد مصرع ، ولو كان بيتين لاحتمل كل واحد منهما ان يشطر .

وضرب ثانٍ مذال ، وبيته :

عـــودوا وتعطفـــوا عـــلى قلب كئيب
لـــو جيب لبـــان فيـــه حـزن ووجيب

وتفعيله :

فعلن متفاعلن فعولن فعلان   فعلن متفاعلن فعولن فعلان

فهذا بيت واحد مصرع كما ذكر ، وبالتصريع انتقل حكم الضرب الى العروض ، لان الاذالة لا تكون الا في الضرب لاجتماع الساكنين .

العروض الثانية « فَعْلُنْ » : وهي التامة الخفيفة ، وانما قيل لها تامة لاجل ما ذكر ، وانما قيل لها خفيفة لانها ساكنة العين ، ولها ضربان : مثلها ، وبيته :

ما اشوقني الى نسيم الرند
يشفي كبدي اذا اتى من نجد

وتفعيله :

فعلن متفاعلن فعولن فعلن فعلن متفاعلن فعولن

فهذا ايضا بيت مصرع .

وضرب ثان مذال وبيته :

حالي بوصال سيدي نعم الحال (...) وصاله (...) حال

وتفعيله :

فعلن متفاعلن فعولن فعلان فعلن متفاعلن فعولن

فهذا بيت مصرع ايضاً . وبالتصريع انتقل الذيل الى العروض كما ذكر .

العروض الثالثة « فعولن » وهي المجزوءة لانه ذهب من كل شطر منها جزء . فبقيت على ستة اجزاء ، ولها ضرب مثلها .

وبيته :

فيهـــــا رشـــــا اذا تثنى

من قـــامتـــه الغصـــون تخجـــل

وتفعيله :

فعلن متفاعلن فعولن فعلن متفاعلن فعولن

العروض الرابعة « فعل » وهي المجزوءة المحذونة : لانها حذف منها « لن » ، فنقلت الى « فعل » . ولها ضرب مثلها .

وبيته :

للـــــه معـــــاً هـــــذا الحمى

مـــا احسنهـــا مـــع الـــدمى

وتفعيله :

فعلن متفاعلن فعل فعلن متفاعلن فعل

العروض الخامسة « متفاعلن » وهي المشطورة ، وانما قيل لها مشطورة لانه ذهبت من البيت اربعة اجزاء ، من كل شطر جزآن ، وبقيت اربعة اجزاء ، ولها ضرب مثلها ، وبيته :

اهـــلاً بخيـــالكم

من لي بـــــــوصلكم

وتفعيله :

فعلن متفاعلن فعلن متفاعلن [١١٨] .

واستطرد ابن المرحل بعد ذلك بفصلين ، الاول حول استعمالات الاعاريض بانواعها ، والثاني في الاسقاط والالحاق والتخفيف .

وبعد ذلك يحدد ابن المرحل عمله ، ويبين طبيعته ونوعيته ، بقوله : (وقد اخترعت هذه الميزان واحكمتها . وهو اختراع نبيل لم نسبق اليه . وجريت فيه على طريقة العروضيين ، ولم اخالفهم في الاصطلاح ، الا في يسير ، مثل قولي : الخطّ ، والعروض الثقيلة ، والخفيفة ، والالحاق ، والاسقاط ، والتخفيف ، ودعواي ان : « فعلن وفعْلن » من سببين لاوتد فيهما جعلتهما اصلين بانفسهما) [١١٩] .

تم ختم الرسالة بقوله : (والمنصف من استقبل هذا العمل ، واستصلحه ، وراى ان صاحبه قد بيّن طريقاً للناظمين واوضحه ، والى الله الرغبة في التوفيق ، والهداية الى سواء الطريق) [١٢٠] .

لست افهم تماما ، كيف اعلن ابن المرحل اختراعه لميزان الرباعيات ، وانه لم يسبق اليه ، وانه وضع له اربعة اجزائه ، مع ان هذه الاجزاء كانت معروفة في زمن سابق .

ايقصد انه عد « فعلن ، بسكون العين » و « فعلن ، بتحريكها » اصليتين ، لانهما من سببين لاوتد بينهما ، فكانه بذلك اخترع هذا الميزان ؟ وانه زاد على تفاعيل العروض اثنتين ، فصرن عشراً ، او اثنتي عشرة .

مهما يكن ، فان ابن المرحل بابتعاده عن المحاولات التوفيقية ، لربط اجزاء الرباعية بواحد من بحور الخليل ربطاً مباشراً ، وتعامله معها من منطلق كونها اجزاء في ميزان مستقل ، ثم تصوره الاعاريض الخمسة ، والاضرب السبع ، وصورها ، وملاحظاته في الفصلين التاليين ، يُعدُّ واحداً من المتظرين العروضيين للرباعية ، ومحاولته ، بلا شك ناضجة جداً ، وتستحق - كما قال - الافادة منها في النظم ، وسد ثغراتها ان وجدت .

بذا لقد وضع ابن المرحل كيان البحر السابع عشر ، واني اقترح تسميته بـ« المبتكر » .

تم البحث بعونه والحمد لله على توفيقه

الهوامش

(١) دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي ، ترجمها عن الالمانية والانكليزية والفرنسية ، د . عبد الرحمن بدوي (بيروت ١٩٧٩) .

(٢) تاليف ، طه حسين (الطبعة الاولى ، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٣٤٤ / ١٩٢٦) .

(٣) فصول في الادب الاندلسي ، د . حكمة علي الاوسي : ١٣٣ (بغداد ١٩٧٤) .

(٤) الادب الاندلسي ، د . مصطفى الشكعة ، انظر : ٣٨٦ - ٤٠١ (بيروت ١٩٧٩) .

(٥) سلك الدرر في اعيان القرن الثاني عشر : ٣ / ٢٥٠ (مكتبة المثنى ببغداد) .

(٦) تاريخ اداب العرب : ٣ / ١٧٢ (مطبعة الاستقامة) .

(٧) ميزان الذهب في صناعة شعر العرب : ١٥٦ (طبعة ١٤ ، ١٣٨٢ / ١٩٦٣) .
(٨) الادب الرفيع في ميزان الشعر وقوافيه : ١١٣ (بغداد ١٣٧٥ / ١٩٥٦) .
(٩) موسيقى الشعر : ٢١٦ (طبعة ثالثة ، القاهرة ١٩٦٥) .
(١٠) رسالتان فريدتان في عروض الدوبيت : ١٥٩ (تحقيق وتقديم : هلال ناجي ، مجلة المورد ، المجلد الرابع ، العدد الثالث ، ١٩٧٤) .
(١١) المصدر نفسه .
(١٢) تاريخ الادب في ايران من الفردوسي الى السعدي : ٢٩ (نقله الى العربية : د . ابراهيم امين الشواربي ، مطبعة السعادة بمصر ١٣٧٣ / ١٩٥٤) .
(١٣) تذكرة الشعراء لدولة شاه : ٣٠ – ٣١ ، والمعجم في معايير اشعار العجم : ٨٨ – ٨٩ .
(١٤) في التراث العربي : ١ / ٣٦٦ .
(١٥) الادب الرفيع : ١١٣ ، وانظر : ميزان الذهب : ١٥٦ ، والشعر القومي : ١٢ ، والشعر العامي : ١٣٩ .
(١٦) سلك الدرر : ٣ / ٢٥٠ – ٢٥١ .
(١٧) نفسه : ٣ / ٢٥٠ .
(١٨) الادب الرفيع : ١١٣ .
(١٩) في التراث العربي : ٢ / ٢١٧ .
(٢٠) في الادب الرفيع : ١١٤ .
(٢١) القاموس (ثنى) ، ديوان الدوبيت : ٢٤ عن (المعجم في معايير اشعار العجم : ٨٥) .
(٢٢) ديوان الدوبيت ٢١ ، المعجم في معايير اشعار العجم : ٨٥ .
(٢٣) سلك الدرر : ٣ / ٢٥٠ ، وانظر : ميزان الذهب : ١٥٧ ، ١٥٨ .
(٢٤) تاريخ الادب العربي : ٢ / ٤٨ .
(٢٥) ديوان الدوبيت : ٥٧ .
(٢٦) في التراث العربي : ١ / ٣٦٦ .
(٢٧) ديوان الدوبيت : ٥٧ ، عن شعراء الغري (النجف) : ٩ / ٤٠٩ .
(٢٨) في التراث العربي : ٢ / ٢١٥ ، معتمداً على : معجم الادباء : ٤ / ١٥٢ .
(٢٩) الادب الرفيع : ١١٣ .
(٣٠) ديوان الدوبيت : ١٨ ، ٥٨ .
(٣١) ديوان الدوبيت : ١٨ ، ٥٨ – رسالتان فريدتان في عروض الدوبيت : ١٦١ – ميزان الذهب : ٥٧ – الادب الرفيع : ١١٤ .
(٣٢) حقائق عن ديوان الدوبيت : ٢٠ ؛ معتمداً على مخطوطة الاسكوريال رقم ٤٥٥ (المقتطف من ازاهر الطرف لابن سعيد ، الورقة : ١٤٢ .
(٣٣) الشعر القومي في السودان : ١٦ – ١٧ .
(٣٤) الغيث المسجم في شرح لامية العجم : ١ / ٤٧ (مصر ١٢٩٠) .
(٣٥) الحاشية الكبرى في العروض للدمنهوري : ١٦ – ديوان الدوبيت : ٦٠ – ٦١ .
(٣٦) ديوان الدوبيت : ٩٥ .
(٣٧) نفسه ، هامش : ٥٧٤ ، ٥٧٥ .
(٣٨) مجلة المورد مج ٣ ، ج ٤ (١٣٩٤ – ١٩٧٤) : ١٤٥ – ١٧٤ .
(٣٩) نفسه : ١٥٩ .
(٤٠) ديوان الدوبيت : ٩٦ – ٩٨ .
(٤١) الشعر القومي في السودان : ١٢ .
(٤٢) نفسه ، انظر : ١١ – ١٢ .
(٤٣) تاريخ الادب الفارسي ، د . رضا زادة شفق ، ينظر : ٢٠ (ترجمة محمد موسى هنداوي مصر ١٩٤٧) .
(٤٤) نفسه : ٢٠ .
(٤٥) ديوان الدوبيت : ٢٤ .
(٤٦) من شعراء السلاجقة ، كان معاصراً للسلطان ملكشاه ، توفي سنة (٤٦٥هـ) .
(٤٧) تاريخ الادب الفارسي : ٣١ . الرودكي مدح نصر بن احمد السامانى (ت ٢٧٩هـ) ، وقطران ممدان بن وهودان ، حاكم اذربيجان في سنة (٤٥٠هـ) ، وكنيته (ابو نصر) وجاءت هذه الكلمة في اغلب قصائد قطران ، ومدح الرودكي (نصر) فاشتبه الامر عند المتاخرين ينظر : تاريخ الادب الفارسي : ٨٤ .
(٤٨) المعجم في معايير اشعار العجم : ٨٣ – ٨٥ . عن ديوان الدوبيت : ١٨ – ١٩ ، وقال مؤلفه د . الشيبي في الهامش (١) : « وقد تصرفنا في الترجمة بما لا يخرج عن السياق » .
(٤٩) ديوان الدوبيت : ١٩ .
(٥٠) مختارات من الشعر الفارسي : ٦ (الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٣٨٥ / ١٩٦٥) .
(٥١) تاريخ الادب في ايران منذ اقدم العصور حتى عصر الفردوسي : ١ / ٤٩ (الكويت ١٩٨٤) .
(٥٢) ديوان الدوبيت : ٢٠ .
(٥٣) احوال واشعار ابو عبد الله جعفر بن محمد رودكي سمرقندي ، طهران . ١٣١هـ ش .
(٥٤) ديوان الدوبيت : ٢٠ .
(٥٥) مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية ، د . ناصر الدين اسد ، ينظر : البابين الرابع والخامس (ط ٥ ، دار المعارف بمصر ١٩٧٨) .
(٥٦) مختارات من الشعر الفارسي : ٨ – ١٠ .
(٥٧) الشعر القومي في السودان : ١٤ ، وينظر : مختارات من الشعر الفارسي : ٩ .
(٥٨) مختارات من الشعر الفارسي : ٧ ، تاريخ الادب الفارسي ، ينظر : ١٨ .
(٥٩) اللغة الدرية نسبة الى « در » اي الباب الملكي ، لانها كانت لغة الصفوة من الحاشية .
(٦٠) القصص : الشكاوى (العرائض) التي ترفعها الرعية لارباب السلطان .

(٦١) مختارات من الشعر الفارسي ، المقدمة ، ينظر : ١٤ ـ ١٥ ، ٢٧ ـ ٢٨ ، تاريخ الادب الفارسي : ٣٣ .

(٦٢) محاضرات عن الشعر الفارسي ، القاها د . علي اكبر فياض بكلية الاداب / جامعة فاروق الاول (الاسكندرية) سنة ١٩٥٠ : ص ١٠ .

(٦٣) اداب الصحبة وحسن العشرة : ٤٩ (حققه وعلق عليه : م . ى . قسطر ١٩٥٤) .

(٦٤) الاعلام : ٢ / ١٤١ .

(٦٥) ديوان الكان وكان في الشعر الشعبي القديم ، د . كامل مصطفى الشيبي : ١٧ (بغداد ١٩٨٧) .

(٦٦) الدر المكنون في السبع فنون لابن اياس الحنفي ، الورقات ٣٦ ـ ٤٦ . كما ورد في « المستدرك على ديوان الدوبيت » بقلم هلال ناجي : ١٤ (مستل من مجلة « الكتاب » العدد السابع ١٩٧٤) .

(٦٧) الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية ، عبد الرؤوف المناوي : ١ / ١١٧ (مصر ١٨٣٨) عن ديوان الدوبيت : ٤٧ .

(٦٨) ديوان الكان وكان : ١٧ .

(٦٩) الاغاني : ٣ / ١٦٢ ـ ديوان الدوبيت : ٣٦ .

(٧٠) العربية : دراسات في اللغة واللهجات والاساليب : ١٠٦ (ترجمة د . رمضان عبد التواب ، مصر ١٤٠٠ / ١٩٨٠) .

(٧١) العصر العباسي الاول ، د . شوقي ضيف : ١٩٧ ـ ١٩٨ (طبعة ثانية ، مصر ١٩٦٩) .

(٧٢) ديوان الوليد بن يزيد ، انظر : ٢٢ (جمع المستشرق الايطالي ف . جيربالي دمشق ١٣٥٥ / ١٩٣٧) .

(٧٣) نفسه ، ينظر : ٢٠ ، ٢١ .

(٧٤) نفسه : ٥٨ .

(٧٥) العصر العباسي الاول : ١٩٨ (طبعة ثانية ، دار المعارف بمصر ١٩٦٩) .

(٧٦) ديوان ابي نواس (اسكندر اصف) : ١٢٩ .

(٧٧) نفسه : ١٣١ .

(٧٨) نفسه : ٢٤٨ .

(٧٩) ديوان ابي نواس (أصف) : ١٨١ .

(٨٠) نفسه : ٢٩٩ .

(٨١) نفسه : ٣٨٦ .

(٨٢) نفسه : ٣٩٨ .

(٨٣) نفسه : ٤٢٧ .

(٨٤) نفسه : ٤٣٥ .

(٨٥) العصر العباسي الاول : ١٩٨ .

(٨٦) ابو العتاهية : اشعاره واخباره : ٤١٥ ـ ٤١٦ (تحقيق د . شكري فيصل ، مطبعة جامعة دمشق ١٣٨٤ / ١٩٦٥) .

(٨٧) نفسه : ٥١٧ .

(٨٨) نفسه : ٥٣٨ .

(٨٩) نفسه : ٢٣٥ .

(٩٠) الاغاني (دار الكتب) : ٤ / ١١٠ .

(٩١) الاغاني (دار الكتب) : ٤ / ٩١ .

(٩٢) ابو العتاهية : ٤٠٤ .

(٩٣) نفسه : ٥٧٠ .

(٩٤) نفسه : ١٩٨ .

(٩٥) الاغاني (دار الكتب) : ٤ / ٩٨ .

(٩٦) عروبة العلماء المنسوبين الى البلدان الاعجمية في المشرق الاسلامي ، د . ناجي معروف (مطبعة الشعب ، بغداد ١٩٧٤) عدة اجزاء .

(٩٧) مصادر الشعر الجاهلي . ينظر : ٢٤٥ ـ ٢٥١ .

(٩٨) العصر الجاهلي ، د . شوقي ضيف ، ينظر : ١٤٨ ـ ١٦٣ (طبعة سابعة) .

(٩٩) ينظر : دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي .

(١٠٠) تاريخ الادب الفارسي للدكتور رضا زادة شفق ، ينظر : ٢٠ ـ ٢١ ، محاضرات عن الشعر الفارسي للدكتور علي اكبر فياض ، ينظر : ٤ ـ ١٢ .

(١٠١) الموشحات الاندلسية ، د . محمد زكريا عناني ، ينظر : ٢٣ ـ ٣٩ (الكويت ١٤٠٠ / ١٩٨٠) عروض الموشحات الاندلسية ، د . مقداد رحيم ، ينظر : ١١ ـ ١٩ (بغداد ١٩٩٠) .

(١٠٢) عقود اللال في الموشحات والازجال : ٣٢ .

(١٠٣) ديوان الكان وكان : ١٧ .

(١٠٤) نفسه ، ينظر : ١٨ .

(١٠٥) في التراث العربي : ٢ / ٢١٨ .

(١٠٦) ديوان الدوبيت : ١٩٧ .

(١٠٧) المواليا ، د . رضا محسن حمود : ١٩٢ ، ٢٨٦ (بغداد ١٣٩٦ / ١٩٧٦) .

(١٠٨) ديوان الدوبيت : ١٨ ، ٥٨ .

(١٠٩) محاضرات عن الشعر الفارسي : ٦٧ .

(١١٠) ديوان الدوبيت : ٢٣ .

(١١١) نفسه : ١٨ ، ٥٨ .

(١١٢) قراءة عروضية في المعلقات العشر ، د . عبد المنعم احمد صالح التكريتي : ٢٥ (طبعة اولى ، بغداد ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م) .

(١١٣) عروض الموشحات الاندلسية : ٥٠ .

(١١٤) في الادب الاندلسي ، د . جودت الركابي : ٣٠٢ (ط ٢ دار المعارف بمصر ١٩٦٦) .

(١١٥) رسالتان فريدتان في عروض الدوبيت (مجلة المورد) : ١٦١ .

(١١٦) قراءة عروضية ، ينظر : ١٦ ـ ١٧ ، يقصد بتفعيلات « التنعيم » مثلاً (نعم لا) تقابل (فعولن) ، و (نعم لا لا) تقابل (مفاعيلن) و (لا نعم) تقابل (فاعلن) ، وهذا علم توارثه الناس (عن سلفهم يسمونه التنعيم لقولهم فيه نعم) .

(١١٧) رسالتان فريدتان في عروض الدوبيت : ١٦١ .

(١١٨) رسالتان فريدتان في عروض الدوبيت : ١٦١ ـ ١٦٢ .

(١١٩) رسالتان فريدتان : ١٦٤ .

المصادر والمراجع

١ - اداب الصحبة وحسن العشرة لابي عبد الرحمن السلمي . حققه وعلق عليه م . ى . قسطر (القدس) ١٩٥٤ .

٢ - الادب الاندلسي . د . مصطفى الشكعة . بيروت ١٩٧٩ .

٣ - الادب الرفيع في ميزان الشعر وقوافيه . معروف الرصافي . قدم له وعلق عليه كمال ابراهيم ومصطفى جواد ، بغداد ١٣٧٥ / ١٩٥٦ .

٤ - الاعلام . خير الدين الزركلي . الطبعة الخامسة ، بيروت ١٩٨٠ .

٥ - الاغاني . ابو الفرج الاصفهاني طبعة دار الكتب .

٦ - تاريخ اداب العرب . مصطفى صادق الرافعي . مطبعة الاستقامة .

٧ - تاريخ الادب الفارسي . د . رضا زادة شفق . ترجمة محمد موسى هنداوي - مصر ١٩٤٧ .

٨ - تاريخ الادب في ايران منذ اقدم العصور حتى عصر الفردوسي . براون . ترجمة احمد كمال الدين حلمي ، الكويت ١٩٨٤ .

٩ - تاريخ الادب في ايران من الفردوسي حتى السعدي . براون ، ترجمة د . ابراهيم امين الشواربي مصر ١٣٧٣ / ١٩٥٤ .

١٠ - الحاشية الكبرى في العروض ، السيد محمد الدمنهوري مصر ١٣٥٤ .

١١ - حقائق عن ديوان الدوبيت ، هلال ناجي ، بغداد ١٩٧٤ .

١٢ - دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي ، ترجمة د . عبد الرحمن بدوي بيروت ١٩٧٩ .

١٣ - ديوان الدوبيت . د . كامل مصطفى الشيبي ، بيروت ١٣٩٢ / ١٩٧٢ .

١٤ - ديوان الكان كان ، د . كامل مصطفى الشيبي ، بغداد ١٩٨٧ .

١٥ - ديوان ابي نواس ، طبع على نفقته اسكندر اصاف مصر ١٨٩٨ .

١٦ - ديوان الوليد بن يزيد ، جمع المستشرق الايطالي ف جبر بالي ، دمشق ١٣٥٥ / ١٩٣٧ .

١٧ - رسالتان فريدتان في عروض الدوبيت . لابن المرحل المالقي . تحقيق هلال ناجي ، مجلة المورد المجلد الرابع الجزء الثالث ١٩٧٤ .

١٨ - سلك الدرر في اعيان القرن الثاني عشر ، للمرادي ، نشر مكتبة المثنى ببغداد .

١٩ - شعراء الغري ، علي الخاقاني ، طبعة النجف ١٣٧٣ - ١٣٧٦ / ١٩٦١ - ١٩٦٦ .

٢٠ - الشعر العامي في مصر في العصر المملوكي . احمد صادق الجمال . القاهرة ١٧٨٦ / ١٩٦٦ .

٢١ - الشعر القومي في السودان . د . عز الدين اسماعيل ، بيروت ١٩٦٨ .

٢٢ - ابو العتاهية ، اشعاره واخباره ، تحقيق د . شكري فيصل ، دمشق ١٣٨٤ / ١٩٦٥ .

٢٣ - العربية : دراسات في اللغة واللهجات والاساليب ، يوهان فك ، ترجمة د . رمضان عبد التواب ، مصر ١٤٠٠ / ١٩٨٠ .

٢٤ - عروبة العلماء المنسوبين الى البلدان الاعجمية . د . ناجي معروف ، بغداد ١٩٧٤ .

٢٥ - عروض الموشحات الاندلسية . د . مقداد رحيم ، بغداد ١٩٩٠ .

٢٦ - العصر الجاهلي . د . شوقي ضيف ، ط ٧ ، دار المعارف بمصر ١٩٧٦ .

٢٧ - العصر العباسي الاول ، د . شوقي ضيف ط ٢ ، دار المعارف بمصر ١٩٦٩ .

٢٨ - عقود اللال في الموشحات والازجال ، تصنيف شمس الدين محمد حسن النواجي ، تحقيق عبد اللطيف الشهابي بغداد ١٩٨٢ .

٢٩ - الغيث المسجم في شرح لامية العجم . خليل بن ايبك الصفدي ، مصر ١٣٠٥ .

٣٠ - فصول في الادب الاندلسي د . حكمة علي الاوسي ، بغداد ١٩٧٤ .

٣١ - في الادب الاندلسي . د . جودت الركابي ، دار المعارف بمصر ١٩٦٦ .

٣٢ - في التراث العربي . د . مصطفى جواد . اخراج محمد جميل شلش وعبد الحميد العلوجي ، بغداد الجزء الاول ١٩٧٥ . الجزء الثاني ١٩٧٩ .

٣٣ - في الشعر الجاهلي . طه حسين . ط ١ القاهرة ١٣٤٤ / ١٩٢٦ .

٣٤ - قراءة عروضية في المعلقات العشر . د . عبد المنعم احمد صالح التكريتي بغداد ١٤٠٦ / ١٩٨٦ .

٣٥ - الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية . عبد الرؤوف المناوي ، مصر ١٨٣٨ .

٣٦ - محاضرات عن الشعر الفارسي . د . علي اكبر فياض ، كلية الاداب / جامعة فارق الاول ١٩٥٠ .

٣٧ - مختارات من الشعر الفارسي . د . محمد غنيمي هلال ، القاهرة ١٣٨٥ / ١٩٦٥ .

٣٨ - المستدرك على ديوان الدوبيت . هلال ناجي . مستل مجلة الكتاب عدد (٧) سنة ١٩٧٤ .

٣٩ - مصادر الشعر الجاهلي . د . ناصر الدين اسد ط (٥) دار المعارف بمصر ١٩٧٨ .

٤٠ - المواليا . د . رضا محسن حمود . بغداد ١٣٩٦ / ١٩٧٦ .

٤١ - موسيقى الشعر . د . ابراهيم انيس . ط ٣ . القاهرة ١٩٦٥ .

٤٢ - الموشحات الاندلسية . د . محمد زكريا عناني . الكويت ١٤٠٠ / ١٩٨٠ .

٤٣ - ميزان الذهب في صناعة شعر العرب ، السيد احمد الهاشمي ط (١٤) ١٣٨٢هـ / ١٩٦٣م .

نبات وحيوان
في آي من القرآن[١]

عزيز العلي العزي

المقدمة

وردت في القرآن الكريم اسماء من النبات كالنخل والعنب والزيتون وغيرها ومن الحيوان كالانعام والخيل والطير والسمك والنحل ونحوها . وكان الغرض من ايرادها اما التشريع وبيان ما يحلّ منها للمسلم وما يحرم عليه ؛ او ذكر نعم الله منها على عباده كالنخيل والاعناب والسمك والانعام ، والمن والسلوى ؛ او ضرب الامثال على قدرة الله وعلى حال الدنيا بما فيها ومن فيها ؛ او التذكير والاعتبار بما جرى للامم الماضية كقوم فرعون حين ابتلاهم الله بالقمّل والجراد والضفادع ؛ او الاقتران باعلام او اقوام باعيانهم مثل « الشجرة » وسمكة موسى وحوت يونس وهدهد سليمان والطير الابابيل .

ومن المعلوم ان القرآن الكريم لم يحدد انواع تلك النباتات والحيوانات باعيانها لانه ليس كتاباً في التاريخ الطبيعي ولا في علمي النبات والحيوان ، بل هو كتاب هداية وتشريع وترغيب وترهيب ، وردت فيه اسماء من النبات والحيوان للاغراض التي ذكرتها قبل اسطر . لذلك فانني ساحاول في هذا البحث ان احدد بعض انواع الفئة الاخيرة منها حسب قواعد علم التصنيف النباتي والحيواني الحديث ، وابين مواقع كل منها في مملكتي النبات والحيوان ، واذكر اسماءها العلمية المتفق عليها اليوم وشيئاً من اوصافها وطباعها وتوزيعها الجغرافي ونحو ذلك من امور على قدر المستطاع . وهدفي من كل ذلك اعانة المسلم بها على فهم تفسير كتاب الله فهماً اكثر عمقاً وشمولاً ، جرياً على قاعدة [العلمُ بالشيء ولا الجهلُ به] . والله الموفق الى الصواب .

١ ـ شجرة بيعة الرضوان

ذكرت هذه الشجرة معرّفة في القرآن الكريم . قال تعالى : [لقد رضي الله عن المؤمنين إذْ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فانزل السكينةَ عليهم واثابهم فتحاً قريباً][٢] .

قال ابن كثير في تفسير هذه الاية [يخبر تعالى عن رضاه عن المؤمنين الذين بايعوا رسول الله [ﷺ] تحت الشجرة . وقد تقدم ذكر عدتهم وانهم كانوا الفاً واربع مئة ، وان الشجرة كانت شجرة بارض الحُديبية] .[٣]

اختلفت كتب النبات والمفردات وكتب اللغة والمعجمات في تحديد انواع السَمُر تحديداً دقيقاً . وسبب ذلك اختلاف التسميات باختلاف المواطن والاقوام ؛ وهذا امر شائع ومعروف في لغات العالم اجمع ومنها العربية . لذلك اتفق علماء تصنيف الاحياء على استخدام التسمية العلمية [وهي باللاتينية عادة] حيث يسمى النوع الواحد من النبات او الحيوان باسم واحد لا يشاركه فيه اي نوع آخر .[٤]

تضم فصيلة السَمُر Mimosaceae اكثر من ٣٠ جنساً و ١٤٠٠ نوع من اشجار وشجيرات تنمو وتكثر في الاقاليم الاستوائية وشبه الاستوائية . وهي ذوات اوراق ريشية عادة ، وازدهار صغيرة تجتمع لتؤلف رؤوساً زهرية او نورات او سنابل ، والثمر قرني كقرون البقوليات .[٥] لذلك يلحق بعض المصنفين جنس السمر بفصيلة البقوليات . وهذا الجنس Acacia يضم السَمُر والسَنْط والطلح وشوك الشام وغيرها . وقد عرف في كتب المفردات العربية القديمة باسم « اقاقيا » وهو تعريب لاسمه اليوناني القديم akakia الذي يعني « الشوكة » او « الشوك » .[٦]

يضم جنس السمر اكثر من ٧٥٠ نوعاً تنتشر في افريقيا وجزيرة العرب والهند واستراليا وأقاليم اخرى . وهي ذوات اوراق ريشية او مختزلة الى ذنيبات ورقية مفلطحة ، وازهار بيض او صفر او برتقالية طويلة الاسدية (اي الاعضاء الذكرية للزهرة) البادية للعيان اكثر من غيرها ، وثمر قرني او قرون ملتوية او متخصرة بين كل حبة واخرى .[٧]

قال ابن سينا نقلاً عن ديسقوريدس « اقاقيا : هو شجر الاقاقية تنبت بمصر وغير مصر ، ذات شوك وشوكها غير قائم وكذلك اغصانها ، ولها زهر ابيض وثمر مثل الترمس ، ابيض في غُلف ... » .[٨]

وقال في موضع آخر من كتابه « قرظ .... ومن الناس من يسميه اقاكيا وبعضهم يسميه اقاقيا ، وهو عصارة شجرة تنبت بمصر وغير مصر . وهي شوكة لاحقة في عِظمها بالشجر ، واغصانها وشعبها ليست بقائمة ، ولها زهر ابيض وثمر مثل الترمس في غلف ، منه تعمل العصارة ... والصمغ العربي ايضاً يكون من هذه الشوكة ... » .[٩]

وقال ابن البيطار « قرظ : ... أسم لثمرة الشوكة المصرية المعروفة بالسنط . من هذه الثمرة تعتصر الاقاقيا وهي رُبّ القرظ ... ولها سوق غلاظ وخشب صلب اذا تقادم اسودّ كالابنوس ... » .[10]

قلت : يبدو من وصف ابن سينا للأقاقيا والقرظ ، ووصف ابن البيطار للقرظ ، انهما خلطا بين ثلاثة انواع متشابهة من جنس السمر او الاكاسيا كما تعرف اليوم . اولها السمر العربي او السنط العربي Acacia arabica الذي يستخرج منه الصمغ العربي ، لكن زهر هذا النوع اصفر زاهٍ وليس بابيض . وثانيها الطلح او السنط المفتول A .tortilis الذي يكثر في اليمن وسواحل البحر الاحمر ووادي النيل وجنوبي الشام ، وهو ابيض الزهر . ويعرف في سلطنة عمان باسم « سَمُرة » و« شجرة » . وثالثها القتاد او سنط السنغال A .senegal الذي يكثر في افريقيا المدارية والسودان وينعدم وجوده في جزيرة العرب باستثناء منطقة ظُفار من سلطنة عمان ، وهو ابيض الزهر ايضاً .[11]

وبالرغم من اختلاف كتب اللغة والنبات والمفردات في تحديد انواع السمر تحديداً دقيقاًومميزاً لكل نوع ، ومن اختلاط الامور والتباسها على ابن سينا وابن البيطار ، فانني استطيع استبعاد النوعين الثاني (الطلح) والثالث (القتاد) من المناقشة . فالطلح A .tortilis وان كان يوجد في جزيرة العرب والسواحل فانه غير موجود في الحجاز حيث تقع الحديبية على بعد مرحلة واحدة من مكة . والقتاد A .senegal يكاد يكون افريقياً محضاً ، وهو غير موجود في جزيرة العرب فضلاً عن الحجاز باستثناء منطقة ظفار في اقصى الغرب من عمان . لذلك فانني ارى ان السَمُرة التي ذكرها المفسرون في تفسير كلمة « الشجرة » هي السَمُر العربي A .arabica gum –arabic tree التي تعرف ايضاً بالسنط العربي والسنط النيلي . فهذه الشجرة تكثر في جزيرة العرب ومصر ، ويمتد مجال انتشارها من جنوبي افريقيا حتى العراق شمالاً . تعلو هذه الشجرة الى اكثر من خمسة امتار فتبدو للناظر كانها قبة خضراء وسط الصحراء ، يمتد قطرها الى ثمانية امتار فتظلل من يقف تحتها بظل ظليل ، فلا عجب ان اظلت ذلك العدد الكبير من المؤمنين المبايعين او معظم ذلك العدد . وهذه الشجرة دائمة الخضرة ذات لحاء بني اللون داكن او اسود ، خشن الملمس كثير التشقق . وعلى جانبي عنق الورقة هناك شوكتان حادتان يصل طول كل منهما الى ثمانية سنتمترات . وازهارها صفر زاهية تجتمع بشكل رؤوس زهرية كروية ذات رائحة عطرة . اما ثمرها فقرون خضر يتراوح طول الواحد منها بين ٨ ـ ١٧ سم ، وفيه اكثر من عشر حبات ، وعندما يجف القرن يتحول لونه الى الاسود .[12]

٢ ـ منّ بني اسرائيل

المنّ ليس نباتاً بل مادة حلوة تنتجها انواع من النبات ، لذلك ادرجتها هنا مع النبات . ذكر المن مقروناً بالسلوى في ثلاث آيات من القرآن الكريم في ثلاث سور منه . قال الله تعالى :

« وظلّلنـــا عليكم الغمــامَ وانــزلنـــا عليكم المنَّ والسَّلوى ... » .[13]

قال ابن كثير في تفسيره « اختلفت عبارات المفسرين في المن ما هو فقال علي بن ابي طلحة عن ابن عباس : كان المن ينزل عليهم على الاشجار فيغدون اليه فياكلون منه ما شاءوا ... وقال قتادة : كان المن ينزل عليهم في محلهم سقوط الثلج ، اشد بياضاً من اللبن واحلى من العسل : يسقط عليهم من طلوع الفجر الى طلوع الشمس ، ياخذ الرجل منهم قدر ما يكفيه يومه ... وهذا كله في البرية . وقال الربيع بن انس : المن شراب كان ينزل عليهم مثل العسل فيمزجونه بالماء ثم يشربونه ... والغرض ان عبارات المفسرين متقاربة في شرح المن ، فمنهم من فسره بالطعام ومنهم من فسره بالشراب ... » .[14]

وقال تعالى : « ... وظللنا عليهم الغمامَ وانزلنا عليهم المن والسلوى ... » .[15]

وقال ايضاً : « ... ونزلنا عليكم المن والسلوى » .[16]

وتفسير هاتين الايتين قد تضمنه تفسير الاية التي قبلها في اعلاه ـ المن manna مادة نباتية حلوة المذاق صمغية القوام ، تفرزها بعض الاشجار والشجيرات والنباتات الدنيا ؛ وهي مادة سائلة في اول امرها لكنها تتصلب بعد تعرضها للهواء . فمن الاشجار هناك شجرة طرفاء المن , manna tamarisk Tamarix mannifera من الفصيلة الطرفاوية ، وهي شجرة تنتشر في فلسطين وسيناء والصحراء العربية . تعلو هذه الشجرة الى ارتفاع ٣ ـ ٥ م ، وهي ذات فروع صلبة واوراق حرشفية صغيرة ، وازهار وردية اللون دقيقة تتجمع في نورات طرفية قصيرة . تصاب هذه الطرفاء بحشرة قشرية ماصة هي قشرية المن Coccas manniparus التي تثقب بخراطيمها الابرية سيقانها الغضة وفروعها فينضح من تلك الثقوب سائل حلو يشبه العسل ، سرعان مايتصلب ويسقط من الشجرة . ولا يزال البدو الى يومنا هذا يجمعون هذا المن المتساقط ويصنعون منه اقراصاً مرصوصة تدل على ترف أكلها .[17]

ومن الشجيرات هناك شجيرة العاقول , camel thorn Alhagi maurorum من فصيلة البقوليات وتعرف ايضاً بشجيرة الحاج . وهي شجيرة ضئيلة قصيرة لا تكاد تعلو الى اكثر من متر واحد ، متعددة السيقان كثيرة الفروع المشجرة والمرصعة بكثير من الاشواك ، ذات ازهار محمولة على عناقيد زهرية قليلة عدد الازهار . يكثر العاقول في سوريا ولبنان وفلسطين وسيناء وجزيرة العرب والعراق ، حيث ينمو في الاراضي البور والمهجورة ، وهو شجيرة تنمو وتزهر صيفاً ، لذلك تنضح سيقانها واوراقها عند اشتداد حرّ النهار مادة صمغية القوام حلوة المذاق ، لا تلبث ان تتصلب عند ملامستها الهواء ، هي مادة المن .

يجمع هذا المن المتصلب بان يهزّ العاقول فوق قماش منشور تحته فيتساقط فوق تلك القماش.[١٨]

اما النباتات الدنيا التي تفرز المن فمنها الحزاز lichens . والنبات الواحد من الحزاز يتالف في معظمه من نوع من الفطريات الكيسية Ascomycetes ينمو متعايشاً معيشة تكافلية مع نوع من الطحالب الخضر Chlorophyceae او الزرق المخضرّة Myxophyceae . وتختلف انواع الفطر والطحالب المتعايشة باختلاف نوع الحزاز . وانواع الحزاز التي تفرز المن يضمها جميعاً جنس الداذي Lecanora ويرى علماء النبات المعاصرون ان المن الذي انزل على مضارب بني اسرائيل بانتظام مع سقوط الندى ليلاً كانت تفرزه في الاقل ثلاثة انواع من جنس الداذي هي : الداذي القريب L. affinis ، والداذي الصحراوي L. esculenta ، والداذي المالـوف L. fruticulosa . وهذه الانواع الثلاثة تغطي اصقاعاً واسعة من السهول القاحلة والجبال الجرد في جنوبي غرب آسيا وشمالي افريقيا حيث تفرز المن مادام الجو رطباً . فاذا حلت بعد ذلك فترات جفاف طويلة الامد تقشر الداذي وانفصل عن الارض ملتفاً على نفسه . ولانه خفيف الوزن جداً فان الريح تحمله مسافات طويلة الى حيث يسقط ثانية على الارض مكوناً طبقات منه قد يصل سمكها الى بضعة سانتمترات . وكثيراً ما تحمل الريح الداذي الى اقاليم بعيدة جداً عن موطنه الاصلي ، والى اماكن لا يعرف اهلها شيئاً عنه سوى كونه رزقاً ينزل عليهم من السماء . ففي حدود سنة ١٨٥٤ انهمر وابل من الداذي على ايران التي كانت تعاني يومذاك مجاعة كبيرة ، فجاء انهماره مدداً لاهلها الجياع . تاكل الغنم هذا الداذي المتجمع بشهية ونهم ، في حين يصنع البدو منه نوعاً من الخبز الحلو .

ويغلب على الظن ان اليهود اول من اطلق اسم « المنّ » على افرازات هذه الانواع من الداذي . فعندما رأوا تلك الافرازات اول مرة ـ ولم يكن لهم بها عهد من قبل ـ تساءلوا بالعبرية « مَنْ هُوَ ؟ » ، اي « ماهذا ؟ » . ثم اختصرت صيغة السؤال الى « مَنْ ؟ » ، وهي اللفظة التي وردت في التوراة بمعنى الافرازات الحلوة لانواع الداذي ، ثم توسع استعمالها لتطلق على انواع المن الاخرى اياً كان مصدرها.[١٩]

وهناك نوع آخر من المن او اكثر يُظن ان مصدره حيواني حيث تطرحه حشرات معينة ، منها المن العراقي المعروف محلياً باسم « مَنِ السَما » . فهناك حشرة منّ خضراء من الجنس Tuberculoides تكثر صيفاً باعداد هائلة على السطوح السفلى لاوراق البلوط العفصي Quercus infectoria عادة وأوراق البلوط اللبناني Q. libani اللذين يكثران في كردستان العراق وبخاصة في محافظة السليمانية . تطرح هذه الحشرة المن في منتصف الصيف عادة فيتساقط سائلاً على ما تحته من ورق واغصان ، لكنه سرعان ما يجف بعد ملامسته الهواء . وفي شهري ايلول وتشرين الاول تجمع المادة المتصلبة هذه بالضرب على الاغصان التي تجمعت عليها فتتساقط منفصلة عن الشجرة وقد علقت بها شوائب من الورق والعيدان ونحوها . يضاف الماء الى هذا المن فيذيبه ، في حين تطفو الشوائب لترفع من المحلول اولاً باول . بعد ذلك يبخر الماء من هذا المحلول تاركاً وراءه مادة المن المتصلبة التي تشوبها شوائب يسيرة . وبشكلها هذا تباع مادة المن في شهر تشرين الثاني عادة الى اصحاب مصانع الحلوى ليصنعوا منها الحلوى العراقية المعروفة باسم « من السما ».[٢٠]

وفي تركيا هناك نوع ثانٍ من المن يعتقد انه مما تطرحه حشرة من اخر هي Cinara Pishtae والتي تتغذى بعصارة شجر التَنُوب fir من الفصيلة الصنوبرية والذي تكثر بعض انواعه في الاناضول . ويستخدم مربّو النحل الاتراك هذا المن طعاماً لما يربونه من نحل ، لذلك فانهم ينقلون خلايا نحلهم صيفاً الى حين يكثر التنوب وحشرة المن هذه ليتغذى النحل بالمن الذي تطرحه هذه الحشرة .

تكمن القيمة الغذائية للمن في النسب العالية من السكريات الثنائية والاحادية فيه ، لذلك يتناوله الاكراد في شمال العراق باعتباره مصدراً غذائياً من مصادر السكريات .

٣ ـ سَلْوَى بني اسرائيل

ذكرت السلوى في القرآن الكريم مقرونةً بالمنّ في الآيات الثلاث التي مضى الكلام عليها في مادة « منّ بني اسرائيل » . قال الزمخشري في تفسير الآية الاولى منها « ... ويبعث الله الجَنُوب فتحشر عليهم السلوى وهي السُّمانى ، فيذبح الرجل منها ما يكفيه ».[٢١] وقال ابن كثير في تفسير الآية نفسها « ... وقال ابن ابي حاتم ... عن ابن عباس قال : السلوى هو السمانى ... وقال السُّدّي ... وهو طائر يشبه السمانى اكبر منه ... وفي رواية عن وهب قال : سألت بنو اسرائيل موسى عليه السلام لحماً فقال الله : لاطعمنهم من اقلّ لحم يعرف في الارض ، فارسل عليهم ريحاً فانثرت عند مساكنهم السلوى ، وهو السمانى ... ».[٢٢]

السلوى quail طائر بري من رتبة الدجاجيات والفصيلة التَدْرُجِيَة Phasianidae التي تضم التدرج والحَجَل والدُرّاج وغيرها . تتميز انواع هذه الفصيلة بغزارة ريشها وبرؤوسها الصغيرة نسبياً ومناقيرها القصيرة واقدامها القوية التي تنبش بها الارض بحثاً عن طعامها من حب وحشرات ودود وغيرها . وهي ذات اجنحة قصيرة مستديرة ، لذلك فانها ضعيفة الطيران لا تطير الا لمسافات قصيرة (باستثناء السلوى المهاجرة) ثم تجري مسرعة للاختباء بين الاعشاب هرباً من اعدائها . تخرج فراخها من البيض مكسوّة بزغب كثيف ، وسرعان ما تتبع امهاتها وتلتقط طعامها بانفسها.[٢٣] تضم هذه الفصيلة عدداً

من الاجناس احدها جنس السلوى او السُماني Coturnix . ومن هذا الجنس طائر السلوى المعروف في بلاد العرب بالسلوى والسماني C. coturnix ، وفي العراق بالمريعي ، وفي لبنان بالسمن (بضم السين والميم المشددة) ، وقد رأيته هناك يباع مذبوحاً باعداد كبيرة .. والسلوى طائر صغير لا يجاوز طوله ٢٠ سم ، ذو منقار دقيق صغير وذيل قصير وجناحين طويلين مدببين يمكنانه من الطيران مهاجراً فوق البحر لمسافات طويلة ؛ وهما مقلمان بلون عسلي . الظهر بني اللون مخطط بخطوط سود دقيقة ، ومقدمة الصدر بندقية اللون ؛ والبطن عسلي اسمر او ابيض تشوبه كدرة . وهو من القواطع في العراق [٢٤] وعند هجرته فانه يطير باسراب محتشدة ، لكنه يتفرق عندما يحط على الارض . وهو ينشط صباحاً وقبيل الغروب بحثاً عن طعامه ، وعندئذ لا يطير الا مضطراً والى مسافة قصيرة . واكثر طعامه الحبوب ثم القواقع والحشرات [٢٥].

تضع السلْوَة (واحدة السلوى) ٨ ـ ١٤ بيضة في أُفحوص (عش ارضي) تصنعه في حقول الحنطة ونحوها وتحضنها ٢٠ يوماً تفقس بعدها عن فراخ كاسية كاسية تتبع امها اينما ذهبت . وتعنى الام بفراخها وفراخ غيرها اذا فقدت امهاتها الى ان يشتد عودها وتستطيع الطيران . والسلوى من القواطع (المهاجرة) المألوفة في مصر حيث يصاد في موسم هجرته بالشباك ويباع باعداد كبيرة لمن يأكلون لحمه اللذيذ [٢٦]. وهو من القواطع الربيعية والخريفية في لبنان حيث يفرخ في سهل البقاع [٢٧] ومن القواطع الربيعية والخريفية باعداد قليلة في سلطنة عمان [٢٨].

٤ ـ سمكة موسى

ذكرت سمكة موسى في كتاب الله باسم « الحوت » . قال تعالى : « واذ قال موسى لفتاه لا ابرحُ حتى ابلغَ مجمعَ البحرين او امضيَ حُقُباً . فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتَّخذَ سبيله في البحر سَرَباً . فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نَصَباً . قال ارأيتَ إذ اوَيْنا الى الصخرة فاني نسيتُ الحوتَ وما انسانيه الا الشيطانُ ان اذكره واتخذ سبيله في البحر عجباً » [٢٩].

ذكر المفسرون في تفسير هذه الآيات قصة النبي موسى وفتاه يوشع بن نون ، لكن أياً منهم لم يحدّد نوع السمكة . التي يزوّدا بها متاعاً لهما في سفرهما فظل نوعها مبهماً غير معروف [٣٠] وساحاول في هذه السطور تحديد نوع هذه السمكة على قدر ما يؤديني اليه اجتهادي .

قلت : تعرف السمكة التي تزود بها النبي موسى وفتاه يوشع في تراثنا العربي العلمي باسم « حوت موسى ويوشع » . قال القزويني في معرض كلامه على حيوانات بحر المغرب (اي الجزء الغربي من البحر المتوسط) « ومنها حوت موسى ويوشع عليهما السلام . قال ابو حامد الاندلسي : رأيت سمكة بقرب مدينة سَبْتَة ، وهي من نسل الحوت المشوي الذي اكل موسى ويوشع نصفه فاحيا الله النصف الاخر فاتخذ سبيله في البحر عجباً . ولها نسل في البحر الى الان (اي القرن السابع الهجري) في ذلك الموضع . وهي سمكة طولها اكثر من ذراع وعرضها شبر واحد . في احد جنبيها شوك وعظم ، وجلدها رقيق ملتصق على احشائها ، ورأسها نصف رأس . فمن رآها هكذا استقذرها وحسب انها ماكولة ميتة ونصفها الاخر صحيح . والناس يتبركون بها ويهدونها الى المحتشمين ، ويشويها اليهود ويقددونها ويحملونها الى الاماكن البعيدة » [٣١] ونقل الدميري ما قاله القزويني وزاد عليه قوله : « ولها عين ونصف راس » [٣٢] ووصفها ايضاً شمس الدين الدمشقي في معرض كلامه على البحر نفسه فقال : « وسمكة تعرف بحوت موسى طولها اكثر من ذراع ، وهي جانب ملآن لحماً وجانب فارغ من اللحم ، الجلد على العظم . والصيادون ايضاً يتبركون بها ولا يأكلونها ، ويقولون هذا من نسل حوت موسى ويوشع عليهما السلام » [٣٣].

وسمك موسى من رتبة السمك المفلطح Pleuronectiformes الذي تكون اجسامه بيضوية الشكل مضغوطة الجنبين بشدة ، وغير متناظرة خصوصاً قحف الرأس . ولكل من الزعنفتين الظهرية والمخرجية قاعدة طويلة ، وتتصل كلتاهما بغشاء مع الزعنفة الذنبية او تلتحمان بها او تستقلان عنها . اما الزعنفتان الكتفيتان فغير متساويتين عادة او اثريتان او تختفي احداهما او كلتاهما . وتقع العينان في السمكة البالغة على جانب واحد من الراس هو الايمن او الايسر ، ويكون الفم معوجاً قليلاً . اما السمكة الصغيرة فهي متناظرة الجسم تسبح في الماء كانواع السمك الاخرى : اي يكون ظهرها الى الاعلى واسفلها إلى الاسفل ، ولها عين واحدة في كل جانب من الراس . واثناء نمو السمكة تهاجر احدى عينيها فوق راسها لتستقر بجوار العين الاخرى في الجانب الاخر من الراس ، ويعوج فمها قليلاً ، وتتغير طريقة سباحتها فتسبح على احد جنبيها بحيث يقع جنبها الاعمى الى اسفل . ويكون عديم اللون عادة ، وجنبها ذو العينين الى اعلى ويكون في العادة ملوناً . ولانواع السمك المفلطح القدرة على تغيير الوانها لتشابه مايحيط بها مما يساعدها على الاختفاء . لذلك فانها تقضي معظم اوقاتها مستقرة على قاع البحر ومغطاة بالرمل والحصى . يهاجر السمك المفلطح الى السواحل الضحلة صيفاً والى المياه العميقة شتاءً ، وقد تدخل بعض انواعه في المياه العذبة .

تضم هذه الرتبة اكثر من ٥٠٠ نوع من الاسماك البحرية التي تستوطن بحار العالم كلها ، من الدائرة القطبية شمالاً

حتى اقصى سواحل نصف الكرة الجنوبي ؛ منها في العراق نحو ٢٦ نوعاً .[٣٤] ومن فصائل هذه الرتبة فصيلة تعرف لدى علماء العرب المعاصرين باسم فصيلة سمك موسى flounders or Bothidae،[٣٥] وتعرف ايضاً باسم المزلق الايسر،[٣٦] وباسم ثالث هو يسارية العيون .[٣٧] في حين كان المعلوف قد سبقهم فاطلق اسم سمك موسى على فصيلة اخرى هي Flounders or Pleuronectidae ، اي السابحات على جنوبها . وذكر ان النوع Rhomboidychthys Pantherinus هو سمكة موسى لكنه استدرك قائلًا : « وليس معنى ذلك ان حوت موسى هو هذا النوع فقط ، فقد يطلق على انواع اخرى من هذه الفصيلة » .[٣٨] اما سبرامايئام وابراهيم فقد سمياه باسم علمي آخر هو Bothus Pantherinus ، وسمياه باسمه المحلي في الخليج العربي وهو « خوفعة »،[٣٩] ولم يستخدما اسم سمك موسى .

وايأ كان الامر فان ما قاله اولئك الافاضل فيه نظر ، ولا يمكن الاخذ به على علّاته فهذا النوع وهو الخوفعة الرقطاء B. Pantherinuss لا يتجاوز طوله ٢٥ سم ، وتتراوح اطوال الانواع الصغيرة الاخرى من الفصائل الاخرى في الرتبة نفسها بين ١٠ ـ ٢٥ سم ، في حين تتراوح اطوال بقية الانواع من الفصائل نفسها بين ٣٠ ـ ٣٨ سم . وهذه الاطوال لا تتفق باي حال من الاحوال وما سبق ان ذكره القزويني والدميري والدمشقي ان طول سمكة موسى (حوت موسى) اكثر من ذراع . قال الخوارزمي في تعريف القبضة : « القبضة سدس الذراع » .[٤٠] ؛ فاذا علمنا ان معدل قبضة اليد هو « ١١سم فان الذراع تساوي ٦٦ سم تقريباً . وفي تعريف آخر قال دوزي : « ذراع بلدي : مقياس تركي طوله ٢٥ بوصة »،[٤١] اي ٥ و٦٣ سم . وهذان الطولان اطول بكثير من طول اي نوع معروف من رتبة السمك المفلطح في البحر الاحمر والمحيط الهندي والخليج العربي ، باستثناء جنس المزلق الشوكي من فصيلة المزلق الشوكي في هذه الرتبة .

تتميز فصيلة المزلق الشوكي او القفندر Psettodidae باجسامها البيضوية المستطيلة المضغوطة الجنبين بشدة ، وبافواهها الواسعة المعوّجة ذات الاسنان المدببة وببروز فكوكها السفلى الى الامام ، وبعدم امتداد الزعنفة الظهرية فوق الرأس ، في حين لا تتصل الزعنفتان الحوضيتان الى الزعنفة الذنبية . ويكون الفرد الواحد من هذه الفصيلة اما يميني العينين او يساريهما . تضم هذه الفصيلة جنساً واحداً هو جنس المزلق الشوكي Psettodes ، وصفاته هي صفات الفصيلة نفسها . وهو يضم بدوره نوعين : احدهما يوجد غربي افريقيا ، ولعله هو الذي وصفه القزويني نقلًا عن أبي حامد الاندلسي الذي رآه قرب مدينة سبتة المغربية عند ملتقى البحر المتوسط بالمحيط الاطلسي ، وذكر انه يعرف بحوت موسى ويوشع . والآخر هو مزلاك البحر او الهَلْبوت الهندي indian halibut , P . erumei الذي يستوطن المحيط الهندي والخليج العربي والبحر الاحمر . ويكون الجنب ذو العينين في السمكة من هذا النوع ملوناً بلون بني داكن ، ويصل طول جسمها الى ٦٠ سم .[٤٢] اي ان طولها يقارب طول الذراع (٦٦سم) والذراع البلدي (٥ و٦٣ سم) ويزيد على طول الذراع الهاشمي (٥٠ سم) . وهي واسعة الفم جداً .

لذلك فانني ارى ان مزلاك البحر او الهلبوت الهندي P .erumei هو نفسه سمك موسى او حوت موسى ويوشع المذكور في القرآن الكريم . لان طوله يقارب الذراع او يزيد عليه ، ولانه موجود في البحر الاحمر (او بحر موسى) حيث مجمع البحرين (وهو ملتقى خليج العقبة بخليج السويس) الذي حدثت عنده احداث قصة النبي موسى وفتاه يوشع بن نون . والله اعلم

٥ ـ حوت يونس

ورد اسم الحوت في القرآن الكريم بمعنى السمك وبمعنى الحيوان البحري اللبون . وساحاول هنا ان اتكلم عليه بمعناه الثاني وذلك من خلال محاولتي تحديد نوع الحوت الذي التقم النبي يونس عليه السلام . قال تعالى في ذكر قصة ذي النون ، اي النبي يونس : « وذا النُونِ إذ ذهبَ مُغاضِباً فَظَنّ أن لنْ نَقْدِرَ عليه فنادى في الظلمات ان لا إلهَ إلّا انت سبحانك إني كنتُ من الظالمين » .[٤٣]

قال ابن كثير : « وقوله « وذا النون » يعني الحوت ، صحّت الاضافة اليه بهذه النسبة » .[٤٤] وقال الراغب الاصبهاني : « والنون : الحوت العظيم . وسمي يونس ذا النون ... لان النون كان قد التقمه ... » .[٤٥]

ومن الطريف ان كلمة « نونو » ، في اللغتين البابلية والآشورية جاءت وهي تعني معانيها العربية نفسها ، واشهرها السمك والحوت . ومما يجدر ذكره ان اسم « نَيْنَوَى » ـ المدينة الآشورية المعروفة ـ يتضمن لفظها معناها ولفظها « نينواً » معنى الحوت والسمك .[٤٦]

وقال الله ايضاً في النبي يونس .

« فالتقمه الحوتُ وهو مُليم » .[٤٧]

« فاصبرْ لحكمِ ربّكَ ولا تكن كصاحبِ الحوتِ اذ نادى وهو مكظوم » .[٤٨]

وخلاصة قصة النبي يونس بن مَتّى ان الله بعثه الى اهل مدينة نينوى من ارض الموصل ، فدعاهم الى الايمان بالله فابوا عليه وتمادوا في كفرهم فخرج من بينهم مغاضباً لهم ووعدهم بالعذاب بعد ثلاث ليال . فالى اين ذهب ؟ تشير التفاسير وكتب الاخبار الى انه ذهب الى ساحل بحر . فاي بحر كان ؟ تقول هذه التفاسير والكتب الى انه كان الساحل

الشرقي للبحر المتوسط ، اي ساحل الشام وفلسطين اليوم . لكن البحر المتوسط لم يكن يعرف يومذاك باسمه اليوم بل باسماء موضعية حسب البلاد التي تقع عليه ، فهو بحر الروم وبحر المغرب والبحر الاخضر ، ونحو ذلك من اسماء . قال المسعودي : « بحر الروم : ... ومبدأ هذا البحر من خليج يخرج جارياً من بحر اقيانوس ... »(٤٩) وقال القزويني : « بحر المغرب : مأخذه من البحر المحيط ثم يمتدّ مشرّقاً ... حتى يدخل في بحر الروم وهو البحر الاخضر ... »(٥٠) ومن الطبيعي ان يذهب النبي يونس الى البحر المتوسط ولا ينحدر في دجلة الى الخليج العربي مثلاً ؛ فاقرب مسافة مستقيمة بين نينوى وساحل البحر المتوسط الشرقي تقرب من ٦٠٠ كلم ، في حين ان اقصر مسافة مستقيمة بين نينوى ومصب شط العرب في الخليج العربي تبلغ ٨٥٠ كلم . ومما يؤيد ما ذهبت اليه ان احدى الروايات تشير الى ان يونس وقومه كانوا يسكنون فلسطين(٥١) اي على مسافة قريبة جداً من الساحل .

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى « وذا النون اذ ذهب مغاضباً ... » « واما يونس عليه السلام فانه ذهب فركب مع قوم في سفينة فلجّجتْ بهم وخافوا ان يغرقوا فاقترعوا على رجل يُلقونه من بينهم يتخففون منه ... فقام يونس عليه السلام وتجرد من ثيابه ثم القى بنفسه في البحر، وقد ارسل الله سبحانه من البحر الاخضر ... حوتاً يشقّ البحار حتى جاء فالتقم يونس حين القى بنفسه من السفينة ... »(٥٢) وقال مفسرون آخرون اقوالاً تقرب من قول ابن كثير، لن اذكرها طلباً للاختصار .

فما هو الحوت ؟ وما فصيلته ؟ وما نوعه ؟

لابد قبل كل شيء من تعريف الحيتان وموقعها في المملكة الحيوانية . الحيتان whales لبائن بحرية تضمها والدلافين وخنازير البحر رتبة واحدة هي رتبة الحيتان Cetacea ، وكل انواعها تقضي حياتها كلها في المحيطات والبحار حيث تعيش وتتوالد وتموت ، ولا تغادرها الى اليابسة ابداً . وهي ذوات اجسام متوسطة الحجوم الى كبيرة جداً ، مغزلية الشكل ، ذوات رؤوس كبيرة تتصل بالجذع مباشرة من غير عنق ظاهر بينهما . وقد تحورت البلدان الى مجذافين عريضين في حين فُقدت الرجلان . وهناك في بعض الانواع زعنفة ظهرية . اما الذيل فذو شقين كبيرين عريضين يمتدان افقياً في مؤخرة الجسم ، وهناك تحت الجلد طبقة سميكة من الشحم تساعد الحوت على الاحتفاظ بحرارة جسمه ثابتة . تضم هذه الرتبة ثماني فصائل و٣٨ جنساً تضم ٩٠ نوعاً تعيش في البحار الدافئة والباردة ، وان كانت هناك بعض انواع من الدلافين تستوطن الانهار او مصباتها في الهند والصين واميركا الجنوبية . فالحوت الذي يلتقم رجلاً كاملاً لابد ان يكون ضخم الجسم ، واسع الفم ، متسع البلعوم والجوف . والحيتان التي بهذه الصفات تضمها ثلاث فصائل من الفصائل الثماني ، وهي : القاطوس والبال والعنبر .

ففصيلة القاطوس Balenopteridae تضم ثلاثة اجناس وستة انواع ، وهي اضخم الحيتان اجساماً ، واناثها اطول قليلاً من ذكورها ؛ وتتميز عن الحيتان الاخرى بوجود زعنفة ظهرية مثلثة قرب الذيل ، وبوجود طيات واخاديد طولية تحت الراس وعلى الصدر تزيد من سعة الفم عند فتحه ، ويتراوح عددها بين ١٠ ـ ١٠٠ أخدود ؛ ولها في افواهها صفائح لينة شبه عظمية تتدلى من الفك الاعلى . وهذه الحيتان تتزاوج وتلد في البحار الدافئة فاذا فغر الحوت فمه على سعته التهم مقداراً كبيراً من ماء البحر وما يحويه من صغار حيوان البحر ، واذا اغلقه خرج الماء منه وحجزت صفائح البالين اللينة ما وراءها من صغار الحيوان ، وعندئذ يلتقمها الحوت عبر بلعومه الضيق . من اجناس هذه الفصيلة جنس القاطوس او الحوت الازرق Balenoptera الذي يستوطن بحار العالم كلها ، والذي يتراوح طول الجسم في انواعه بين ١٨ ـ ٢٤ م ، ويزن نحو ٥٠ طناً ولونه اسود مزرق او رمادي مزرق ، وترتفع زعنفته الظهرية الى متر واحد تقريباً . يضم هذا الجنس اربعة انواع ، اضخمها القاطوس او الهركول او الحوت الازرق B. physalus وصفاته هي صفات جنسه العامة .(٥٣) وانا استبعد ان يكون هذا النوع او اي نوع آخر من هذه الفصيلة هو الذي التقم النبي يونس بسبب صفائح البالين التي تعمل مصفاة في الفم وبسبب ضيق البلعوم الذي لا يسمح الا بمرور الصغار من حيوان البحر، بالرغم من سعة الفم وضخامة الجسم .

والفصيلة الثانية هي فصيلة البال Balaenidae التي تضم ثلاثة اجناس ايضاً وخمسة انواع تتميز كلها بصفائح البالين اللينة baleen Plates التي تتدلى من الفك الاعلى ويجاوز عددها ٣٥٠ صفيحة على كل جانب من الفك ، ويتراوح طول الصفيحة الواحدة بين ٣ ـ ٤ م . تنثني هذه الصفائح في قاع الفم عند اغلاقه وتمتد مستقيمة عند فتحة ، وطعام هذه التهامة هي الطريقة نفسها . من اجناس هذه الفصيلة جنس البال Balaena الذي يعرف في تراثنا العلمي بالوال والاوال والافال وغيرها من الاسماء .(٥٤) يضم هذا الجنس نوعاً واحداً هو البال B. mysticetus وصفاته هي صفات الجنس والفصيلة نفسها . وهو حوت ضخم بطيء الحركة اسود اللون ، يتراوح طوله بين ١٥ ـ ١٨ م .(٥٥) ومن المستبعد ايضاً ان يكون هذا الحوت هو الحوت المقصود في القرآن الكريم للاسباب نفسها التي استبعدت بها القاطوس .

اما الفصيلة الثالثة من الحيتان فهي فصيلة العنبر Physteridae التي تضم جنسين احدهما جنس العَنْبَر Physter الذي يضم بدوره نوعاً واحداً هو حوت العنبر cachalot or P.catodon . وقد عرف بهذا الاسم لانه طرح

في البحر مادة العنبر مع فضلات جسمه فيقذف البحر بها الى الساحل حيث تجمع هناك. وهو يستوطن البحار الشمالية والجنوبية وهذا الحوت ضخم الجسم، رمادي اللون او اسود، ذكوره اطول من اناثه اذ يتراوح طولها بين ١٥ ـ ١٨ م في حين يتراوح طول الاناث بين ١٠ ـ ١١ م، ويتراوح وزنه بين ٣٥ ـ ٥٠ طناً، وله زعنفة ظهرية شبه محدبة خلفها عدد من الأسنة الصغيرة. واهم ما يميز العنبر راسه المربع الضخم جداً ذو المنخر الواحد؛ وله في كل جانب من فكه الاسفل ١٦ ـ ٣٠ سناً مخروطية الشكل. وبسبب اتساع فمه وبلعومه وجوفه وسرعة حركته فانه يطارد كبار حيوان البحر كالاخطبوط والحبّار والكواسج والسمك والفقمات ويغوص وراءها الى اعماق قد تصل الى ٣٦٠ م فيفترسها. لذلك فانه يستطيع اللبث تحت الماء ٢٠ ـ ٧٥ دقيقة.[٥٦] لذلك فانني ارجّح ـ والله اعلم ـ ان حوت العنبر هو الذي التقم النبي يونس، وهو المقصود في القرآن الكريم. فبجوفه الذي يسع الكواسج (القروش) الضخمة والسمك والفقمات ونحوها لابد ان يسع رجلًا وسطاً بين الرجال في طوله وقوامه.

٦ ـ الطير الابابيل

ذكرت الطير الابابيل في القرآن الكريم في سورة الفيل التي تروي قصة اصحاب الفيل ومصيرهم السيىء. قال الله تعالى:

« ألم ترَ كيف فعل ربكَ باصحاب الفيل. ألم يجعلْ كيدَهم في تضليل. وارسلَ عليهم طيراً ابابيلَ. ترميهم بحجارة من سِجّيل. فجعلهم كعَصْفٍ ماكول ».

الابابيل هي الفِرق؛ والسجيل: حجارة شديدة صلبة؛ والعصف: حطام التبن ودقاقه.

وفي تفسير ابن كثير ان الابابيل طيور صُفْر دون الحمام وارجلها حُمر وانها امثال الخطاطيف (اي امثال السنونو).[٥٧] ونقل الدميري عن عائشة رضي الله عنها في الابابيل انها « اشبه شيء بالخطاطيف ».[٥٨] وقال في الخطاف « والخطاطيف انواع ... منها نوع طويل الاجنحة رقيقها، يألف الجبال وياكل النمل؛ وهذا النوع يقال له السمائم، مفرده سَمَامة.[٥٩]

ولما تكلم على السمائم قال « وهو ضرب من الطير كالخطاف لا يُقدر على بيضه. وقيل: هو السنونو ... وهو الطير الابابيل ... ».[٦٠]

مما سبق ذكره من وصف الابابيل يتبين لنا انها ليست الخطاطيف بل طيور اخرى مشابهة لها هي السمائم. والسمائم swifts طيور من رتبة السمائم Apodiformes ثم من فصيلة السمائم Apodidae، تتميز باقدامها القصيرة واصابعها الاربع التي تتجه الى الامام عند جثومها، وباجنحتها الضيقة والطويلة جداً والمقوسة كالمنجل، وباذنابها الطويلة او القصيرة، وبطيرانها السريع جداً والمستديم طوال النهار والذي تلتهم في اثنائه طعامها من الحشرات الطائرة.[٦١]

تضم هذه الفصيلة نحو ٧٥ نوعاً يضمها عدد من الاجناس، احدها جنس السمامة Apus الذي يتميز بذيله المشطور قليلًا. وانواع هذا الجنس واسعة الانتشار في العالم؛ بما في ذلك جزيرة العرب. فاذا علمنا ان كلّاً من المسامة والخطاف يعرفان اليوم في الهند باسم « ابابيل ».[٦٢] ادركنا ان واحداً من انواع جنس السمامة هو الطير الابابيل. فما هو هذا النوع؟ انه النوع الاقرب في صفاته الى ما ذكره ابن كثير من انها طيور صفر دون الحمام وارجلها حمر. فاي هذه الانواع يتصف بهذه الصفات؟ ان انواع جنس السمامة في جزيرة العرب وما حولها كلها قاتمة الالوان سود الارجل واصغر كثيراً من الحمام باستثناء نوع واحد هو سمامة الصُرود (اي الجبال) Alpine swift, Apus melba. فهذه السمامة ذات جسم طوله نحو ثلثي طول جسم الحمامة، وجناح بادي الطول يبرز وراء ريشات الذيل، وباطنه بني اللون وكذلك غطائيات الذيل السفلى، في حين يكون اعلى الجسم والقدم بنيين فاتحين.[٦٣] واذا علمنا ان هذه السمامة وان كانت تطير منفردة فانها تطير ايضاً اسراباً صغيرة (اي ابابيل)، وانها قد تطير اسراباً كبيرة فوق الحقول؛ واذا اضفنا الى ذلك انها تشتو في جزيرة العرب وتفرخ في جنوبها الغربي، ادركنا انها من طيور الحجاز وتهامة وعسير واليمن. كل ذلك يجعلني ارجح ان سمامة الصرود A. melba هي نفسها الطير الابابيل، وهي التي ارسلها الله من الحجاز وتهامة على أبرهة الحبشي وجيشه اصحاب الفيل في الحجاز ايضاً فاهلكهم بها وجعلهم كعصف ماكول.[٦٤]

* * *

الهوامش والمصادر

(١) مادة هذا البحث مستقاة بتصرف واختصار من كتاب المؤلف « المعجم الطبيعي للقرآن الكريم » (قيد النشر).

(٢) الفتح: ١٨.

(٣) ابن كثير. اسماعيل الدمشقي: تفسير القرآن الكريم العظيم. القاهرة ١٣٧١ هـ: ٤: ١٨٥ ـ ١٩١. حول هذه البيعة راجع: ابن هشام، عبد الملك الحميري: السيرة النبوية ١: ٤٣١ ـ ٤٦٧؛ وحول موقع الحديبية راجع: الحموي، ياقوت: معجم البلدان ٢: ٢٢٩ ـ ٢٣٠.

(4) Savory, T. Naming the living World. London. 1962.: 12-83.

(5) Pool, R.J. Flowers and flowering Plants. New York, 1941: 235.

(6) Jaeger, E.C. A source - book logical names and terms. Springfield, 1955: 4

(7) Chakraverty, H.L. Plant wealth of Iraq. Baghdad,

1976 : 1:2 - 4 .
(٨) ابن سينا ، الحسين بن علي : القانون في الطب . بولاق ١٢٩٤ هـ : ١ : ٢٤٦ .
(٩) م . ن ١ : ٤٢٧ - ٤٢٨ .
(١٠) ابن البيطار ، عبد الله بن احمد : الجامع لمفردات الادوية والاغذية بولاق ١٢٩١ هـ : ٤ : ١٤ - ١٥ .
(١١) ميللر ، أ.ج ، وموريس ، م : نباتات ظفار . مسقط ١٩٨٨ : ١٧٦ - ١٨٠ .
(١٢) م . ن : ١٨٠ .
(١٣) البقرة : ٥٧ .
(١٤) ابن كثير ١ : ٩٤ - ٩٧ .
(١٥) الاعراف : ١٦٠ .
(١٦) طه : ٨٠ .
(١٧) انظر : الشهابي ، مصطفى : مصطلحات العلوم الزراعية . بيروت ١٩٨٢ : ٧٠٢ .
(18) Moldenke , H .and Moldenke A . Plants of the Bible -
(19) Ibidl 125 -128
Waltham , 1952 : 31 -32 -
(20) Roberts , H .Iraq forest entomology . FAO'1972 : 43 - 45 , 80 -81 .
Al -Ali , A . Phytophagous and entono phagous insects and mites of Iraq . Baghdad , 1977 : 45 .
(٢١) الزمخشري ، جار الله محمود بن عمر : الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التاويل : بيروت ١٣٦٦ هـ : ١ : ١٤١ - ١٤٢ .
(٢٢) ابن كثير : ١ : ٩٤ - ٩٧ .
(٢٣) اللوس ، بشير : الطيور العراقية . بغداد ١٩٦٠ - ١٩٦٢ : ٢ : ١ - ٢ .
(24) Ticehutst , C.B . etal . The birds of Mosopotamia . Bomday , 1932 : 197 - 237 , 259 -315 , 325 - 349 , 371 - 390 .
(25) Meinertzhagen , R . Birds of Arabia . London , 1954 : 567 - 569 .
(٢٦) النجومي ، عبد الله ، وآخرون : الطيور المصرية . القاهرة ١٩٥٠ : ٧٠ - ٧٢ .
(27) . Kumerloeve , H . Notes on the birds of the Lebanese Republic , Baghdad , 1962 : 73 .
(٢٨) كالاهرم . م . و ودكوك م : طيور عمان . لندن ١٩٨٥ : ١١٢ - ١١٣ .
(٢٩) الكهف : ٦٠ - ٦٣ .
(٣٠) راجع : الزمخشري ٢ : ٧٣٠ - ٧٣٣ ؛ الطبرسي ، الفضل بن الحسن : مجمع البيان في تفسير القرآن . بيروت ١٣٧٩ هـ : ٣ : ٤٧٩ - ٤٨١ ؛ ابن كثير ٣ : ٩١ - ٩٦ ؛ جوهري ، طنطاوي : الجواهر في تفسير القرآن الكريم . عمان (؟) ١٩٧٤ : ٩ : ١٨٥ .
(٣١) القزويني ، زكريا بن محمد : عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات . بيروت ١٩٧٨ : ١٧٨ - ١٧٩ .
(٣٢) الدميري ، محمد بن موسى : حياة الحيوان الكبرى . القاهرة ١٣٦٧ هـ : ١ : ٢٦٩ - ٢٧٣ .
(٣٣) الدمشقي ، محمد بن ابي طالب : نخبة الدهر في عجائب البدو والبحر . لايبزك ١٩٢٣ : ١٤٤ ، ١٥١ وفيها ذكر البحر الاحمر باسم بحر موسى .
(٣٤) الدهام ، نجم قمر : اسماك العراق والخليج العربي . البصرة ١٩٧٧ - ١٩٨٤ : ٣ : ٢٣٠ - ٢٨٨ .
(35)Mahdi , N . and Geotge P .V . A systematic list of the vertebrates of Iraq . Baghdad 1969 : 23 .
(٣٦) الدهام ٢ : ٢٣٥ .
(٣٧) سبرامانيام ، س . وابراهيم م : الاسماك الشائعة في المياة القطرية الدوحة ١٩٨٢ : ٥١ .
(٣٨) المعلوف ، امين ، معجم الحيوان ، القاهرة ١٩٣٢ : ١٠٨ .
(٣٩) سبرامانيام ابراهيم : ٥١ .
(٤٠) الخوارزمي ، محمد بن احمد : مفاتيح العلوم . بيروت د . ت : ٤٤ .
(٤١) دوزي ، ر : تكملة المعاجم العربية . بغداد ١٩٧٨ - ١٩٨٢ : ٥ : ذرع .
(٤٢) الدهام ٣ : ٢٣٢ - ٢٣٤ .
(٤٣) الانبياء : ٨٧ .
(٤٤) ابن كثير ٣ : ١٩١ - ١٩٣ .
(٤٥) الراغب الاصبهاني ، الحسين بن محمد : المفردات في غريب القرآن . القاهرة ١٣٢٤ هـ : ن و ن .
(٤٦) باقر ، طه : من تراثنا اللغوي القديم . بغداد ١٩٨٠ : ١٤٨ - ١٤٩ .
(٤٧) الصافات : ١٤٢ .
(٤٨) القلم : ٤٨ .
(٤٩) المسعودي ، علي بن الحسين : مروج الذهب ومعادن الجوهر . القاهرة ١٣٦٧ هـ : ١ : ١١٨ . وبحر اقيانوس هو المحيط الاطلسي .
(٥٠) القزويني : ١٧٥ - ١٧٨ .
(٥١) انظر : الثعلبي ، احمد بن محمد : قصص الانبياء . القاهرة ١٣٧٦ هـ : ٣٩٨ .
(٥٢) ابن كثير ٣ : ١٩١ - ١٩٣ ؛ وانظر ٤ : ٢٠ - ٢٢ في تفسير « فالتقمه الحوت .... » .
(53)Walker , E .P .et al . Mammals of the world . Baltinoer 1964 - 1968 : 2 : 2 :1136 -1137 .
(٥٤) المسعودي : ١ : ١٠٨ - ١٠٩ ، القزويني : ١٧٤ - ١٧٥ .
(55) Walker etal 2 : 1083 , 1140
(56) Ibid : 1100 .
(٥٧) ابن كثير ٤ : ٥٤٨ - ٥٥٣ ؛ الزمخشري ٤ : ٧٩٧ - ٨٠٠ ؛ الطبرسي ٥ : ٥٢٩ - ٥٤٣ .
(٥٨) الدميري ١ : ١٧ - ١٨ .
(٥٩) م . ن ١ : ٢٩٣ - ٢٩٥ ؛ العزب ، عزيز العلي : الطير في حياة الحيوان . بغداد ١٩٨٦ : ٨٩ - ٩١ .
(٦٠) م . ن ٢ : ٢٨ .
(٦١) اللوس ٢ : ٢٣٨ - ٢٤٠ .
(٦٢) المعلوف : ٢٤١ - ٢٤٢ .
(٦٣) اللوس ٢ : ٢٤٠ - ٢٤٢ .
(٦٤) العزي ، عزيز العلي : ماحقيقة الطير الابابيل ؟ علوم ٨٣ : ٤٦ - ٤٧ ، بغداد ١٩٩٦ . وفيه تفصيل اكثر ومناقشات اوسع حول الطير الابابيل .

منهج تحقيق المخطوطات اللغوية والأدبية

د . محمد سعود المعيني
كلية التربية الاولى - ابن رشد - جامعة بغداد

محاضرات القيت على طلبة الماجستير في قسم اللغة العربية / كلية التربية

مقدمة :

بسم الله الرحمن الرحيم ، والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خير الانام محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن دعا بدعوته الى يوم الدين .

أما بعد : فقد دون لنا السلف خلاصة ما وصلوا اليه بعد الجهد والبحث والتدقيق ، فما بين أيدينا عصارة عقولهم ، وذروة هممهم ، وخير تجاربهم ، خلفوا لنا تراثاً شهد به الانسان ، وحضارة تعانق الزمن ، فما علينا إلا ان ننفض الغبار عن هذه المآثر ، ونكشف الستار عن جواهر الكنوز ، لنضع أمام الجيل ذلك المشعل المنير ليرى مجد أمته الشامخ .

ومن هنا تبرز أهمية تحقيق المخطوطات العربية وتيسيرها للدارسين ، ليرتشفوا من معينها العذب ، وليبنوا على ما وصل اليه السلف الصالح .

ولقد تحسس الباحثون هذه المهمة ، وكأنهم شعروا بما لاجدادهم عليهم من حق ، فبادروا الى تحقيق المخطوطات ، واخراجها للاجيال ، وانه لوفاء بحقهم ، ان ننفض الغبار عن مآثرهم ، ونعكف على دراستها والاستفادة منها .

على ان تحقيق النصوص وتوثيقها ، لم يكن من الاعمال الجديدة او اسلوباً من اساليب البحث في عصرنا الحاضر ، وانما هو فن عرفته الدراسات القديمة ، وخاصة علوم الحديث النبوي ، حيث كان علم الرجال ، وكيفية السماع والكتابة والسماع ، والمعارضة ، ورواية اللغة وتوثيقها وتدوينها اللبنة الاولى في بناء هذا النص . فقد اتبع القدماء أسلوباً دقيقاً في كيفية المعارضة والكتابة والتصحيح والتعليق على النصوص واصلاح الخطأ والاستدراك ، ما يصلح ان يكون البذرة الطيبة ، في فهم الدراسات الحديثة .

وقد اضيفت تحسينات في الوقت الحاضر ، املتها ظروف الطباعة والنشر لهذا حاولت في بحثي هذا ان امزج بينهما .

الفصل الاول

مفهوم التحقيق ، أهميته ، هدفه ، تاريخه .

مفهوم التحقيق :

التحقيق مصدر للفعل حقَّق ، يُحقّق ، وحققتُ الامر ، وأحققته . كنت على يقين منه .

وحقَّ الامر : إذا ثبت وصار حقاً . وكلام محقق ، أي رصين .(1)

والتحقيق في اصطلاح المحققين : هو قراءة النص على الوجه الذي اراده مؤلفه .

أو تحري الحق في إخراج المخطوطة بالصورة الصحيحة ، التي وضعها فيها مؤلفها .(2)

فالمحقق يبذل الجهد ليحافظ على دقة وسلامة وضبط النص ، ليؤدي فائدته ، وتحري الصواب في ترجيح لفظ على لفظ عند اختلاف النسخ ، إذا كان الاصل مفقوداً ، واقامة الدليل على نسبة المخطوط الى مؤلفه ، وتصحيح التصحيف الوارد فيها واكمال نقصها ، والتنبيه على ما حصل فيها من خطأ وسهو . ثم توثيق النصوص بمراجعة مصادر المؤلف التي اخذ عنها ، وغير ذلك وفق منهج علمي خاص .

وتحقيق المخطوطات بهذا الشكل اصطلاح معاصر ، وتسميته حديثة ، إذا كان التحقيق : يعني اثبات المسألة بالدليل .(3)

الا انه لما كان عمل المحقق يتطلب التحري والدقة . والفحص الواعي . ومراجعة الاصول والمصادر . وتدقيق العبارات وما يتبعه من تخريج النصوص وعمل الفهارس . وغير ذلك اطلق عليه اسم « التحقيق » .

ويكفي للتدليل على هذه القضية . مراجعة النص الذي اقتبسه الامام السيوطي . في القبائل التي تؤخذ عنها اللغة . عن كتاب « الالفاظ والحروف » لابي نصر الفارابي .

يقول السيوطي في كتابه المزهر عن الفارابي « وبالجملة فانه لم يؤخذ لا من لخم ولا من جذام . لمجاورتهم أهل مصر والقبط . ولا من قضاعة وأياد وغسان . لمجاورتهم أهل الشام . واكثرهم نصارى يقرأون بالعبرانية . ولا من تغلب واليمن فانهم كانوا بالجزيرة . مجاورين لليونان . ولا من بكر لمجاورتهم للقبط والفرس » .[4]

وهنا كيف تكون اليمن مجاورة لليونان . ثم كيف تجاور قبيلة بكر الفرس في الشرق . والقبط في مصر بالغرب ؟

ولكن الرجوع الى كتاب « الاقتراح في اصول النحو » للسيوطي وجدت عبارته الصحيحة وهي « ولا من تغلب والنمر . فانهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونانية . ولا من بكر . لانهم كانوا مجاورين للنبط والفرس » .[5]

لقد حرفت كلمة « النمر » فصارت اليمن . كما حرفت كلمة « النبط » فصارت « القبط » . اذ وقع ناسخ كتاب المزهر بهذا الخطأ .

ومن هنا تبرز أهمية المحقق . اذ يجب ان ينظر للنص بعين ثاقبة . وفكر دقيق . وكانه يعيش في ضمير المؤلف . لذا كانت مهمته شاقة . وعمله يتطلب المزيد من الاناة والصبر .

اهمية التحقيق :

لقد اكتسب الحديث عن التراث في الاوانة الاخيرة . اهمية بارزة . لان الاهتمام به . بدأ في مرحلة اليقظة الفكرية التي نشرت ظلها فوق ربوع هذه الامة . اذ الامم لا تتقدم إلا إذا نفضت غبار الزمن عن موروثها . وبعثته بعثاً حقيقياً . ولا غرابة في ذلك . اذ هو الاصل الذي تمتد اليه الجذور . والواقع الذي ترى الاجيال من خلاله صورة ماضيها وحاضرها ومستقبلها .

ولقد ظل التراث العربي امداً طويلاً . ينقل بالرواية الشفوية حرصاً على أصالته . ودقته . وفصاحته . وسلامته .

وفي عصر التدوين . عيأ الله لعلم هذه الامة أمناء . نذروا انفسهم . فضربوا أكباد الابل سعياً لجمعه وتحقيقه . واخراجه للناس بشكله الصحيح الذي ينفع الناس . وقد استطاعوا بالفعل جمع علوم الامة العربية الاسلامية . والتي لم تترك أمراً من أمور الحياة الا وعالجته خير علاج . وفتحت امام الدارسين آفاقاً واسعة للابداع .

ولقد اكتنزت المكتبات بالكتب وكثر الدارسون والمبدعون والعاكفون على توثيقه وتصنيفه وتبويبه . حتى اصبحت مكتبات المشرق والمغرب مضرب الامثال .

الا ان هذا التراث الذي خدم الانسانية . وانار لها درب الحياة . لم يكتب له البقاء بالشكل الذي كان ينبغي ان يبقى . وانما توزع شمله وتشتت جمعه . وتعرض للطمس والاتلاف والضياع . وقد تظافرت على طمسه عوامل الشر والاحقاد . ولؤم الحساد . فتعرض للضياع . وصار نهباً بيد الاعداء . يستفيدون منه . ويحجبونه عن اهله .

حاجتنا الى تحقيق المخطوطات ونشرها :

لقد حقق الفكر العربي الاسلامي عبر عصوره تقدماً هائلاً . افاد شعوب العالم . اذ قطعت به شوطاً عظيماً في مسيرة تقدمها العلمي .

وبعد ضرب طوق التفرق والتخلف على هذه الامة . بعدما اصابها من نكسات . وتكالب قوى الشر عليها . لاح من بعيد بريق امل تحدوه رغبة في عودة هذه الامة الى ماضيها . لتمارس دورها في الحياة من جديد . وقد وجد من ابنائها من يرغب يحمل الرسالة باخلاص وهمة . ليقدم للاجيال ما حرمت منه . من معرفة وحضارة .

فلا بد لنا من معرفة الحد الذي وصل اليه اجدادنا . لنضيف اليه . ما نحتاجه في عصرنا ومستقبلنا .

فنحن بحاجة الى هذه العلوم والمعارف لتكوين انفسنا . لاننا لا نستطيع ان نمارس دورنا في الحياة . مالم نربط الماضي بالحاضر . واستيعاب كل الصور المشرقة . التي ملات العالم فكراً وحضارة . ولما طال الامد بيننا وبين هذه الكتب . وانتقالها من مكان الى مكان . وكثرة تداولها . ونسخها . وشرحها . والتعليق عليها . وتعرض البعض منها للتلف . والتحريف . والاضطراب . اصبح لزاماً علينا تحقيقها واخراجها بالكيفية التي ارادها مؤلفوها .

تحقيق النصوص اللغوية والادبية :

اذا كان نشر المخطوطات لاستيعابها وفهمها . ثم البناء عليها . وتعزيز الثقة بالماضي والحاضر . فان تحقيق المخطوطات اللغوية والادبية . يعد هدفاً بذاته . تفرضه ضرورة بقاء الامة . لان علوم العربية كما هو معلوم . من العلوم التوقيفية . ولا مجال لنا لتعلم اللغة العربية وآدابها الا بالرجوع الى الكتب القديمة . إذ هي ثابتة الاصول . متطورة الفروع . فالعربي حين يحقق مخطوطة لغوية . انما يحقق لحاجته . اضافة الى ما للاجداد على الابناء من حق الوفاء .

هدف تحقيق المخطوطات :

اذا كانت اهمية التحقيق . رفد الحياة بما تحتاجه من معارف وفكر ينير طريق الامة . فهدف التحقيق هو اخراج العبارة كما خطها مؤلف الكتاب . للوقوف على فكره الصحيح الاصيل .

اذ كما قلنا تعرضت الكثير من الكتب للضياع والتلف والتحريف . وطال عليها الامد . فعبثت بها الايدي التي لاتخاف الله .

وعند بداية النهضة العربية . نشرت الكتب الكثيرة . كما هي وغالباً ما يكون النشر على نسخة واحدة . ولدى التحقيق وجدت فروقاً بين المطبوع . واصوله المخطوطة . وقد نسبت افكار لمؤلفين بارزين . كانت نتيجة التصحيف . او الخطأ في النسخ .

ومما لا يخفى علينا ان النساخ . لم يكونوا جميعاً من العلماء .

وانما كان البعض متكسباً بمهنته ، ممن لا يرقى الى فهم العبارة ، فربما يبدل لفظاً مكان آخر مما يؤثر على المعنى .

لذا نستطيع القول بأن هدف التحقيق ، هو اخراج عبارة المؤلف كما خطها من غير زيادة او نقصان او تحريف .

تاريخ التحقيق :

ان معارضة الكتاب باصله ، ترجع الى زمن النبي [ﷺ] اذ روي عنه [ان جبريل كان يعارضه بالقرآن][6]

وكان [ﷺ] حين يملي على زيد بن ثابت ما يوصيه الله اليه ، يقول له حين يفرغ [اقرأه] قال زيد فاقرأه ، فان كان فيه سقط أقامه .[7]

وكان الصحابة ومن بعدهم ، لايكتبون شيئاً ، حتى يعرضوه على اصله ، سواء كان ذلك قرآناً ام حديثاً ، أم كتاباً .

وروي عن عاصم الاحول ، قال : عرضت على الشعبي أحاديث الفقه ، فاجازها لي .[8]

بل ربما لم يعتدوا بالكتابة اذا لم تقترن بالمعارضة بالاصل الذي كتبت عنه .

• وروي عن هشام بن عروة ان اباه ، قال له : كتبت ؟ قال : نعم . قال : عارضت ؟ قال : لا . قال : لم تكتب .[9]

وقد بلغ حرصهم على ضبط مادة الكتاب ومقابلتها مع اصلها ، أنهم كانوا يدونون على المخطوط سماعاتهم له عن مؤلفه واجازتهم بروايته ، وهم كثيراً ما يدونون في حاشية المخطوطات ، عبارات تدل على حصول المقابلة بالاصل الذي كتبت عنه .[10]

وان ما صنعه علي بن محمد بن عبد الله اليونيني المتوفي سنة ٧٠١ هـ في تحقيق روايات « صحيح البخاري » للامام البخاري المتوفي سنة ٢٥٦ هـ ، واخراج النص الذي بين ايدينا الآن من هذا الكتاب ، ليعد مفخرة لعلمائنا القدامى في التحقيق والضبط ، وتحري الصواب ، وسلوك الطرق المختلفة للوصول اليه .[11] وقد شرح اليونيني في بحث له ، منهجه في العمل ومختصراته ورموزه ، بشكل يدل على ان قدماء العرب اول من عني بتحقيق النصوص .

وحين كثرت الكتب وتوزعت بين الاماكن البعيدة ، كان العلماء يشدون الرحال من بلد الى بلد لمقابلة النسخ على بعضها ، ولهم في ذلك اسلوب لا يختلف عن اسلوب المحدثين في تعيين النسخة الام ، والنسخ الثانوية ، كما نصوا بالحاشية على اصلاح خطأ ورد ، او تصحيف او تحريف ، وخرّجوا السقط في الكتب ، والزيادة والنقصان ، ووضعوا الحواشي للكتب ، وكانت لهم طريقتهم في علامات الترقيم ، والرموز والاختصارات .[12]

كل ذلك يشير الى ان فن التحقيق لم يكن جديداً الا بتسميته فقط ، اما في مضمونه فهو عربي قديم .

تحقيق المخطوطات بعد اختراع الطباعة

ان فن التحقيق لم تعرفه اوربا ، الا في وقت متاخر ، واغلب الظن ان ذلك يعود الى تاريخ اختراع الطباعة في القرن الخامس عشر ، حين اهتموا باحياء الاداب اليونانية واللاتينية ، فكانوا يطبعون الكتاب كما هو ، دون البحث عن النسخ الاخرى له .

وفي القرن التاسع عشر ، املت الضرورة العلمية ، وضع منهج للتحقيق ونشر الكتب القديمة .

وفي هذه المرحلة بدأ المختصون بهذا الفن ، يضعون الاصول والقواعد ، من جمع النسخ وتصنيفها ، واختيار الاصح ، ثم مقابلتها ببعضها ، وما يتبع ذلك من تدوين الخلاف ، واصلاح الخطأ والتحريف ، حتى صار هذا الفن قائماً بذاته ، له اصوله ومناهجه .

ولقد عني الكثير من المستشرقين بنشر الكتب العربية ، وفق ما وضعوه من مناهج .

ولما تسنى للعرب ان يحيوا مخطوطاتهم ، في القرن الماضي ، رصدوا لهذه العملية اتقن المصححين ، وافاضل المدققين ، فجاءت المطبوعات الاولى من الكتب العربية ، في صورة متقنة الى حد ما ،[13] ولكن ذلك الطبع ، كان يجري على نسخة واحدة على الاغلب ، دون جمع جميع النسخ .

ولما دعت الحاجة الى وضع قواعد للتحقيق العلمي للمخطوطات ، وجدت الكثير من المحاولات . وقد تصدر بعض الباحثين ، لوضع هذه القواعد ، من ذلك ما وضعه الدكتور مندور سنة ١٩٤٤ في مقالة عن اصول النشر .

وقد وضع المجمع العربي بدمشق قواعد عامة ، حين نشر كتاب تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر سنة ١٩٥١ ، كالعناية باختلاف الروايات في النسخ واثبات الصحيح الراجح منها .

ويكتفي بالتعليق على مالا بد منه ، لئلا يثقل النص بتعليقات طوال ، وتفسير الالفاظ الغامضة ، والتعريف بالاعلام وغير ذلك .[14]

وقد وضعت اللجنة المكلفة بتحقيق كتاب « الشفاء » لابن سينا سنة ١٩٥٢ ، منهجاً يعتمد على مبدأ النص المختار .[15]

وبعد هذه المحاولات برزت الكتابات الجادة ، التي تضع منهجاً متكاملاً في فن تحقيق المخطوطات ، ومن ذلك :

١ ـ عبد السلام هارون ، في كتابه ، تحقيق النصوص ونشرها ، سنة ١٩٥٤ .

٢ ـ الدكتور صلاح الدين المنجد ، في بحثه « قواعد تحقيق النصوص » سنة ١٩٥٥ .

٣ ـ الدكتور شكري فيصل ، في مقدمة تحقيق الجزء الثالث من شعراء الشام ، من كتاب الخريدة للعماد الاصفهاني ، سنة ١٩٥٥ .

٤ ـ الدكتور شوقي ضيف سنة ١٩٦٥ في مقالته « تحقيق تراثنا الادبي » .

٥ ـ الدكتور محمود قاسم سنة ١٩٦٦ ، ضمن كتابه « المنطق الحديث ومناهج البحث » .

٦ ـ الدكتور رمضان عبد التواب ، في كتابه ، مناهج تحقيق التراث بين القدامى والمحدثين سنة ١٩٨٦ .

٧ ـ الدكتور محي هلال السرحان ، في كتابه ، تحقيق مخطوطات العلوم الشرعية سنة ١٩٨٤ .

٨ ـ الدكتور نوري حمودي القيسي ، والدكتور سامي مكي العاني ، في كتابهما ، منهج تحقيق النصوص ونشرها سنة ١٩٧٥ .

ثم توالت الكتابات ، والتأليف في هذا الفن ، بحيث لا يمكن

حصرها ، في الوطن العربي .

الفصل الثاني

مايحتاج اليه المحقق : من التمرس بالخط العربي ، ومعرفة مصطلحات القدماء في الكتابة ، والمران على اسلوب المؤلف ، والخبرة في معرفة الورق .

التمرس بالخط العربي :

يتعين على المحقق ان يتمرس بخطوط المخطوطات التي يستخدمها ، مع الاطلاع على انواع الخط العربي ، كالخط المشرقي ، والخط المغربي ، مع الاخذ بعين الاعتبار تطور الخط العربي عبر العصور ، بل يجب عليه ان يلاحظ خط الناسخ ، وكيفية رسمه للحروف .

فقد وجد في كثير من الكتب كتابة الالف المقصورة بالالف ، فيما توجب القواعد كتابتها بالياء ـ وقد كثر الخلاف في رسم الهمزة وكتابتها .

كما ان الخط المغربي ينقط الفاء بنقطة من اسفلها ، والقاف بنقطة واحدة من اعلاها . وقد يضع بعضهم نقطة واحدة فوق الشين .

وقد تهمل الهمزة آخر الكلمة ، وترسم في وسطها على شكل الواو والياء ، اما كسرة الهمزة فتكتب احياناً تحت الحرف واحياناً فوقه .

اما الشدة ، فاحياناً نجدها فوق الحرف ، واحياناً تحت الحرف ، كما أن شكل الشدة يتغير ، فهي في الكتابة المشرقية ، كرأس السين ، وفي الخط المغربي شبيهة برقم (٧) شديدة التقويس ، اما الشدة مع الكسرة فتكتب شبه الرقم (٨) مقوسة ايضاً .

وقد يضع بعض النساخ الحركات ، تحت نقط الحرف .[١٦] كما ان المغاربة يرسمون الكاف شبه اللام مع انحناء قليل ، فيظنها القاريء لاماً .

وانواع الخطوط متعددة ، كالرقعة ، والنسخ ، والثلث ، والديواني ، والاجازة والتعليق (الفارسي) .

كما أن بعض النساخ كانوا يستعملون النقط بدل الحركات ، الا انها بلون مغاير .[١٧]

معرفة مصطلحات القدماء في الكتابة :

لقد كان لبعض النساخ قديماً ، اصطلاحات خاصة ، في الضبط بالشكل ، ولابد من التعرف على هذه المصطلحات في المخطوطة ، اذ كان البعض منهم يكتب الشدة ، والفتحة ، والشدة والكسرة ، بطريقة تخالف طريقتنا اليوم ، اذ يضع الفتحة تحت الشدة ، وربما توهم القاريء بانها شدة وكسرة ، اما الشدة والكسرة ، فكانت الشدة توضع فوق الحرف والكسر اسفل الحرف .

وفي الخط امغربي ، كانت الشدة تكتب شبيهة بالرقم (٧) ، والشدة والضمة شبيهة برقم (٨) فوق الحرف ، فان وضعت الاخيرة تحت الحرف ، كانت دليلًا على الشدة والكسرة .[١٨]

وعلامات اهمال الحروف غير المعجمة ، قد يظنها فتحة فوق الراء ، او نقطة للحاء فتكون جيماً ، وغير ذلك .

ويشيع في بعض المخطوطات ، كتابه الكاف كالكلام المقوسة ، بغير الشرطة الافقية .

كذلك يجب معرفة التعقيبة ، وهي كلمة تكتب في ذيل ظهر الورقة ، تبدأ بها الورقة التالية ، وكانوا يفعلون ذلك ليهتدوا الى ترتيب الاوراق .

كما انهم قصدوا بـ (اهـ) كلمة انتهى ، ونا : حدثنا ، وأنا : أخبرنا ، وثني : حدثني ، وع : موضع ، ود : بلد ، وغير ذلك مما اعتادوا عليه .

اما التضبيب ، ويسمى التمريض ، فهي اشارة تجعل على ما صح نقله ، غير انه فاسد اللفظ او المعنى ، ويرمز له بـ (صـ) ، اما الصحيح فيرمز له بـ (صح) .

المران على اسلوب المؤلف .

الى جانب المران على الخطوط ، وطرق النساخ في الكتابة ، والخبرة بانواع الورق ، لابد من المران على اسلوب المؤلف ، والالمام بموضوع الكتاب ، وهذا لا يمكن ان يحصل الا من متخصص ذي صبر وطول نفس ، اذ لكل مؤلف اصطلاحات يستعملها ، وعبارات يرددها في كتبه ، وله منهج علمي ، فاذا ما وجدت عبارة تخالف رأي المؤلف ، فان تصحيحها يكون على ضوء ما ورد في كتبه الاخرى ، لذا يجب على المحقق ملاحظة سياق الكلام ، فهي التي توقفه على غرض المؤلف من الكتاب ، وتمكنه من تعرف ماكان متوقعاً ، ان يقول المؤلف في كل موضع من كتابه .

ومما يعين على المران والاطلاع على اسلوب المؤلف ، قراءة كتبه الاخرى ، والاطلاع على المعطيات العلمية في عصره ، والاصطلاحات السائدة فيه .

الخبرة في معرفة الورق

لقد كانت الكتابة عند العرب ، غالباً ما تكون على العسب ، واللخاف ، والرقاع ، وقطع الاديم ، والاكتاف ، والقتب .[١٩]

وبعد وجود صناعة الورق ، وجد الورق الخراساني ، وهو معمول من الكتان ، والورق الصيني ، والسليماني ، والطلحي ، والنوحي ، والفرعوني ، والجعفري ، والطاهري ،[٢٠] وغير ذلك .

وفي بداية القرن الثالث الهجري ، امتلات بغداد بحوانيت الوراقين ، واصبح فيها سوق يعرف بسوق الوراقين ، وانتشرت صناعة

الورق ، بحيث اصبح لكل فترة زمنية نوع معين من الورق ، والخبرة في هذه الانواع تمطي المحقق قدرة على تحديد الزمن التقريبي للمخطوط .

وبعد وجود الورق بكثرة ، كثر التاليف في شتى انواع العلوم ، ووجدت الكتب ، ونشطت حركة النسخ والتجليد ، مما جعلنا نجد في المجتمع طبقة ، تدعى بالوراقين ، وكانت للورق والوراقين اسواق كثيرة في بغداد .[٢١]

ومما يجب على المحقق معرفة الاحبار المستعملة في الكتابة ، اذ لكل مرحلة ابتكار جديد في صناعة الحبر .

ولكل من الخط والورق والحبر ، اناس متخصصون بها ، يمكن الرجوع اليهم ، إذا أشكل على المحقق شيء من نلك .

الفصل الثالث :

كيفية تحقيق النص :

جمع النسخ المخطوطة ، تصنيف النسخ ، توثيق عنوان الكتاب ، ونسبته الى مؤلفه ، مقارنة النسخ .

ان تحقيق النص يعني رده الى الصورة ، التي كان عليها ، عندما أصدره مؤلفه ، وهذا يعني تصحيح ما أصاب كلمات النص من تحريف ، أو تصحيف ، وتبرئته مما زيد عليه ، او نقص منه .

وللوصول الى هذا الهدف ، تتبع الخطوات الاتية :

جمع النسخ المخطوطة للنص :

لتحقيق النص ، لابد من معرفة النسخ الموجودة ، في شتى مكتبات العالم ، ويمكن الاستمانة بالمراجع التي تدل على مكان وجود المخطوط ، وهي كثيرة ، منها على سبيل المثال :

أ ـ كتاب تاريخ الادب العربي ، لكارل بروكلمان ، المستشرق الالماني ، اذ اطلع على جميع فهارس المكتبات التي ظهرت في حياته ، اي قبل سنة ١٩٥٦ ، فذكر اسم الكتاب ، واسم المؤلف ، ومكانه ، ورقمه في مكتبات العالم ، وهل هو مطبوع ام مخطوط ، مع ملاحظات اخرى تنفع محقق الكتاب .

ب ـ تاريخ التراث العربي ، لفؤاد سزكين ، وقد اطلع على الفهارس التي ظهرت بعد بروكلمان ، وهو يدل على اسم الكتاب ومؤلفه ، والمكتبة التي وجد فيها ، وهل هو مطبوع أم مخطوط ، مع بعض ملاحظاته حول الكتاب .

ج ـ فهارس المكتبات التي بها مخطوطات عربية ، نحو : الفهرس الكبير للكتب العربية المحفوظة في دار الكتب البروسية ، في برلين ، الذي الفه أ. هلورت . وفهارس المكتبات التركية ، وغير ذلك من مكتبات العالم المفهرسة .

د ـ فهارس المكتبات العربية ، وهي مفهرسة ، لمكتبة دار الكتب المصرية ، والمركزية العراقية ، والاوقاف العراقية ، وغيرها من مكتبات العالم العربي .[٢٢]

فاذا استفرغ الجهد في البحث عن نسخ الكتاب لجأ الى سؤال اهل العلم والخبرة ، لعلهم يعلمون نسخة في مكان ما ، لان التحقيق جهد شخصي ، يقوم به المحقق ، في التحري والتفتيش .

فاذا غلب على ظنه انه قام بما يجب عليه ، بدأ دراسة النسخ المخطوطة قبل جمعها اولاً ، وذلك عن طريق وصف الفهارس لها ، اذ غالباً ما تذكر هذه الفهارس ، تاريخ النسخ ، ونوع الخط وكونها نسخة المؤلف ، ام منقولة عن نسخته ، او نسخة تلميذ المؤلف ، وكونها كاملة او ناقصة ، سليمة او متضررة ، مع حجمها وعدد صفحاتها واسطرها . مما ييسر على الباحث اختيار النسخ التي يروم جمعها ، كاصول مهمة لهذا الكتاب .

اما اذا كان الكتاب نسخة واحدة فريدة ، فلا بأس من تحقيقه باتباع طرق علمية معينة ، كالاستعانة بمن اخذ عنهم العلم ، ومن اخذوا منه ، اي تتبع النص من اين جاء واين ذهب ، لاخراجه على الوجه الاتم إذا كانت النسخة كاملة ، وهذا يعتمد على كمال ثقافة المحقق وتمرسه باسلوب المؤلف .

اما عند وجود نسخ اخرى للمخطوط ، فلا يمكن تحقيقه على نسخة واحدة .

أما إذا كان الكتاب واسع الانتشار ، وله نسخ خطية كثيرة ، فالفيصل في ترتيب هذه النسخ من حيث الاهمية ، واختيار الامهات منها ثلاثة امور :

١ ـ قدم النسخة :

ويعرف قدم النسخة من تاريخ النسخ المدون على آخرها ، اذ جرت عادة النساخ انهم يؤرخون عند فراغهم من نسخ الكتاب . اما إذا كانت النسخة لاتحمل تاريخاً للنسخ ، فيستعان بشكل الورق ، وخصائص الخط ، فهما يعينان الباحث على معرفة الزمن التقريبي للنسخة . ويمكن الرجوع الى المختصين في كشف الحبر ، لتحديد عمر المخطوطة . فاذا حدد اقدم النسخ ، كانت جديرة بان تكون هي النسخة الام ، إذا وجدت المبررات لهذا الاعتبار .

اما عند عدم وجود المبررات ، فالقدم لوحده لايمكن ان يكون قاطعاً ، اذ قد تكون النسخة الحديثة منقولة عن اصل قديم ، ضبطت روايته ، وصححت قراءته ، بطريق السماع ، او الرواية ، وفي هذه الحالة تكون النسخة الحديثة الكاملة خير من النسخة القديمة المشحونة بالاخطاء والتصحيف والتحريف .

٢ ـ علم الناسخ :

ان علم الناسخ من مبررات اعتبار النسخة ، وربما تكون هناك

نسخة قديمة، غير ان ناسخها جاهل، كثير الخطأ والتصحيف والتحريف، بجوار نسخة اخرى حديثة، غير ان ناسخها من العلماء، المشهود له بالدقة والضبط، وهنا تكون النسخة الحديثة هي المعتمد عليها في نشر الكتاب.

٣ ـ كمال النسخة :

قد تكون هناك نسخة قديمة، او بخط عالم من العلماء، غير انها ناقصة، فهذا النقص يجعل النسخة الحديثة الكاملة هي المفضلة.

اما في حالة وجود اكثر من نسخة من الكتاب، وكلها، وكلها بخط المؤلف، فللمحقق ان يختار النسخة التي اتخذها المؤلف لنفسه، على التي برزت بعد وفاته، كما يؤثر المسهبه على المختصرة، والمصححة على التي فيها خلل.

اما اذا وجد خلاف بين النسختين وجب نشرهما جميعاً، مثال ذلك كتاب « الابل » للاصمعي، فقد عثر هفنر (Hifnar) على نسختين مختلفتين، فنشرهما معاً، في مجموعة « الكنز اللغوي من اللسن العربي ».

وكذلك كتاب « البيان والتبين » للجاحظ، فقد ذكر ياقوت انه« نسختان : أولى وثانية، والثانية أصح وأجود »[٢٣]

ترتيب النسخ :

ترتيب النسخ المخطوطة للكتاب الواحد، من حيث علو الدرجة، على النحو الاتي :

١ ـ النسخة التي بخط المؤلف : وهي اعلى النسخ على الاطلاق. وهي النسخة الام، التي تثبت كما هي، ولا يجوز التغيير فيها، ولا التصحيح عليها، وانما يشير لذلك في الحاشية.

وهنا تعترض المحقق المسودات والمبيضات، وهي النسخة الاولى للمؤلف قبل تهذيبها واخراجها سوية. اما النسخة المبيضة، فهي التي استقر عليها المؤلف، وهنا يمكن معرفة المسودة من اضطراب الكتابة وعدم توازن الخط، واختلاط الاسطر، واثر المحو والتغيير الى غير ذلك. اما النسخة المستقرة فهي المنتظمة، والتي فيها حاشية كاملة وما الى ذلك.

٢ ـ النسخة المقروءة على المؤلف، ويطلق عليها نسخة تلميذ المؤلف.

٣ ـ النسخة المنقولة على نسخة المؤلف، او المقابلة على نسخته.

٤ ـ النسخة المكتوبة في حياة المؤلف، وتعرف هذه من تاريخ النسخ، او من عبارة الناسخ، كان يقول « أطال الله عمره » أو« دام توفيقه » واذا كان على العكس، قال (رحمه الله) او ما أشبه.

٥ ـ النسخة القريب من زمن المؤلف.

تصنيف النسخ :

ان نسخة المؤلف بلا شك، هي النسخة الام، لذا هي التي تثبت وتقابل معها النسخ الاخرى، اما إذا وجد خطأ فيها، فانه يثبت ويشار الى ذلك في الحاشية، ولا يجوز التلاعب بالنسخة الام، الا اذا كان الخطأ في آي القرآن، فانه يصحح.

اما اذا كان الاصل مفقوداً، وتيسرت لدى المحقق نسخ متعددة من الكتاب، فانه يجري الفحص عليها بالرجوع الى فهارس المخطوطات. حيث تذكر تاريخ النسخ، واسم الناسخ وما الى ذلك.

ثم يبدأ بعد ذلك بتصنيف النسخ الى فصائل، حسب تعلقها ببعضها واختلافها. فكل مجموعة متشابهة تشكل فصيلة.

وهنا تكون النسخ المتشابهة باسلوبها، واخطائها وسقطها، عبارة عن مجموعة نسخ، نقلت عن اصل مفقود، وهكذا قد تكون للكتاب فصيلتان او ثلاثة، والمنطقي ان هذه النسخ الثلاثة، هي نسخ الكتاب، والاخرى المنقولة عنها، هي نسخ ثانوية، منقولة عن هذه الامهات.[٢٤] وكذلك يعد من النسخ الثانوية، النسخ المشروحة والنقولات في الكتب الاخرى. والمحقق يستعين بالنسخ الثانوية والنقولات، لكي يخرج النص كما أراده المؤلف.

اما نسخ الفصائل فهي تدون بالحاشية على انها خلافات يعتد بها، وقد يصحح الاصل بناء على ما جاء بالنسخ الاخرى، اذ يجوز للمحقق ان يتدخل بتصحيح الاصل، بما يختاره من النسخ الاخرى، على خلاف النسخة الام.

توثيق عنوان الكتاب :

ان اول ما يعترض المحقق، هو التحقق من عنوان الكتاب، ونسبته الى مؤلفه، اذ وجدت بعض المخطوطات، لا تحمل اسم مؤلفيها، إما لفقد الورقة الاولى، او لانطماس العنوان، واحياناً نجد على النسخة عنواناً واضحاً، ولكنه عنوان يخالف الواقع، وذلك قد يحصل بدافع التزييف المتعمد، او جهل قارىء لهذا الكتاب. لذا يتوجب على المحقق الرجوع الى كتب المؤلفات، كابن النديم. او كتب التراجم، او كتب المؤلف ذاته. لعله يشير الى هذا الكتاب، في كتبه الاخرى، مع الاطلاع الكافي على اسلوبه في الكتابة، مما يعينه على كشف اسم الكتاب الحقيقي.

اما مشكلة التزييف المتعمد، وهذا اكثر ما يقوم به باعة الكتب بغية رواجها، او بدافع التعصب لمؤلف معين، وهنا لابد من الاطلاع على اسلوب المؤلف، والاطلاع على كلماته ومصطلحاته، التي يكثر منها، وقراءة كتبه لعله يشير الى هذا الكتاب، مع ملاحظة نوع المداد المستعمل في العنوان، وداخل الكتاب. ثم قراءة الكتاب قراءة دقيقة يعثر على نقل عن احد العلماء، وهو بعد المؤلف بزمن، وما الى ذلك مما يكشف زيف النسبة.

تحقيق اسم المؤلف

قد تخلو مخطوطة من اسم المؤلف ، وهنا يمكن معرفة المؤلف من مراجع كتب المؤلفات ، وفهارس المكتبات ، وكتب التراجم ، كمعجم الادباء لياقوت ، وانباه الرواة للقفطي ، وغير ذلك .

على ان اشتراك كثير من المؤلفين في عنوانات الكتب يحملنا ، على الحذر الشديد في اثبات اسم المؤلف المجهول ، اذ لابد من مراعاة اعتبارات تحقيقية ، ومنها المادة العلمية للنسخة ، ومدى انسجامها مع اسلوب وفكر المؤلف (٢٥) ومنها بداية الكتاب ، وهذا غالباً ما يوجد في كتب الفهارس .

وقد يعتري التصحيف والتحريف اسماء المؤلفين المثبتة في الكتب ، فالنصري ، قد يصحف بالبصري ، والحسن بالحسيني ، والخراز بالخزاز ، وكل ذلك يجب اثباته بمراجعة الكتب المتخصصة باسماء الكتب والمؤلفين ، كهدية العارفين للبغدادي ، وغير ذلك .

اما اذا حصل التزييف المتعمد باسماء المؤلفين وهذا معهود اذ نسبت الكثير من الكتب الى غير مؤلفيها ، وهنا يتبع نفس الاسلوب المتبع في تزييف العناوين .

نسبة الكتاب الى مؤلفه .

يجب التاكد من نسبة الكتاب الى مؤلفه اذ حصلت نسبة الكتب الى بعض العلماء منذ القدم ، كما تكلم الناس في كتاب العين المنسوب للخليل .(٢٦)

ولابد من بذل قصارى الجهد لنسبة الكتاب الى مؤلفه الحقيقي على ضوء ما تقدم مع مراعاة العنصر الزمني وتطور العلوم وظهور اصطلاحات في كل زمن فالكتاب الذي تجد فيه مصطلحات او اخبار تاريخية تالية لعصر المؤلف الذي نسب اليه ، تدل على زيف النسبة . مثال ذلك كتاب نسب للجاحظ ، وعنوانه « كتاب تنبيه الملوك والمكايد » ومنه صورة مودعة بدار الكتب المصرية رقم ٢٣٤٥ ادب . وهذا الكتاب زيف لا ريب في ذلك فانك تجد من ابوابه باب « نكت من مكائد كافور الاخشيدي » و « مكيدة توزون بالمتقي لله » . وكافور الاخشيدي كان يحيى بين سنتي ٢٩٢ و ٣٥٧ ، والمتقي لله كان يحيى بين سنتي ٢٩٧ و ٣٥٧ ، وهذا كله تاريخ بعد وفاة الجاحظ بعشرات السنين (٢٧) .

مقارنة النسخ .

ان الغرض من التحقيق ، هو تثبيت النص ، كما كتبه مؤلفه دون زيادة ولا نقصان .

ومن اجل ذلك يحرص المحقق على ان يثبت نص المؤلف الذي قامت الادلة على انه ورد بخطه دون تغيير ، حتى ولو كان فيه خطأ او سهو او لحن لان ذلك يعطي حكما على مؤلفه فان وقع في المخطوط خطأ او سهو او لحن او نقص او زيادة نبه المحقق عليه في الحاشية .

وحكم النسخة التي قرأها المؤلف او قرئت عليه وثبت عليها اجازته وتوقيعه ، كحكم نسخة المؤلف وكذلك نسخة تلميذه التي قرئت عليه .

اما اذا كانت النسخة الام مفقودة قام المحقق بمقارنة النسخ ببعضها ، واختيار الصيغة الصحيحة او التي تبدو انها هي الصواب واثباتها في الصلب وتدوين الخلافات في الحاشية برموز معينة يختارها المحقق ويشير اليها في مقدمة الكتاب عند وصف النسخ ، وافضل طريقة ان ننسخ النسخة الاصل بخط واضح وبدقة بين سطر وسطر ، ثم تقارن النسخ وتثبت الخلافات قرب كلمات الاصل ، وتترك الصفحة المقابلة لاستخدامها في خدمة النص .

وهذه المقابلة تكشف العبارة الصحيحة والخلل في ترتيب الاوراق فاذا اثبتت المقابلة اجماع النسخ المختلفة على قراءة بعينها فلا يصح تغييرها الا بدليل قاطع على فسادها .

وعند المقابلة يعترض المحقق نص غامض ونص سهل احيانا ، وهنا يجب بذل قصارى الجهد ، اذ قد يكون النص الغامض هو الصواب وقد يكون النص السهل من اختيار الناسخ (٢٨) ، لان النساخ كانوا اذا لم يفهموا شيئا مما يقومون بنسخة في بعض الاحيان ، يستبدلونه بعبارة واضحة سهلة .

ان التحقيق امر جليل وانه يحتاج من الجهد والعناية اكثر مما يحتاجه التاليف ، وقديما قال الجاحظ (٢٩) ولربما اراد مؤلف الكتاب ان يصلح تصحيفا او كلمة ساقطة فيكون انشاء عشر ورقات من حر اللفظ وشريف المعاني ايسر عليه من اتمام ذلك النقص حتى يرده الى موضعه من اتصال الكلام .

الفصل الرابع :

عمل المحقق :

اصلاح التصحيف والتحريف الزيادة والنقصان التغيير والتبديل ضبط ما يشكل من الكلمات مراجعة مصادر المؤلف مراجعة النقول عن المؤلف تخريج النصوص اصلاح التصحيف والتحريف .(٣٠)

اذا فرغ المحقق من جمع النسخ وترتيبها وقارنها ببعضها واثبت الخلافات امامه بدأ بمرحلة اختيار اللفظ الصحيح الذي اراده المؤلف في غالب الظن ، ليكون في صلب الكتاب ، واثبات بقية الخلافات في الحاشية .

اسباب التصحيف والتحريف .

ان اسباب التصحيف والتحريف كثيرة ومتعددة ، ومنها :
١ ـ التصحيف الناجم عن سوء القراءة ، كما جاء في سير النبلاء للذهبي في ترجمة عبد الرزاق بن همام ، في حديث روي عنه مصحفا « النار جبار » قال الذهبي اظنها تصحفت عليهم فان النار تكتب « النير » على الأمالة بياء على هيئة البئر فوقع التصحيف [٣١] وصواب نص هذا الحديث « البئر جبار » اي هدر اذا سقط انسان فيها فهلك فدمه هدر وتمام الحديث « المعدن جبار ، والبئر جبار ، والعجماء جبار »[٣٢]
٢ ـ ومنها ما يكون ناتجا لخطأ السمع ، لا خطأ القراءة كان يملي المملي كلمة « ثابت » فيسمعها الكاتب ويكتبها « نابت » أو « احتجم » فيسمعها ويكتبها « احتجب » .
٣ ـ ومنها الخطأ في الفهم ، كما جاء في كتاب البيان للجاحظ « قال يونس بن حبيب : ما جاءنا من احد من روائع الكلم ، ما جاءنا عن رسول الله ﷺ . وقد جاء في حاشية قديمة من احدى نسخه تعليقا على ذلك « هذا مما صحفه الجاحظ ، واخطأ فيه ، لان يونس انما قال : عن البتي ، وهو عثمان البتي ، فلم يذكر عثمان ، فالتبس البتي ، فصحفه الجاحظ بالنبي ، ثم جعل مكان النبي الرسول ، وكان البتي من الفصحاء .[٣٣]

ومن طريف التصحيف ، ما ورد في احدى مخطوطات الحيوان ، في خطبة من خطب الحجاج بن يوسف « يا اهل الشام ، انتم الجبة والرداء » وانما هي « الجنة » وهي ما وراك من السلاح واستترت به .[٣٤]
٤ ـ ومنها ما هو متعمد ، وغالبا ما يحصل لتاييد راي من الاراء ، اذا كان التصحيف او التحريف ، لصالح رايه .

تاريخ التصحيف والتحريف :

ان تاريخ التصحيف والتحريف قديم جدا ، وقد وقع فيه جماعة من الفضلاء ، من ائمة اللغة ، وائمة الحديث ، حتى قال الامام احمد بن حنبل « ومن يعرى من الخطأ والتصحيف »[٣٥]

ففي كتاب الله قرأ عثمان بن ابي شيبة « جعل السفينة في رحل اخيه » .

وكان حمزة الزيات يتلو القرآن من المصحف ، فقرأ يوما ، وابوه يسمع « الم ، ذلك الكتاب لا زيت فيه » فقال ابوه : دع المصحف ، وتلقى من افواه الرجال .[٣٦]

وفي الحديث صحف بعضهم الحديث « يا ابا عمير ، ما فعل النغير » فقال : ما فعل البعير .[٣٧]

وقد صحف بعضهم « لا يورث حميل الا ببينة » فقال : « لا يرث جميل الا ببثينة »[٣٨] . والحميل هو الذي يحمل من بلده صغيرا ، ولم يولد في بلد الاسلام .

وحكى حمزة ان احد المحدثين روى ان رسول الله ﷺ كان « يستحب العسل يوم الجمعة » بدل « الغسل يوم الجمعة »[٣٩] .

كما حكي عن محدث اخر انه كان يروي ان رسول الله ﷺ كان يكره النوم في القدر بدل الثوم في القدر .[٤٠]

وقد ورد الكثير من ذلك مما يطول سرده حتى عمت به البلوى ، لذا قيل لا تاخذوا القرآن من مصحفي ولا العلم من صحفي [٤١] ، كما هجوا المصحفين ، ومدحوا من لا يعتمد على الصحف في علمه ، وانما على حفظه .

ونظرا لشيوع هذه الظاهرة برزت مؤلفات كثيرة ، تعالج هذه الظاهرة منها :
١ ـ تصحيف العلماء لابن قتيبة المتوفي سنة ٢٧٦ هـ .
٢ ـ ما صحف فيه الكوفيون ، للصولي المتوفي ٣٣٥ هـ .
٣ ـ التنبيه على حدوث التصحيف ، للاصفهاني المتوفي سنة ٣٥٠ هـ .
٤ ـ التنبيهات على اغاليط الرواة ، لعلي بن حمزة البصري المتوفي سنة ٣٧٥ هـ .
٥ ـ شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ، للعسكري المتوفي سنة ٣٨٢ هـ .
٦ ـ تصحيف المحدثين للدارقطني المتوفي سنة ٣٨٥ هـ .
٧ ـ التصحيف والتحريف للبلطي المتوفي سنة ٥٩٩ هـ .
٨ ـ تصحيح التصحيف وتحرير التحريف في اللغة ، للصفدي المتوفي سنة ٧٦٤ هـ .
٩ ـ التطريف في التصحيف للسيوطي المتوفي سنة ٩١١ هـ .
١٠ ـ المزهر في علوم اللغة وانواعها للسيوطي باب معرفة التصحيف والتحريف .

كما وضعت كتب في اسماء الرجال واسماء الشعراء والقبائل ، وغير ذلك لتكون مرجعا عند الشك .

وهنا يجب على المحقق ان يكون ملما باوليات موضوعه على دراية كاملة بمصادره التي يحتاج اليها لعلاج التصحيف والتحريف ، وربما تطلب ذلك منه ان يراجع كتب المؤلف الاخرى ، او الرجوع الى كتب اقرانه ، لعلها تستعمل هذا اللفظ فاذا وجد الخطأ صححه ووضعه بين قوسين معقوفين ، واشار الى ذلك في الحاشية ، اما اذا كانت النسخة هي الام فانه يشير الى الصحيح في الحاشية .

الزيادة والنقص .

لا يصح ان يزاد على النص ، او ينتقص منه شيء ، الا

بشرط ان يكون ذلك امرا ضروريا ، لا مفر منه ، ولابد من وضع الزيادة بين قوسين معقوفين ، والتنبيه على مكان استجلابها في الحاشية .

ان السقط كثيرا ما يحصل عند النسخ والذي يؤدي اليه انتقال النظر ، وهو ان تقفز عين الناسخ من كلمة الى اخرى مثلها ، في السطر ، او او السطور التي بعده ، وهذا كثير جدا [٤٢] . وقد تنتقل العين الى كلمة مماثلة سابقة في النص ، فيحدث التكرار .

وليس انتقال النظر وحده الذي يؤدي الى الزيادة او النقصان ، فهناك بعض النساخ من اقحم على النص ، بعض الحواشي التفسيرية ، ومثال ذلك قول سيبويه « قصباء يا فتى » فقد شرحت كلمة قصباء على هامش مخطوطة الظاهرية بانها جمع القصب فاضاف ناسخ المخطوطة التيمورية ، هذه الحاشية الى النص غفلة منه فصار ومن هذا الباب في قول سيبويه ، جمع القصب قصباء يا فتى كما ان بعض النساخ من يضيف الى كلام المؤلف ، كلاما اخر هو كتاب كتاب اخر او رسالة في نفس الموضوع ، فيلحقها بالنص .

التغيير والتبديل .

ان التحقيق هو اخراج عبارة المؤلف كما هي ، لا عملية تحسين وتنميق ، او محاولة لرفع مستوى النص ، لذا لا يجوز التبديل والتغيير بالنص ، الا بقدر ما تقتضيه الضرورة الملحة ، كالخطأ في اي القرآن ، ونص الحديث النبوي ، او اجازة المؤلف صراحة اصلاح اخطائه ، فانه يصحح ويشير الى ذلك في الحاشية ، لان المحقق موصوف بالامانة ، ومن الامانة ، عدم التغيير في النص ، اما عند اختيار الاصح من النسخ الاخرى ، فانه يحصر المضاف على الاصل بين قوسين ، ويشير الى المخطوطة التي استفاد الزيادة او التصحيح منها في الحاشية .

ضبط ما يشكل من الكلمات .

يقوم المحقق بضبط ما يشكل من الكلمات ، بشرط ان لا يتعارض مع قصد المؤلف ، كما انه يجب ان يحافظ على ضبط المؤلف ، لان هذا الضبط له حرمته وامانته ، حتى ولو كان لغة مرجوحة .

ويحتاج الضبط الى دقة وحرص وترتيب ، كما يحتاج الى قدر كبير من التحرز عن الانسياق الى المالوف ، اذ الالفة من اخطر بواعث الخطأ .

اما اسماء الرجال ، فانها تضبط بالرجوع الى مصادر الضبط ، ككتب الرجال ، والمؤتلف والمختلف ، والمعاجم اللغوية ، ومثل ذلك اسماء الاماكن والقبائل .

اما اذا كانت المخطوطة بخط المؤلف ، فلا يغير ما فيها من الضبط ، حتى ولو كان هذا مخالفا لقواعد اللغة والنحو ، ليكون نص المؤلف شاهدا على ثقافته ، ولكن يشار الى ذلك في الحاشية ، الا القرآن الكريم ، فانه يصحح على المصحف ويشار الى ذلك في الحاشية .

مراجعة مصادر المؤلف .

من اهم وسائل تحقيق النص ، الرجوع الى مصادر المؤلف ، التي استقى منها مادته العلمية ، ويسهل هذا اذا نص المؤلف على ذلك ، كان يذكر المؤلف ، او الكتاب ، ويكون من الامور الشاقة العثور على عبارة نسبت لمؤلف ، له مؤلفات كثيرة ، دون النص على الكتاب الذي اخذت منه العبارة .

والرجوع الى مصادر المؤلف ، يساعد على تقويم النص اولا ، والتاكد من نسبة الراي لقائله ثانيا .

واهمال الرجوع الى مصادر المؤلف ، يؤدي الى كثير من الاوهام ، والخلل في تحقيق النص ، اذ ربما اصابه تصحيف او تحريف ، او سقط واضطراب .

مراجعة النقول عن الكتاب .

ان عملية التحقيق هي عملية تتبع للنص ، من اين جاء واين ذهب ، لذا يجب الوقوف على الاقتباسات المتاخرة عن الكتاب ، في بطون الكتب ، وهذا الرجوع يلقي الضوء ويكشف عن صحة العبارة ، اذا احاطها الغموض ، او اصابها شيء من التصحيف او التحريف ، على ايدي النساخ في مختلف الازمنة .

وقد استعان الكثير من المحققين بالنقولات ، لتقويم نص المخطوطة ، لاسيما اذا كانت فريدة .

وحين قمت بتحقيق مخطوطة « الحكم بالصحة والحكم بالموجب » لولي الدين العراقي ، على نسخة فريدة ، لم يكن امامي الا تتبع النقولات والبحث عنها في بطون الكتب ، مثل كتاب الفواكه العديدة في المسائل المفيدة للنجدي ، وكتاب تبصرة الحكام لابن فرحون ، وكتاب معين الحكام للطرابلسي ، وغيرها من الكتب التي نقلت عن المؤلف ، فاستقام عندي النص كاملا صحيحا .

كما ان الحواشي والشروح التي صنعها العلماء ، لبعض الكتب تعد في غاية الاهمية ، لالقاء الضوء على عبارة المخطوط ، فلا يعقل ان ينشر مثلا كتاب سيبويه ، دون الرجوع الى الشروح الموسعة عليه ، كشرح السيرافي وغيره .

تخريج النصوص .

تخريج النصوص ، هو البحث لها عما يؤيدها ، ويشهد

بصحتها ، في بطون الكتب ، وهو امر ضروري ، فقد يبدو النص واضحا فيتكاسل المحقق في امر مراجعته وتخريجه في المصادر المختلفة ، للتاكد من صحة مضمونه .

ومثال ذلك ما ورد في كتاب « الجنى الداني في حروف المعاني »للمرادي ، النص التالي « وقد جعل بعضهم اللام في قوله تعالى ـ وان كان مكرهم لتزول منه الجبال »(٤٤) لام الجحود على قراءة الكسائي .(٤٥)

وقراءة الكسائي في المصادر المعروفة في القراءات (٤٦) ، هي « لتزول » فالقراءة هي قراءة غير الكسائي ، وعلى هذا يكون النص في الجنى الداني ناقصا كلمة (غير) وصواب العبارة على هذا « على قراءة غير الكسائي »(٤٧) .

والنصوص التي ينبغي تخريجها في الكتاب المحقق كثيرة ومتنوعة ، وعلى راسها القرآن الكريم ، ويستعان بالمصحف ، اذ الحفظ لا يمكن الاعتماد عليه ، ثم الفهارس التي وضعها العلماء لالفاظ القرآن ، كالمعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم ، لمحمد فؤاد عبد الباقي ، ثم يشير الى السورة ورقم الاية في الحاشية .

وكذلك الحديث النبوي ، للاطمئنان على سلامته من التصحيف والتحريف ، وللوقوف على درجة الحديث ، وهل يصلح لمثل هذا الموضوع اولا . ويستعين بالمعجم المفهرس لالفاظ الحديث النبوي لفنسنك ، وكتاب مفتاح كنوز السنة لمحمد فؤاد عبد الباقي ، وغير ذلك من الكتب التي تدل الباحث على مكان الحديث .

ثم يعود الى كتب الحديث المشهورة ، كالكتب الستة ، ومسند احمد ، وموطا مالك ، ومسند الدارمي ، وغيرها من كتب الحديث .

وكذلك تخرج الامثال ، بالرجوع الى كتب الامثال ، مثل « مجمع الامثال » للميداني ، والمستقصى للزمخشري ، وجمهرة الامثال ، للعسكري ، وغيرها من الكتب .

وكذلك تخرج الاشعار الواردة في الكتاب ، وتنسب الى قائلها وذلك بالرجوع الى دواوين الشعراء ، والمجاميع الشعرية .

وتخرج الاعلام الواردة في الكتاب ، كاسماء الاشخاص ، والاماكن والبلدان ، للتاكد من سلامتها ، لان مثل هذه الامور معرضة للتصحيف والتحريف ، وذلك بالرجوع الى مظانها في بطون الكتب المختلفة ، مثل كتب التراجم والطبقات ، للنحاة ، واللغويين ، والفقهاء ، والمحدثين ، والمفسرين ، والقراء والشعراء ، والاطباء ، ومعجم ما استعجم للبكري ، ومعجم البلدان للحموي ، ومعاجم اللغة وغيرها .

التعليق .

لاشك ان الكتب القديمة ، بما تضمنته من معارف وعلوم ، تحتاج الى توضيح يخفف ما بها من غموض ، ويسهل على القارىء ، فهم المادة العلمية ، فلا يستحسن ان يترك النص غفلا من التعليقات الضرورية ، التي تعين على فهم كلماته واصطلاحاته .

وليس معنى ذلك ان يسرف المحقق في حشد المعارف القريبة والبعيدة ، في الكتاب بغية اثبات وجوده في التحقيق ، مما يثقل المادة العلمية بما ليس منها .

ويستحسن التعليق ، بالتعريف بمفردات الكتاب ، والاعلام ، والاصطلاحات العلمية ، مع شرح الاشارات التاريخية ، والادبية والدينية ، بالقدر الذي يجعلها مفهومة ، مع الاشارة الى مواردا ستقاء المادة العلمية .(٤٨)

الفصل الخامس

تحقيق دواوين الشعر :

ان الاحساس بقيمة التراث ، وحرص ابناء العربية على الحفاظ على هذا التراث ، وشعورهم بما يقدمه من اضافات جديدة تغني الادب العربي وتزيد من ابراز جوانبه ، وتساهم في اظهار الابعاد التي لم يقف عليها الدارسون وادراكهم لما يؤديه هذا الضياع من بعثرة لما قدمته الاجيال الماضية ، من نتاجات علمية ناضجة ، دفعت ابناء هذه الامة الى العمل ، فراحوا يعيدون اليها وجهها الحقيقي ، من خلال ما قدموه ، واخذت العناية تزداد ، واصبحت مناهج التحقيق متعددة ، كما اخذت اساليب النشر مناهج مختلفة ، واتبع المحققون طرائق مختلفة في هذه التحقيقات ، ولكي يكون منهج تحقيق الشعر واضحا ، يمكن وضع الاطار الاتي :

اختيار الشاعر .

يراعى في اختيار الشاعر الذي يراد جمع شعره ، او تحقيقه ، ان يكون شاعرا متميزا باسلوبه وفكره وموضوعه ، سواء كان مخطوطااو مطبوعا وقد وجد المحقق ما يستدعي تحقيقه .

ان العصور الادبية عصور واسعة ، والشعراء كثيرون ، ولكن عملية الفرز ، وحسن الانتقاء ، وسلامة الاختيار ، ومحاولة الوقوف على الجوانب الانسانية المتميزة عند الشاعر ، هي التي تمنح عملية التحقيق بعدها الحقيقي ، وبقدر ما يضيف الشاعر من طرافة تثري الحركة الادبية ، يكون العمل نافعا .

اما الشعراء الذين عرفوا بنزعات فردية ظالمة ، او ساهموا في الانتقاص من شان الامة ، وحرصوا على تمزيق وحدتها ، واثارة الفتنة بين صفوف ابنائها ، فلا يستحقون مثل

هذا الجهد وتبديد الطاقة ، التي يجب ان تصرف بما ينفع الامة ويعلي شأنها ، ويوحد فكرها وصفوفها ، ومن هنا كان اختيار الشاعر المبدع ، واختيار اللون الجديد الذي يقدمه هذا الشاعر ، ليضيف الى الالوان الاخرى او يؤكدها ، ليضيف اشراقا ووضوحا جديدا .

علم الباحث بمصادره .

لابد أن يكون الباحث ، على علم بمصادره ، التي يمكن ان يجد فيها شعر هذا الشاعر ، او اخباره ، ومن المعروف ان تكون مصادر الشاعر قبل الاسلام ، مغايرة لشاعر اموي ، او عباسي ، لان المجاميع الشعرية القديمة ، كالمفضليات ، والاصمعيات ، لا تقف الا على الشعر الجاهلي والمخضرم والاسلامي ، وهذا يعني انها لا تتعرض لشاعر عباسي .

اما كتاب طبقات فحول الشعراء لابن سلام ، ومنتهى الطلب وحماسة ابي تمام ، وحماسة البحتري ، فهي مصادر يمتد بها العصر حتى تصل الى العصر الاموي ، وقليل من المولودين .(٤٩)

ويمتاز كتاب منتهى الطلب في اشعار العرب ، بكونه يضم اضخم مجموعة شعرية ، وينفرد بكثير من الاشعار لشعراء جاهليين واسلاميين ، وامويين ، لا تذكر لهم كتب اللغة والادب غير قليل من الاشعار .

كما يمكن الاعتماد على كتب الادب ، فهي ذخيرة اخرى يمكن الاعتماد عليها ، والرجوع اليها في عملية جمع الشعر ، مثل كتاب طبقات فحول الشعراء لابن سلام ، وكتب الجاحظ ، وابن قتيبة والمبرد ، وطبقات ابن المعتز ، واغاني ابي الفرج الاصبهاني وغيرها .

اما كتب الامالي ، فهي مجموعة اخرى من كتب المجاميع ، التي يجد فيها الباحث ، مادة شعرية كبيرة ، لتنوع ابوابها ، واختلاف موضوعاتها ، فهي تجمع الكثير من الشعر النادر والظريف ، مثل امالي ثعلب ، وامالي الزجاجي ، وامالي القالي ، وغيرها . وكذلك كتب اللغة ، والمعاجم اللغوية ، والنوادر والامثال .

الالمام بعصر الشاعر .

يجب على المحقق ان يكون على دراية بعصر الشاعر ، وخصائص الشعر السائدة فيه ، والاصطلاحات المستعملة فيه ، ليربط بينها وبين شعر الشاعر ، اضافة الى التمرس باسلوب الشاعر ، فاذا احاط بالمعطيات العلمية في عصر الشاعر ، واحاط باسلوبه ، استطاع ان يميز الدخيل على شعره ، او المنسوب اليه .

ثم يبدأ بجمع الشعر ، من بطون الكتب ، حتى اذا استكمل جمع شعره ، بدا بترتيبه ترتيبا هجائيا ، مع الاخذ بنظر الاعتبار حركات القوافي فيبدأ بالساكن ، فالمفتوح ، فالمضموم ، فالمكسور .(٥٠)

ثم يثبت الخلافات في الحاشية ، مع الاشارة الى مصادرها ، ثم يعلق على ما اراد التعليق عليه ، من غير اثقال للنص بفنون بعيدة عن هدفه ، في اخراج شعر الشاعر الحقيقي .

اختلاف الرواية .

اعتاد المحققون على تثبيت مواضع الخلاف ، التي ترد فيها رواية البيت ، او الابيات في كثير من الاماكن ، وهي طريقة علمية متفق عليها ، لانها توضح الكثير من اساليب ، التصحيف والتحريف والخطأ والسهو ، الذي قد يقع في الكتاب ، ولابد ان يراعى في تثبيت الخلافات ، ترتيب مراجع مصادر الاختلاف ترتيبا زمنيا ، ليكون القاريء على علم بالمصدر القديم الذي ورد فيه هذا الاختلاف .

وغاية تخريج الابيات ، ايراد المصادر التي وردت فيها هذه الابيات ، فاذا كانت متشابهة ، لم يشر الى ذلك وان وجد اختلافا بينها في الرواية او الترتيب ، فانه يشير الى ذلك في حاشية الكتاب .

الابيات المفردة .

تصادف المحقق ، وهو يجمع قصائد الشعراء ابيات مفردة ، تنسب لهؤلاء الشعراء ، يقف عليها في مصادر قديمة ، مثل معاجم اللغة وكتب البلدان ، او النوادر ، او غيرها من الكتب التي تكتفي من القصيدة ببيت واحد او بيتين .

وهنا يجتهد المحقق في وضع هذه الابيات في تسلسلها ، حسب ما هو معروف من بناء القصيدة على ضوء اوزانها وقافيتها ومعانيها ، ثم يشار في الهامش الى التشابه بينها ، ليقف القاريء على الوحدة الموضوعية التي تتخلل الابيات .

الشروح .

يقف المحقق في بعض الاحيان ، وهو يتابع ابيات الشعر المتناثرة في المصادر المختلفة على شروح قديمة لهذه الابيات ، وفي بعض الاحيان ، يقف على شرح كامل لقصيدة ، ربما تكون من ابيات الديوان الضائع ، الذي يبحث عنه ، ويعد كتاب الخزانة ومعاجم اللغة ، من المصادر التي يمكن العثور فيها على امثال هذه الحالات او يقف على شرح ابيات ، في كتب الشروح ، مثل شرح المفضليات او شروح الحماسة ، او امالي القالي ، وهذه شروح

مفيدة ، تساهم الى حد بعيد ، في تحديد هوية البيت وموضع الاستشهاد به ، وفك الرموز الصعبة التي تعتوره ، لذا كان على المحقق ان ينتفع من هذه الشروح اينما وجدت ، لانها تقدم له مادة جيدة .

اختلاط الشعر .

من المصاعب التي تواجه المحقق ، وهو يجمع شعر شاعر ، ظاهرة اختلاط الشعر ، وهي ظاهرة تقع في شعر كثير من الشعراء ، وخاصة اذا تشابهت ظروف حياة شاعر مع ظروف وحياة شعراء اخرين ، وفي مثل هذه الاحوال يتعرض المحقق لاجراء دراسة ، حول هذه الظاهرة ، محاولا علاجها علاجا سليما ، كما يقدم الاسباب التي خلقت هذا الاختلاط ، وادت الى هذا التشابه ، متبعا الطرق العلمية ، مبتعدا عن الحدس ، والذي يعين على كشف الشعر ورده الى شاعره ، هو الوقوف على دقائق الشاعر ، والتمرس باسلوبه .

ومن ذلك ، ان جامع شعر خفاف بن ندبة السلمي ، نظر نسبة بيتين الى خفاف ، واكد نسبتهما لدريد بن الصمة ، فقال في نسبة البيتين :

ولولا جنان الليل أدرك ركضنا
بذي الرمث عياض بن ناشب
قتلنا بعبد الله خير لداته
ذؤاب بن اسماء بن بدر بن قارب

قال : الصواب ان قائل البيتين ، هو دريد بن الصمة ، لان سبب هذا الشعر ان دريد بن الصمة ، هجا زيد بن سهل المحاربي في قصيدة قالها دريد : حين غزا غطفان غزوة ثانية ، فاغار على بني ثعلبة بن سعد ذبيان ، فهرب عياض بن ناشب الثعلبي ، ثم غزاهم فاغار على اشجع فلم يصبهم فقال دريد هذه القصيدة ولم نجد شخصا بهذا الاسم خاصمه خفاف او ذكره في شعره .(٥١)

المقاطع الصغيرة .

نجد في الدواوين المحققة ابياتا مفردة متعددة ، وهي تشكل قطعة من قصيدة ، او مطلع قصيدة ، وفيها اشارة ترمز الى انها لا يمكن ان تكون مفردة ، وهذا يعني ان عدد الابيات المفردة التي وردت في الديوان ، قصائدها ضائعة ، ولم يبق الا هذا البيت اليتيم . ومثل ذلك ظاهرة البيتين او الثلاثة او الاربعة ، وهنا يتحتم على المحقق ان يقدم دراسة يعلل فيها ، اما ضياع هذه القصائد ، يستمر في متابعتها ، واما الاختصار في النظم ، وهذا يعود الى ما هو سائد في عصر الشاعر . فمثلا في شعر يزيد بن الطثرية سبع وخمسون قطعة ، تتراوح من البيت الواحد والثلاثة ابيات ، ومع ذلك لم تجلب تلك الظاهرة انتباه المحقق ، ليقدم لها تعليلا منطقيا .(٥٢)

اثبات الرواية .

ان الغاية من تخريج الابيات هي ايراد المصادر التي وردت فيها الابيات ، فاذا كانت روايتها متطابقة ، فلا يشار الى ذلك ، اما اذا كان هناك خلاف في الرواية ، او الترتيب اثبته في الحاشية ، واشار الى مصادره القديمة ، اما اهمال ذكر الخلافات ، فانه يتنافى مع الطريقة العلمية للتحقيق .

الابيات الناقصة .

المعروف ان التحقيق يعني عملية اخراج النص كما اراد له المؤلف ، سواء كان شعرا او نثرا ، وهذا يفرض على المحقق ان يكون امينا في نقل النص ، حريصا على المحافظة عليه ، لا يستطيع ان يتصرف به مطلقا ، باي شكل من الاشكال ، وفي حال عثور المحقق على نص ناقص ، او ورقات مخرومة او اصابتها الرطوبة او العث ، او نص شعري لم يتبين كلماته او اصابها التحريف او التصحيف ، او نقلها الناسخ سهوا او جهلا ، اجتهد في البحث عنها في بطون الكتب ، فان وجد الصحيح اثبته بين قوسين معقوفين ، واشار الى ذلك في الحاشية ، وان لم يجد رسم الموجود كما هو ، وتصرف في الحاشية ، حيث له الحق في ايضاح رأيه وتصويب ما يراه خطأ ، او تصحيح ما يراه مخالفا لقواعد اللغة والشعر من حيث العروض .

الشعر المنسوب .

اذا كان الكثير من الكتب قد نسبت الى غير مؤلفيها ، فمن السهل ان نجد بيتا من الشعر ، قد نسب الى غير قائله ، وقد وجد الكثير من ذلك ، ويستطيع المحقق ان يقدم دراسة يبين فيها اسباب هذا الاختلاط ، بالوقوف على العوامل المشتركة بين مجموعة من الشعراء ، فمن الممكن اختلاط شعر ابن الدمينة ، بشعر يزيد بن الطثرية ، والمجنون ومزاحم العقيلي ، وعبد الله بن الصمة ، وغير هؤلاء ممن عرف بحبه والتياع عاطفته .

وكذلك الحال في شعر حاتم الطائي ، الذي يختلط بشعر عروة ابن الورد ، ومسكين الدارمي ، وغيرهما ممن عرف بكرمه وشهر بعطائه . وربما كانت غلبة صفة من الصفات ، مدعاة لاختلاط الشعر .

وقد يكون سبب الاختلاط هو السهو والوهم ، والمحقق في هذه الحالات ، قادر على ايضاح العلامات المتميزة لكل شاعر ،

لانه عاش معه وفهم عصره وتمرس بخبرته على مصطلحاته ، وصوره التي يكثر من استخدامها ، بعد بذل الجهد في البحث عنها في بطون الكتب ، وهذا اما ان يشير في الحاشية الى نسبة هذه الابيات ، واما ان يفرد قسما للابيات المنسوبة للشاعر ، سواء كانت مشتركة بينه وبين شاعر اخر او منحولة .

الفصل السادس

مكملات التحقيق

ان من مكملات التحقيق ، قيام المحقق باخراج المخطوط ، اخراجا جيدا ، يخدم القارىء ، ويجعل المادة العلمية في متناول الباحثين ، بنوع من التنظيم ، وقد جرت عادة المحققين ، ان يقوموا بالامور التالية ، مع تفاوت بينهم في كيفية التناول .

١ ـ المقدمة :

ويبين في هذه المقدمة ، ترجمة كاملة ، لمؤلف الكتاب ، تتناول تحقيق اسمه ولقبه ، وتاريخ مولده ، ووفاته ، بذكر شيوخه الذين تلقى عليهم العلم ، وتلاميذه الذين افادوا منه ، ثم حياته والوظائف التي شغلها ، وتنقلاته وترحاله ، ثم يذكر اراء العلماء فيه ، مما يوضح مكانته العلمية مع ذكر كتبه واماكن وجودها ، كل ذلك بشكل مبسط ، لئلا يثقل الكتاب بما ليس منه .

٢ ـ يقدم المحقق دراسة للكتاب يبين فيها موضوعه ، واهم الصفات التي تميزه ، واسلوبه وطريقة المؤلف فيه ، وما يمكن ان يضيفه من ابداع او جديد ، مما يكشف اهميته ، وهدف تحقيقه .

٣ ـ وصف المخطوطات التي حصل عليها ، وصفا دقيقا يتناول صفحة العنوان ، وما عليها من اجازات او سماعات ، او تمليكات عبر العصور ، او وقف ، ويمكن للمحقق ان يترجم ، لمن ورد اسمه على صفحة العنوان ، ثم يبين تاريخ نسخها ، واسم الناسخ ان وجد ذلك او الزمن التقريبي ، على ضوء دراسة الخط والورق والحبر ، ثم يبين عدد اوراق المخطوط ومقاس الصفحة ، وعدد الاسطر في كل صفحة ، وعدد كلمات السطر الواحد ثم يبين نوع الخط ولونه اذا اختلف ، ثم طريقة الناسخ في كتابة الكتاب فيما يخص الهمزة والتاء والالف ، وغير ذلك ثم يذكر مكان وجودها ورقمها ، وكونها كاملة او ناقصة ، او فيها ضرر من رطوبة او عث او تقادم عهد ، او سليمة ، وغير ذلك مما يمكن ان يصف به كل نسخة من نسخ المخطوط .

٤ ـ ويبين كذلك عمله في التحقيق والامور التي قام بها من مقابلة النسخ والتعريف بما يحتاج الى تعريف ، وتخريج كل ما قام بتخريجه من قرآن وحديث واعلام وغير ذلك .

ثم يبين كيف تصرف في التصحيف والتحريف ، والزيادة والنقصان ، ووضع الفهارس التي وضعها ، ولا باس ان يذكر اهم التحريفات والاخطاء ، التي عالجها كنموذج لعمله .

اما تقسيم الكتاب وتبويبه ، وفق خطة حديثة فهذه طريقة اتبعها بعض المحققين ، وهي ليست صحيحة ، اذ هذا تدخل في مادة الكتاب ينافي الامانة والدقة ، والمفروض اخراج الكتاب كما هو ، ليكشف عن منهجة العصر وطريقته .

٥ ـ وضع علامات الترقيم ، بين اجزاء الكتاب ، لتمييز بعضه عن بعض ، او لتنويع الصوت به عند قراءته ، ولكي يسهل على القاري المتابعة والفهم ، واشهر علامات الترقيم الفصلة ، والنقطة ، والنقطتان ، والفارزة ، وعلامة الاستفهام والتعجب والاقواس على اختلافها ، والوصلة ، وما الى ذلك ويمكن التعرف على مواطن هذه العلامات ، بالرجوع الى كتب الاملاء المبسطة .

٦ ـ عمل الفهارس ، اذ الفهارس هي وجه الكتاب والنافذة التي يطل منها القاري الى ما فيه .

وقد تطور عمل الفهارس في الوقت الحاضر ، فاضافة الى الفهرس الدقيق لموضوعات الكتاب ، يستحسن ان يضع فهرسا للايات القرآنية والحديث النبوي ، وابيات الشعر مرتبة حسب القوافي ، والاقوال والامثال ، والحكم ، والاعلام الواردة في الكتاب ، والكتب الواردة فيه ، والاماكن والبلدان ، والقبائل ، والمصطلحات العلمية الواردة فيه ، وغير ذلك من الفهارس التي تعين القارىء ، على كثير من مآربه ، وتخدم الكتاب .

فاذا قام المحقق بهذه الامور ، اصبح النص جاهزا للنشر وما عليه الا ان يتابع عملية طبع الكتاب ، وتصحيح الاخطاء المطبعية بدقة ، واذا فاتته بعض الاخطاء المطبعية ، افرد صفحة اخر الكتاب ببيان الخطأ والصواب .

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين

الهوامش :

(١) انظر لسان العرب ٢ / ٩٤٠ .
(٢) انظر تحقيق مخطوطات العلوم الرعية ص ١٧١ .
(٣) انظر كشاف اصطلاحات الفنون ٢ / ٨٩ .
(٤) المزهر للسيوطي ١ / ٢١١ .
(٥) الاقتراح للسيوطي ص ١٩ ، انظر مناهج تحقيق التراث بين القدامى والمحدثين ص ٦ وما بعدها .
(٦) رواه البخاري ٢ / ١٣٩ ، ومسلم ٤ / ١٩٠٥ .
(٧) ادب الاملاء والاستملاء ، للسمعاني ص ٧٧ .
(٨) سنن الدرامي ١ / ١٢٢ .
(٩) ادب الاملاء والاستملاء ص ٧٩ .
(١٠) انظر تحقيق مخطوطات العلوم الشرعية ص ١٧٤ .
(١١) انظر في ذلك مناهج تحقيق التراث بين القدامى

والمحدثين ص ١٣ وما بعدها .
(١٢) انظر مناهج تحقيق التراث ص ٢٨ .
(١٣) مثل المطبعة الاميرية ببولاق بمصر ، والجوائب بالاستانة ، ومحمد علي صبيح وغير ذلك .
(٤) انظر تاريخ مدينة دمشق ، تحقيق صلاح الدين المنجد سنة ١٩٥١ ج ١ ص ج
(١٥) الشفاء ، المنطق لابن سيناء ، تحقيق لجنة ، ١ / ٣٥ .
(١٦) انظر تحقيق النصوص ونشرها ص ٥٤ .
(١٧) انظر تحقيق النصوص ونشرها ص ٥٥ ، تحقيق المخطوطات الشرعية ص ٢١١ .
(١٨) انظر تحقيق النصوص نشرها ص ٥٥
(١٩) العسب ، هو جريد النخل ، واللخاف ، صفائح الحجارة والطين ، والرقاع ، ما تأخذ من جلد أو كاغد ، والاكتاف ، عظام البعير او الشاة ، والقتب ، صفائح الخشب والتي اوضع على ظهر البعير . انظر الاتقان ١ /٦٠ .
(٢٠) انظر الفهرست لابن النديم ص ٣٨ .
(٢١) انظر فهرسة المخطوط العربي ص ١٦ ، تحقيق النصوص ونشرها ص ٢٠ .
(٢٢) انظر في ذلك تحقيق مخطوطات العلوم الشرعية ص ٢٢٩ ومابعدها ، حيث قدم الباحث قائمة بهذه الفهارس والمكتبات .
(٢٣) انظر مناهج تحقيق التراث بين القدامى والمحدثين ص ٧٠ .
(٢٤) انظر في ذلك مناهج تحقيق التراث ص ٧٢ ، منهج البحث التاريخي للدكتور حسن عثمان ص ١١٠ ، تحقيق مخطوطات العلوم الشرعية ص ٢٤٢ .
(٢٥) انظر تحقيق النصوص ونشرها ص ٤٤ .
٢٦ ـ اكد العلماء على ان الخليل وضع المنهج والعلماء حشوه من بعده انظر المزهر للسيوطي ١ / ٨٦ .
٢٧ ـ انظر تحقيق النصوص ونشرها ص ٤٦ .
٢٨ ـ انظر مناهج تحقيق التراث ص ١٢٣ .
٢٩ ـ الحيوان ١ / ٧٩ .
٣٠ ـ التصحيف هو تغيير نقط الحروف المتماثلة في الشكل كالياء والتاء والثاء والنون والجيم والخاء والدال والذال والراء والزاي والسين والشين والصاد والضاد والطاء والظاء والعين والغين والفاء والقاف .
والتحريف هو تغيير في شكل الحروف المتشابهة كالدال والراء والدال واللام والنون والزاي والميم والقاف انظر مناهج تحقيق التراث ص ١٢٤ .
٣١ ـ التصحيف ص ١٧٦ .
٣٢ ـ انظر اللسان مادة جبر ١٨٦ ، تحقيق النصوص ونشرها ص ٦٧ .
٣٣ ـ انظر تحقيق النصوص ونشرها ص ٦٩ .
٣٤ ـ الحيوان للجاحظ ٦ / ٣٥٤ .
٣٥ ـ المزهر للسيوطي ٢ / ٣٥٣ .
٣٦ ـ العسكري ١٢ / ١٣ عن تحقيق النصوص ص ٧٠ .
٣٧ ـ الباعث الحثيث ص ١٩٣ والذفير طائر صغير احمر المنقار .
٣٨ ـ شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ص ٥١ .
٣٩ ـ التنبيه على حدوث التصحيف ص ٣٣ .
٤٠ ـ التنبيه على حدوث التصحيف ص ٣٣ .
٤١ ـ انظر تحقيق النصوص ونشرها ص ٦٥ .
٤٢ ـ انظر مناهج تحقيق التراث ص ١٥٠ وما بعدها اذ جمع امثلة كثيرة لمثل هذا النوع من السقطات .
٤٣ ـ المذكر والمؤنث للمبرد ص ١٢٣ .
٤٤ ـ ابراهيم ٤٦ وضبطها في المصحف لتزول .
٤٥ ـ الجنى الداني ص ١١٧ .
٤٦ ـ النشر في القراءات العشر للجزري ٢ / ٣٠٠ .
٤٧ ـ انظر مناهج تحقيق التراث ص ١٠٨ .
٤٨ ـ انظر تحقيق النصوص ونشرها ص ٨١ .
٤٩ ـ انظر منهج تحقيق النصوص ونشرها ص ٢٧ .
٥٠ ـ انظر منهج تحقيق النصوص ونشرها ص ٣٤ .
٥١ ـ انظر منهج تحقيق النصوص ونشرها ص ٤٨ .
٥٢ ـ انظر منهج تحقيق النصوص ونشرها ص ٤٩ .

مراجع البحث :

١ ـ ادب الاملاء والاستملاء ، للسمعاني ، ليدن ١٩٥٢ .
٢ ـ الاقتراح في علم اصول النحو ، للسيوطي ، حيدر اباد الدكن ١٣٥٩ .
٣ ـ الامالي ، لابي علي القالي ، بولاق ١٣٢٤هـ .
٤ ـ الاملاء والترقيم في الكتابة العربية ، عبد العليم ابراهيم ، القاهرة ١٩٧٥ .
٥ ـ الباعث الحثيث ، شرح اختصار علوم الحديث ، للشيخ احمد شاكر محمد علي صبيح ١٣٧٠هـ .
٦ ـ البيان والتبين ، للجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، لجنة التاليف ١٣٦٩ .
٧ ـ تحقيق النصوص ونشرها ، عبد السلام هارون ط ٤ مكتبة الخانجي ١٩٧٧ .
٨ ـ تحقيق مخطوطات العلوم الشرعية ، د . محي هلال السرحان ، مطبعة الارشاد ١٩٨٤ .
٩ ـ تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ، تحقيق صلاح المنجد ، المجمع العلمي العربي دمشق ١٩٥١ .
١٠ ـ التصحيف والتحريف ، للعسكري ، تحقيق عبد العزيز احمد ، الحلبي ١٣٨٣ .
١١ ـ تحقيق التراث العربي منهجه وتطوره ، د . عبد المجيد دياب ، القاهرة ١٩٨٣ .
١٢ ـ تحقيق تراثنا الادبي ، د . شوقي ضيف ، مجلة المجلة القاهرة ١٩٦٥ سنة ٩ عدد ١٠١ .

١٢ ـ الجنى الداني في حروف المعاني ، للمرادي ، تحقيق فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل ، حلب ١٩٧٣ .

١٣ ـ الحيوان للجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ١٩٤٥ .

١٤ ـ سنن الدارمي ، تحقيق يماني ، دار المحاسن ١٩٦٦ .

١٥ ـ الشفاء ، المنطق لابن سيناء ط الاميرية ١٩٥٢ .

١٦ ـ صحيح البخاري للبخاري مطبعة العاصمة القاهرة ١٩٦٨ .

١٧ ـ صحيح مسلم النيسابوري ، دار احياء التراث العربي .

١٨ ـ فهرست المخطوط العربي ، صبري عبودي فتوحي ، دار الرشيد ١٩٨٠ .

١٩ ـ الفهرست لابن النديم القاهرة ١٣٤٨ .

٢٠ ـ قواعد تحقيق المخطوطات صلاح الدين المنجد ، بيروت .

٢١ ـ كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي ، تحقيق لطفي عبد البديع ، المؤسسة المصرية ١٩٦٢ .

٢٢ ـ لسان العرب لابن منظور بولاق ١٣٠٧هـ .

٢٣ ـ مناهج تحقيق التراث بين القدامى والمحدثين ، د . رمضان عبد التواب مكتبة الخانجي ١٩٨٦ .

٢٤ ـ منهج تحقيق النصوص ونشرها د . نوري حمودي القيس ، و د . سامي مكي العاني مطبعة المعارف ١٩٧٥ .

٢٥ ـ منهج البحث التاريخي ، د . حسن عثمان دار المعارف ١٩٧٠ .

٢٦ ـ المزهر للسيوطي تحقيق ابو الفضل ابراهيم ١٩٥٨ .

٢٧ ـ المخطوطات العربية تحقيقها وقواعد فهرستها فاضل عثمان رسالة دبلوم في المكتبات من جامعة بغداد طبع رونيو سنة ١٩٧٥ .

٢٨ ـ المذكر والمؤنث للمبرد تحقيق رمضان عبد التواب و د . صلاح الدين الهادي القاهرة ١٩٧٠ .

٢٩ ـ النشر في القراءات العشر لابن الجزري القاهرة .

* * * *

المكتبات العربية في الاندلس

الدكتور س . م . إمام الدين

جامعة دكار

ترجمة كاظم سعد الدين مجلة التراث الشعبي

مقدمة :

جرت في هذه المذكرة القصيرة محاولات لاظهار إسهامات المسلمين في الاندلس في علم المكتبات وحفظها ، ذلك العلم الذي بزّ فيه مسلمو الاندلس المسلمين المعاصرين لهم وغير المسلمين في العالم .

وقد تتبعت التاريخ اللاحق للمخطوطات العربية التي آلت الى أيدي المسيحيين بعد استعادة المدن الاسلامية الاندلسية لاسيما قرطبة (١٢٣٦م) وغرناطة (كانون الثاني ١٤٩٢)على أيدي المسيحيين . وقد أدى ذلك الى إخراج المسلمين المعروفين بالمورسكيين نهائياً من إسبانيا عام ١٦١٣ وطمس آثار ثقافتهم . وفي ذلك العهد من العداء بين الحاكمين والرعايا المسلمين ، عانت المكتبات الاسلامية والمخطوطات العربية خسائر لا تعوض . ولكن الحاكمين وذوي المناصب العليا والعلماء المسيحيين أدركوا بعد مضي مدة طويلة ، أهمية الفن والادب العربيين في القرن التاسع عشر وبدأوا جمع وحفظ المخطوطات العربية وبقايا الثقافة الاسلامية . ومن نافلة القول أن نذكر هنا إنه في الوقت الذي كان المسلمون ما يزالون يحكمون غرناطة كان المسيحيون يرعون العلماء المسلمين واليهود في طليطلة والمدن الاخرى التي استعيدت حديثاً في الجنوب قد أوعزوا بترجمة الكتب العربية في العلم والادب الى لغاتهم اللاتينية والرومانسية ونقلوها الى أنحاء أوربا الاخرى . وقد حاولت أيضاً بيان ثراء المكتبات الاسبانية الحديثة في ما يتعلق بالمخطوطات العربية وقليل من الفارسية في مختلف الموضوعات .

وقبل المضي في صلب الموضوع لابد من بضع كلمات في تطور الخط العربي وإدخال الورق وصناعته في الاندلس .

يعود الخط العربي في أصله الى السريانية . وكان يمكن أن يكون انتشاره في الجزيرة العربية من الحيرة مقتصراً على الجزيرة العربية لولا الاسلام الذي جعل انتشاره العربية لغة الناس في الاقطار المجاورة وفي المغرب . وقد ساعد الاسلام في إزاحة الكتابة السريانية واليونانية من سوريا وفلسطين والعراق ، والخط البهلوي من فارس ، واليوناني والقبطي من مصر ، والبربري من شمال أفريقيا .

لم يكن للحروف العربية في مراحلها الاولى علامات اعراب ، ولكن بعد انتشار الاسلام واعتناق غير العرب له صاروا يشعرون بصعوبة قراءة كتبهم الدينية مما استلزم ادخال حركات اللين الطويلة والقصيرة وتدوين قواعد اللغة العربية . وقد كان لمدينتي البصرة والكوفة الجديدتين دورهما الخاص في تطور التنقيط وحركات الاعراب . ولا يمكن هنا إغفال الخدمات التي قدمها أبو الاسود الدؤلي (المتوفى عام ٦٨٨م) والخليل بن أحمد [الفراهيدي] .

في البدء ظل الخط العربي نحو أربعة قرون يستعمل في المؤلفات الادبية الرفيعة ولكنه فسح المجال تدريجياً للحروف الفنية والزخرفية مما جعل خطاطين مشهورين يطورون عدداً من أساليب الخط ويخص بالذكر منهم علي بن عبيد الريحان (المتوفى في ٩٣٤م) وابن مقلة (المتوفى في ٩٤٠م) وأبو الحسن علي بن البواب (المتوفى في ٤١٣هـ/١٠٢٢م) تحت رعاية الحكام المسلمين . فكتب عدد من المخطوطات باساليب مختلفة من الخطوط العربية لاسيما الخط الكوفي . ومن أشهر أنواعه « النسخ » الذي كان يستعمل عموماً في نسخ الكتب . ولكنه كان عرضة لتعديلات معينة في مختلف الاقطار التي فتحها العرب وحكموها . وقد نشأ نتيجة لتلك التكيفات (النستعليق) في فارس [على يد مير علي التبريزي] وغيرها من بلدان الشرق ، والخط (الكوفي) ، ونوع آخر مختلف هو الخط (المغربي) في المغرب (شمال أفريقيا وإسبانيا) . وبتأسيس القيروان في عام ٦٧٠م نشأ مركز فكري في المغرب ، وتطور تحت رعاية بني الاغلب في شمال أفريقيا نوع من الخط العربي اسمه القيرواني الذي تطور تحت رعاية الامويين في الاندلس من زوايا الى دائري . الخط المغربي الذي هو نسخ من ناحية على الرغم من إنه أقرب الى الكوفي فانه ظل يحافظ على تنقيط الخط الكوفي في القرن الثاني في حالة (ڢ) للفاء و(ڧ) للقاف بوجود نقطة واحدة ولكن في مكانين مختلفين .

أما في ما يخص مواد الكتابة فقد استعمل الاديم أو الجلد الاحمر والعسيب [جريد النخل] والقرطاس [صحيفة البردي] والعظم والشقف أو الخزف واللخاف [الحجارة البيض] وألواح الخشب والرق [الجلد الرقيق] لاغراض الكتابة في الزمن القديم . واستبدلت تلك المواد تدريجياً بالورق الذي أصبح معروفاً في بلاد المسلمين عند نهاية القرن الثاني للهجرة .

كان الصينيون أول من صنع الورق من الحرير في العالم[١] . ويعد أن فتح العرب سمرقند عام ٧٠٤م اتصلوا بالصينيين[٢] الذين تعلم العرب منهم صناعة الورق . وفي عام ٩٨هـ/٧٠٦م أدخل فن صناعة الورق من القطن شخص إسمه يوسف عمرو [؟] الى مكة[٣] . ثم أدخل بعد ذلك الى

بغداد في عام ٧٩٤م[٤] . وبناء على رواية (الفهرست) فانه كانت توجد سبعة أنواع مختلفة من الورق في النصف الثاني من القرن الاول . وبمرور الوقت صنع الورق في كل مدينة تقريباً من مدن الاقطار الاسلامية .

ولما ذهب المسلمون الى اسبانيا أدخلوا صنع الورق هناك أيضاً غير إن تاريخ ذلك غير معروف . وإن أقدم ذكر لمهارة مسلمي الاندلس في استعمال الورق يرقى الى أيام الحاجب المنصور في ٩٨٥م . وقد ورد ذكر ذلك في كتاب (أحسن التقاسيم) للمقدسي الذي انتقد التجار البربر الذين ذكر المؤلف إنهم نقلوا وثائق ونقلوا القرآن مكتوباً على قطع من الرق في الوقت الذي كان الاندلسيون خبراء في استعمال الورق في الكتابة[٥] . ويبدو إن الورق ادخل الى إسبانيا في تاريخ أقدم من ذلك . فقد كان استعمال الورق شائعاً في اسبانيا في القرن التاسع الميلادي وأوسع انتشاراً من ذلك في عهد عبد الرحمن الثالث والحكم الثاني . وقد كتب كثير من الكتب وترجم الى العربية واشترك كثير من الشخصيات المشهورين في تجارة الورق والكتب ومنهم محمد بن يوسف الوراق (المتوفى عام ٣٦٣هـ/٩٧٣م) الذي كتب للحكم الثاني عدة كتب في تاريخ أفريقيا وجغرافيتها[٦] . وما يزال في مكتبة الاسكوريال بعض المخطوطات المكتوبة بالعربية والاسبانية على ورق من القطن يرقى تاريخها الى أوائل القرن العاشر . ويرد بعد ذلك بكثير ذكر صناعة نوع فاخر من الورق في شاطبة بقلم الادريسي الذي يقول إنهم صنعوا الورق في شاطبة من نوع جيد جداً لا نظير له في العالم وأرسل الى الشرق والغرب (المغرب وشمال غرب أفريقيا)[٧] . ويتضح من كتاباته إن مصنع الورق هذا كان يعمل قبل أن يكتب ذلك وكان من الممكن انتاج أكثر من المطلوب للاستهلاك المحلي وأجود مما كان يصنع آنذاك في أي مكان من الاقطار المجاورة . ولعل ذلك المصنع بني في زمن الامويين في اسبانيا .

ويبدو أمراً غير منطقي الفرض إن مصنع الورق بدأ العمل في القرن الحادي عشر أو الثاني عشر وان الورق المستورد استعمل في عهد الخلفاء . كان إدخال الفنون المهمة على أيدي المسلمين الى اسبانيا قد تم في عهد الامويين ، ففي القرن العاشر حين كانت النشاطات الادبية شائعة جداً بحيث لم يكن الحاكمون والنبلاء وحدهم مهتمين بذلك بل كان الامر عاماً بين الناس الذين أسهموا باشياء جديدة في الادب والعلم ، ولم يكن ذلك ممكناً لولا تيسر الورق بكميات وافرة في البلاد ، فلم يكن للامويين في هذه المرحلة أن يتركوا مهد ثقافتهم في أيدي أعدائهم ، العباسيين والفاطميين ، ويعتمدوا على الاستيراد الاجنبي . فان الورق المستورد غال جداً ولا يمكن أن يشجع الناس على الاسهام في نشاطات أدبية كثيرة وحيوية . وإذا عرفنا إن صناعة الورق غدت شائعة في الشرق الاسلامي في بداية القرن الثامن للميلاد فان العائق في الجانب الاموي في اسبانيا ، وهم عشاق الفن والثقافة ، لادخالها في بلادهم لم يكن معروفاً . وهنا يبرز سؤال آخر هو إنهم إذا كانوا قد أدخلوها الى الاندلس فلماذا كانت في شاطبة وليس في قرطبة ؟ والجواب على ذلك يسير : فقد أختيرت شاطبة[٨] لوجود نوع لطيف من الكتان فيها .

يبدو من ورق المخطوطات المحفوظة في المكتبات الاسبانية إنه كان يصنع في البداية من القطن والكتان معاً . فيقول إبن العوّام إنه كان يصنع من الشهدانج (القنّب) أيضاً[٩] .

كان الورق يصنع في بلنسيا أيضاً في إثناء حكم المسلمين[١٠] . وفي القرن الثالث عشر أدخل صناعته الفونسو العاشر الى قشتالة ومن هناك إنتقلت الى فرنسا في عام ١٢٧٠م . وحذا حذو فرنسا أقطار أوربية أخرى ـ إيطاليا والمانيا وإنكلترة[١١] .

المكتبات العربية في الاندلس ، الكتب والمخطوطات

١ ـ المكتبات الاسلامية والوراقون في إسبانيا :

بدأ انشاء المكتبات في اسبانيا المسلمة [الاندلس] بجلب الكتب من المشرق . فعلى أثر دخول الجند إسبانيا تبعهم العلماء والرحالة حاملين معهم كتباً وأشياء أخرى نفيسة من منتجات الشرق . وقد ازدادت نفوس الاندلس من المسلمين في أوائل القرن الثامن نتيجة للهجرة الواسعة من أهل الشام والبربر وباعتناق كثير من الاقنان والرقيق الدين الاسلامي . وقد استلزم الامر استيراد كتب الدين والفقه والنحو للمسلمين الجدد من المشرق واستنساخها لغرسها في أذهانهم ترسيخاً لدينهم الجديد بطريق اللغة العربية . يرد عرضاً ، في كتب سير رجال الادب والعلم التي دونها مؤلفون أندلسيون عرب ، ذكر استيراد مثل هذه الكتب[١] مع غيرها من الحاجات المهمة من المشرق . ولابد أن يذكر بين كتب النحو كتاب الكسائي الذي جلبه العالم النحوي جودي بن عثمان المورورى[٢] [المتوفى عام ١٩٨ هـ/٨١٣م] مؤدب الامير الاندلسي . وأدخل أبو زيد بن دينارا[٤] [المتوفى عام ٢٠١ هـ/٨١٦م] كتب الفقه المالكي الى الاندلس . وجلب إبن المثنى[٥] [المتوفى عام ٢٧٣ هـ/٨٨٦م] مؤدب عبد الرحمن الثاني ووليديه محمد وعمر مجموعة القصائد التي نضمها حبيب بن أوس [أبو تمام الطائي] وقرئت على مؤلفها . وجلب عبد السلام الخشني القرطبي المتوفى عام ٢٨٦ هـ/٨٩٩م[٦] معاجم وكتباً عربية في الحديث والشعر . وحمل قاسم بن ثابت السرقسطي[٧] كتاب العين من المشرق . أما كتب في المعاجم والشعر والتاريخ فقد جلبها محمد بن عبد الله الغازي بن قيس

الفازي [المتوفى في طنجة نحو عام ٢٩٥ هـ/٩٠٧ م][٨] أما كتب أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة وكتب عمرو بن بحر [الجاحظ] فقد أدخلها أحمد بن محمود بن هارون البغدادي[٩]، وأدخل الى الاندلس باقي بن مخلد القرطبي [المتوفى عام ٢٧٦ هـ/ ٨٩٠ م][١٠] كثيراً من الكتب التي تتناول الحديث النبوي التي ألفها كتّاب مشارقة منها كتاب إبن أبي شيبة .

ولم يكن أتباع هذا المذهب المالكي الذين يؤيدهم الحاكمون الامويون يشجعون استيراد كتب تتناول الفقه والفلسفة غير التي تخص مذهبهم . وعلى الرغم من ذلك فان مثل هذه الكتب حملها من المشرق بعض العلماء . فقد جلب عبد الله بن محمد بن قاسم بن هلال القرطبي [المتوفى عام ٢٧٢ هـ/ ٨٨٥ م] كتباً تتناول فلسفة أبي سليمان داود بن سليمان . ويقول الفرضي إن هذه الكتب أصبحت سبباً في إنتشار فلسفة داود بين أهل الاندلس[١١]، وجلب أيوب بن سليمان [المتوفى عام ٣٢٦ هـ/٩٣٨ م] كتباً من كتب البدع من العراق . أيوب هذا من سلالة يوليان [إيليان][١٢] .

ازداد الطلب على الكتب في الاندلس الاسلامية لاسيما في قرطبة بانتشار التعليم بين الناس . ولم تكن الكتب التي تجلبها الفئات الراقية من المثقفين كافية لتلبية الطلب الملح عليها لذلك فان تجارة الكتب غدت مربحة جداً . ولما كانت الكتب ، شانها شان الاسلحة وخيول الحرب وحلي العرائس معفاة من الضرائب[١٣]فقد بدأ التجار يهتمون أكثر بتوفير الكتب . ومما تجدر الاشارة إليه أسماء الرحالة والتجار الاوائل ومنهم العالم الرحالة أبو بكر الدينوري [المتوفى عام ٣٤٩ هـ/ ٩٦٠ م][١٤] وإبو عمر بن يبقى الحذامي التاجر القرطبي [المتوفى عام ٣٧٨ هـ/٩٨٨ م][١٥] ومحمد بن عبيد بن أيوب [المتوفى عام ٣١٧ هـ/ ٩٢٩ م] القرطبي صانع الديباج[١٦] .

وثمة أيضاً رحالة وتجار انشاوا مكتباتهم الخاصة بجمع كتب جديدة ونادرة من المشرق . وقد كان عبد الملك بن حبيب الغرناطي[١٧] وهشام بن خالد الالبيري [المتوفى عام ٢٩٨ هـ/ ٩١٠ م][١٨] ومحب بن عبد القادر الباجي من الجديرين بالذكر . وقد جمع محب عدداً كبيراً من المؤلفات النادرة في المشرق ووافته المنية في مصر وهو عائد الى الاندلس ، فنقلت عائلته كتبه الى الاندلس[١٩] .

وكان فيهم أيضاً أصحاب أملاك ومعلمون جلبوا الكتب وحفظوها في المساجد أو بعض الدور الخاصة لتيسيرها للطلبة . فقد جمع مثلاً هارون بن سبيه القرطبي [المتوفى في عام ٢٣٨ هـ/٨٥٢ م] عدداً كبيراً من الكتب في بيت أحمد بن خالد[٢٠] .

وبما إن الامراء عشاق فن وأدب فقد شاركوا صفوة المفكرين في الاندلس في جمع الكتب واستيراد المؤلفات النادرة والنفيسة من المشرق . وكان في مقدمتهم أبو سليمان الدهان [المتوفى بعد عام ٢٠٠هـ/٨١٥م][٢١] وإبن الاحمر الهاشمي [المتوفى عام ٣٥٨هـ/٩٦٩م][٢٢] . وبعد أن عاد إبن الاحمر من رحلة في الهند والعراق ومصر اشتغل في المكتبة الملكية للامويين ودوّن سيرة عبد الرحمن الثالث[٢٣] وهكذا نمت مكتبات كثيرة في الاندلس بجهود متضافرة من الرحالة والتجار والامراء ولاسيما الصفوة المفكرة في البلاد .

المكتبة الملكية الاموية

كانت المكتبة الملكية الاموية في غرناطة أول مكتبة ذات أهمية وقيمة في أوربا فقد وهبت رغبة المسلمين الجدد في اكتساب المعرفة زخماً جديداً لميل العرب الى القراءة . كانت الحركة في البدء بطيئة غير إنها بلغت ذروتها بمجيء الحكم الثاني . وكان عبد الرحمن الاول أديباً وشاعراً رفيع القدر ومؤسس الدولة الاموية ، ويعقد إجتماعات أدبية دورية للمناقشة يدعو إليها أشهر الادباء . ومن الشخصيات الادبية في أيامه لابد من ذكر الشاعر أبي المتحشى[٢٤] والشيخ غازي بن قيس الفقيه وعالم اللغة المرموق[٢٥] ، والشيخ أبي موسى الهواري القاضي المشهور[٢٦] . وكان هشام الاول بن عبد الرحمن مولعاً أيضاً بالشعر وكان شاعراً . وكان عمرو بن أبي غفار شاعر بلاطه المشهور . ومن المثقفين الذين حظوا برعاية هشام كان عيسى بن دينار وعبد الملك بن حبيب ويحيى بن يحيى[٢٧] . وسعيد بن حسن وإبن أبي هند[٢٨] . وكان الحكم الاول شاعراً أيضاً ومحباً [للطرب] والموسيقى ويعجبه أن يحاط بالشعراء والفقهاء والادباء[٣٠] . ولكونهم محبين للعلم فقد أسسوا المدارس وأضافوا المزيد من الكتب الى المكتبة الملكية واهتم الخلفاء والامراء لاسيما عبد الرحمن الثاني والحكم الثاني بجمع الكتب . وقد جاب سفراؤهم مدن المشرق لجمع كتب جديدة ونادرة . وكان عباس بن ناصح سفير عبد الرحمن الثاني يبحث في مكتبات العراق لشراء مؤلفات فارسية ويونانية في العلوم مترجمة الى العربية[٣١] . وقد أصبحت المكتبة الاموية في غرناطة واحدة من أفضل المكتبات في العالم الاسلامي أبان حكم عبد الرحمن الثاني وقد أضاف اليها وعززها عبد الرحمن الثالث . وقد كتب كتاب ديوسقوريدس بحروف من ذهب وزخرف بحروف جميلة ، وكان أول كتاب يوناني مهم يتلقاه عبد الرحمن الكبير هدية من الامبراطور البيزنطي قسطنطين . ولما لم يكن العلماء العارفون باليونانية متيسرين في الاندلس فقد أستدعى الخليفة الاموي نيقولا من القسطنطينية لترجمته الى

العربية[٣٣] . ولم يكن الاميران ، الحكم ومحمد اللذان تلقيا العلم على أيدي معلمين محليين وأجانب ، راضيين عن المجموعة الفنية لكتب والدهما عبد الرحمن الثالث فأسسا لنفسيهما مكتبتين خاصتين . ولما توفي عبد الرحمن ومحمد ضم الحكم مكتبتيهما الى مكتبتيه واستخدم مجموعة كبيرة من الموظفين لاعادة تنظيم المكتبة وإضافة مزيد من الكتب اليها . وكان من بين اللذين استخدمهم الحكم الثاني لجمع المخطوطات وضبطها واستنساخ الكتب النادرة في مكتبة النحوي المعروف الرباحي الجياني (المتوفى عام ٣٥٨ هـ/٨٩٩ م) الذي كان يدرس عليه كثير من الاعيان والامراء ، ومنهم المغيرة أخو الحكم الثاني ، الادب العربي في قرطبة . ومنهم أديب قرطبة ومؤلف المعجم محمد بن أبي حسين الفهري القرطبي ، وعالم آخر هو محمد بن معمر الجياني[٣٤] . وقد اشتريت كتب نادرة وجديدة للحكم الثاني من الاسكندرية والقاهرة وبغداد ودمشق[٣٥] . ومن النساخين الاخرين المعروفين أبو الفضل بن هارون الصقلي (المتوفى عام ٣٧٩ هـ/٩٨٩ م)[٣٦] ويوسف البلوطي[٣٧] وعباس بن عمرو الصقلي ودقر البغدادي[٣٨] . وقد اشتغل في مكتبة الحكم الثاني خطاطات منهن لبنى (٣٩٤ هـ/١٠٠٤ م) كاتبة لدى الحكم[٣٩] وفاطمة [المتوفاة ٤٣٧ هـ/١٠٣٦ م] إبنة كاتب آخر لدى الحكم إسمه أبو يحيى الشبلري[٤٠] المعروفتين بجمال خطهما . وكان الامين الاكبر على مكتبة الحكم خصي رفيع المقام إسمه تليد ويروى عنه إن المكتبة كانت تضم أربع مئة ألف كتاب وكانت فهارس الكتب التي فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة وفي كل فهرست عشرون ورقة ليس فيها الا أسماء الدواوين[٤١] .

أنفق الحكم الثاني باسراف على جمع المخطوطات . فقد كان سفراؤه يبحثون في دكاكين الوراقين في بغداد ودمشق والقاهرة والاسكندرية وأماكن أخرى . واستخدم علماء غير اندلسيين لجمع الكتب له ويمكن أن يذكر منهم أسماء إبن سبان المصري وأبي يوسف يعقوب الكندي البغدادي ومحمد بن فرجان[٤٢] . وأرسل الحكم الى أبي الفرج الاصفهاني ، الاموي الاصل ، الشاعر والمؤرخ العراقي ، ألف دينار من الذهب لكي يحصل على النسخة الاولى من كتابه الاغاني[٤٣] الذي أرخ فيه للشعراء والمغنين العرب ، فبهر أبو الفرج بكرمه وأرسل إليه الكتاب مع قصيدة يطري فيها الخليفة والبيت الاموي .

كان الحكم يحصل على كتب تؤلف لمكتبته وقد أهدي كثير من الكتب إليه . ومن تلك الكتب كتيب في الانواء إسمه (كتاب أوقات السنة) ألفه أبو الحسن عريب بن سعيد القرطبي (المتوفى نحو عام ٣٧٠ هـ/٩٨٠ م) في عام ٩١٦ م وقد حققه وترجمه الى اللاتينية [الصحيح الى الفرنسية] دوزي في عام ١٨٧٣ بعنوان : Calendrier de Cordove de l'anes 961 ولعل المؤلف الذي كان كاتباً للحكم الثاني ألف لابيه عبد الرحمن الثالث كتباً أخرى ، أحدها في الفلك اسمه : (كتاب تفضيل الازمان ومصالح الابدان) وأهداه الى الحكم الثاني مع كتابين آخرين هما : (كتاب الانواء) و(صورة يبدع) اللذان استثمرهما إبن العوّام استثماراً كاملاً . أما الكتاب الذي اضطلع به المؤلف فهو [مختصر تاريخ الطبري وتكملته وإضافة تاريخ شمال أفريقيا [المغرب] والاندلس إليه . وقد وصل إلينا جزء من ذلك الكتاب . وهو يحتوي على معلومات مهمة عن بلاط عبد الرحمن الثالث وحاشيته[٤٤] .

رحل إبن مفرج القنتوري (قرطبة) في أرجاء المشرق وأسس مكتبة ممتازه ، وألف كتباً كثيرة وأهداها الى الحكم الثاني[٤٥] . وأهدى إليه محمد بن حارث بن أسد الخشني القيرواني أكثر من ألف كتاب وكتيب ، أحدها (تاريخ قضاة قرطبة)[٤٦] ومن المؤلفين الاخرين الذين أهدوا مؤلفاتهم إليه مطرّف بن عيسى الغرناطي (المتوفى عام ٣٧٧ هـ) الذي كتب تاريخ البيرة[٤٧] ، وإبن فرج الجياني الذي كان ينظم الشعر[٤٨] ومحمد يوسف من وادي الحجارة الذي ألف جغرافية أفريقيا[٤٩] . واستخدم ابن السفر لجمع القصائد التي تذكر بني أمية في الشام والاندلس[٥٠] . ويشير كاتبو السير عرضاً الى أسماء الناسخين ومؤلفي الكتب المحفوظة في مكتبة الحكم الثاني[٥١] .

كان الحكم عالماً مجداً يدرس المؤلفات المهمة المحفوظة في مكتبته ويسجل ملاحظات جمة على الاوراق البيض في أول الكتاب أو أخره وقد غدت مصدراً ثميناً للمعلومات لعلماء عصره ولمن جاء بعده . ومن تلك الكتب ما وجده ليفي بروفنسال في فاس مؤرخ في عام ٣٥٩ هـ/ ٩٧٠ م وفيه ملاحظة تبين إنه استنسخ للحكم الثاني[٥٢] .

وقد أثنى العلماء العرب المعاصرون للحكم على مكتبته ومجموعتها الضخمة وكتبها النفيسة والنادرة . كان ، على ما يرون ، أكبر مكتبة ملكية في العصور الوسطى[٥٣] . وقد ضاقت البناية الاصلية الفسيحة باستيعاب الكتب فاستغرق نقل الكتب الكثيرة ستة أشهر على الرغم من استخدام عدد كبير من الاشخاص[٥٤] .

خلف المنصور الحكم وصار يرعى العلماء . وكان من بين الكتب المهداة إليه (الفصوص) الذي كتبه سعيد البغدادي (المتوفى في ٤١٠ هـ/١٠٢١ م) فتلقى خمسة آلاف دينار هدية من المنصور[٥٥] . ومن بينها كتاب مصور كتبه الحسن بن أبي عبده[٥٦] . وقد استخدم أبو الوليد بن معمر المؤرخ الكبير ومحقق الخطوط في تصحيح وضبط المخطوطات المحفوظة في مكتبة المنصور وخلفائه وعهد إليه تاليف تاريخ بني عامر . ثم

تاثر المنصور بعد ذلك بالعلماء فكان مسؤولاً عن حرق عدد كبير من المؤلفات الفلسفية في مكتبة الحكم[57] . ويرسم سعيد الطليطلي صورة قاتمة لتلك الحادثة[58] . ويقول دوزي واصفاً الحالة المؤسفة لأهل قرطبة وإفلاس الحكومة : « إن إبا الوليد اضطر الى بيع الجزء الاكبر من مكتبة الحكم لكي يحصل على قليل من المال »[59] في بداية القرن الحادي عشر وفي إثناء الحرب الاهلية دمرت المكتبة الملكية ونهبت المكتبات الخاصة في قرطبة وبيعت كتب المكتبة الملكية في أسواق قرطبة وطليطلة وإشبيلية والمرية ومدن أخرى[60] . ومع ذلك فقد ظلت قرطبة محافظة على كونها واحدة من مراكز الادب والعلم ما دامت في أيدي المسلمين .

المكتبات الخاصة في قرطبة :

لم يكن الملوك والامراء وحدهم يجمعون الكتب ويؤسسون المكتبات بل كان عامة الناس أيضاً يسهمون في مثل هذا النشاط الثقافي في جمع الكتب وقد ينفقون أحياناً فوق ما في طاقتهم . ومن المكتبات الخاصة في قرطبة مكتبة إبن فطيس التي تعد أكبرها . فقد شيد بناية جميلة كبيرة لمكتبته بطريقة بارعة جداً بحيث يمكن أن ترى رفوف الكتب جميعاً من نقطة واحدة . وقد استخدم أبو عبد الله الحضرمي (المتوفى عام ٣٩٦/١٠٠٥ م) أحد علماء قرطبة أميناً للمكتبة كما استخدم ستة نساخين وخطاطين برواتب ثابتة . كان أمين المكتبة يؤدي وظيفة الامام في مساجد بني فطيس فضلاً عن وظيفته[61] . وقد باعها أحفاده بالمزاد العلني في مسجد العائلة في إثناء الفتنة . واستطاعوا حتى في تلك الايام العصيبة أن يحصلوا أربعين ألف دينار قاسمي[62] . إن مثل ذلك المبلغ الضخم من المال في تلك الحروب الضروس ليدل دلالة واضحة على حب الكتب وأهمية سوقها وشعبيتها وأهمية مكتبة إبن فطيس الخاصة وشهرتها أيضاً . وكانت مكتبة أخرى تفوقها أهمية وتلي مكتبة الحكم في قرطبة ، بناء على رواية إبن الابار ، تلك هي مكتبة الوليد بن موصول (المتوفى عام ٤٣٢ هـ/١٠٤١ م) أحد حكماء قرطبة العظماء . كان مولعاً بالقراءة والكتابة كثيراً حتى إنه كان يميز خط مختلف الناسخين ويستطيع معرفة أسمائهم أيضاً عند التدقيق . كان مهتماً بجمع الكتب النادرة والمختارة ومنها دواوين الشعر من يدي أبي علي القالي البغدادي ومؤلفات كثير من الناسخين والخطاطين . ولما توفي إبن الموصول باعت عائلته كتبه وعادت عليهم بمبلغ ضخم حتى إن بعض الكتب النادرة فيها بيعت كل ثمان صفحات بمثقال (دينار)[63] . وقد استعاد الفاتن فتى إبن المنصور [بن أبي عامر] ، عدداً كبيراً من تلك الكتب بعد دمار المكتبة الاموية الملكية وبنى مكتبة خاصة به من الكتب القيمة التي بيعت عند موته[64] . وكان قاسم بن سعدان (المتوفى عام ٣٤٧ هـ/٩٥٨ م) الخطاط العظيم والعالم الجليل في رية (أرشذونة) يملك مكتبة خاصة رائعة جعلها قبل وفاته وقفاً على طلبة العلم والعلماء تحت رقابة محمد بن ذليم[65] . وكان لابي علي الغشاني أيضاً مجموعة مهمة من الكتب النادرة في موضوعات متنوعة[66] . وكان كثير من العلماء الاخرين يملكون مجموعات خاصة ولكنهم لم يكونوا يعيرون الكتب الى الاخرين . فكان الجهني القرطبي (المتوفى عام ٣٩٥ هـ/١٠٠٤ م) كثير الاهتمام بحفظ الكتب فلم يكن يعيرها إلا لمن يثق به كثيراً[67] . ومن الامور المسجلة وجود آخرين ممن اضطروا الى إدامة كتبهم ، منهم يحيى بن مليكة بن عياض الطرطوشي (المتوفى عام ٣٧٥ هـ/٩٨٥ م) المعلم في مسجد قرطبة الذي رحل الى المشرق ومكث هناك اثنتين وعشرين سنة وكتب عدداً كبيراً من الكتب[68] . وكان حتى معلم المدرسة الفقير مثل محمد بن حزم القرطبي أن يكوّن مكتبة خاصة به من الكتب القيمة . ومن الممتع أن نرى إنه على الرغم من رثاثة ثيابه ونفور الناس من الاختلاط به فان مكتبته الخاصة كانت موضع اهتمام الشخصيات البارزة . مات هذا العالم العظيم الفقير في ٢٨٢ هـ/ ٨٩٥ م عند عودته من الحج الى مكة[69] . ومما يجدر ذكره من أصحاب المكتبات الخاصة المهمة إبن الصابوني (المتوفى عام ٤٢٣ هـ/١٠٣٢ م)[70] وأبو بكر بن ذكوان (المتوفى عام ٤٣٥ هـ/١٠٤٣ م)[71] وابن المعافري (المتوفى عام ٥١٢ هـ/١١١٨ م)[72] وابن مختار (المتوفى عام ٥٣٥ هـ/١١٤٠ م)[73] . وعاش ابن بَرد الاستجي في قرطبة ورحل الى المشرق واشترى حمل ثمانية عشر بعيراً من الكتب في موضوعات شتى[74] .

المكتبات العامة :

كان في إسبانيا عدة مكتبات عامة ومكتبات في المساجد . وقد ذكر ميخائيل الغزيري إن عدد المكتبات العامة في قرطبة في أيام الحكم الثاني بلغ سبعين مكتبة عامة[75] . وردد قوله ذلك علماء جاءوا بعده ولكن ريبيرا يعارض صحة ذلك ويقول كانت بعض المساجد في قرطبة فيها مكتبات لاستعمال الطلبة ، وفي الوقت الذي كانت هناك مكتبات خاصة لم تكن توجد مكتبات عامة في أيام الحكم الثاني . يتضح من التقاليد السائدة في استعمال المساجد وممتلكاتها ان تلك المكتبات في المساجد التي يشير إليها ريبيرا لم يكن الطلبة وحدهم يستعملونها بل المعلمون والمصلون وغيرهم أيضاً ممن يريدون الافادة من أي كتاب موجود في أي مسجد . لذلك فاننا حتى لو فرضنا عدم وجود مكتبات عامة منفصلة عن مكتبات المساجد فان ذلك دليل على دحض رأي ريبرا بعدم وجود مكتبات عامة . فانه فضلاً عن ذلك النمط من المكتبات العامة كانت توجد بعض البيوت تحفظ

فيها الكتب لتكون في متناول الطلبة . وقدالمحنا الى ذلك آنفاً .

عالمات مسلمات :

شكا ريكاردو دو بيري من قلة ثقافة النساء الانكليزيات في أيامه في الوقت الذي كانت نساء الاندلس متقفات متحضرات الى مستوى رفيع[76] ، فقد كانت لبنى وفاطمة وعائشة ورضية وخديجة من العالمات الاندلسيات من الطراز الاول . فكان لفاطمة ولبنى مكانة مرموقة في بلاط الحكم الثاني ومكتبته لما تتمتعان به من علم غزير وتربية رفيعة . وقد كتبت فاطمة كتباً بخط جميل رصين على الرغم من كبر سنها . ذهبت الى القاهرة ودمشق وبغداد لتنقب في مكتباتها بحثاً عن المخطوطات النادرة . أما عائشة (المتوفاة في ٤٠٠ هـ/١٠٠٩ م) المنحدرة من عائلة ثرية فقد كانت شاعرة متميزة في زمانها وكرست حياتها لاكتساب المعرفة . وكان لديها مجموعة ممتازة من المخطوطات المهمة والنادرة في مكتبتها الخاصة[77] .

أما رضية (المتوفاة نحو عام ٤٢٣ هـ/١٠٣٢ م) زوجة لبيب من أعيان بلاط قرطبة فقد جمعت عدداً جيداً من الكتب التي انتقلت فيما بعد الى يدي أبي محمد بن خزرج[79] . أما النساء العالمات الفقيهات فقد كرسن حياتهن لنسخ الكتب المهمة والنفيسة . ويذكر ابن فياض المؤرخ إن مئة وسبعين امرأة كن يعملن في نسخ القرآن بخط كوفي في الربض الشرقي من قرطبة وحده[80] . وكتبت عائشة بنت أحمد القرآن بخط جميل جداً[81] .

مكتبات غير المسلمين :

تحلى أغلب النصارى في الاندلس الاسلامية بعادات وتقاليد العرب وتعلموا العربية واستعربوا ولذلك عرفوا بالمستعربين . وقد شكا الفيرو القرطبي مر الشكوى من ذلك . فقال في كتابه Indiculus Luminesus إن شباب المستعربين كانوا لا يعرفون إلا العربية وقد أنشأوا مكتبات مهمة من المخطوطات العربية . ولم يتخلف اليهود عن المستعربين في جمع الكتب العربية في مكتباتهم الخاصة وفي بيعهم ومدارسهم . وعلى رأسهم حسداي طبيب الحكم الثاني[82] . وكان يوسف بن اسماعيل يهودياً آخر مشهوراً بعلمه وكان وزيراً لباديس بن حبوس الغرناطي وكانت لديه في مكتبته مجموعة كبيرة من الكتب العربية[83] .

سوق الكتب في قرطبة :

أصبح جمع الكتب هواية عامة بين الناس في الاندلس وواجباً اجتماعياً في قرطبة . فكما كانت حجرة الضيوف تؤثث في تلك الايام بأثاث غالٍ وجميل وغير ذلك فقد كانت بيوت أعيان قرطبة تؤثث بالكتب القيمة والنادرة المكتوبة بخط أنيق والمجلدة تجليداً جميلًا . وقد سمع المؤرخ ابن سعيد أباه يقول إن قرطبة كانت المدينة الرئيسة في سوق الكتب لان أهلها كانوا مولعين بإنشاء المكتبات . وقد رأى أناساً لا يتمتعون بثقافة مناسبة يجمعون الكتب لكي يمتازوا بمخطوطاتهم النادرة التي كتبها بخط جميل أشهر الخطاطين .

ويروي المقري بهذا الخصوص عن الحضرمي العالم الرحالة الذي لازم سوق الكتب في قرطبة يوماً ووجد في دكان أحد الوراقين كتاباً يهمه اقتناؤه كثيراً . وحاول شراءه ولكنه لم يستطع لان أحد هواة الكتب زاد في ثمنه كثيراً حتى بلغ فوق حده لا لانه أراد قراءة الكتاب ولكنه أراد أن يسد موضعاً في خزانة كتبه فرآه حسن الخط جيد التجليد فاستحسنه . وهذا يدل على حب أهل قرطبة لاقامة المكتبات وعلى المنافسة الشديدة في اقتناء الكتب في سوق قرطبة العامر . وكان الشيوخ العلماء والطلبة والناسخين المهرة وباعة الكتب يتدفقون من كل مكان الى قرطبة التي غدت مركزاً فكرياً للغرب في القرن العاشر . فكانت دكاكين الوراقين تمتد على جانبي شوارعها في صفوف طويلة . وقد أضحى سوق قرطبة شهيراً ببيع الكتب حتى صار الباعة والمشترون يتدفقون اليها من جميع أنحاء اسبانيا لانها تحولت في أيام الحكم الثاني الى سوق عظيمة للكتب من كل لون وذوق[84] .

وحتى بعد دمار مكتبات قرطبة الملكية والخاصة ظلت قرطبة كما يقول إبن رشد تمتلك في القرن الثاني عشر كتاباً أكثر من أية مدينة في إسبانيا . وعقد إبن رشد مقارنة مهمة بين قرطبة وإشبيلية أشار فيها الى إنه عند موت عالم في إشبيلية فان كتبه ترسل الى قرطبة لبيعها وعند موت مطرب في قرطبة فان آلاته ترسل الى إشبيلية لبيعها[85] .

جعلت شهرة المسلمين الاندلسيين في استنساخ الكتب وتجليدها علماء المسلمين في المشرق لاسيما المقدسي يسجلون لهم تلك الانجازات[86] . ويقال إن سبعين ألف الى ثمانين ألف كتاب كانت تستنسخ كل عام في قرطبة وحدها[87] . وقد استنسخ ابن أبي الفوارس القرطبي عدداً كبيراً من نسخ القرآن فكان يكمل نسختين في كل شهر[88] . وكانت نسخ القرآن التي تكتب في المشرق تنقل الى الاندلس وتحفظ في المساجد . ويعرف ان ربع القرآن بخط ابن مقلة كان محفوظاً في مسجد اشبيلية[89] . وكانت نسخة من قرآن عثمان محفوظة في المسجد الكبير في قرطبة . كما يروي ابن بشكوال ، في المسجد حتى عام ٥٥٢ هـ/١١٥٧ م . ويقال إن الموحدين نقلوها الى مراكش ووجدت محفوظة هناك في مكتبة تلسمان الملكية في عام ٧٣٧ هـ/١٢٣٩ م ثم أخذت فيما بعد الى البرتغال وانتقلت بعد ذلك الى تاجر في فاس في

عام ٧٤٥ هـ/١٣٤٤ م . ولكن هناك رواية أخرى تقول إن النصارى أحرقوها مع ما أحرقوه من نسخ أخرى من القرآن في مسجد قرطبة عند احتلالهم المدينة في أيام ابن حمدون[٩٠] .

مكتبات الاقاليم

لم ترق مكتبات الاقاليم الى مرتبة ذات أهمية إلا في القرن العاشر على الرغم من استمرار الحركة الادبية في تلك الاماكن أيضاً في الوقت الذي ظلت قرطبة مركزاً للثقافة والحضارة . وبعد سقوط هذه المدينة انتقل مركز الحضارة الى مكان آخر .

اشبيلية وبطليوس :

كان لبني عباد ملوك الطوائف في اشبيلية مكتبة ذات أهمية . ولم تكن اشبيلية لتقارن بقرطبة في شان المكتبات ودكاكين الوراقين الثرية والنفيسة غير إنها كانت تفوق غيرها من مدن اسبانيا في هذا الامر . فيذكر إبن الخطيب الغرناطي مراراً الكتب التي كتبت في اشبيلية وصارت تميزها عن بقية اسبانيا[٩١] . ويتكلم ابن الابار عن الشارع الذي تصطف على جانبيه دكاكين الوراقين وقد عثر في أحدها على نسخة نادرة لابن مزين هي موجز تاريخ الرازي[٩٢] . وكان ابن سارة البكري شاعر شنترين يكسب عيشه باستنساخ الكتب في اشبيلية[٩٣] . ويعرف عن الخطاط أبي زيد الجذامي الاشبيلي إنه اتخذ قرطبة منزلاً له[٩٤] .

كان بين هواة جمع الكتب في اشبيلية شرف الدولة ابن المعتضد الخليفة العباسي[٩٥] وابن الاحدب (المتوفى عام ٤٣٧ هـ/١٠٤٥ م)[٩٦] وأبو بكر بن العربي[٩٧] ومحمد بن خير وابن مروان الباجي . وقد بيعت مكتبة محمد بن خير بعد موته[٩٨] . ووهب ابن مروان مكتبته الى قاضي مسجد اشبيلية ابن الحجاج اللخمي (المتوفى عام ٦٠١ هـ/١٢٠٤ م)[٩٩] وكان أبو المظفر بن الافطس البطليوسي يملك مكتبة نفيسة وشاملة جمع منها كل مستلزمات تأليف كتابه الشهير (المظفرية) الموسوعة التي تقع في خمسين جزءاً وتتناول أدب الحرب والسياسة وحكايات تاريخية وفروعاً أخرى في العلوم والاداب[١٠٠] .

مدن الشمال :

كانت طليطلة وسرقسطة من المدن الاسلامية المهمة في الشمال وكانت طليطلة العاصمة القوطية ما تزال مدينة مهمة في أيام الامويين . وقد نهبت مكتبة الحكم الثاني في إثناء الفتنة وبيعت كتبها في أسواق طليطلة التي تدفق إليها الطلبة الاوربيون لدراسة الاداب والعلوم الشرقية وكان لبني ذي النون ، حكام طليطلة ، مكتبتهم الخاصة . وقد وجدت كتب كثير من المكتبات الخاصة طريقها الى تلك المكتبة . ومن المكتبات الخاصة مكتبة ابن ميمون الغنية بالكتب وقد أنقذت من نار اندلعت في أسواق طليطلة[١٠١] . ومن المكتبات المهمة مكتبة أبي عامر بن إبراهيم[١٠٢] (المتوفى عام ٥٢٣هـ/١١٢٩ م) ومكتبة أبي محمد بن الهلالي[١٠٣] (المتوفى عام ٤٥٨هـ/١٠٦٦ م) ومن المكتبات الاخرى مكتبات الخطاطين ابن الشيخ[١٠٤] (المتوفى عام ٤٤٠هـ/١٠٤٨ م) وابن الخطّار[١٠٥] وابن حاتم التميمي[١٠٦] وأبي الوليد بن حنش الذي استورد مؤلفات مهمة كثيرة من المشرق[١٠٧] .

ولما كانت سرقسطة في أقصى حدود الممتلكات الاسلامية في الشمال الشرقي من اسبانيا فانها كانت على الدوام ميداناً للمعارك بين مجتمعين متعاديين ، المسلمين والنصارى . وكان العلماء المسلمين يهاجرون دائماً الى الجنوب . وعلى الرغم من بشاعة الحرب فان بني هود حكام سرقسطة كانوا يرعون رجال العلم لاسيما الفلاسفة . وكان علماء الهندسة كالمقتدر والاطباء كابن بكلارش مؤلف (المستعين) وهو كتاب مشهور في الادوية المفردة أهداه الى المستعين . وكان المؤلف قد ترعرع في سرقسطة[١٠٨] . وكان ابن سندور بن منتل (المتوفى قبل عام ٥٠٠هـ/١١٠٦ م) من الهواة المعروفين في سرقسطة[١٠٩] . ولما استعادها الفونسو الاول هاجر هواة الكتب أولئك من سرقسطة وقلعة أيوب الى الجنوب[١١٠] . وهاجر ابن مطروح وابن صغير من الوراقين وهواة الكتب المشهورين من سرقسطة الى بلنسيا .

المدن الشرقية :

التجأ العلماء والوراقون المهاجرون من سرقسطة وقلعة أيوب ومدن أخرى في أرغون الى بلنسيا . وكان بين أولئك اللاجئين ابن مطروح[١١١] وابن صغير الذي تشرف ابنه أحمد بتعيينه أميناً لمكتبة الموحدين الملكية[١١٢] وكذلك ابن سراري الكاتب (المتوفى عام ٥٨٤هـ/١١٥٢ م) في قلعة أيوب[١١٣] .

كان بين هواة جمع الكتب في بلنسية عبد الله المروشي (المتوفى عام ٤٨٧هـ/١٠٩٤ م) الذي نقل ثلثا كتبه أي ١٤٣ حملاً الى قصر ابن ذي النون ملك بلنسيا[١١٤] وعلي بن هذيل (المتوفى عام ٥٦٤هـ/١١٦٤ م) الذي ورث مكتبة ضخمة من زوج والدته وأبو داود المقرى[١١٥]
وابن عيشون المعافري (المتوفى في ٥٤٧هـ/١١٧٨م) الذي جمع عدداً كبيراً من الكتب وبنى جامعاً باسمه قرب باب

القنطرة في بنسليا[١١٦] .

وهاجر كثير من الخطاطين والوراقين من بلنسيا الى مدن أخرى في المشرق . وكان ابن سعادة المرسي (المتوفى عام ٥٦٦هـ/١١٧٠م) الذي أجداده من بلنسيا قد نشأ وترعرع في شاطبة وورث عنهم مكتبة غنية جداً[١١٧] . وكان عالم النباتات ابن الرومي الشاطبي من أتباع ابن حزم القرطبي قد أنفق بسخاء على شراء مجموعة من الكتب النادرة لمكتبتهم[١١٨] . وتخلى ابن الفرس الغرناطي (المتوفى عام ٥٦٧هـ/١١٧١م) عن نشاطه السياسي الذي كان يزاوله في قرطبة وبلنسيا واستقر في مرسية وانصرف الى النشاط الادبي وجمع عدداً ممتازاً من المخطوطات[١١٩] .

كانت المرية حاضرة أخرى من حواضر الثقافة في شرق البلاد فقد كان أبو جعفر بن العباس ، كبير وزراء زهير أمير المرية ، خطاطاً ممتازاً ويملك ثروات طائلة أنفق منها خمس مئة ألف مثقال (دينار ذهب جعفري) على شراء الكتب . وكان يدفع أحياناً ثلاثة أضعاف الثمن الاعتيادي عليها ، وبذلك أقام مكتبة فخمة[١٢٠] تحتوي على أربع مئة ألف كتاب ، فضلاً عن عدد لا يحصى من الاوراق والكراريس . وكان قاضي المرية عبد الحق بن عطية هاوياً عظيماً لجمع الكتب[١٢١] . أما ميمون بن ياسين البربري (المتوفى عام ٥٣٠هـ/١١٣٥م) من قبيلة صنهاجة في المرية فقد كان بائع كتب مشهوراً[١٢٢] . وكان نصر خطاطاً مشهوراً في المرية[١٢٣]

أنجبت المرية رجالاً في الادب والعلوم . فقد كتب ابن مفضل الملقي سبعين نسخة من القرآن وكتب مؤلفات كثيرة[١٢٤] . وكان ابن لب يملك مجموعة شهيرة من الكتب أوقفها الى الجامع الكبير في ملقا[١٢٥] . وكان ابن مدرك الغساني[١٢٦] وعثمان بن مندور[١٢٧] خطاطين شهيرين وبائعين للكتب أما عيسى الرندي فقد جمع مجموعة ممتازة من الكتب باستيرادها من المشرق ولكنه فقد تلك الكتب[١٢٨] . وكان لدى محمد بن الحكم اللخمي الرندي الاشبيلي الاصل مجموعة نفيسة من الكتب[١٢٩] .

غدت المملكة الناصرية في غرناطة ملاذاً للمسلمين المهاجرين من المناطق الاسلامية الاخرى في الشمال التي استولى عليها النصارى تدريجاً ، فازداد بذلك عدد باعة الكتب وهواتها زيادة معتبرة في غرناطة . وكان من المدهش حقاً أن يمتلك اللاجئون كنوزاً أدبية أكثر من أهل غرناطة وكان الامراء الناصريون في غرناطة يرعون العلماء ويبدون اهتماماً في إنشاء المكتبات . وكانت المكتبة الملكية تحوي مخطوطات نادرة ونفيسة تتناول موضوعات كثيرة . وكانت مكتبات خاصة منها مكتبة الادباء العظماء ابن فرسون[١٣٠] وأبي القاسم القلبي شيخ ابن الخطيب[١٣١] وأبي عبد الله الاطرش[١٣٢] ، تحتوي على عدد كبير من المخطوطات النادرة واستقر الزبيدي العالم الجياني المشهور في غرناطة وأقام مكتبة خاصة بنفسه بالتاليف والاستنساخ ولكن بني اشقيلولة نهبوها[١٣٣] . وكان ابن سارة الشنتريني[١٣٤] وابن سكرة[١٣٥] وابن بليس من باعة الكتب العظماء في غرناطة[١٣٦] .

وقد نال الشعراء والمؤرخون والجغرافيون والمنجمون وعلماء النبات والكيميائيون والخطاطون ثقة الامراء الناصريين وكانوا على وفاق معهم . ومن الموضوعات المفضلة لدى عرب الاندلس الشعر والتصص والمعاجم والتاريخ والفلسفة والفقه والعقود والحسبة والنظام والجغرافيا وعلم الخرائط والفلك والرياضيات والنبات والطب والكيمياء التي أفاضوا في الكتابة فيها وجمعوا كتباً جمة في مكتباتهم .

إتلاف المخطوطات العربية

يتبين مما ذكر آنفاً إن تعليم العربية كان واسع الانتشار ، عميق الغور في الاندلس الاسلامية . وقد أدى ذلك الى نمو كثير من المكتبات في المدن الرئيسية أمثال قرطبة وطليطلة وإشبيلية وغرناطة . وبفقدان القوة السياسية وسقوط المدن الاسلامية تدريجاً بأيدي النصارى تراجع المسلمون أكثر فاكثر الى الجنوب حتى التجأوا أخيراً الى غرناطة . ولكن بسقوط آخر معقل لهم في غرناطة غدت حياتهم وممتلكاتهم وكل ما بحوزتهم ولغتهم وأدبهم وثقافتهم تحت رحمة النصارى المنتصرين الذين لم يكونوا متسامحين مع رعاياهم المسلمين كما كان المسلمون متسامحين مع النصارى واليهود . فقد خالف النصارى المنتصرون شروط استسلام غرناطة[١٣٧] . واضطهدوا رعاياهم المسلمين الذين يطلق عليهم اسم المورسكيين لانهم كانوا يتكلمون العربية ويكتبونها وفضلوا الاسلام ديناً لهم على المسيحية دين الدولة . وأغلقت مدارس المسلمين وأحرقت المكتبات وفرضت قوانين جائرة لاجبارهم على التخلي عن اللغة العربية والعادات والتقاليد العربية وأجبر أغلب المورسكيين في النهاية على قبول الدين المسيحي . ولكن لما أخفق الاقناع والقوة لتحويل الباقين الى المسيحية فانهم طردوا شر طردة من البلاد .

ولكن أولئك النصارى لم يكونوا متعصبين جداً حين كان المسلمون في الحكم كما أصبحوا بعد تسليم المسلمين غرناطة . وأسس النصارى في القرنين الثاني عشر والثالث عشر مدارس وجامعات في المدن المهمة لترجمة الكتب العربية الى اللاتينية ونقل الثقافة العربية ويمكن ذكر أسماء المدارس اللاتينية العربية في طليطلة . وأشبيلية والجامعات في بلنسية سلمنقا ولاردة في هذا الخصوص[١٣٨] . فقد ترجم كثير من المؤلفات في العلوم الاداب والفلسفة من العربية الى اللاتينية والرومانية .

وعند نهاية القرن الخامس عشر انتهت كل رعاية للغة العربية وأدبها وفي خلال ثماني سنوات بعد سقوط غرناطة بدأ نظام قسر وتعذيب لالغاء شروط الاستسلام . وأخذت مجموعات الكتب من المكتبات الاسلامية في غرناطة ، ما عدا كتب الفلسفة والطب والتاريخ ، ونقلت الى ساحة بيبارمبلا [باب الرمل] وحرقت بامر الكردنال خيمينيث دي سينيرث القس المسؤول عن تنصير المسلمين في عام ١٤٩٩ م ويقول نيكلسن : إنه كان يتمنى أن يمحو سجل سبعة قرون من الثقافة الاسلامية في يوم واحد[١٣٩] .

قدّر أحد كتاب اليوميات المعاصرين للاحداث ولم يكن يعرف العربية ولم يفقد أي كتاب حرقاً بالنار ، قدّر رقم الكتب العربية التي أتلفت بمليونين[١٤٠] . وبناء على رأي روبيرا الذي كتب سيرة خيمينيث فان رقم المخطوطات العربية التي أتلفت كان مليوناً وخمسة آلاف[١٤١] . وقد ناقض سمونيه ، كاتب سيرة خيمينيث أيضاً ، رأي كاتب اليوميات غير المتحيز الذي ذكر آنفاً ، بقوله : إن المسلمين لم يكونوا متحضرين ولم تكن مكتباتهم تضم مثل هذا العدد الكبير من الكتب[١٤٢] . وهذا أمر مناف للواقع . فعلى الرغم من تحيز روبيرا فانه يعترف بأن مسلمي الاندلس كانوا متحضرين حضارة راقية أكثر حتى من إخوانهم في المشرق وإن مكتباتهم في غرناطة كانت تضم مليوني كتاب[١٤٣] .

بعد سقوط غرناطة لم تستورد الكتب العربية ولم تكتب في داخل البلاد أيضاً ، بل حرقت المجموعات القديمة من المخطوطات العربية أينما وجدت . وعلى الرغم من الخسائر التي يعود سببها الى الزمن والرطوبة وتلف مواد الكتابة بفعل تقادم الزمن فان عدداً كبيراً من الكتب كان من الممكن أن يبقى حتى اليوم لو لم يحرقها النصارى ويتلفوها أو يدفنها ويخفيها الموريسكيون أنفسهم تحت الحجارة أو ينقلوها الى خارج البلاد في أيام إخراجهم منها .

ليس ثمة تفاصيل كثيرة في تسجيل ما فقد من الكتب بسبب الهجرة أو التصدير الى بلدان أجنبية لأن الهجرة كانت محتومة والتصدير جلب بضائع بفائدة مساوية الثمن . وإرضاء للنقاد فاننا نذكر إنه عند استيراد كتب لابي موسى الهواري قاضي استجة في أيام حكم عبد الرحمن الثاني[١٤٤] وأبي يحيى القرطبي (المتوفى عام ٣٨٥هـ/٩٩٥م)[١٤٥] وابن حفظ الله الاندي (المتوفى عام ٦١٢هـ/١٢١٥م)[١٤٦] فقدت في إثناء نقلها من المشرق .

كان تصدير الكتب أقل فائدة من استيرادها . فقد نقل عطية بن سعيد (المتوفى عام ٤٠٨هـ/١٠١٧م) هاوي جمع الكتب الاندلسي ، أحمال كثير من الجمال كتباً الى المشرق[١٤٧] . وقد وزع كاتب السيرة الحميدي مجموعات كتبه على علماء المشرق[١٤٨] ، وأبو بكر بن ياسر الجياني (المتوفى عام ٥٦٣هـ/١١٦٧م) أمين مكتبة شخص اسمه نور الدين على طلبة المشرق ودارسي الحديث فيه[١٤٩] . وقد صدّر عدد ضخم من الكتب الى شمال أفريقيا . وهاجر في بداية . القرن الحادي عشر كثير من علماء الاندلس الى فاس واستقروا فيها[١٥٠] وقد نقل الطلبة المغاربة (المراكشيين) الدارسين في الاندلس عند عودتهم عدداً كبيراً من الكتب .

كان سلطان بن داود الاغماتي[١٥١] (المتوفى عام ٣٧٢هـ/٩٨٢م) ومحمد بن عبد الحق التلمساني[١٥٢] المتوفى (عام ٦٢٥هـ/١٢٢٨م) يتلقيان العلم في الاندلس وحملا كتباً الى بلدهما . وكان ابن ملجم المراكشي (المتوفى عام ٥٣٥هـ/ ١١٤٠م) طالباً آخر يتلقى العلم في الاندلس وقد أقام مكتبة ممتازة وباعها ابنه بأربعة آلاف دينار[١٥٣] . ولابد أن نعتبر إن تصدير الكتب الى بلدان أخرى لم يكن قط خسارة للأندلس .

إن هجرة العلماء مع مجموعات كتبهم النفيسة ، وبعضها لا يمكن تعويضه ، فهي مسالة ينبغي أخذها بنظر الاعتبار لاسيما حين اضطر الموريسكيون المطرودون الى حمل كتب نادرة ومهمة الى شمال أفريقيا والمشرق أمثال مؤلفات الفيلسوف ابن العربي والنحوي ابن مالك والسياسي ابي بكر الطرطوشي والفقيه ابن فرو الشاطبي والشاعر ابن خفاجة [الجزيري ، الشقري] وابن خاقان وغيرهم[١٥٤] .

خسارة أخرى أهم حقاً في طبيعتها نتيجة حرق الكتب الفلسفية في الاندلس الاسلاميه ، فلم يكن قد جرى التسامح مع الفلاسفة من غير المذهب المالكي بل أسيئت معاملتهم وأحرقت كتبهم بنحو غير رسمي ، وقد عذب ابن مسرة (٨٨٣ - ٩٣١)[١٥٥] ، وحرقت الكتب الفلسفية في مكتبة ابن كليب بتحريض من فقهاء المالكية[١٥٦] . على إن هذا التشدد لم تكن الدولة ترضى به وتوجه التعنيف الى المتهمين بذلك العمل .

كان الحكم الثاني يرعى فلاسفة جميع المذاهب غير ان المنصور رئيس الوزارة في حكم هشام الثاني خضع للفقهاء واضطر الى إتلاف جزء من مكتبة الحكم التي تضم مؤلفات فلسفية[١٥٧] فراح أصحاب المذهب المالكي يبحثون عن كتب البدع والامور المريبة في الاسواق والمكتبات وأحرقوها . وكانت مكتبة ابن حزم قد أصابها المصير نفسه[١٥٨] . وبعد مجيء المرابطين اتسعت عملية حرق الكتب الفلسفية وكتب البدع ومنها علم الكلام ونفذت باقرار من الدولة . وقد نهب اسحاق بن تاشفين كثيراً من كتب مكتبة أبي بكر بن أبي ليلى عالم مرسية الكبير (المتوفى عام ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م) ونقل كتبها الى مراكش[١٥٩] . وكان الموحدون الذين يعتقدون بعلم الكلام والافكار الفلسفية قد أمروا في البدء بحمل كتب المذهب المالكي

الى فاس وحرقها هناك(١٦٠) . وحرقت مؤلفات محمد أبي بكر (المتوفى عام ٥٩٩هـ/١٠٢٢م) بـأمر السلطـان في عام ٥٨٠هـ/١١٨٤م(١٦١) . فاثار ذلك العمل مسلمي الاندلس الذين راحوا يطلقون على الموحدين إسم الزنادقة . ولأجل استرضائهم وقف الموحدون ضد الفلاسفة ابن رشد وابن طفيل والاخرين الذين كانوا تحت رعايتهم زمناً طويلاً واضطهدوهم وأحرقوا كتبهم(١٦٢) . ولقيت مؤلفات ابن الحجاج المريني الاشبيلي العلمية عنتاً كثيراً على أيدي الموحدين(١٦٣) .

استخدم الموحدون خطاطين أندلسيين في مكتبتهم في مراكش . وكان أمين مكتبتهم الملكية أندلسياً أيضاً هو أبو العباس بن إسورة البلنسي(١٦٤) .

وعلى الرغم من الخسائر الفادحة لاسيما في المؤلفات الفلسفية والكلامية التي ذكرت آنفاً غير إنه كان هناك خزين عظيم من الكتب في غرناطة في القرن الخامس عشر في المكتبة الملكية والمكتبات الخاصة الاخرى . وقد عانت هذه المجموعات الكبيرة من المخطوطات العربية التي يملكها الموركسيون في بلنسيا وأرغون وفي أنحاء أخرى من اسبانيا عنتاً كبيراً على أيدي النصارى . وكان من الكتب التي أتلفت في (ساحة بيبارمبلا) مخطوطات عربية أنيقة الخط جميلة الزخرفة بلوحات كثيرة وأبازيم من الفضة والذهب المرصعة باللؤلؤ ما يزيد ثمنها على عشرة آلاف دوقية بناءً على ما أورده بطرس القليمي(١٦٥) . واستمر إتلاف المخطوطات العربية حتى بعد ذلك . فقد سنت قوانين باجازة حرق المؤلفات العربية . فاصدر دونا خوانا في ١٥١١م أمراً بحرق كتب الدين العربية وكان بموجبه على الموركسيين أن يبرزوا ما لديهم من مخطوطات عربية لفحصها وتدقيق محتوياتها . فعزلت كتب الشريعة والدين الاسلامي عن الكتب الاخرى وأحرقت . وبدأ أخطار المطران منذ ذلك الحين باتخاذ خطوات رهيبة ضد أولئك الذين ما زالوا يحتفظون بمخطوطات عربية من القرآن والحديث والفقه ، فجمعت أمثال تلك الكتب وحرقت . وقد خاطر الموركسيون بحياتهم محاولين إخفاء مثل تلك الكتب . وكان عليهم أخيراً لدى طردهم نهائياً أن يتركوا بعض هذه الكتب في دورهم كما ذكر فراي ماركوس من وادي الحجارة(١٦٦) . ففي مخطوطة في النحو محفوظة في مكتبة جامعة بلنسيا ملاحظة تقول : « أنا ، خايمة فراندو ، وجدت هذا الكتاب في قرية الاغوار بعد أن صعد المسلمون التل ، في بيت ميل ليني دي كواتيست ، رئيس المسلمين ، وبما إنه مكتوب بحروف عربية لم أجد أحداً يستطيع قراءته . وأخشى أن يكون نسخة من قرآن محمد . »(١٦٧) وفي آب ١٥٨٤م أجبر قاضي التيا Altea ابن أخي خونكا فقيه الموركسيين على إخراج كيس ملىء بنسخ من القرآن بموجب إخطار من المطران(١٦٨) . استمر إحراق المخطوطات حتى بعد إخراج الموركسيين . وأصبح حرق المخطوطات بمرور الزمن مهرجاناً سنوياً(١٦٩) . وظلوا يحتفلون بذلك حتى وقت قريب في ذكرى محرقة (ساحة باب الرمل) المذكورة آنفاً تحقيراً للاسلام وتعاليمه .

اعتبر المطران إن في الابقاء على الكتب العربية ضرراً وأذى للدين المسيحي ومجتمعهم فحرقها . وكان الملوك المسيحيون يصدرون ، بين حين وحين ، أوامر باتلاف الكتب العربية ولكنهم كانوا أحياناً يقدمونها هدايا الى الملوك المسلمين المجاورين لهم . وقد عقد شانجة الرابع علاقات صداقة مع بني مرين وأهداهم ثلاثة أحمال من الكتب المهمة(١٧٠) ويقول ريبيرا : ولكن الكتب التي تركها [المسلمون] دون أن تحرق وبقيت بأيدي المسيحيين واليهود والموركسيين قد فقدناها إما باهدائها أحياناً كما فعل شانجة الرابع وأحياناً أخرى بحرقها ، ولهذا فاننا لم نكن أقل تجرداً من المبادىء الخلقية من المسلمين أنفسهم الذين اقتدينا بهم في هذا الشان . » أخفق ريبيرا بقوله هذا أن يبقى غير متحاز وحاول أن يزيل عن المسيحيين وصمة العار في سجلهم الذي اقترفوه بحق فكر العلماء .

استنتاج

يمكن أن نستنتج الحقائق التالية من المعلومات المتعلقة بالمهتمين بشؤون المكتبات مما كتبه المؤرخون وكتاب السير عن المكتبات على الرغم من إنها غير وافية .

كان المسلمون في العصور الوسطى مدركين لاحتياجات المكتبات لذلك أنشأوا المباني وخصصوا حجرات لرفوف الكتب وأخرى للنساخين والمجلدين والمفهرسين وأمناء المكتبات والقراء والمحاضرين ، بطريقة يمكن أن ترى المكتبة كلها من نقطة مركزية واحدة .

كان في الاندلس الاسلامية مكتبات خاصة وعامة في مبان يعمل فيها الرجال والنساء ، السادة والخدم ، الملوك والرعية ، العلماء والبسطاء ، على قدم المساواة ، مما يدل على شان العلم والثقافة في الاندلس المسلمة .

كانت الكتب ترتب في رفوف على أساس فهرس من أجل تسهيل الرجوع اليها من قبل العلماء والطلبة .

كانت كتب جديدة وأصلية تؤلف ، وتترجم كتب يونانية ولاتينية قيمة الى العربية . وكانت الكتب العربية النادرة والمهمة يستنسخها خطاطون خبراء من أجل تداول الافكار والابداعات الجديدة تداولاً واسعاً .

وقد وضع الخطاطون خدماتهم ، في غياب آلات الطباعة ، من أجل الانتشار الواسع للمعرفة . وعلى الرغم من كون الاستنساخ باهظاً فان الكتب كانت تباع وتشترى بحرية تامة في أسواق الكتب الاندلسية .

وقد وجهت عناية خاصة بحفظ الكتب النفيسة بتجليدها

بجلود مزخرفة وخشب عطر . وكانت قيمتها تزداد بتطعيمها وزخرفتها بحروف من ذهب وفضة .

وكان أناس من ذوي العلم والثقافة الرفيعين يستخدمون لادارة تلك المكتبات .

ونتيجة للصراع الفكري بين مختلف الطوائف الاسلامية جرى إتلاف عدد كبير من الكتب على أيدي المسلمين أنفسهم ولكن مع ذلك بقيت ملايين الكتب في مكتبات غرناطة حين استسلمت للنصارى الذين ابتهجوا بحرق مجموعات قيمة من المكتبات الاسلامية .

المخطوطات العربية في مكتبات إسبانيا الحديثة

كانت التطورات المادية والثقافية التي قام بها المسلمون في إثناء حكمهم اسبانيا نحو ٨٠٠ عام ، جوهرية وبعيدة الاثر . فنقلوا كنوزاً أدبية من المشرق الى اسبانيا وترجموا مؤلفات إغريقية ولاتينية الى العربية وألفوا كتباً جديدة ومهمة واستنسخوا مخطوطات نادرة وقيمة وحفظوها في مكتباتهم الخاصة والعامة . تتناول تلك المؤلفات مختلف الموضوعات كالشعر والفلسفة والقصة والمعاجم والتاريخ والفقه والعقود والحسبة والجغرافية والفلك والرياضيات وعلم النبات والكيمياء .

ولم يؤثر التنافس السياسي والديني بين المسيحيين والمسلمين في صلاتهم الثقافية . وكلما كان المسيحيون يستعيدون مزيداً من الاقاليم الاسلامية في اسبانيا كانوا يكتسبون كنوزاً جديدة في شكل الكتب التي كان الملوك المسيحيون يشجعون على دراستها . وكانت مكتبات المسلمين في إسبانيا تضم شروحاً أكثر من ترجمات الكتب اليونانية . وقد انتقلت تدريجاً الى أيدي المسيحيين .

أنشأ عبد الرحمن الثاني في قرطبة مدرسة عربية للترجمة فترجمت كثير من المؤلفات اليونانية العلمية والفلسفية الى العربية في الوقت الذي كانت تستورد مؤلفات أخرى من المشرق .

ولم يكن المسيحيون محض متفرجين بل كانوا يقلدون المسلمين في نشاطاتهم الثقافية . فاسست المدارس والجامعات في المدن المهمة لترجمة الكتب الى اللاتينية ونقل الثقافة اللاتينية ـ العربية الى الشباب المسيحيين . وأصبحت المدارس اللاتينية ـ العربية في طليطلة وإشبيلية وجامعات بلنسية وسلمنقة ولاردة ذات أهمية بالغة . وفتح ريموندو رئيس أساقفة طليطلة (١١٢٥ ـ ١١٥٢م) مدرسة للترجمة في طليطلة قامت بدور مهم في نقل المعرفة الشرقية الى الغرب . وفتح الفونسو العاشر في ١٢١٥م مدرسة لاتينية عربية أخرى في إشبيلية . وبعد ذلك بزمن طويل أسس جاقم (خايمة) الثاني في عام ١٣٠٠ جامعة أخرى في لاردة . قامت هذه المعاهد جميعاً في نقل المعرفة العربية . وترجمت المؤلفات العربية في مختلف الموضوعات الى اللاتينية واللغات الرومانسية . وكما فعلت الترجمات النظامية في إدخال العلوم الاغريقية القديمة الى العرب ، لذا فان الغرب في العصور الوسطى اتبع الاسلوب نفسه في الترجمة وأحرز معرفة العلوم العربية .

ونتيجة للصراع الفكري بين المذاهب الاسلامية فان عدداً كبيراً من الكتب أتلفه المسلمون أنفسهم ولكن على الرغم من ذلك ظلت ملايين الكتب في مكتبات غرناطة عند استسلامها للمسيحيين الذين ابتهجوا بحرق المجموعات النفيسة من المكتبات الاسلامية . وعند نهاية القرن الخامس عشر سحب المسيحيون رعايتهم للغة العربية وأدبها . وفي خلال ثمانية أعوام من سقوط غرناطة بدأ نظام اضطهاد وتعذيب خرقاً لاتفاقية الاستسلام فحرق مليونا مخطوطة عربية في (ساحة باب الرمل) ـ غرناطة ـ بأمر من الكردينال خيمينيث القس المسؤول عن تنصير المسلمين في عام ١٤٩٩م . فجعل هذا التخريب المتعمد والمزيد من إتلاف المخطوطات العربية ، جعل تلك المخطوطات نادرة جداً في اسبانيا ، غير إن المسيحيين أدركوا فيما بعد أهمية هذا الشكل من الكنز الوطني وبدأوا يحفظونه في مكتباتهم المختلفة كمكتبة الاسكوريال والمكتبة الوطنية في مدريد .

مكتبة الاسكوريال :

تقع مكتبة الاسكوريال الشهيرة في دير الاسكوريال الذي وضع فيليب الثاني حجره الاساس احتفالاً بذكرى انتصاره على فرنسا تعويضاً عن تدمير سان لورنس في كونتن ، في فرنسا . بدأ العمل باشراف معماريين اثنين ، خوان باتيسا الطليطلي وخوان الهراري ، في نيسان ١٥٦٣ ، وانتهى العمل في أيلول ١٥٨٤م . ونمت حول الدير مدينة صغيرة ، أصبحت المستقر الصيفي لأهل مدريد . وأسس فليب الثاني مكتبة الاسكوريال في ١٥٧٥م باربعة آلاف كتاب من مكتبته الخاصة . وأضيف إليها منذ ذلك الحين مجموعات خاصة من كتب الاكليروس ورؤساء وعلماء فساعد ذلك على نموها التدريجي . وازداد عدد الكتب زيادة عظيمة في زمن فيليب الثالث لاسيما بالمخطوطات العربية الاربعة آلاف من مكتبة مولاي زيدان سلطان مراكش المسلم .

كان الاسبان وأهل شمال أفريقيا في حرب عند نهاية الربع الاخير من القرن الخامس عشر . وفي إثناء ذلك كانت سفينتان تحملان ٣٩٨٠ مخطوطة عربية[1] تعود الى مولاي زيدان استولى عليها بيدرو دى لارا قرب ثالة على مسافة قصية من ميناء ماموره . وبعد التفاوض مع الملك الاسباني وافق مولاي زيدان على دفع كمية كبيرة من الذهب والفضة وإطلاق سراح

أسرى الحرب المسيحيين بشرط إعادة الكتب إليه . ولكن قبل تبادل الكتب وإصدار العفو ثار مولاي عبد الله ابن أخي مولاي زيدان فانشغل مولاي زيدان بالفتنة فأمر فيليب باعادة تلك المخطوطات وحفظها في دير سان لورنس[2] . ويقول ريبيرا في حديثه عن هذه المفاوضات انه عندما تفاوض مولاي زيدان مع الملك الاسباني حول إعادة الكتب ، استشير المحقق العام في محاكم التفتيش . فنصح الملك الاسباني بالابقاء على المخطوطات التي تخص الدين الاسلامي ضماناً لحسن سلوك السلطان المراكشي وإعادة كتب التنجيم والطب والرياضيات والتاريخ والمواد الأخرى فقط اليه ولكن مجلس الدولة اعتبر رأي المحقق العام متسامحاً جداً وكريماً وقرر حرقها جميعاً على الرغم من رأي عدد قليل باتلاف الكتب التي تتناول الدين فقط . بيد إن ماركيز بيلادا تدخل وأشار على الملك بحفظ تلك المجموعة الفريدة من المخطوطات العربية في مكان أمين ، فاخذ الملك بتلك المشورة[3] .

وطلب الى فيليب الثالث أن يودع المخطوطات العربية الممنوعة الموجودة مع خادم خوان أندياكيث وآخرين في الدير مع المخطوطات العربية الاخرى ، أن تودع في مكتبة الاسكوريال . وبعد أن قام فرنسيسكو دي كوار مندي بتدقيق عنوانات المخطوطات ومحتوياتها قدم تقريراً الى الامبراطور قائلاً إن نحو الفي مخطوطة هي نسخ من القرآن وتفسيره ، وألفي مخطوطة في موضوعات مختلفة بضمنها الفلسفة والرياضيات والطب ، واقترح عليه أن تحفظ المخطوطات الممنوعة على حدة[4] . وأمر الامبراطور فيليب الثالث في عام ١٦٢١م كوارمندي أن يضعها على رفوف في المكتبة في الاسكوريال ، وأخبر خوان بيرالتا كاهن سان كورنزو بذلك ووجهه بعدم خلط المخطوطات الممنوعة مع غيرها دون أمر من الامبراطور[5] .

وفي سنة ١٦٥١ أرسل مولاي محمد بن مولاي زيدان وفداً آخر مع رئيس القساوسة بيدرو القنطري في دير الحفاة الفرنسسكانيين في مراكش الى فليب الرابع لاقناعه باعادة المخطوطات . وانقسم أعضاء مجلس الدولة ومحكمة التفتيش في أرائهم هذه المرة أيضاً .

فكان كثيرمنهم يرون وجوب حرق نسخ القرآن وإعادة البقية ، بينما يرى آخرون اعادة المخطوطات ما عدا مخطوطات القرآن والحديث وترى قلة قليلة اعادة المخطوطات كلها الى سلطان مراكش . ولكن المفاوضات أخفقت ولم ترجع الكتب[6] .

وفي خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر فاوض ملوك مراكش مرة أخرى لاعادة تلك الكتب ولكن الحكام المسيحيين لم يعيدوا الكتب ولم يستفيدوا من المصادر القيمة في التاريخ الثقافي الاسلامي عن الغرب . والتهمت نيران رهيبة في عام ١٦٧١ نصف تلك الكتب التي تركت مهملة . احترقت المكتبة في ذلك العام فتدمر أكثر من خمسة آلاف مجلد بضمنها ألفا مخطوطة عربية . وفي إثناء غزو نابليون وحرب المقاومة في شبه الجزيرة نقلت المكتبة الى مدريد ففقد عدد كبير من المؤلفات . وبين عامي ١٨٢٠ و١٨٢٣ وقع مزيد من الخسائر في مجموعة المكتبة ولكن على الرغم من تلك الخسائر كلها فان مكتبة الاسكوريال تعتبر من أبدع المكتبات في العالم وتضم اليوم [١٩٦٠] ٤٤,٧٤٢ مجلداً ، أربعون ألفاً منها مطبوعاً وألفا مخطوطة عربية والفان وتسعون مخطوطة اغريقية واثنتان وسبعون مخطوطة عبرية[7] . ومن المخطوطات العربية في المكتبة المهمة وغير المنشورة كتاب (اكريات السفن)[8] لابي القاسم خلف بن أفراس ، وكتاب (النفأق [النفقة]) لعمر ابن رشيق ، و(كتاب منافع الحيوان) لعلي بن محمد عبد العزيز (المتوفى عام ٧٦٢هـ/ ١٣٦٠م) يتناول الكتاب الاول كراء السفن ويتناول الثاني عقود الزواج ومسؤوليات الزوج في الانفاق على زوجته ويبين الثالث تاريخ الحيوان ، من طيور وغيرها من مخلوقات ، وهو موضح برسوم منمنمة ملونة .

وقد أعد ميخائيل الغريزي [الراهب اللبناني نزيل اسبانيا] فهرست المخطوطات العربية ونشر باللغة اللاتينية في جزءين بين عامي ١٧٦٠ و١٧٧٠ وأعد الفرنسي هارتويك ديرنبورج وليفي بروفنسال فهرساً بالفرنسية أكثر علمية في ثلاثة أجزاء . وفهرس آخر بـ ٤٤٨ مخطوطة محفوظة في مكتبة الاسكوريال أعده د . نيميسيو موراتا ونشره في مجلة (الاندلس) العدد (٢) ص ٨٧ - ١٨٢

قاعة المكتبة الرئيسية فسيحة فيها جداريات جميلة الرسوم . رسم سقفها بالفريسكو الرسام الاسباني الشهير تيبالدي . وثمة مواد أخرى تثير الاهتمام مع الكتب مكتوبة بحروف ذهبية أنيقة محفوظة في معرض . وفي وسط القاعة سبع خزانات عرض زجاجية . في الثانية منها نسخة من الكتاب المقدس بالعبرية كتبت في القرن الخامس ونسخة من القرآن تعود الى مولاي زيدان ومخطوطة (تاريخ الحيوان) وعدة مخطوطات عربية أخرى وفارسية ، مكتوبة بحروف ذهبية جميلة . ويمكن للعلماء الرجوع الى هذه الكتب المعروضة بترخيص خاص من سلطات مدريد .

وفضلاً عن الدير هناك مقصورة الأمير وهي مبني في الاسكوريال جديرة بالمشاهدة . وتشتهر جامعة الاسكوريال بكلية القانون ، على الرغم من إنها منظمة خاصة ، ومدرسة الاسكوريال التي تعرف باسم سيميناريو ، ما تزال تعمل منذ أيام فيليب الثاني وتدرس اللاهوت والاداب .

- مكتبات مدريد :

فقدت قرطبة مدينة القرون الوسطى أهميتها السابقة

وانتقلت النشاطات الثقافية منها الى مدريد التي أسسها في الاصل العرب باسم مجريط. تشتهر عدة مكتبات ومعاهد في مدريد بمجموعاتها من المخطوطات العربية وأهمها جميعاً مكتبة مدريد الوطنية[9].

كانت المكتبة الملكية الاسبانية في بداية القرن السابع عشر تعرف بمكتبة (الملكة الام). وكانت تضم كتباً ومخطوطات مهمة مودعة في برج القصر. وأضاف إليها فيليب الخامس مجموعات قيمة من الكتب بلغات أجنبية جلبت من فرنسا. وقد فتحت المكتبة الملكية التي تضم ثمانية آلاف كتاب أمام الجمهور أول مرة في الاول من آذار ١٧١٢. وبعد أشهر قلائل أضيفت إليها مجموعة كتب رئيس أساقفة بلنسيا الشخصية. وبعد ذلك ألحق بها المتحف الملكي الذي يضم نقوداً وآلات رياضية [في علم الرياضيات]. وعين روبينيت المدير الاول وجبرائيل القاريز الطليطلي الامين للمكتبة. وفي إثناء الهيمنة الفرنسية في إثناء حكم نابليون عانت المكتبة كثيراً إذ صنع [الفرنسيون] خراطيش من الكتب. ونقلت الكتب مرتين خلال عشر سنوات من ١٨٠٩ الى ١٨١٩، أولا من القصر الملكي الى دير ترينيتي ومن هناك الى ديوان البحرية.

وفي عام ١٨٣٦ سميت المكتبة باسم مكتبة مدريد الوطنية. وبعد سنتين صدرت أنظمة وقوانين لحفظ الكتب. أما المؤلفات غير المرغوب فيها ومنها مؤلفات المسلمين والموريسكيين فقد وضعت في حجرة واحدة ولم يسمح للقراء بتداولها إلا بترخيص من البابا.

أختير موقع بناية المكتبة الوطنية والمتحف في پاسيو دي ريكو ليتس ووضع الحجر الاساس في الحادي والعشرين من نيسان، ١٨٦٦. واستغرق إكمال هذا المبنى الفخم ستة وعشرين عاماً. تضم المكتبة خمس مئة ألف كتاب منها تسعة آلاف من الكتب والمخطوطات النادرة، نقلت إليها عام ١٨٩٤. وبعد عام ١٩٠٠ أضيفت إليها مجموعة كتب پاسكوال دي گايا نگوس الخاصة. واعدت فهارس للمخطوطات والكتب تحت إشراف مارسلينو مونونديث پيلايو وقد عرضت كتب نادرة ومخطوطات مهمة وأشياء لافتة للنظر في المعارض السنوية.

أعد ف. گيلين روبلز فهرس المخطوطات العربية في مدريد عام ١٨٨٩ ثم أضيف إليها مزيد من المخطوطات العربية ومن المخطوطات المهمة غير المنشورة التي تضمها المكتبة:

إبن أبي زمنين (المتوفى عام ١٠٠٧م): (منتخب الاحكام)[10] في الرسوم القضائية، ١٠٨ ورقات [٣٠] بحروف مغربية ومخطوطة أخرى غير كاملة للكتاب نفسه في ٢٨ ورقة بحروف مغربية.

أبو القاسم سلمون القنيلي: العقد المنظوم للحكام في ما يجري بين أيديهم من الوثائق والاحكام)[11] وهي مجموعة من القوانين القضائية أيضاً.

ومن المخطوطات التي كتبها مؤلفون مسيحيون في القرن العاشر والحادي عشر: مورالز سان گريگو ريو ال المگنو: رسالة قوطية عربية من سنة ٩٤٥م في (٥٠٢) خمس مئة ورقة وورقتين، كتبت على رق وجلد عجل منمنمات قوطية.

(الاشتقاق) لسان اسيد دورو، القرن العاشر، ١٦٣ ورقة مكتوبة على رق مع صور هندسية ملونة.

مراسيم مجلس ديني، جمعها الرئيس الاعلى للدير، القرن العاشر، ٣٤٥ ورقة مكتوبة على رق، مع منمنمات باسلوب بيزنطي.

أحكام قضائية، سنة ١٠٥٨م، ١٨٦ ورقة كتبت على رق مع نقوش وزخارف هامشية بالاحمر والازرق باسلوب المستعربين.

شرح سفر الرؤيا لسان خوان تاليف سان بياتو من ليبانا، استنسخه فاكوندوس فيغام ١٠٤٧م، من مقتنيات الملك فرناندو والملكة شانجة، ٣١٦ ورقة، كتبت على جلد عجل مع أكثر من مئة منمنمة مستعربية.

الكتاب المقدس لابيلا مكتوب بحروف إيطالية كارلونجية صغيرة في نهاية القرن الحادي عشر وبالفرنسية في بداية القرن الثاني عشر.

ومن أشكال التجليد النادرة اللافتة للنظر مجلد من القرن الثامن عشر في مخمل أحمر وعليه ترس مطرز بالذهب والحرير من جانبي التجليد وكتاب آخر للمدجنين مبطن بمخمل ومزخرف بذهب مخرّم مع الحروف الاولى لاسماء الملوك الكاثوليك وتيجان ودبابيس زينة من ميناء مغربي وغطاء من الفضة المنقوشة مع صورة لسان ميگيل.

ثمة أربع مكتبات أخرى في مدريد تشتهر بمخطوطاتها وكتبها العربية، ودراسات عن الثقافة العربية الاسبانية [الاندلسية] في اسبانيا. في مقدمة تلك المكتبات مكتبة معهد ميگيل اثين (مدرسة الدراسات العربية) ومكتبة الاكاديمية الملكية للتاريخ. وفضلاً عما تمتلكه هذه المكتبات من عدد كبير من الكتب العربية المطبوعة فانها تمتلك بعض المخطوطات النادرة لاسيما في العقود والبيع. ومن المخطوطات النادرة التي يمتلكها معهد ميگيل اثين نسخة من مجموعة رسائل ابن حزم القرطبي (القرن الحادي عشر)[12] و(السفر الثاني من الوثائق والمسائل المجموعة)[13] لعبد الله فتح البونتي (البلنسي)، و(المقصد المحمود في تلخيص العقود)[14] لابي الحسن الجزائري وهناك مخطوطة غير كاملة لـ(المقنع في علم الشروط)[15] لاحمد بن مغيث الطليطلي (المتوفى عام ٤٥٩هـ/١٠٦٧م) في العقود، محفوظة مع مؤلفات أخرى نادرة تحت عنوان (الوثائق المستعملة) استنسخها

سليمان محمد بن الخزانجي في مجموعة كايانكوس من المخطوطات العربية في أكاديمية التاريخ. المعهد المصري في مدريد والمعهد الاسباني في مدريد معهدان أخران قاما على أساس فكرة توجيه البحوث في الثقافة العربية الاسبانية [الاندلسية]. في مكتبتي المعهدين مجموعات قيمة من الكتب. المدير الاول للمعهد العربي الاسباني هو العالم في الشؤون العربية دون أميليو گارثيا گومث. وفي جامعة مدريد كرسي للعربية غير إن مكتبتها تفتقر الى الكتب والمخطوطات العربية.

مكتبات غرناطة :

تتالف مكتبة جامعة غرناطة من خمسة أقسام ؛كل قسم مـرتبط بكليتـه وثمـة قسم عـام. وتعـد مكتبـة الجامعة [١٩٦٠] فهرساً للمخطوطات والكتب المطبوعة في القرنين السادس عشر والسابع عشر التي تشتهر بها هذه المكتبة بوجه خاص. يحتوي القسم العام للمكتبة أيضاً على مخطوطات وكتب عربية محفوظة في مكتبة مدرسة الدراسات العربية في مدريد. المدير الحالي [١٩٦٠] لمدرسة الدراسات العربية في غرناطة هو لويس سيكو دى لوسينا باريديس. والغرض من هذا المعهد هو الاسهام في البحث والتقصي عن الثقافة الاسلامية في الاندلس وتعليم الثقافة الاسبانية الحديثة للطلبة المسلمين من شمال أفريقيا. مجموعة الكتب فيها ثرية غير إنها لا تمتلك إلا بضعة مخطوطات عربية تستحق الذكر.

مكتبات برشلونة :

تاسست المكتبة المركزية في برشلونة أصلًا من أجل تحقيق أهداف معهد الدراسة القطلونية الذي انشا في ١٩٠٧. فيه ١٦٧٦ مخطوطة أغلبها بالقطلونية، و١٥٠٦١ خارطة ونقش وختم ورسالة وألة موسيقية، وهي مهمة لدراسة تاريخ قطلونيا ولغتها. وثمة مكتبتان مهمتان أخريان، مكتبة الجامعة والارشيف التاريخي للمدينة المعروف بمعهد البلدية للتاريخ، برشلونة (تاسست في ١٩١٧). في هذا المعهد مكتبة تحتوي على سبعين ألف كتاب ووثيقة وفيها رسوم تاريخية أصلية ووثائق گرافيكية. وتمتلك مواد كافية لاعادة تكوين التاريخ الاجتماعي والاقتصادي لقطلونيا لاسيما برشلونة من عام ١٢٤٩ حين أدخل جاقم (خايمة) الاول تقاليد سجلات صيانة المدن.

مكتبات في المدن الاسبانية الاخرى :

زار كاتب هذا البحث خمس مدن مهمة أخرى هي قرطبة وإشبيلية وطليطلة وسرقسطة ليرى البقايا الاسلامية ويدرس الوثائق المحفوظة في مكتباتها. لم يكن فيها سوى قلة من المخطوطات العربية. وحتى مكتبة جامـعة أشبيلية لا تملك مجموعة طيبة من المخطوطات العربية. ثمة مخطوطات عربية قليلة ونادرة في كتدرائية طليطلة ولكن أغلبها جرى نشره.

تضم المخطوطات العربية المحفوظة في المكتبات الاسبانية المذكورة آنفاً معلومات غنية عن التاريخ الاجتماعي والثقافي في إسبانيا الاسلامية [الاندلس]. وتتطلب هذه المخطوطات غربلة وإعادة ترتيب وتحليل لتقديم صورة كاملة عن ذلك الجانب من تاريخ إسبانيا. وإن نتائج هذه البحوث في الثقافة الاسلامية الاسبانية غالباً مـا تنشر في مجلة « الاندلس »، مدريد، غرناطة، ونشرة المجمع العلمي الملكي، قرطبة، ومجلة المعهد المصري، مدريد.

هوامش المقدمة :

١ ـ سي، اس، كاريرس، تاريخ شاطبة، ص ٤٨

٢ ـ م. ن والصفحة نفسها

٣ ـ م. ن والصفحة نفسها

٤ ـ دويلر ص ٨٢

٥ ـ المقدسي ص ٢٣٩. استعمل البيزنطيون أيضاً الورق ولعلهم صفوه في القرن العاشر الميلادي، في ٩٤٧م (يختلف ابن خلدون وابن حيان في التاريخ، وذكر ان السفير البيزنطي جاء الى بلاط الحاجب المنصور برسالة مكتوبة باليونانية على ورق سماوي

٦ ـ كوندا، جـ١، ص ص ٤٥٩ ـ ٤٦٠، كايانكوس، جـ١، ١٧٥ و٤٥١ رقم ٢٣

٧ ـ الادريسي، ص ١٩٢/٢٣٣ ؛كايانكوس، جـ١، ص ص ٦٧ و٩٤. انظر أيضاً ياقوت جـ٥، ص ٢٤

٨ ـ سي. اس. كاريرس، تاريخ شاطبة ص ٤٧، نقلًا عن جغرافية النوبة، جـ١ ص ١٦٠

٩ ـ بانكيري، الزراعة، ص ١١٨، أنطونيو كارثيا ماثيرا، مذكرات وأخبار عن الزراعة العربية في إسبانيا، ثامورا، ١٨٧٦، ص ٢٢

١٠ ـ سي. اس. كاريرس، تاريخ شاطبة، ص ٤٨ ؛ لويس فياردوت، تاريخ ص ٢٤٠

١١ ـ كـايـانكـوس، جـ١، ص ٣٧٥ رقـم ١٣ ؛ سي. اس. كاريرس، تاريخ شاطبة ١٩٣٣، ص ٤٨ ؛ لويس فياردوت، تاريخ. ص ٢٤٠

١ ـ المكتبات الاسلامية والوراقون في اسپانيا

١ ـ لمزيد من التفصيلات في الموضوع أنظر مؤلفات أبي بكر بن خير ، وريبيرا ، محاضرات ، ١ ، ص ص ١٨٨ ـ ٢١٧

٢ ـ ابن الابار ، التكملة ، تحقيق كوديرا ، رقم ٧ ، ص ٨

٣ ـ ريبيرا ، محاضرات ورسائل ، ١ ، مدريد ، ١٩٢٨ ، ص ١٨٨

٤ ـ الفرضي ، كتاب تاريخ علماء الاندلس ، رقم ٧٧٤ ، ص ١٢٥

ـم . ن . (١) رقم ٨٨٩ ، ص ص ٢٤٩ ـ ٢٥٠

٦ ـ الفرضي (١) رقم ١١٣٢ ، ص ص ٣١٦ ـ ٣١٧

٧ ـ المقري ، نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ، ١ ، ليدن ، ١٨٥٥ ـ ١٨٦١ ، ص ٤٩٣

٨ ـ الفرضي (١) رقم ١١٥٠ ، ص ٣٢٢

٩ ـ الفرضي (١) رقم ١٩٩ ، ص ٥٨

١٠ ـ م . ن (١) رقم ٢٨١ ، ص ص ٨١ ـ ٨٣ ؛ الضبي ، بغية الملتمس ، ص ١٦ ، ابن عذارى ص ١١٢ ، المقرى ، النفح (١) ٨١ ، ريبيرا ، محاضرات ، ١ ، ص ١٨٩

١١ ـ الفرضي (١) رقم ٢٥٣ ، ص ١٨١

١٢ ـ م . ن . ، ١ ، رقم ٢٦٨ ، ص ٧٨ ؛ ريبيرا ، محاضرات ، ١ ، ص ١٨٨

١٣ ـ لوبيث ، مساهمات ، ص ٩١

١٤ ـ الفرضي (١) رقم ٢٠١ ، ص ص ٥٨ ـ ٥٩

١٥ ـ م ـن . (١) رقم ١٨٤ ، ص ٥٣

١٦ ـ م ـن . (١) رقم ١١٩٧ ، ص ٣٣٦

١٧ ـ ابن الخطيب ، الاحاطة ، مخطوط ، رقم ١١١ الاكاديمية الملكية للتاريخ ، مدريد ، ورقة ١٣٥ ، اقتباس ريبيرا ، محاضرات (١) ص ١٨٩

١٨ ـ الفرضي (٢) رقم ١٥٣٤ ، ص ٣٨

١٩ ـ م . ن . (٢) رقم ١٤٨٢ ، ص ٢٦

٢٠ ـ الفرضي (٢) رقم ١٥٢٨ ، ص ص ٣١ ـ ٣٢

٢١ ـ ابن الابار ، التكملة ، رقم ٢٧١ ؛ ابن الفرضي ، رقم ١٢٨٧

٢٢ ـ الضبي ، رقم ٢٧١ ، الفرضي ١٢٨٧

٢٣ ـ س . م . عماد الدين ، عن المؤلف المجهول لاخبار عبد الرحمن الثالث الناصر في مجلة (الاندلس) العدد ١١ ، ١٩٥٦ ، ص ص ١٢٠ ـ ٢١١

٢٤ ـ المقري ، نفح الطيب (٢) ص ١٦٩ ، ابن قتيبة ، افتتاح الاندلس ص ٣٦

٢٥ ـ ابن قتيبة ص ٣٤

٢٦ ـ م . ن ، ص ٣٥

٢٧ ـ م . ن ، ص ٣٥

٢٨ ـ م . ن ، ص ٤٤

٢٩ ـ ابن الاثير ، جـ٦ ، ص ١٠٢ ، أخبار مجموعة ، (الاندلس) ص ص ٣٢ ـ ٣٤

٣٠ ـ م . ن ، جـ٦ ، ص ٢٦٨ ؛ المقري ، نفح الطيب (١) ص ٥٩

٣١ ـ ليفي پروفنسال ، الحضارة العربية في اسپانيا ، الارجنتين ، ١٩٥٣ ، ص ص ٦٤ ، ٨٥

٣٢ ـ ابو عبد الله بن سقلاب ، طبيب معروف في قرطبة كان يعرف اليونانية ، راجع ليكتيرك ، تاريخ الطب العربي ، جـ(١) ص ٤١٩ ، ريبيرا ، محاضرات (١) ص ١٩١

٣٣ ـ الفرضي (١) رقم ١٢٩٠ ، ص ٣٦٤

٣٤ ـ ابن الابار ، التكملة (١) رقم ٣٦٢ ، ص ص ١٠٦ ـ ١٠٧ ؛ الضبي ، رقم ٩٤

٣٥ ـ كاپانكوس (٢) ، ١٦٩ ؛ دوزي ، الاسلام في اسبانيا ، ص ٤٥٤

٣٦ ـ الفرضي (١) رقم ٨٨٤ ، ص ٢٤٧

٣٧ ـ ابن الابار ، التكملة (١) رقم ٢٨٤ ، ص ٨٦ ؛ المقري ، نفح الطيب (٢) ص ٧٦

٣٨ ـ ريبيرا ، محاضرات (١) ص ١٩٢

٣٩ ـ ابن بشكوال ، كتاب الصلة ، (٢) رقم ١٤١٢ ، ص ٦٣٠

٤٠ ـ م . ن ، (٢) رقم ١٤٣٣ ، ابن الابار ، التكملة (١) رقم ٢٣٤ ، ص ٧١

٤١ ـ المقري ، نفح الطيب (١) ، ص ص ٢٤٠ ، ٢٥٦ ؛ ريبيرا ، محاضرات (١) ص ١٩٣

٤٢ ـ ابن الابار ، الحلة السيراء (تحقيق دوزي) ، ص ١٠١ ؛ كاپانكوس ، الاسر الاسلامية الحاكمة في اسبانيا (١) الملحق ، ص XL

٤٣ ـ فليب حتي ، تاريخ العرب ، لندن ١٩٥٤ ، ص ٤٠٤ ، طبع كتاب الاغاني في عشرين جزءاً وفهارس

٤٤ ـ س . م . عماد الدين ، مصادر تاريخ اسبانيا الاقتصادي في حكم الامويين (٧١١م ـ ١٠٣١م) في مجلة الجمعية التاريخية الباكستانية ، كراچي ، ١٩٥٨ ، ص ص ١٧٧ ـ ١٩٧٨

٤٥ ـ المقري ، نفح الطيب (١) ص ٦٠٥

٤٦ ـ الفرضي (١) رقم ١٣٩٧ ، ص ٤٠٤

٤٧ ـ ابن بشكوال (٢) رقم ١٢٥٣ ، ص ٥٦٣

٤٨ ـ الضبي ، رقم ٣٣١

٤٩ ـ المقري ، نفح الطيب (٢) ص ١١٢

٥٠ ـ الضبي ، رقم ٨٨٤

٥١ ـ الفرضي (٢) أرقام ١٤٦٤ ، ١٦٣٦ ، ص ص ١٥ ـ ١٦ ، ٦٩ ـ ٧٠ ؛ ابن بشكوال (١) رقم ٧٩٦ ص ٣٦٧ ؛ ابن الابار ، التكملة (١) رقم ٣٢٨ ، ص ص ٩٧ ـ ٩٨ ، الضبي ، رقم ٥٤١ ؛ ريبيرا ، محاضرات (١) ص ١٩٥

٥٢ ـ هسبريس ، (١٨) ١٩٣٤ ، ص ص ١٩٨ ـ ٢٠٠ ؛ ليفي بروفنسال ، الحضارة العربية ، ص ٨٧ ، رقم ٢١

٥٣ ـ كانت المكتبة الملكية في أيام العزيز (توفي عام ٩٩٦م) تحتوي على ٢٠٠,٠٠٠ كتاب وهي نصف عدد كتب مكتبة قرطبة . المقريزي ذكر الخطط والاثار ، القاهرة (١) ص ص ٤٠٨ ويقال إن مكتبة العباسيين الملكية كانت تحتوي على مجموعات قيمة ولكن العدد غير معلوم . وكانت مكتبة المدرسة المستنصرية تحتوي على ٨٠,٠٠٠ كتاب في عام ١٢٣٢م .

٥٤ ـ ريبيرا ، محاضرات (١) ص ص ١٩٤ ـ ١٩٥

٥٥ ـ ابن بشكوال (١) رقم ٥٣٦ ، ص ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦ ؛ الضبي رقم ٨٥٢
٥٦ ـ ابن الابار ، التكملة (١) رقم ٤١٧ ، ص ١١٩
٥٧ ـ المقري ، نفح الطيب (١) ص ١٣٦
٥٨ ـ ليفي بروفنسال ، الحضارة العربية ، ص ٨٨ رقم ٢٢
٥٩ ـ رينهارت دوزي ، الاسلام في اسبانيا ، ص ٥٥٨
٦٠ ـ كابانكوس الاسر الاسلامية الحاكمة في اسبانيا (١) ص ص XLI – XL
٦١ ـ ابن بشكوال في ملحق الفرضي (٢) رقم ١٦٦٢ ، ص ص ٧٨ ـ ٧٩
٦٢ ـ ابن الابار ، التكملة ، رقم ٤٢٧ ، ص ١٢٢
٦٤ ـ المقري ، نفح الطيب (٢) ص ٥٧
٦٥ ـ الفرضي ، (١) رقم ١٠٧٠ ص ٢٩٩
٦٦ ـ ريبيرا ، محاضرات (١) ٢٠٦
٦٧ ـ ابن بشكوال (١) رقم ٥٥٣ ، ص ص ٢٤٢ ـ ٢٤٤
٦٨ ـ الفرضي (٢) رقم ١٥٩٧ ، ص ص ٥٨ ـ ٥٩
٦٩ ـ ابن الابار ، التكملة ، رقم ٣١٢ ، ص ص ٩٣ ـ ٩٤ ؛ ريبيرا ، محاضرات (١) ص ١٩٧
٧٠ ـ ابن بشكوال (٢) رقم ١٣١٤ ص ص ٥٨٩ ـ ٥٩٠
٧١ ـ م . ن ، ملحق الفرضي (٢) رقم ١٧٢٤ ص ١٠٤
٧٢ ـ م . ن (٢) رقم ١١٤٤ ص ٥١٤
٧٣ ـ م . ن (١) رقم ٢٩٤ ص ١٣١
٧٤ ـ م . ن (١) رقم ٥٠٤ ص ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤
٧٥ ـ ميخائيل الغزيري ، فهرس مكتبة الاسكوريال للكتب العربية (٢) ص ٧١
٧٦ ـ ريبيرا ، محاضرات (١) ص ١٩٨
٧٧ ـ ابن بشكوال (٢) رقم ١٤١٢ ص ٦٣٠ ، تاريخ كيمبرج للعصور الوسطى (٣) ٤٣٥
٧٨ ـ ابن بشكوال (٢) رقم ١٤١٧ ص ص ٦٣١ ـ ٦٣٢
٧٩ ـ م . ن (٢) رقم ١٤١٥ ص ٦٣١
٨٠ ـ المراكشي ، المعجب في تلخيص اخبار المغرب ص ص ٣٥ ـ ٣٦ نص ٢٧٠ نص مترجم اقتباس ليفي بروفنسال ص ٢٣٤ ، ابن ابي الفياض ، تاريخ قرطبة ، اقتباس ريبيرا ، المحاضرات ص ١٩٩
٨١ ـ المقري ، نفح الطيب (٢) ص ٦٣١
٨٢ ـ مونك
٨٣ ـ لسان الدين بن الخطيب ، الاحاطة في اخبار غرناطة (١) ورقة ١٢١ ، اقتباس ريبيرا ، محاضرات (١) ص ٢٠٢
٨٤ ـ كابانكوس (٢) ص ١٦٩
٨٥ ـ المقرى (١) ٣٠٢ ، ليفي بروفنسال ، اسبانيا ص ٢٣٤ ، البورونز ، اسبانيا الاسلامية (١) ٣٢٧
٨٦ ـ المقدس ص ٢٣٩
٨٧ ـ ريبيرا ، محاضرات (١) ص ٢٠٤ ، البورونز ، اسبانيا (١) ص ٣٢٧
٨٨ ـ ابن الابار التكملة (١) رقم ٣٦٤ ص ١٠٨
٨٩ ـ المقري ، نفح الطيب (١) ٦٤١
٩٠ ـ م . ن (١) ٦٤٠
٩١ ـ كابانكوس (١) الملحق ص الـ XLI

٩٢ ـ ابن قتيبة ، تاريخ افتتاح الاندلس ص ١٧٠
٩٣ ـ ابن الابار ، التكملة ، رقم ١٣٣١ ص ص ٤٦٢ ـ ٤٦٣
٩٤ ـ م . ن رقم ١٦٣٤ ، ص ٥٨٣
٩٥ ـ المقرى ، ص ٤٨٧
٩٦ ـ ابن بشكوال في ملحق ابن الفرضي (٢) رقم ١٧٣٠ ص ص ١٠٦ ـ ١٠٧
٩٧ ـ الضبي رقم ١٧٩
٩٨ ـ ابن الابار ، التكملة (١) رقم ٧٨٠ ، ص ص ٢٤٠ ـ ٢٤٢
٩٩ ـ م . ن (٢) رقم ١٦٢٦ ص ص ٥٨٠ ـ ٥٨١ اقتباس ريبيرا ، محاضرات (١) ص ٢٩٠
١٠٠ ـ ابن الابار التكملة (١) رقم ٧٣٤ ، ص ص ٢١٦ ـ ٢١٧
١٠١ ـ ابن بشكوال (١) رقم ٣٥ ، ص ص ٢١ ـ ٢٢
١٠٢ ـ م . ن . رقم (٢) ١١٥٧ ، ص ص ٥٢٠ ـ ٥٢١
١٠٣ ـ م . ن . رقم ١٠١٦ ، ص ٤٦٤
١٠٤ ـ م . ن . (١) رقم ٤٤٣ ص ١٩٨
١٠٥ ـ ابن بشكوال ، رقم ٧٠١ ، ص ص ٣٢٣ ـ ٣٢٤
١٠٦ ـ م . ن (١) رقم ٣٥١ ، ص ص ١٥٨ ـ ١٦٠
١٠٧ ـ م . ن (٢) رقم ١٣١١ ص ٥٨٨
١٠٨ ـ ف . ج . سيمونية ، معجم ص CXLVI
١٠٩ ـ ابن الابار ، التكملة (٢) رقم ١٣١١ ، ص ٤٥٦
١١٠ ـ ريبيرا ، محاضرات (١) ص ٢١٣
١١١ ـ ابن الابار ، التكملة ، (١) رقم ٩٠٢ ص ٢٩٤
١١٢ ـ ريبيرا ، محاضرات ، (١) ص ٢١٣ .
١١٣ ـ ابن الابار ، التكملة (١) رقم ٦٧٧ ، ص ١٩٩
١١٤ ـ ابن بشكوال (١) رقم ٦٢٩ ، ص ٢٨٣ ؛ الضبي ، رقم ٩٢٠
١١٥ ـ ابن الابار (٢) رقم ١٨٥٨ ، ص ص ٦٦٦ ـ ٦٦٧ ، اقتباس ريبيرا ، محاضرات (١) ٢١٤
١١٦ ـ م . ن (٢) رقم ١٥١٢ ، ص ٥٣٨
١١٧ ـ ابن الابار (١) رقم ٧٤٦ ، ص ص ٢٣٣ ـ ٢٣٦ ؛ المقري ، نفح الطيب (١) ص ٦٠٧ ؛ الضبي رقم ٧٧٨
١١٨ ـ لسان الدين ابن الخطيب ، الاحاطة (١) ورقة ٤١ ، محاضرات (١) ص ٢١٥
١١٩ ـ ابن الابار (١) رقم ٧٥٠ ، ص ص ٢٢٧ ـ ٢٢٩
١٢٠ ـ المقري ، نفح الطيب (٢) ص ٣٥٩ ؛ ابن الخطيب ، الاحاطة (١) ورقة ٦٧ ، اقتباس ريبيرا ، محاضرات (١) ص ص ٢٠٩ ـ ٢١٠
١٢١ ـ المقري (١) ص ٨١٧
١٢٢ ـ ابن الابار ، التكملة (١) رقم ١١٣٧ ص ص ٢٩٥ ـ ٢٩٦
١٢٣ ـ م . ن (٢) رقم ١١٩٢ ص ٤١٦
١٢٤ ـ ابن الخطيب ، الاحاطة (٢) ورقة ١٦٧ ، (١) ورقة ٣٦ ، اقتباس ريبيرا ، محاضرات (١)
١٢٥ ـ ابن الخطيب ، الاحاطة (٢) ورقة ١٥٧ ، اقتباس ريبيرا ، محاضرات (١) ص ٢١٧
١٢٦ ـ ابن الابار (١) رقم ٧٦٨ ص ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥
١٢٧ ـ ابن الخطيب ، الاحاطة (٣) ورقة ١٤١ ، اقتباس ريبيرا ، محاضرات (١) ص ٢١١
١٢٨ ـ ب . لبرجوندي Chrestomatia ص ١٢٨ ، اقتباس

ريبيرا ، محاضرات (١) ص ٢١٠
١٢٩ ـ م . ن (٢) ورقة ١١٠ ، اقتباس ريبيرا ، محاضرات (١) ص ٢١١
١٣٠ ـ ريبيرا ، محاضرات (١) ص ٢١٦
١٣١ ـ ابن الخطيب ، الاحاطة (٣) ورقة ١٣٧ ، اقتباس ريبيرا (١) ص ٢١٧
١٣٢ ـ ابن الخطيب ، الاحاطة (٢) ورقة ١٤٦ ، جذوة الملتمس ص ١٧٦ ، اقتباس ريبيرا ، محاضرات (١) ص ٢١٧
١٣٣ ـ ابن الخطيب ، الاحاطة (١) ورقة ٣٤ ، اقتباس ريبيرا ، محاضرات (١) ص ٢١٧
١٣٤ ـ م . ن (٣) ورقة ٩٩ ، اقتباس ريبيرا (١) ص ٢١٧
١٣٥ ـ م . ن ، ورقة ١٣٩ ، اقتباس ريبيرا (١) ، ص ٢١٧
١٣٦ ـ ابن الخطيب ، الاحاطة (٢) ورقة ١٤١ ، اقتباس ريبيرا ، محاضرات (١) ص ٢١٧
١٣٧ ـ بعض شروط التسليم
ا يكفل للمسلمين سلامة حياتهم وممتلكاتهم ويسمح لهم بالحرية الدينية
ب يحتفظ المسلمون بعاداتهم وتقاليدهم ومعاملاتهم ولغتهم ولباسهم
ج تسمع القضايا التي تحصل بين المسلمين والمسيحيين محاكم مختلطة
د يدفع المسلمون الضرائب فقط التي كانوا يدفعونها لملوك المسلمين
هـ لن يعود المسلمون الجدد الى دينهم القديم وإذا رغب المسلمون في التنصر فانهم يمهلون مدة كافية للتفكير المتاني ثم يعلنون قرارهم النهائي
١٣٨ ـ س . م . عماد الدين ، اثر الحضارة الاسلامية في الاندلس في الادب العربي ، لاهور ١٩٥٦ ص ص ٣٥٧ ـ ٣٥٨
١٣٩ ـ نيكلسن ، تاريخ الادب العربي ، لندن ١٩٠٧ ، ص ٤٣٥ ، س . م . عماد الدين ، مصادر التاريخ الاسلامي لاسبانيا ، في مجلة الجمعية التاريخية الباكستانية ، كراجي (١) ١٩٥٣ ص ٣٥٨
١٤٠ ـ ريبيرا ، محاضرات (١) ص ١٨٣
١٤١ ـ ثورة الموريسكيين ص ١٠٤ ، اقتباس كايانكوس (١) ص ١١١ ٧ ن ٢١
١٤٢ ـ الكردينال خيمينيث ، اقتباس ريبيرا ، محاضرات (١) ص ص ١٨٣ ، ٢٢٧
١٤٣ ـ ريبيرا ، محاضرات (١) ص ١٨٣
١٤٤ ـ ابن الفرضي (١) رقم ٧٧٦ ص ص ٢١٥ ـ ٢١٦
١٤٥ ـ م . ن (١) رقم ٢٦٠ ص ٧٦
١٤٦ ـ ابن الابار ، التكملة (٢) رقم ١٤٣٧ ص ص ٥٠٦ ـ ٥٠٩
١٤٧ ـ ابن بشكوال (٢) رقم ٩٦٠ ص ص ٤٢٩ ـ ٤٤٢ ، الضبي ، رقم ١٢٦٠
١٤٨ ـ المقري ، نفح الطيب (١) ص ٥٣٥
١٤٩ ـ م . ن (١) ص ٤٩٩ ؛ ابن الابار ، التكملة ٢١١ رقم ٧٣٦ ، ص ص ٢١٨ ـ ٢١٩
١٥٠ ـ المراكشي ، ص ٢٦١
١٥١ ـ ابن الفرضي (٢) رقم ١٦٤٧ ص ٧٢
١٥٢ ـ ابن الابار ، التكملة (٢) رقم ٢١٣٧ ص ص ٧٥١ ـ ٧٥٢
١٥٣ ـ م . ن . رقم ١٦٥٢ و١٩٣٠ ص ص ٥٩٠ ، ٦٨٩ ـ ٦٩٠
١٥٤ ـ ريبيرا ، محاضرات (١) ص ٢١٩
١٥٥ ـ ريبيرا ، محاضرات (١) ص ٢٢٠ ؛ حتي ، تاريخ العرب ص ٥٢١
١٥٦ ـ ابن الفرضي (١) رقم ٤١٧ ص ص ١٢٠ ـ ١٢١
١٥٧ ـ ابن عذاري (٢) ص ٣١٥
١٥٨ ـ ب . ليرچوندي ـ Creatomatia ص ص ٩٢ ـ ٩٤ ، ريبيرا ، محاضرات (١) ص ٢٢٣
١٥٩ ـ ابن الابار ، التكملة (٢) رقم (١٦٠٣) ص ص ٥٦٦ ـ ٥٦٧ ، المراكشي ص ص ١٧٠ ـ ١٧٢
١٦٠ ـ المراكشي ، ص ٢٠١
١٦١ ـ ابن الابار ، التكملة (١) رقم ٨٧٠ ؛ ص ص ٢٧٦ ـ ٢٨١
١٦٢ ـ المراكش ، ص ٢٢٥
١٦٣ ـ المراكش ، ص ص ١٧٠ ـ ١٧٢
١٦٤ ـ ابن الخطيب ، الاحاطة (١) ورقة ٣٢ ، اقتباس ريبيرا ، محاضرات (١) ص ٢٢٤
١٦٥ ـ ريبيرا ، محاضرات (١) ص ٢٢٥ ١٦٦ ـ جانيه ، الحالة الاجتماعية للموريسكيين في اسبانيا ، ص ٨٦
١٦٧ ـ ريبيرا ، محاضرات (١) ص ٢٢٨
١٦٨ ـ ريبيرا ، محاضرات (١) ص ٢٢٦
١٦٩ ـ ريبيرا ، محاضرات (١) ص ٢٢٠
١٧٠ ـ بوميير ، روض القرطاس (ترجمة اسپانية) ص ٥٢٥ ، ابن خلدون ، تاريخه (٧) ص ٢١٠

هوامش :

المخطوطات العربية في مكتبات اسبانيا

١ ـ يعتقد بعضهم ان تلك المخطوطات العربية أرسلها سلطان مراكش الى إبنه السجين في اسبانيا
٢ ـ قائمة الكتب الملكية في الاسكوريال ، ١٩٢١ ، ص ص ٦٠ ـ ٦١
٣ ـ ريبيرا ، محاضرات (١) ص ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧
٤ ـ سيمانكاس ، وثائق الدولة ٢٦٤٤ ؛ مجلة الارشيف ٧ ـ ٢٢٠ ، اقتباس في محاضرات ص ص ٦١ ـ ٦٢ ؛ خوزيه كيفيدا ، وصف تاريخي للاسكوريال ، مدريد ١٨٥٤ ص ١٠٥
٥ ـ ل . لاكايوي ، شنتمرية في المخطوطات القديمة ... في دير لورنزو في الاسكوريال ، أشبيلية ١٨٧٨ ، اقتباس في محاضرات ص ص ٦٢ ـ ٦٣ ، خوزيه كيفيدو ص ص ١٠٥ ـ ١٠٦
٦ ـ سيمانكاس ، امانه سر الدولة ، الوثائق ١٦٧١ ص ٢٦٧١ ، اقتباس قائمة الكتب الملكية في الاسكوريال (محاضرات) ، الاسكوريال ١٩٢١ ص ٦٤٠ ، خوزيه كيفيدو ص ص ١٠٥ ـ ١٠٦
٧ ـ فدريكو تورس ، دليل أخبار الاسكوريال ، مدريد ١٩٥٢ ، ص ١٤٠

٨ ـ س . م . إمام الدين ، مصادر التاريخ الأقتصادي لاسبانيا تحت حكم الامويين في مجلة الجمعية التاريخية الباكستانية (م . ج . ت . ت) مجلد ٦ ، كراجي ١٩٥٨ ص ص ١٩٠ ـ ١٩١
٩ ـ دليل القارىء الى قائمة الكتب الوطنية ، مدريد ١٩٤٩ ، ص ص ٩٠ ـ ٩١
١٠ ـ إمام الدين ، مصدر سابق ١٩٥٨ ص ص ١٨٧ ، ١٩١ ـ ١٩٢
١١ ـ إمام الدين ، مصدر سابق ص ص ١٠٧ ، ١٩١ ـ ١٩٢
١٢ ـ مخطوطة فريدة لستة عشر رسالة تتناول الواجبات الاجتماعية والدينية للمسلمين لابن حزم في مكتبة الفاتح في إسطنبول
١٣ ـ م . ج . ت . ب (٦) ١٩٥٨ ، ص ١٨٩
١٤ ـ م . ن ، ص ص ١٨٩ ـ ١٩٠
١٥ ـ م . ن ، ص ١٨٩

مصدر الترجمة :

(يشكر المترجم د . عري شوكت بهنام على إهدائها نسخة مصورة للبحث بالانكليزية يوم كانت سكرتيرة لمجلة المورد)

Memoir

Hispan – Arab Libraries by Dr S . m . Imamuddin
Pakistan Historical Society , Karache 1961

• •

مسائل في النحو

لابن هشام الأنصاري (ت / ٧٦١هـ)

تحقيق : الدكتور طه محسن

جامعة الانبار-كلية التربية للبنات·

تقديم

جمال الدين عبد الله بن يوسف المعروف بابن هشام الانصاري من أشهر النحاة الذين عاشوا في القرن الثامن الهجري . ولد بالقاهرة سنة (٧٠٨هـ) وتوفي سنة (٧٦١هـ) بعد ما ترك (عدداً كبيراً من المصنفات والرسائل عامتها في علمي النحو والصرف وما يرتبط بهما من شروح للشواهد النحوية ، والحواشي ، وشرح واعراب الالفاز المنظومة في النحو واللغة واعراب الايات المشكلة في القرآن)[١] .

ومما نبه عليه مترجموه ، وهم يصفون آثاره ، كثرة الرسائل والفوائد التي حققها ، والمسائل التي اجاب عنها او عنت له خلال دروسه وبحوثه ومناقشاته ، فنقلت عنه ، قال ابن حميد المكي : (ان له من الرسائل والضوابط ، والفوائد شيئاً كثيراً ، حتى ان مراسلته الى اصحابه لا يخليها من فوائد نحوية غريبة . وله اجوبة في العربية لا تحصى)[٢] .

ومن الرسائل والمسائل والفوائد التي وصلت الينا أو نسبت اليه ما ياتي :[٣]

- مسائل في اعراب القرآن . حققها الدكتور صاحب ابو جناح .
- استعمال المنادى في تسع آيات من القرآن الكريم (مخطوط) .
- المباحث المرضية المتعلقة بـ(مَن) الشرطية (مخطوط) .
- احكام « لو » و « حتى » .
- مسائل في النحو واجوبتها . نشرها الدكتور حاتم الضامن تحت علوان (المسائل السفرية في النحو) في مجلة (المورد) : المجلد ٩ / العدد ٣ / سنة ١٩٨٠ .
- مجموعة من المسائل والفوائد ادرجها السيوطي (ت ٩١١هـ) في كتابه (الاشباه والنظائر) ٣ / ١١٠ و٤ / ١٠ و ١٥ و٢٣ و ٢٦ و٣٢ و٩٢ و١٠٠ و١٠١ و١٠٢ و١١١ .

وطبع مستقلاً قسم منها بعد العثور على مخطوطاتها .

وتاتي المسائل النحوية التي انشرها حلقة في هذه السلسلة الطويلة وهي ثلاث تشتمل على الاتي :

١ - تعدد ما بعد « إلا » : يوجه فيها ابن هشام إعراب الاسماء المتعددة بعد « الا » في الاستثناء المفرغ والتام في مثل : (ما اكرم الا زيد عمراً ، وما اكرم الا عمراً زيد) . و(قام القوم الا زيداً وعمراً ، وقام القوم الا زيداً والا عمراً)و(ما اكرم القوم الا بعضهم بعضا) .

٢ - تعقيب على حديث للزمخشري عن العطف في (ولا الملائكة) من قوله تعالى : (لن يستنكف المسيح ان يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ...) وتوجيه اعراب الآية .

٣ - شرح حقيقة الاستفهام والفرق بين ادواته : تكلم عليه في ثلاثة فصول مختصرة :

الاول : في تفسير الاستفهام وبيان معناه .

الثاني : في تفسير المطلوب حصوله باداة الاستفهام ، وهو التصور والتصديق ، وتقسيم الادوات بهذا الاعتبار .

الثالث : في الكلام على « أم » واقسامها ، وبيان اوجه الفرق بين المتصلة والمنقطعة .

وفي هذه الرسائل الثلاث يتمثل اتجاه ابن هشام في الدرس النحوي في الجمع بين اراء النحاة ، ومناقشتها ، والتعليل لاختياره وفق منهج قائم على التنظيم والتبويب ، وتوخي التقسيم والتفريع لكل مسالة ، مع الاستدلال بالشواهد الفصيحة والاكثار من الامثلة ، وسرد اراء المتاخرين من النحاة فضلاً عن المتقدمين بصريين وكوفيين ، والقائمة التي اسردها ضامة اسماء هؤلاء واولئك دليل على هذا النهج الذي هو سمة

كتبه الاخرى .

فقد نقل عن سيبويه (ت ١٧٥هـ) والكسائي (ت ١٨٣هـ) والفـراء (ت ٢٠٧هـ) والاخفش (ت ٢١٥هـ) وابي زيد الانصاري (ت ٢١٥هـ) والزجاج (ت ٣١١هـ) وابن السراج (ت ٣١٦هـ) وابي بكر بن الانباري (ت ٣٢٨هـ) وابي علي الفارسي (ت ٣٧٧هـ) كما نقل عن الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) والجزولي (ت٦٠٥هـ) والشلوبين (ت ٦٤٥هـ) وابن هشام الخضراوي (ت ٦٤٦هـ) وابن عصفور (ت ٦٦٩هـ) وابن مالك (ت ٦٧٢هـ) وابن الذحوية (ت ٧١٨هـ) .

ان هذه الخصائص لهذه المسائل في المنهج والاسلوب وطريقة البحث تعضد صحة نسبتها الى ابن هشام الانصاري التي اطمئن اليها بسبب اثبات اسمه كاملا على المخطوطتين اللتين اعتمدت عليهما في التحقيق وعدم توفر ما يشكك في هذه النسبة من قريب اوبعيد . ويزيد ذلك يقينا ان السيوطي نقل في (الاشباه والنظائر ٤ / ٢ - ٩) المسالة الثالثة بنصها ونسبها الى ابن هشام ، وكفى بهذا دليلا .

• • •

اما الاصول التي اخرجت عليها المسائل فهي :

أ - المخطوطة المرموز لها بالحرف (س) :

وهي المحفوظة في خزانة مكتبة (اسعد افندي) بـاستانبـول ضمن مجمـوع رقمـه (٤٦) وقيـاسـه (١٥ × ١٢سم) كتبت رسائله بخط النسخ الواضح بقلم احمد بن ابي بكر بن احمد المالكي السنفي . ولم ترقم صفحاته . وهو يشتمل على الرسائل الاتية :

١ - مسالة تعدد ما بعد « إلا » لابن هشام .

٢ - الكلام على تفسير قوله تعالى (لن يستنكف المسيح ...) لابن هشام .

٣ - حقيقة الاستفهام والفرق بين ادواته ، لابن هشام .

٤ - المفرد والمؤلف في العربية ، للزمخشري .

٥ - البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن ، لابن الزملكاني (ت ٦٥١هـ) .

٦ - رسالة في العروض ، لأبي الجيش الانصاري (ت ٦٢٦هـ) .

٧ - قصيدة لعمارة بن عقيل (ت ٢٣٩هـ) .

٨ - مجموعة قصـائد لاسـماعيل بن المقـري (ت ٨٣٧هـ) .

٩ - منظومـة في التجـويـد ، لابن الجـزري (ت ٨٣٣هـ) .

وتقع الرسائل الثلاث التي حققتها في اول المجموع ، من الورقة الاولى حتى نهاية الورقة (١١ ظ) التي كتب في اخرها الناسخ اسمه (احمد بن ابي بكر المالكي) وتاريخ النسخ (يوم الثلاثاء خامس رجب سنة ٩٧٧هـ) .

ب - المخطوطة المرموز لها بالحرف (غ) :

• وتقع ضمن مجموع محفوظ في مكتبة (خسرو باشا) بايتانبول تحت رقم (٧٥٤) وقياس (١٥ × ٢٠سم) كتبت رسائله بخط واضح جميل بقلم ناسخ واحد سجل اسمه في نهاية الرسالة العاشرة ، وهو (محفوظ بن شمس الدين المنادي الشافعي) سنة ١٠٠٨هـ . ويشتمل على المصنفات الاتية :

١ - شرح خطبة القاموس ، لمحمد امين البخاري (ت حوالي ٩٨٧هـ) .

٢ - الحاصل بالمصدر ، لمحمد امين البخاري .

٣ - تحقيق الحرف « قد » لمحمد امين البخاري .

٤ - اعراب حديث التسبيح .

٥ - منظومة في الفرق بين الضاد والظاء .

٦ - مسالة تعدد ما بعد « الا » لابن هشام .

٧ - الكلام على قوله تعالى : (لن يستنكف المسيح ..) لابن هشام .

٨ - حقيقة الاستفهام والفرق بين ادواته ، لابن هشام .

٩ - مسائل في موضوعات متنوعة ، للسيوطي .

١٠ - المقالات المسفرة عن دلائل المغفرة ، للسيوطي .

١١ - رسالة عن اوائل صحيح البخاري ، للسيوطي .

١٢ - الشماريخ في علم التاريخ ، للسيوطي .

١٣ - منظومة في بيان الشهور والايام ، للحصكفي (ت ٥٥١هـ) .

١٤ - الزهر اليانع على تول صاحب القاموس في الديباجة لا مانع ، لمحمد الدمياطي (ت ١٠١٤هـ) .

١٥ - حزب البحر الاكبر ، لابي الحسن الشاذلي (ت ٦٥٦هـ) .

١٦ - حزب محيي الدين النووي (ت ٦٧٧هـ) .

١٧ - تحفة السلاك في فضل السواك ، لاحمد بن محمد الزاهد (ت ٨١٩هـ) .

١٨ - شرح « حزب البحر » للشاذلي ، لاحمد بن محمد زروق (ت ٨٩٩هـ) .

وتقع الرسائل الثلاث المحققة من هذا المجموع في الورقات (٣٣ - ٤٤) وهي السادسة والسابعة والثامنة .

جـ ـ النسخة المطبوعة من الرسالة الثالثة وحدها ، وهي (حقيقة الاستفهام والفرق بين ادواته) ، وضمها كتاب (الاشباه والنظائر) للسيوطي ٤ / ٢ ـ ٩ ، واستفدت منها في الاستئناس وتصحيح الالفاظ المحرفة في المخطوطتين .

هذا وقد اعتمدت في التحقيق على المخطوطتين كلتيهما ، ولم اقدم احداهما على الاخرى ، لاني سلكت طريقة الاختيار واثبات الاصح والافضل عند الاختلاف بينهما . ولكني اشرت الى بداية كل صفحة من صفحات النسخة (س) بعد ان وضعت لها ارقاما ، وذلك بذكر الرقم مردفا بالحرف (و) لوجه الورقة ، وبالحرف (ظ) لظهرها .

واتبعت في اخراج النص الطريقة العلمية التي نبه عليها اصحاب هذا الفن في كتبهم . ولا اجد بي حاجة الى بيانها . ومن الله استمد العون والسداد .

النص

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الامام والحبر الهمام ، العالم العلامة والبحر الفهامة[١] ، وحيد دهره وفريد عصره ، شيخ النحاة ، خاتمة المحققين ، الشيخ عبد الله جمال الدين بن هشام الانصاري النحوي تغمده الله برحمته ، ونفع بعلومه وبركته :

مسالة

تعدد ما بعد « الا » على ثلاثة اقسام . لانها اما ان لا يصرح قبلها بشيء مما يصح الاخراج منه ، او يصرح بما يصح [٢] اخراج الجميع منه ، او يصرح بما يصح اخراج البعض منه دون البعض .

١ ـ فالاول نحو : ما ضرب الا زيد عمراً ، وما ضرب الا عمراً زيد . فذهب شذوذة[٣] من متاخري النحويين الى جواز ذلك ونحوه على تفريغ العامل للفاعل والمفعول معاً . اي : ما ضرب احد احداً الا زيد عمراً ، و : ما ضرب احداً احد الا عمراً زيد . والمعنى في الصورتين على هذا القول واحد ، كما ان معنى (ضرب زيد عمراً[٤] و : ضرب عمراً زيد) واحد[٥] . وجوازهما مبني على جواز ان يستثنى باداة واحدة دون عطف شيئان . والصحيح منعه[٦] كما سياتي .

وعلى المنع ، وهو قول جماهير النحويين ، فاختلف فيهما[٧] على ثلاثة مذاهب :

احدها ، وهو قول الكسائي [٨] واختاره ابن مالك [٩] في بعض كتبه ، ان ذلك جائز على ارادة الحصر في الاسم التالي « الا »[١٠] فقط ، ويكون الاسم التالي مؤخرا من تقديم .

[٢ و] والثاني ، وهو قول الشلوبين [١١] والجزولي [١٢] وجماعة من النحويين ، واليه رجع ابن مالك في كتاب (التسهيل) انه لا يجوز على التقديم والتاخير ، بل على إضمار عامل يعمل في الاسم الثاني [١٣] . وهذا ظاهر اذا كان الاسم الثاني مفعولا ، كقوله[١٤] :

فلم يـــدر إلا اللـــه مـــا هيجت لنـــا
عشيـــةً أنـــاء الـــديـــار وشـــامهـــا[١٥]

وقوله[١٦] :

مـــا عـــاب إلا لئيم فعـــل ذي كـــرم
ولا جفـــا قط الا جُبُـــأ بطـــلا[١٧]

وكذا اذا كان فاعلا وتقدم على جملة الاستثناء شيء يمكن عود ضمير من الفعل اليه ، كقوله[١٨] :

تـــزودت من ليـــلى بتكليم ســـاعـــة
فمـــا زاد الا ضعف مـــا بي كـــلامهـــا

اذ يمكن ان يقدر : فما زاد هواي تكليم ساعة الا ضعف ما بي ، ويكون « كلامها » حينئذ فاعلا . بمحذوف تقديره : زاده كلامها .

وعلى هذا القول فالحصر ايضا في جانب الاسم التالي « الا » فقط ، كما انه كذلك عند من يحمله على التقديم والتاخير ، والامر بخلاف ذلك على القول الاول .

واذا لم يتقدم ما يصح بعده الاضمار فينبغي على القول بالاضمار ان تمنع المسالة ، وذلك نحو : ما ضرب الا عمراً زيد ، لان « زيد » لا يكون عند هؤلاء على التقديم والتاخير ، لانهم لا يرون بجواز[19] عمل ما قبل « الا » فيما بعدها [٢ ظ] اذا لم يكن مستثنى ولا مستثنى منه ولا تابعا للمستثنى منه .

ولا يكون على اضمار فعل ، لانه يؤدي الى بقاء[20] الفعل السابق بغير فاعل ، اذ لم يتقدم عليه ما يمكن ان يدعى ان الفعل يحتمل ضميرا راجعا اليه .

والمذهب الثالث التفصيل :

فان كان الاسم المتاخر عن المستثنى فاعلا صحت المسالة على التقديم والتاخير .

وان كان مفعولا لم يصح على ذلك . وهو قول البصريين والفراء[21] وابن الانباري[22] من الكوفيين .

ووجهه ان المفعول المقدم في نية التاخير ، فيكون تقديمه كلا تقديم ، بخلاف الفاعل المقدم فانه في محله فلا يجوز أن ينوي به غير ذلك المحل . واذا بطل ذلك فينبغي ان يكون ذلك الاسم على اضمار الفعل ، الا ان ذلك لا يقال بقياس .

ونقل ابن مالك هذا المذهب عن ابن الانباري وحده . وانما هو قول جميع من سمينا .

القسم الثاني : وهو ان يصرح بما يصح اخراج الجميع منه وهو نوعان ، لانه اما ان يكون متحداً او متعددا .

فان كان متحدا وجب بالاجماع اما العطف او تكرار « الا » نحو : قام القوم الا زيداً وعمراً [وقام القوم الا زيداً والا عمراً][23] . وقد اجتمع افراد العطف وجمعه مع « الا » في قوله[24] :

هـــل الـــدهـــر الا ليلـــة ونهـــارهـــا
والا طلـــوع الشمس ثم غيـــارهـــا

وان كان متعددا [٣ و] فاما ان يكون الكلام ايجابا او غير ايجاب .

فان كان ايجابا ، نحو : اعطيت الناس الاموال الا زيداً ديناراً ، فقياس قول من اجاز ان يستثنى باداة واحدة دون عطف شيئان ان يجوز ذلك على الاستثناء في الا سمين جميعا ، ويكون « زيداً » مخرجا من « الناس » و « ديناراً » مخرجا من « الاموال » ويكون المعنى انه لم يعط زيداً ديناراً واعطاه ما عدا ذلك ، وذلك لان زيداً والدينار مستثنيان من موجب ، والاستثناء من الايجاب يقتضي النفي .

وقياس قول من منع ذلك ، وهم الاكثرون ، ان يكون المستثنى من[25] الاسم الاول فقط[26] ويكون الثاني معمولا لمحذوف ، ويجب ان يقدر حينئذ مقروناً بحرف النفي ، اي : الا زيداً لم اعطه ديناراً .

وان كان الكلام غير ايجاب ، نحو : ما اعطيت الناس الاموال الا زيداً ديناراً فان حملت الا سمين على غير البدلية ، فمن اجاز انه يستثنى باداة واحدة شيئان جاز عنده ذلك ، ومن منع ذلك ، وهم الاكثرون ، جازت المسالة عندهم[27] على ان يكون الاول منصوبا على الاستثناء ، والثاني معمولا لفعل محذوف ، وتقدير ذلك الفعل ، فيقدر : اعطيته ديناراً ، لان الاستثناء من النفي .

وان حملت الاسمين على غير النصب على الاستثناء جازت [٣ ظ] المسالة عند ابي بكر بن السراج[28] على ان الاسمين مبدلان من الاسمين السابقين[29] ، وامتنع ذلك عند الزجاج[30] وابن مالك .

فاما الزجاج فانه راى ان العرب لا تبدل شيئين من شيئين معاً . لا يقولون ضرب رجل امراة اخوك زينب . ويرد عليه قول الحماسي[31] :

فلما قرعنا النبع بالنبع بعضه
ببعض ابت عيدانه ان تكسرا

واما ابن مالك فراى ان المنع خاص بباب الاستثناء عام في جميع صور البدل . وعلل ذلك بان البدل في هذا الباب شبيه بالمعطوف ، لانه لابد من اقترانه بحرف الاستثناء ، كما ان المعطوف لابد من اقترانه بحرف العطف . قال : فكما ان العاطف لا يتاخر عنه شيئان كذلك البدل .

ورد عليه بان العاطف يتاخر[٣٢] عنه شيئان بالاتفاق ، نحو : إن زيداً منطلق وعمراً ذاهب ، بل اكثر من ذلك كما في باب (اعلم) .

واجيب بانه انما اراد تعليل امتناع نحو : ما قام الا زيد عمرو ، بغير عطف على ان « الا » استثنت شيئين . وذلك لا يجوز باتفاق .

وهذا الجواب لا يمشي ، لانه انما ذكر ذلك محتجاً به على بطلان البدل في نحو : (ما اعطيت احدا درهما الا زيداً دانقا) على البدل ، ولا شك ان نظير هذا من العطف جائز .

٣ ـ القسم الثالث[٣٣] : [٤ و] وهو ان يصرح اولا بما يصح اخراج البعض دون البعض منه ، نحو : ما ضرب القوم الا بعضهم بعضا . وذلك لان « القوم » فاعل ، ولا يصح استثناء المفعول من الفاعل .

وهذه الصورة اتفق الاخفش[٣٤] والفارسي[٣٥] على امتناعها . ثم اختلف في وجه اصلاحها .[٣٦] فقال الاخفش : وجه اصلاحها بان يقدم الاسم الذي يلي « الا » ويجعل بدلا من الاسم الذي قبلها ، فيصير : ما ضرب القوم بعضهم الا بعضا ، فيكون الاستثناء مفرغا فيه الفعل للمفعول . والتقدير : ما ضرب القوم بعضهم احداً الا عمراً .

وقال الفارسي : اصلاحها بان نزيد اسماً قبل « الا » فنقول : ما ضرب القوم احداً الا زيد عمراً ، ويكون الاول مستثنى من المرفوع والثاني مستثنى من المنصوب .

وهذا الذي قاله يقتضي ظاهره انه يجيز ان يستثنى باداة واحدة دون عطف شيئان . وقد تقدم ان الصحيح منع ذلك . ومحله ان ورد على ان الاول هو المستثنى وان الثاني معمول لفعل محذوف .

وان جعلت الاسمين بدلين صحت المسالة عند ابن السراج ، وامتنعت عند الزجاج وابن مالك . وقد مضى البحث في ذلك والله تعالى اعلم .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم[٣٧]

قال العلامة الشيخ جمال الدين بن هشام : وقع في بعض الدروس الكلام على قوله تعالى : (لن يستنكف المسيح ..) الاية[٣٨] . واورد كلام الزمخشري[٣٩] . وهو كلام حسن ، غير ان فيه بعض اشكال لدفنه ، وذلك انه قال[٤٠] : (الاجود في « ولا الملائكة » عطفه على « المسيح » لا على المستتر في « يكون »[٤١] او في « عبد » لادائها الى بعض الانحراف عن الغرض ، وذلك ان الغرض ان المسيح لا يانف ان يكون هو ولا الملائكة موصوفين بالعبودية) .

ثم سأل فقال : (يلزم على هذا الاعراب الذي اخترته ان تكون الجماعة ، وهم الملائكة مخبراً عنهم بعبد) .

واجاب بان المراد : ولا كل من الملائكة ، او بان التقدير : ولا الملائكة ان يكونوا عبيداً لله ، ثم[٤٢] حذفه من الثاني ايجازا . ثم قال : واما اذا عطف على المستتر في « عبداً » فقد طاح هذا السؤال . انتهى ملخصاً .

فقيل : يلزمه على الجواب الاول ان يقال : ان يكونا ، بالتثنية ، لا « ان يكون » بالافراد . لان الإخبار عن اثنين ، والعطف بالواو .

فان اجيب بان التقدير : (ولا كل واحد من الملائكة ان يكون عبداً) فذلك خلاف ظاهر قوله ، فانه انما قدر في

الوجه الثاني . وكيف جاز في الوجه الثاني ان يقدر الجمع مدلولًا عليه بالمفرد ؟ وكيف يطيح السؤال اذا قدر [٥ و] العطف على ضمير « عبداً » ؟

فكتبت على ذلك ما نصه :

اذا قيل : ان جاءك واحد من زيد وعمرو فاكرمه ، وجب توحيد الضمير ، وان تقدمه اسمان متعاطفان بالواو ؛ لان الضمير في المعنى انما وقع بعد قولنا « واحد » لانه المحكوم عليه . ووقوعه في اللفظ بعد (زيد وعمرو) لا عبرة به ؛ لانهما انما ذكرا لبيان ان الواحد المحكوم عليه متردد بينهما ، وليس عاماً في كل واحد من الناس ، ولا خاصا بفرد بعينه ، وكذلك الحكم في قولنا : ما جاءني زيد ولا عمرو الا واكرمته ، لان معناه : ما جاءني واحد من هذين الرجلين الا واكرمته .

وعلى هذا فاذا قدر عطف « الملائكة » على « المسيح » او على ضميره المستتر في « يكون » وقدر فيهما ان الجمع مراد به كل واحد كما في حكاية ابي زيد[٤٣] : (دخلنا على الامير فكسانا حلة) فالمعنى[٤٤] :

لن يستنكف واحد من هذين القبيلين اللذين هما المسيح وكل واحد من الملائكة ان يكون عبداً لله .

ولو صرح بذلك لتحتم الافراد على ما مر ، فكذلك الحكم فيما هو بمعناه واما اذا لم يقدر في الجمع ما ذكرنا فلابد ان يقدر معه اسم معطوف على مفعول « يستنكف » في الوجه الاول ، او على خبر « يكون » في الوجه الثاني . والعاطف لذلك المحذوف هو نفس الواو [٥ ظ] التي عطفت الجمع على الفاعل او على الاسم ، وهو من عطف المفردات . ويجب ان يكون ذلك المحذوف جمعا في الوجه الثاني ، او لفظا مشتملا على جمع في الوجه الاول كما سياتي تقديره .

ولا يقدح في ذلك كون المذكور مفرداً ، لان التقدير انما يكون على حسب المقدر له . الا ترى الى بيت الكتاب[٤٥] :

نحن بمـــا عنـــدنـــا وانت بمـــا عنـــدك راضٍ

كيف استدل بالواحد على الجمع .

فهذا كالاية الكريمة الا ان الحذف فيه من الاول لدلالة الثاني ، وفي الاية الكريمة بالعكس . فمن هذا الوجه لا غير افترقا .

والتقدير على الوجه الاول : لن يستنكف المسيح ان يكون عبداً لله ولا الملائكة ان يكونوا عبيداً لله .

وعلى الثاني : لن يستنكف المسيح ان يكون عبداً لله ، ولا الملائكة عبيداً لله . على معنى : لن يستنكف المسيح ان تكون الملائكة عبيداً لله[٤٦] .

فالتقدير على هذا الوجه اقل الا ان المعنى على الوجه الاول اوجه كما قال الزمخشري .

واما اذا قدر العطف على المستتر في « عبداً » فلا اشكال في افراد « عبد » وضمير « يكون » لان الملائكة على هذا الوجه انما جعلوا شركاء في العبودية لا في الاستنكاف المنفي ولا في الكون المذكور .

والله تعالى اعلم . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه اجمعين . ورضي الله عن اصحاب رسول الله اجمعين .

[٦ ظ] بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الامام والحبر الهمام ، العالم العلامة ، والبحر الفهامة ، وحيد دهره ، وفريد عصره ، شيخ النحاة ، خاتمة المحققين ، الشيخ عبد الله جمال الدين بن هشام الانصاري النحوي ، تغمده الله برحمته ، ونفع بعلومه وبركته :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة[٤٧] والتسليم على محمد اشرف المرسلين وعلى اله وصحابته اجمعين .

وبعد فهذه مسالة في شرح حقيقة الاستفهام والفرق بين ادواته على حسب ما التمس مني بعض الاخوان ، والله[48] تعالى المستعان ، وعليه التكلان ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم .

وفيه فصول :

الفصل الاول
في تفسيره

اعلم ان حقيقة الاستفهام طلب المتكلم من مخاطبه ان يحصل في ذهنه مالم يكن حاصلًا عنده مما ساله عنه .

وقال بعض الفضلاء : ينبغي ان يكون المطلوب تحصيل ذلك في ذهن أعم من ذهن المتكلم وغيره ، كما ان حقيقة الاستغفار الذي هو طلب الغفر الذي هو[49] الستر اعم من ان يكون المطلوب له هو المتكلم او غيره . ولهذا تقول : استغفرت لفلان ، كما تقول : استغفرت لنفسي . وفي التنزيل : (فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول)[50] . وتكون فائدة الاستفهام لغيرك ان يتكلم المجيب بالجواب فيسمعه من جهل فيستفيده .

[٧ و] فقلت : لو صح ذلك لم يطبق العلماء على ان ما ورد منه في كلامه سبحانه وتعالى مصروف الى معنى اخر غير الاستفهام . ولو كان على ما ذكر لم يستحل حمله على الظاهر ، ويكون المراد منه ان يجيب بعض المخاطبين فيفهم الجواب من لم يكن عالما به .

فان قيل : فما سبب الفرق بين طلب المغفرة مثلا وطلب الاستفهام ؟

قلت : طلب الانسان المغفرة لغيره مما يقع في العادة[51] كما يطلب ذلك لنفسه واما طلبه لغيره ان يفهمه الشخص المطلوب منه مع كون الطالب عالما فهو وان كان ممكنا الا انه لا تدعو الحاجة الى ارادته غالبا . فان المتكلم اذا كان عالما كان اسهل من طلبه من غيره تفهيم غيره ان يفهمه هو . فلذلك[52] لم تنصرف ارادة الواضع الى ذلك القصد لعدم الحاجة اليه غالبا .

الفصل الثاني
في تفسير المطلوب باداة الاستفهام
وتقسيم الاداة باعتباره

اعلم ان المطلوب حصوله في الذهن اما تصور أو تصديق ، وذلك لانه اما ان يطلب حكما بنفي او اثبات ، وهو التصديق ، او لا وهو التصور .

والادوات بالنسبة اليهما ثلاثة اقسام :

مختص بطلب التصور ، وهو « ام » المتصلة وجميع اسماء الاستفهام .

ومختص بطلب التصديق ، وهو « ام » المنقطعة و « هل » .

[٧ ظ] ومشترك بينهما ، وهو الهمزة التي لم تستعمل مع « ام » المتصلة .

تقول في طلب التصور : ازيد الخارج ام عمرو[53] ؟ فان المطلوب تعيين الفاعل لا نفس النسبة .

وفي طلب التصديق : اخرج زيد ؟

كذا مثلوا ، والظاهر انه محتمل لذلك بان يكون المتكلم شاكاً في حصول النسبة ، ومحتمل لطلب تصور النسبة .

وبيان ذلك ان المتكلم اذا شك في ان الواقع من زيد خروج او دخول فله في السؤال طرق :

احداها : اخرج زيد ام دخل ؟ وجوابه بالتعيين ، فيحصل مراده بالتنصيص عليه .

والثانية : اخرج زيد ؟

والثالثة : ادخل زيد ؟ فانه يجاب في كل منهما بـ« نعم » او بـ« لا » ، ويحصل له بذلك مراده ، وانه اذا

اجيب بـ« نعم » علم ثبوت ما سال عنه وانتفاء الفعل الذي لم يسأل عنه ، واذا اجيب بـ« لا » علم انتفاء ما سال عنه وثبوت مالم يسأل عنه .

وتلخيصه ان تصديق المذكور يقتضي تكذيب غيره وبالعكس . وغرض السائل حاصل على كل تقدير .

وغاية ما يخاف في هاتين الطريقتين ان السامع لا يعلم هل السائل متردد بين نسبتين او في حصول نسبة وعدمها . وهذا امر خارج عما نحن فيه .

وليس من الاوجه التي يحتملها هذا الكلام ان يكون المراد بالاستفهام طلب [٨ و] تعيين المسند اليه ، وذلك بان يكون المتكلم عالما بوقوع الفعل ، ولكن جهل عين الفاعل ، فانه لو اريد ذلك لم يول اداة الاستفهام ما هو عالم بحصوله وهو الفعل ، ويؤخر عنها ما هو شاك فيه وهو الفاعل ، وانما كان سبيله ان[٥٤] يعكس الامر فيقول : ازيد خرج ؟

وعلى هذا فاذا قيل : ازيد خرج ؟ احتمل الكلام ما احتمله ذلك المثال ، واحتمل مع ذلك وجهاً اخر ، وهو السؤال عن المسند اليه ، وتكون الجملة على هذا التقدير اسمية لا فعلية ، وعلى تقدير ان السؤال عن المسند فعلية لا اسمية ، وارتفاع الاسم حينئذ بفعل محذوف على شريطة التفسير ، وعلى تقدير انه عن النسبة فهي[٥٥] محتملة للاسمية وللفعلية ، والارجح الفعلية ، لان طلب الهمزة للفعل اقوى ، فهي به اولى . والنحويون يجزمون برجحان الفعلية في هذا المثال ونحوه مطلقاً بناءً على ما ذكرنا من اولوية الهمزة بالجمل الفعلية والتحرير ما ذكرنا .

فمتى قامت قرينة ناصة على ان السؤال عن المسند اليه تعينت الاسمية او عن المسند تعينت الفعلية ، والا فالامر على الاحتمال ، وترجح[٥٦] الفعلية كما ذكر .

واما اسماء الاستفهام فكلها مضمنة معنى الهمزة التي يطلب بها التصور . والنحويون [٨ ظ] يقولون : معنى الهمزة ، ويطلقون ، وهو صحيح ، الا ان فيه اجمالا ونقصا في التعليم وانما لم يوضحوا ذلك لان الكلام في هذه الاغراض ليس من مقاصدهم[٥٧] .

الفصل الثالث[٥٨]

في الفرق بين قسمي « ام »

تفترق « ام » المتصلة ، وتسمى المعادلة ايضا و« ام » المنقطعة ، وتسمى المنفصلة ايضا من كل واحدة من جهتي اللفظ والمعنى من اربعة اوجه :

فاما الاوجه اللفظية :

١ ــ فاحدها باعتبار ما قبلهما . وذلك ان ما قبل المتصلة لا يكون الا استفهاما لفظا ومعنى ، او استفهاما لفظا لا معنى .

فالاول ، نحو : ازيد قائم ام عمرو؟

والثاني ، نحو : سواء علي اقمت ام قعدت . فان الهمزة هنا قد خلع منها معنى الاستفهام . ولهذا يصح في مكانها ومكان ما دخلت عليه المصدر ، فيقال : سواء علي قيامك وقعودك . ويصح تصديق الكلام الذي هي فيه وتكذيبه ، ولا يستحق المتكلم به جوابا . واستعملت في لازم الاستفهام ، وهي التسوية[٥٩] . الا ترى ان الطالب لفهم الشيء استوى عنده وجوده وعدمه ، اعني استواءهما في اصل الاحتمال ، وان كان احدهما قد يكون راجحا .

وهذا المعنى اشار اليه سيبويه رحمه الله[٦٠] بقوله : (وانما جاز الاستفهام[٦١] هنا لانك سويت بين الامرين عندك كما استوى ذلك حين قلت : ازيد عندك [٩ و] ام عمرو فجرى هذا على حرف الاستفهام كما جرى على النداء[٦٢] نحو قولهم : (اللهم اغفر لنا ايتها العصابة) انتهى .

وما قبل المنقطعة[٦٣] يكون استفهاما ، نحو : (هل يستوي الاعمى والبصير ام هل تستوي الظلمات والنور)[٦٤] ، وخبرا ، نحو : (تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ● ام يقولون افتراه)[٦٥] .

٢ ــ والوجه الثاني باعتبار ما قبلهما[٦٦] ايضا . وذلك ان الاستفهام قبل المتصلة لا يكون الا بالهمزة التي يطلب بها

التصور او التسوية كما قدمنا[٦٧] ، والاستفهام الذي قبل المنقطعة لا يكون بواحدة منهما . بل تارة يكون بغير الهمزة البتة كما في قوله تعالى (هل يستوي الاعمى والبصير ...) الاية ، وقول علقمة بن عبدة[٦٧] :

هل ما علمت وما استودعت مكتوم
ام حبلها اذ نأتك اليوم مصروم
ام هل كبير بكى لم يقض عبرته
اثر الاحبة يوم البين مشكوم

وتارة يكون بالهمزة التي يطلب بها التصديق ، نحو اقام زيد ام قعد عمرو .

واذا[٦٨] اردت بـ« ام » الاضراب عن الاول فان اردت الاستفهام عن الواقع من النسبتين فـ« ام » متصلة فالكلام على هذا محتمل للمتصلة والمنقطعة بحسب الغرض الذي تريده . هذا معنى كلام جماعة .

وقال ابن هشام الخضراوي[٦٩] : (من شرط[٧٠] « ام » المتصلة ان لا يكون بعدها فعل [٩ ظ] وفاعل الا وقبلها فعل وفاعل . والفاعل من كل من الجملتين واحد ، نحو : اقام زيد ام قعد . فان قلت : أقام زيد ام قعد عمرو كانت منقطعة وكذا اذا كان ما قبلها مبتدأ وخبرا فلا بد من اتحاد الخبرين ، نحو : ازيد منطلق ام عمرو . فان قلت : ام عمرو جالس كانت منقطعة . وكذا اذا خالفت بين الجملتين ، نحو : اقام زيد ام عمرو منطلق) انتهى .

وهذا مخالف لما تقدم ، ولا شك ان تخالف الخبرين او الفاعلين او الجملتين يقتضي بظاهره الانقطاع ، واما انه يصل الى ايجاب ذلك فلا . وقد نصوا على اتصال « ام » في قوله[٧١] :

ما ابالي انب بالحزن تيس
ام جفاني بظهر غيب لئيم

مع اختلاف الفاعلين . وفي قوله[٧٢] :

ولست ابالي بعد فقدي مالكا
اموتي ناء ام هو الان واقع

مع اختلاف الخبرين .

وقد يجاب بان الجملتين هنا في تاويل المفردين ، فلذلك تعين الاتصال ، لان ما قبل « ام » وما بعدها لا يستغنى باحدهما عن الاخر كما في قولنا : ازيد ام عمرو في الدار ؟

واذا اتحد الخبران ، نحو : (ازيد قائم[٧٣] ام عمرو قائم) احتمل الكلام الاتصال والانقطاع باختلاف التقدير .

فان قيل : فلم جزم الجميع في نحو : (ازيد قائم ام عمرو) بالاتصال مع امكان الانقطاع بان يكون ما بعدها مبتدأ حذف خبره ؟

[١٠ و] قيل : لان الكلام اذا امكن حمله على التمام امتنع حمله على الحذف ، لانه دعوى خلاف الاصل بغير بينة . ولهذا امتنع ان[٧٤] يدعى في نحو : (جاء الذي في الدار) ان الاصل : الذي هو في الدار .

٣ ـ والوجه الثالث باعتبار ما بعدهما ، وهو ان المتصلة لا تدخل على الاستفهام بخلاف المنقطعة ، فانها تدخل عليه ، وتكون بالحرف كما تقدم في الاية الكريمة ، وفي بيتي[٧٥] علقمة بن عبدة ، وفي الاسم كما في قول لله تعالى : (ام ماذا كنتم تعملون)[٧٦] (ام من هذا الذي هو جند لكم)[٧٧] ، وقول الشاعر[٧٨] :

ام كيف ينفع ما تعطى العلوق به
رئمان انف اذا ما ضن باللبن

٤ ـ والوجه الرابع باعتبار ما قبلهما وما بعدهما جميعا ، وهو ان المتصلة تقع بين المفردين وبين الجملتين . والمنقطعة لا تقع الا بين الجملتين . فاما قولهم (انها لابل ام شاء) فمحمول عند النحويين على اضمار مبتدأ[٧٩] .

وقد خرق ابن مالك اجماعهم في ذلك فادعى ان المنقطعة قد تعطف المفرد محتجا بما رواه من قول بعضهم : (ان هناك لابلًا ام شاءً) بالنصب .

ومحمل هذا عند الجماعة[٨٠] ، ان ثبت ، على اضمار فعل ، اي : ام ارى شاءً ، لا على العطف على اسم « أن » . ولقوله رحمه الله وجه من النظر ، وهو ان المنقطعة بمعنى « بل » والهمزة ، وقد تتجرد لمعنى « بل » . فاذا استعملت

على هذا الوجه كانت بمنزلة « بل » [١٠] وهي تعطف المفردات ، بل لا تعطف الا المفردات ، فاذا لم يجب لـ« ام » هذه انْ تعطف المفردات فلا اقل من ان يجوز .

فان قيل : لو صح هذا الاعتبار لكان ذلك كثيرا كما في العطف بـ« بل » ولم يكن نادرا ، ولا قائل بكثرته ، بل الجمهور يقولون بامتناعه البتة . وابن مالك يقول بندرته(٨١) .

قيل : الذي منع من كثرته ان تجرد « ام » المنقطعة لمعنى (٨٢) الاضراب مع دخولها على مفرد لفظا قليل . وتبين من هذا أنه كان ينبغي لابن مالك أن يقول : وقد تعطف المفرد ان تجردت عن معنى الاستفهام .

وقد يجاب بانه استغنى عن هذا التقييد لما هو معلوم من حكم الاستفهام بالهمزة وانه (٨٣) لا يدخل على المفردات فكذا الاستفهام بـ« ام » التي هي (٨٤) في قوة الهمزة و « بل » .

واما قول الزمخشري في (أئنا لمبعوثون * او اباؤنا)(٨٥) ان (اباؤنا) عطف على الضمير في (مبعوثون) وساغ العطف على الضمير المرفوع المتصل للفصل بين العاطف والمعطوف بالهمزة فمردود بما ذكرنا .

واما اوجه المعنى :

فاحدها ما اسلفناه في صدر المسالة من ان المتصلة لطلب التصور والمنقطعة لطلب التصديق .

والثاني أن المتصلة تفيد معنى واحدا ، والمنقطعة تفيد معنيين غالبا ، وهما الاضراب والاستفهام .

والثالث ان المتصلة ملازمة لافادة الاستفهام او لازمه ، وهو التسويه ، والمنقطعة [١١ و] قد تنسلخ عنه راسا . وسبب ذلك ما قدمناه من انها تفيد معنيين ، فاذا تجردت عن احدهما بقي عليها المعنى الاخر . والمتصلة لا تفيد الا الاستفهام . فلو تجردت عنه صارت مهملة .

ومما يدل على ان المنقطعة قد تاتي لغير الاستفهام دخولها على الاستفهام كما قدمنا من الشواهد .

وبهذا يعلم ضعف جزم النحويين او اكثرهم في (انها لابل ام شاء) بان التقدير : بل اهي شاء ، اذ يجوز ان يكون التقدير : بل هي شاء . على ان المتكلم اضرب عن الاول واستانف اخبارا بانها شاء .

وعلى هذا المعنى اتجه لابن مالك ان يدعي انها عاطفة مفرداً على مفرد كما قدمنا .

ويعلم ايضا غلط ابن النحوية(٨٦) وغيره في استدلالهم بنحو : (ام هل تستوي الظلمات والنور) وبيتي علقمة على ان « هل » بمعنى « قد » ظنا منهم (٨٧) ان معنى الاستفهام لا يفارق « ام » والاستفهام لا يدخل على الاستفهام . وجعلوا هذا نظير الاستدلال بقوله(٨٨) :

أهل راونا بوادي القف ذي الاكم .

ومما يقطع به على قولهم بالبطلان انها في البيت (٨٩) داخلة على الجملة الاسمية . وقد لا تدخل عليها .

فان قيل : لعلهم يقدرون ارتفاع « كبير » بفعل محذوف على حد : (وان احد من المشركين استجارك)(٩٠) .

فالجواب ان ذلك ممتنع بعد « قد » فكذلك ما رادفها .

الوجه الرابع ان الاستفهام الذي تفيده المتصلة(٩١) لا يكون الا حقيقيا ، والذي تفيده المنقطعة يكون حقيقيا ، نحو(٩٢) (انها لابل ام شاه) على [١١ ظ] احد الاحتمالين ، وغير حقيقي ، نحو : (ام اتخذ مما يخلق بنات)(٩٣) (ام له البنات ولكم البنون * ام تسالهم اجرا فهم من مغرم مثقلون * ام عندهم الغيب)(٩٤) الايات .

تقرير آخر في الفرق مختصر(٩٥)

اعلم ان الفرق بين المتصلة والمنقطعة من اوجه :

احدها : ان ما قبل المتصلة لا يكون الا استفهاما ، وما قبل المنقطعة يكون استفهاما وغيره .

والثاني : ان ما بعدها يكون مفردا وجملة ، وما بعد المنقطعة لا يكون الا جملة .

والثالث : انها تقدر مع الهمزة قبلها بـ« اي » ومع الجملة بعدها بالمصدر . والمنقطعة تقدر وحدها(٩٦) بـ« بل » والهمزة .

والرابع : انها قد تحتاج لجواب وقد لا تحتاج ، والمنقطعة تحتاج للجواب .

والخامس : ان المتصلة اذا احتاجت الى جواب فان جوابها يكون بالتعيين . والمنقطعة انما تجاب بـ « نعم » او « لا » .

والسادس : ان المتصلة عاطفة والمنقطعة غير عاطفة .

وممن نص على هذا ابن عصفور(٣٧) في « مقربه »(٣٨) وفيه خلاف مشهور والله تعالى اعلم (٣٩) وحسبنا الله ونعم الوكيل .

وكتبه اقل عبيد الله جرما واعظمهم جرما احمد بن ابي بكر المالكي تاب الله عليه وعفا عنه وعن والديه ومشائخه وجميع المسلمين وصلى الله على سيدنا محمد واله وصحبه اجمعين بتاريخ يوم الثلاثاء خامس رجب الاصب سنة ٩٧٧ .

الهوامش :

١ ـ من المقدمة التي كتبها الدكتور صاحب ابو جناح لـ (مسائل في اعراب القران) لابن هشام . مجلة المورد : المجلد ٣ / العدد ٣ / سنة ١٩٧٤ / ص ١٤٦ .

٢ ـ المصدر السابق نقلا من (السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة) الورقة ٩٥ (مخطوط) .

٣ ـ ينظر المصدر المتقدم ص ١٤٦ ـ ١٤٧ .

١ ـ العالم العلامة والبحر الفهامة : زيادة من خ .

٢ ـ س : يصرح . تحريف .

٣ ـ خ : شذوذ .

٤ ـ من (و المعنى) الى (عمرا) ساقط من خ .

٥ ـ واحد : ساقط من س .

٦ ـ اي منع هذا التوجيه المبني على جواز استثناء شيئين باداة واحدة دون عطف .

٧ ـ خ : فيه .

٨ ـ علي بن حمزة الكسائي المتوفى سنة ١٨٣هـ .

٩ ـ جمال الدين محمد بن عبد الله بن مالك المتوفى سنة ٦٧٢هـ .

١٠ ـ س : والا . تحريف .

١١ ـ ابو علي عمر بن عبد الله الازدي الاندلسي المتوفى سنة ٦٤٥هـ .

١٢ ـ ابو موسى عيسى بن عبد العزيز الجزولي المتوفى سنة ٦٠٥هـ .

١٣ ـ في تسهيل الفوائد ص : ١٠٣ (لا يستثنى باداة واحدة دون عطف شيئان . وموهم ذلك بدل ومعمول عامل مضمر لا بدلان خلافا لقوم) .

١٤ ـ البيت لذي الرمة ديوانه ص ٧١٤ ، ومعاني القران للفراء ٢ / ١٠١ ، وشرح ابن عقيل على الالفية ١ / ٤٨٩ .

١٥ ـ رواية الديوان : اهلة اناء . والاناء : جمع نؤي ، وهو ما يحفر حول الخباء ليمنع عنه المطر . والشام : جمع شامة ، وهي العلامة .

١٦ ـ لم يعرف قائل البيت ، وهو في شرح الاشموني على الالفية ٢ / ٥٧ ، وشرح التصريح ، للازهري ١ / ٢٨٤ .

١٧ ـ الجبا : الجبان .

١٨ ـ البيت لمجنون ليلى قيس بن الملوح في ديوانه ص ٢٥٠ . وهو من شواهد شرح ابن عقيل ١ / ٤١٦ وشرح الاشموني ٢ / ٥٧ .

١٩ ـ س : لجواز . تحريف .

٢٠ ـ خ : ابقاء .

٢١ ـ ابو زكريا يحيى بن زياد الفراء المتوفى سنة ٢٠٧هـ .

٢٢ ـ ابو بكر محمد بن القاسم بن محمد بن بشار الانباري المتوفى سنة ٣٢٨هـ .

٢٣ ـ ونقل ابن مالك رايه مختصرا في شرح الكافية الشافية ٢ / ٥٩١ .

٢٤ ـ هو ابو ذؤيب الهذلي ينظر : ديوان الهذليين ١ / ٢٠ ، وشرح المفصل ، لابن يعيش ٢ / ٤١ .

٢٥ ـ من : ليست في خ .

٢٦ ـ فقط : ليست في س .

٢٧ ـ عندهم : ليست في خ .

٢٨ ـ محمد بن السري البغدادي المتوفى سنة ٣١٦هـ .

٢٩ ـ الاصول في النحو ، لابن السراج ١ / ٣٤٥ ، وارتشاق الضرب ٢ / ٣٠٩ .

٣٠ ـ ابراهيم بن السري بن سهل ابو اسحاق الزجاج المتوفى سنة ٣١١هـ . وينظر رايه في ارتشاف الضرب ٢ / ٣٠٩ .

٣١ ـ هو النابغة الجعدي . والبيت من قصيدة في خزانة الادب ، للبغدادي ١ / ٥١٤ .

٣٢ ـ خ : متاخر .

٣٣ ـ خ : الثاني . تحريف .

٣٤ ـ ابو الحسن سعيد بن مسعدة الاخفش الاوسط المتوفى سنة ٢١٥هـ .

٣٥ ـ الحسن بن احمد بن عبد الغفار المتوفى سنة ٣٧٧هـ .

٣٦ ـ ينظر راي الاخفش والفارسي في ارتشاف الضرب ٢ / ٣٠٩ .

٣٧ ـ البسملة ليست في س .

٣٨ ـ النساء ٤ / ١٧٢ : (لن يستنكف المسيح ان يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم اليه جميعا) .

٣٩ ـ جار الله محمود بن عمر الزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨هـ .

٤٠ ـ الكلام الذي نقله ابن هشام عن الزمخشري هنا فيه اختصار وتصرف يؤديان الى الاخلال في فهم المقصود . ولذلك رايت نقل كلامه من الكشاف ١ / ٥٨٨ . قال : (فان قلت : علام عطف قوله : ولا الملائكة ؟ قلت : لا يخلو اما ان يعطف على المسيح ، او على اسم يكون ، او على المستتر في « عبدا » لما فيه من معنى الوصف لدلالته على معنى العبادة ، كقولك : مررت برجل عبد ابوه ، فالعطف على « المسيح » هو الظاهر لاداء غيره الى ما فيه بعض انحراف عن الغرض ، وهو ان المسيح لا يانف ان يكون هو ولا من فوقه موصوفين بالعبودية او ان يعبد الله هو ومن فوقه . فان قلت : قد جعلت الملائكة وهم جماعة عبدا لله في هذا العطف ، فما وجهه ؟ قلت : فيه وجهان : احدهما ان يراد : ولا كل واحد من الملائكة ، او : ولا الملائكة المقربون ان يكونوا عبادا لله ، فحذف ذلك لدلالة « عبدا لله » عليه ايجازا . واما اذا عطفتهم على الضمير في « عبدا » فقد طاح هذا السؤال) .

٤١ ـ س : في فيكون . تحريف .

٤٢ ـ ثم : مكرر في س . تحريف .

٤٣ ـ سعيد بن اوس بن ثابت الانصاري المتوفى سنة ٢١٥هـ .

٤٤ ـ جواب فاذا قدر .

٤٥ ـ كتاب سيبويه ١ / ٧٥ ونسبه الى قيس بن الخطيم . والبيت بتمامه : نحن بما عندنا وانت بما عندك راض والراي مختلف ، المراد : نحن بما عندنا راضون ، فحذف خبر الاول اكتفاء بخبر الثاني . وينظر : ديوان قيس بن الخطيم ص ١٧٣ ونسب البيت لغيره يراجع تعليقات محقق الديوان ص ٥٣ و ١٧٣ .

٤٦ ـ كذا ورد التقدير . وفيه بعد ولعل صوابه : لن يستنكف المسيح ان يكون ولا الملائكة عبيدا لله .

٤٧ ـ س : وبالصلوة وسقط قبلها جملة : الحمد لله رب العالمين .

٤٨ ـ س : وبالله .

٤٩ ـ خ : وهو تحريف .

٥٠ ـ النساء ٤ / ٦٤ : (وما ارسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله ، ولو انهم اذ ظلموا انفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما) .

٥١ ـ س : العبادة تحريف .

٥٢ ـ خ : فكذلك . تحريف .

٥٣ ـ ام عمرو : زيادة لم تثبت في الاصول .

٥٤ ـ ان : ليس في س .

٥٥ ـ فهي : زيادة يقتضيها السياق .

٥٦ ـ خ : ورجح . تحريف .

٥٧ ـ خ : مصالحهم س : مقاصده والصواب ما اثبته .

٥٨ ـ الفصل الثالث : ليس في خ .

٥٩ ـ خ : التوبة تحريف .

٦٠ ـ رحمه الله : مكرر في س .

٦١ ـ في الكتاب ٣ / ١٧٠ حرف الاستفهام .

٦٢ ـ في الكتاب ٣ / ١٧٠ حرف النداء .

٦٣ ـ هذا عطف على قوله (وذلك ان ما قبل المتصلة ...) في اول الفصل الثالث .

٦٤ ـ الرعد ١٣ / ١٦ .

٦٥ ـ السجدة ٣٢ / ٢ ـ ٣ .

٦٦ ـ في س خ : ما قبلها تحريف والتصويب من الاشباه والنظائر للسيوطي ٤ / ٥ .

٦٧ ـ س : كما ها هنا .

٦٧ ـ ديوانه ص ٥٠ ، وكتاب سيبويه ٣ / ١٧٨٠ .

٦٨ ـ س : اذا ، من غير واو . تحريف .

٦٩ ـ ابو عبد الله محمد بن يحيى الخزرجي الاندلسي المتوفى سنة ٦٤٦هـ .

٧٠ ـ س : وشرط .

٧١ ـ هو حسان بن ثابت ديوانه ص ٣٧٨ ، وكتاب سيبويه ٣ / ١٨١ .

٧٢ ـ هو متمم بن نويره ينظر : مغني اللبيب ١ / ٤١ .

٧٣ ـ س : قام تحريف .

٧٤ ـ خ : في ان تحريف .

٧٥ ـ خ : بيت تحريف .

٧٦ ـ النمل ٢٧ / ٨٤ (حتى اذا جاؤوا قال اكذبتم باياتي ولم تحيطوا بها علما اماذا كنتم تعلمون) .

٧٧ ـ الملك ٦٧ / ٢٠ (امن هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن ان الكافرون الا في غرور) .

٧٨ ـ هو المنون التغلبي وقبل الشاهد قوله :

ان جـــزوا عـــامـــرا ســـوءاً بفعلهم
ام كيف يجـــزونني الســـوءى عن الحسن

العلوق الناقة التي علق قلبها بولدها ، وذلك انه ينحر ويحشى جلده تبنا ، ويجعل بين يديها لتشمه . فهي تسكن اليه مرة وتنفر عنه اخرى . ورئمان : مصدر رئمت الناقة على ولدها ، اي : عطفت عليه ، وأضافه الى الانف اشارة الى ان هذا العطف مجرد شم بالانف والقلب خال (ينظر : شرح المفصل ٤ / ١٨) .

٧٩ ـ التقدير عند ابي علي الفارسي وابن جني هو : بل اهي شاء . ينظر : المحتسب لابن جني ١ / ٩٩ ، والجنى الداني ، للمرادي ص ٢٢٦ .

٨٠ ـ في المخطوطتين : الحاجة والتصويب من الاشباه والنظائر ١ / ٧ .

٨١ ـ في تسهيل الفوائد ص ١٧٦ : (وعطفها المفرد قليل) .

٨٢ ـ في المخطوطتين : بمعنى وما اثبته من الاشباه والنظائر ١ / ٧ .

٨٣ ـ س : انه ، من غير واو .

٨٤ ـ هي : ليست في خ .

٨٥ ـ الصافات ٣٧ / ١٦ ـ ١٧ : (ااذا متنا وكنا ترابا وعظاما اانا لمبعوثون * او اباؤنا الاولون) والشاهد في الواقعة ٥٦ / ٤٧ ـ ٤٨ .

٨٦ ـ بدر الدين محمد بن يعقوب بن الياس الدمشقي المتوفى سنة ٧١٨هـ. اختصر « المصباح » لبدر الدين بن مالك ، وشرح « الالفية » لابن معطي .

٨٧ ـ من (ام هل تستوي) الى (سنهم) ساقط من س .

٨٨ ـ هو زيد الخيل الطائي والبيت في ديوانه ص ١٠٠ والمقتضب للمبرد ١ / ٤٤ ، وصدره (سائل فوارس يربوع بشدتنا) .

٨٩ ـ اي في بيت علقمة المتقدم وهو (ام هل كبير بكى ..)

٩٠ ـ التوبة ٩ / ٦ : (وان احد من المشركين استجارك فاجره حتى يسمع كلام الله ..) .

٩١ ـ المتصلة : زيادة من الاشباه والنظائر ١ / ٩ .

٩٢ ـ نحو : ليس في س .

٩٣ ـ الزخرف ٤٣ / ١٦ (ام اتخذ مما يخلق بنات واصفاكم بالبنين) .

٩٤ ـ تمام الايات (... ام عندهم الغيب فهم يكتبون • ام يريدون كيدا فالذين كفروا هم المكيدون • ام لهم اله غير الله سبحان الله عما يشركون) الطور ٥٢ / ٣٦ ـ ٤٣ .

٩٥ ـ س : مختصرا تحريف .

٩٦ ـ في المخطوطتين : بعدها والتصويب من الاشباه والنظائر ١ / ٩ وينظر : المقرب ، لابن عصفور ١ / ٢٣٠ .

٩٧ ـ ابو الحسن علي بن مؤمن الاشبيلي المتوفى سنة ٦٦٩هـ .

٩٨ ـ الاوجه المتقدمة اوجزها ابن عصفور في المقرب ١ / ٢٣٠ ـ ٢٣١ ولم يصرح بان المنقطعة هي غير عاطفة ، ولكن ابن هشام فهم ذلك من قوله : (واما « ام » فتكون متصلة ومنفصلة . فالمنفصلة يتقدمها الاستفهام والخبر ، ولا يقع بعدها الا الجملة ، وتتقدر وحدها بـ« بل » والهمزة ، وجوابها نعم او لا ... والمتصلة هي العاطفة ، وهي التي لا تتقدمها الا همزة الاستفهام لفظا او نية ولا يكون ما بعدها الا مفردا او في تقديره ، وتتقدر مع الهمزة بايهما او ايهم ، وجوابها احد الشيئين او الاشياء ، وذلك نحو قولك : اقام زيد ام عمرو ؟ التقدير : ايهما قام) .

٩٩ ـ بعدها في نسخة خ وهو اخر الرسالة : (والحمد لله وحده ، وصلى الله على من لا نبي بعده تم) .

المصادر

ـ ارتشاف الضرب من لسان العرب ، ابو حيان النحوي ، تحقيق الدكتور مصطفى احمد النحاس ، القاهرة ١٩٨٧م .

ـ الاشباه والنظائر في النحو ، السيوطي ، حيدر اباد الدكن ، ١٣٦٠هـ .

ـ الاصول في النحو ، ابن السراج ، تحقيق الدكتور عبد الحسين الفتلي ، النجف ١٩٧٣م .

ـ تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد ، ابن مالك تحقيق محمد كامل بركات ، القاهرة ١٩٦٨م .

ـ التصريح على التوضيح (بشرح العليمي) خالد الازهري ، دار احياء الكتب العربية .

ـ الجنى الداني في حروف المعاني ، المرادي ، تحقيق طه محسن ، الموصل ١٩٧٦م .

ـ خزانة الادب ولب لباب لسان العرب ، عبد القادر البغدادي ، بولاق ١٢٩٩هـ .

ـ ديوان حسان بن ثابت الانصاري (شرح عبد الرحمن البرقوقي) مصر .

ـ ديوان زيد الخيل الطائي ، صنعة الدكتور نوري حمودي القيسي ، النجف ١٩٦٨م .

ـ ديوان ذي الرمة ، مطبعة كلية كمبريج ١٩١٩م .

ـ ديوان علقمة الفحل (بشرح الاعلم الشنتمري) حققه لطفي الصقال ودرية الخطيب ، حلب ١٩٦٩م .

ـ ديوان قيس بن الخطيم ، حققه الدكتور ناصر الدين الاسد ، القاهرة ١٩٦٢م .

ـ ديوان مجنون ليلى ، جمع وتحقيق الدكتور عبد الستار احمد فراج .

ـ ديوان الهذليين ، دار الكتب المصرية ١٩٦٥م .

ـ شرح ابن عقيل على الفية ابن مالك ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد (ط ١٤) القاهرة ١٩٦٤م .

ـ شرح الاشموني على الفية ابن مالك (بحاشية الصبان) القاهرة .

ـ شرح الكافية الشافية ، ابن مالك ، تحقيق الدكتور عبد المنعم احمد هريدي الرياض ١٩٨٢م .

ـ شرح المفصل ، ابن يعيش ، ادارة الطباعة المنيرية ، مصر .

ـ الكتاب ، سيبويه ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، القاهرة ١٩٦٦م وما بعدها .

ـ الكشاف (تفسير القرآن الكريم) ، الزمخشري ، بيروت .

ـ المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والايضاح عنها ، ابن جني تحقيق علي النجدي ناصف وآخرين ، القاهرة ١٣٨٦هـ وما بعدها .

ـ مسائل في اعراب القرآن ، ابن هشام الانصاري ، تحقيق الدكتور صاحب ابو جناح ، مجلة المورد ، المجلد ٣ / العدد ٣ / سنة ١٩٧٤م .

ـ معاني القرآن ، الفراء ، تحقيق احمد يوسف نجاتي وغيره ، القاهرة ١٩٥٥م وما بعدها .

ـ مغني اللبيب عن كتب الاعاريب ، ابن هشام الانصاري ، تحقيق الدكتور مازن المبارك ومحمد علي حمد الله ، دمشق ١٩٦٤م .

ـ المقتضب ، المبرد ، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة ، القاهرة ١٣٨٥هـ .

ـ المقرب ، ابن عصفور ، تحقيق الدكتور احمد عبد الستار الجواري وعبد الله الجبوري ، بغداد ١٩٧١م .

• •

قصيدة الحرب

الدكتور محمد الزعبي
قسم اللغة العربية
جامعة اليرموك

١- النص

١- بالعُفْر دار من جميلةَ هيجت ... سوالف حب في فؤادك مُنصبِ
٢- وكنتَ إذا بانت بها غَربة النوى ... شديدَ القُوى لم تدر ما قولُ مُشغِبِ
٣- كريمةُ حُرِّ الوجه لم تدعُ هالكاً ... من القوم هُلكاً في غد غيرَ مُعقِبِ
٤- أسيلةُ مَجرى الدمع خُمصانة الحشا ... برود الثنايا ذات خَلْق مُشَرْعَبِ
٥- ترى العينُ ما تهوى وفيها زيادة ... من اليُمْن إذ تبدو وملهى لملعبِ
٦- وبيتٍ تهب الريح في حَجَراته ... بأرضٍ فضاءٍ بابه لم يُحجَّبِ
٧- سماوتُه أسمال بُرد محبَّر ... وصهوته من أتحميٍّ مُعصَّبِ
٨- وأطنابه أرسان جُرد كأنها ... صدور القنا من باديٍ ومُعقِّبِ
٩- نصبتُ على قوم تُدر رماحُهم ... عروق الأعادي من غرير وأشيبِ
١٠- وفينا ترى الطُّولى وكل سَمَيْدَعٍ ... مدرب حرب وابن كل مدربِ
١١- طويلِ نجاد السيف لم يرضَ خُطة ... من الخسف وراد إلى الموت صَقْعَبِ
١٢- تبيت كعِقبان الشُّرَيْق رجالُه ... إذا ما نَوَوا إحداث أمر معطِّبِ

* طفيل بن عوف الغنوي (ت١٩ق هـ ٦٠٤م) الديوان، تحقيق فريتس .كرنكو (F. Krenkow)، سلسلة تذكار جب، لندن ١٩٢٧م ص٢ - ١٧.

(١) العفر: رمال بالبادية ببلاد قيس (الفيروزابادي، محمد بن يعقوب (ت ٨١٧هـ ١٤١٥م: القاموس المحيط (٤م). دار العلم للجميع، بيروت (دون تاريخ)، مادة "عفر" ج٢ ص٩٢. (٢) لم تدر ما قول مشغب: أي لم تقبل فيها قول من يلهاك عنها، والشغب: الاعتراض. (٣) أي لم تندب هالكاً هلك هلكا إلا هالكا له عقب مثله. (٤) خمصانة الحشا: هيفاء، برود الثنايا: لذيذة المقبل، وهي كناية عن شبابها (انظر الديوان). مشرعب: طويل. (٥) ملهىً لملعب: فيها لمن أراد اللهو ملهى فملعب، يعني من اللعب. (٦) حجراته: نواحيه. (٧) سماوته: أعلاه. المحبر: الموشى. الأتحمي: ثوب حرير مخطط. معصب: ضرب من البرود. (٨) أطنابه: حباله. البادئ: من غزا أول غزوة. المعقب: الذي غزا غزوة بعد غزوة. (٩) "من غرير وأشيب"، بدل من "قوم" أو من "الأعادي". والغرير: الشاب الذي لم تحكمه الأمور. (١٠) السميدع: الكريم، السيد الجميل الجسيم الموطأ الأكناف، وقيل: هو الشجاع. والسميدع: الذئب، يقال له سميدع لسرعته (ابن منظور، محمد بن مكرم جمال الدين الأنصاري (ت٧١١هـ ١٣١١م): لسان العرب(٦م) دار المعارف بمصر ١٩٧٩م. مادة "سمدع" المجلد الثالث ص٢٠٩٠. (١١) صقعب: طويل (١٢) الشريق: اسم موضع، وفي رواية: الشريف. والشريف ماء لبني نمير، وعقبان الشريف سود خبيثة: (ياقوت بن عبد الله الحموي (ت٦٢٦هـ ١٢٢٩م): معجم البلدان (٥م)، دار صادر، بيروت ١٩٥٩م. المجلد الثالث ص٣٤١).

١٣- وفينـا ربـاط الخيـل كـل مطهم ... رجيل كسرحان الغضا المتـأوِّبِ
١٤- بذيق الذى يعلو على ظهر متنه ... ظلال خذاريفٍ من الشدِّ مُلهبِ
١٥- وجـرداءَ ممـراحٍ نبيلٍ حـزامُها ... طروحٍ كعود النبعـة المتنخَّـبِ
١٦- تُنيف إذا اقْوَرَّت من القَوْد وانطوت ... بهـادٍ رفيع يقهر الخيل صَلهـبِ
١٧- وعوج كأحناء السَّراء مطت بهـا ... مطـاردُ تهديـها أسنةُ قَعضَبِ
١٨- إذا قيل نَهْنِهْها وقد جَدَّ جِدُّهـا ... ترامت كخـذروف الوليد المثقَّبِ
١٩- قبائلُ من فرعَيْ غلي تواهقـت ... بهـا الخيلُ لا عُزْلٌ ولا مُتأَشِّبُ
٢٠- ألا هل أتى أهل الحجاز مُغارُنـا ... على حي وَرْدٍ وابن رَيّا المُضـرَّبِ
٢١- جلبنا من الأعراف أعراف غَمْرةٍ ... وأعراف لبنى الخيلَ يا بُعدَ مَجلبِ
٢٢- بناتِ الغراب والوجيه ولاحـقٍ ... وأعـوجَ تَنْمي نسبةَ المُتَنَسِّـبِ
٢٣- وِراداً وحُواً مشرفاً حَجَباتُهـا ... بناتِ حِصان قـد تُعولم مُنْجِـبِ
٢٤- وكمتـاً مُدَمَّـاةً كـأن متونـها ... جرى فوقها واستشعرت لونَ مُذْهَبِ

(١٣) المطهم: المحسن التام. رجيل: شديد الحافر. التأويب: الرجوع. (١٤) أي كأن راكبه في ظل خذاريف، وهي الخرارات التي يلعب بها الصبيان، واحدها خذروف. (١٥) نبيل حزامها: موضع الحزام منها نبيل، والنبيل: الأملس الشديد. الطروح: التي تطرح بقوائمها طرحاً شديداً. النبعة: شجر يتخذ منها القسي. (١٦) تنيف: تشرف. اقورت: ضمرت. القود: قيادها إلى العدو. الهادي: العنق. صلهب: طويل. يقهر: يسبق. (١٧) عوج: يعني أضلاع الفرس. الأحناء جمع حنو: كل شيء فيه اعوجاج. السراء: شجر يتخذ منها القسي. مطت بها: نهضت بها. المطارد: الرماح القصار، شبه بها أعناق الخيل. قعضب: رجل كان يعمل الأسنة في الجاهلية. (١٨) نهنهها: اكففها. ترامت: تتابعت، يعني أن الخيل قد عرفت الحرب فهي تسرع وتترامى إليها. (١٩) فرعا غلي: هما جعدة وغنم ولدا غلي بن أعصر. تواهقت: تسايرت. ولا متأشب: لا خلط فيهم من غيرهم. (٢٠) حي ورد: فخذ من طيء. ريا: اسم امرأة. المضرب: الذي ضرب وليس هو اسمه. (٢١) جلبنا: قدنا. والأعراف ها هنا أماكن معروفة مضافة إلى غمرة. وغمرة: موضع ليس جبلا بالعالية، وأعرافه أماكن منه، واحدها عرفة: (ياقوت الحموي، معجم البلدان -سبق ذكره- ج١ ص٢٢١).(٢٢) أسماء خيول مشهورة لغلي. تنمي...: تصير في هذه الفحول وتنسب إليها. (٢٣) الوراد: الخيول الحمراء التي ليست شديدة الحمرة. الحو: التي اشتدت حمرتها. الحجبة: رأس الورك الذي يلي الخاصرة، ويكون عظمها مشرفاً إذا كان الفرس عتيقاً. (٢٤) الكمت: المشربة حمرة. المدماة: الشديدة الحمرة. الاستشعار: الاستشراب.

٢٥- نزائعَ مقذوفاً على سَرَواتها ... بما لم تخالسها الغزاةُ ونُسْهَبُ
٢٦- تُباري مراخيها الزِّجاجَ كأنها ... ضِراءٌ أحسَّت نبأةً من مُكَلِّبِ
٢٧- كأن يبيس الماء فوق متونها ... أشاريرُ مِلحٍ في مَباءةِ مُجْرِبِ
٢٨- من الغزو واقورت كأن متونها ... زحاليفُ ولدانٍ عفت بعد ملعبِ
٢٩- وأذنابها وَحْفٌ كأن ذيولها ... مَجَرُّ أشاءٍ من سُميحةَ مُرطِبِ
٣٠- ونمت إلى أجوازها وتقلقلت ... قلائدُ في أعناقها لم تُقَضَّبِ
٣١- كأن سدا قطن النوادف خلفها ... إذا استودَعَتْهُ كلَّ قاعٍ ومذنبِ
٣٢- إذا هبطت سهلاً كأن غباره ... بجانبه الأقصى دواخنُ تَنْضُبِ
٣٣- كأن رعال الخيل لما تبددت ... بَوادي جرادِ الهَبْوةِ المتصوِّبِ
٣٤- وهمن الحصى حتى كأن رُضاضه ... ذُرا بَرَدٍ من وابلٍ متحلِّبِ
٣٥- يبادرن بالفرسان كلَّ ثَنيةٍ ... جُنوحاً كفُرّاط القطا المتسرِّبِ
٣٦- وعارضتُها رهواً على متتابعٍ ... شديد القُصَيْرى خارجيٍّ مُحَنَّبِ
٣٧- كأن على أعرافه ولجامه ... سنا ضَرَمٍ من عَرْفَجٍ مُتلهِّبِ

(٢٥) النزائع من الخيل: التي نزعت إلى أعراق، وقيل: التي انتزعت من أيدي الغرباء، وجلبت إلى غير بلادها. وقيل: هي المنتقذة من أيديهم (لسان العرب، -سبق ذكره-، مادة "نزع"، المجلد السادس ص٤٣٩٥). مقذوفاً على سرواتها: مرمياً على أظهرها، يريد أنها مشدودة بالسروج. تسهب: تترك وتهمل. يقول: إن السروج على أظهرها، وإن الغزاة لم تسهبها. تخالسوها: تسالبوها. (٢٦) المراخي: السهلة العدو. الزجاج: الأسنة. النبأة: الصوت. المكلب: صاحب الكلب. (٢٧) يبيس الماء: يعني العرق. الأشارير: جمع إشرارة، وهي تطع أو خصفة يجفف عليها الأقط. المباءة: مراتع الإبل. المجرب: الذي قد جربت إبله. (٢٨) اقورت: ضمرت. الزحاليف: واحدها زحلوفة، وهي آثار تزلج الصبيان. (٢٩) وحف: غزيرة مسودة. الأشاء: الفسيل. (٣٠) الأجواز: الأوساط. تقلقلت: اضطربت، لضمورها بعد أن كانت سماناً. لم تقضب: لم تقطع. (٣١) السدا: الغبار. يقول: كأنها تنشر ملاءة من الغبار. (٣٢) تنضب: شجر له دخان أبيض. (٣٣) بواديه: أوائله. الهبوة: الغبرة. يقال ما هاج جراد إلا هبت أو هاجت هبوة. (٣٤) الوهص: شدة الوطء. رضاضه: ما تكسر منه. ذرى برد: أعاليه. يعني المطر. (٣٥) الثنية: المطلع في الجبل. جنوحاً: أي جنحن إلى الأرض قليلاً. الفارط: المتقدم السابق. المتسرب: التي تمضي سربة سربة، أي قطعة قطعة. (٣٦) متتابع: مطرد الخلق. القصيرى: الأضلاع مما يلي الخاصرة. الخارجي: الذي قد خرج في غير رباط، وبرز من عرق معروف. وفي اللسان -سبق ذكره- (مادة خرج): كل ما فاق جنسه ونظائره. محنب: في ذراعه تحدب. (٣٧) الضرم: ما أسرعت فيه النار من النبت. العرفج: ضرب من الشجر.

٣٨- كأن على أعطافه ثوب مائـــح ... وإن يُلقَ كلب بين لَحْيَيْـهِ يذهـب

٣٩- إذا انصرفت من عَنَّـةٍ بعد عَنَّـة ... وجَـرْسٌ على آثارهـا كالمؤلَّـب

٤٠- نصائع أيديها السـريحَ كأنـهـا ... كلاب جميع غُرَّةَ الصيف مُهْـرَب

٤١- إذا انقلبت أدت وجوهاً كريمـة ... محببـةً أدّيـن كـل مُحبَّـب

٤٢- خدت حول أطناب البيوت وسَوَّفت ... مُراداً وإن تُقرع عصا الحرب تُركب

٤٣- فلما بدا حَـزم القنان وصـارةٌ ... ووازَنَّ من شرقـيّ سلمى بمَنكِب

٤٤- أنخنا فسُمناها النِّطافَ فشـارب ... قليلا وآبٍ صد عن كل مَشـرب

٤٥- يُرادي على فأس اللجام كأنـما ... يُـرادى بـه مَرقـاةُ جـذع مُشـذَّب

٤٦- وشد العضاريطُ الرحالَ وأسلمـت ... إلى كل مغـوار الضحى مُتلبـب

٤٧- فلم يـرها الراؤون إلا فجـاءة ... بـوادٍ تُناصيه العِضاهُ مُصـوَّب

٤٨- ضوابعُ تنوي بَيضةَ الحي بعدمـا ... أذاعـت بَريعـان السَـوام المُعـزَّب

٤٩- رأى مجتنو الكُرَّاث من رمل عالج ... رِعالا مطت من أهل سَرح وتَنضُب

٥٠- فألوت بغاياهم بنا وتباشـرت ... إلى عُرض جيش غير أن لم يُكَتَّب

٥١- فقالوا ألا ما هؤلاء وقد بـدت ... سوابقُـها في ساطـع مُتنصِّـب

(٣٨) المائح: الذي ينزل في البئر فيملأ الدلو إذا قل ماؤها. أراد أن الفرس قد عرق. (٣٩) العنة: العطفة. الجرس: الصوت. كالمؤلب: يريد كالمهيج الذي يؤلب. (٤٠) نصائع: أي تداري وتخفي. السريح: السير الذي تشد به الخدمة فوق الرسغ. والخدمة سير غليظ محكم يشد في رسغ البعير. جميع: مجتمع الخلق. غرة الصيف: أوله. أهرب: أسرع. وأهرب في الأرض: أبعد. وجاء فلان مهرباً: أي جاداً في الأمر. (٤١) إذا انقلبت: أي إذا رجعت من الغزو فجاءت بوجوه كريمة. (٤٢) خدت: من الخديان، ضرب من السير. سوفت: شمت. مراداً: حيث ترود. (٤٣) القنان وصارة: جبلان لبني أسد. سلمى: جبل لطيء. وازن: حاذين. المنكب: الجانب. (٤٤) سمناها النطاف: أعرضناها على الماء (٤٥) يرادى: يزاول ويعالج. فأس اللجام: حديدته. (٤٦) العضاريط: الأجراء والخدم. متلبب: لبس اللبة وهي الدرع. (٤٧) تناصيه: تدانيه. العضاه: ما كان له شوك من الشجر. مصوب: منصب. صفة للوادي. (٤٨) ضوابع: تهوي بأيديها إلى أعضادها. بيضة الحي: معظمهم. أذاعت: فرقت. ريعان كل شيء: أوله. السوام: ما يسرح من إبل أو بقر أو غنم. (٤٩) مجتنو الكراث: الذين يجتنون الكراث البري، وهو عشب معمر ذو بصلة أرضية، وله رائحة قوية (د. إبراهيم أنيس وآخرون –مجمع اللغة العربية–: المعجم الوسيط (جزءان)، دار الفكر (دون مكان النشر ودون تاريخه) مادة (كرث) ج٢ ص٧٨٢). (٥٠) ألوت: أشارت. البغايا: قوم أرسلوا يتحسسون الخبر. والبغايا أيضاً: الإماء يقول: رأونا فتباشروا بنا حسبونا عيرا تحمل البر. عرض جيش: ناحيته. لم يكتب: لم يجمع، هو مبثوث منتشر. (٥١) ساطع: غبار قد ارتفع. متنصب: منتصب.

٥٢- فقال بصيرٌ يَستبين رِعالَهـــا ... هُـمُ والإلـهِ من تخافين فاذهبـي

٥٣- على كل مُنشَقٍّ نَساها طِمِرَّةٍ ... ومُنجَرِدٍ كأنـه تيـس حُلَّـب

٥٤- يُذَدن ذِيادَ الخامسات وقد بدا ... ثرى الماء من أعطافها المُتَحَلِّب

٥٥- وقيلَ اقْدُمي واقدم وأخِّ وأجْري ... وَهَلْ وَهَلا واضرحْ وَقادِعُها هُب

٥٦- فما بَرِحوا حتى رأوا في ديارهم ... لـواءً كظـل الطائـر المتقلِّـب

٥٧- رمت عن قِسي الماسِخِيِّ رجالُنـا ... بأجودِ ما يُبتاع من نبـل يثـرب

٥٨- كأن عراقيب القطا أُطُرٌ لهـا ... حديثٌ نَواحيها بوَقْعٍ وصُلَّب

٥٩- كُسين ظُهارَ الريش من كل ناهض ... إلى وَكْره وكـل جَـوْن مُقَشَّب

٦٠- فلما تلى ما في الكنائن ضاربوا ... على القَرع من جلد الهجان المُجَوَّب

٦١- فذوقـوا كما ذقنا غداة مُحجِّر ... من الغيظ في أجوافنا والتَّحَوُّب

٦٢- أبأنا بقتلانا من القـوم مثلهـم ... وما لا يُعَدُّ من أسير مُكَلَّب

٦٣- تُخَوِّي صدورَ المشرَفية منهُـمُ ... وكلَّ شُراعيٍّ من الهند شَرْعَب

---

(٥٢) الرعال: القطع من الخيل. (٥٣) منشق نساها: متفلق لحم فخذيها عن نساها، والنسا: عرق. الطمرة: الطويلة المشرفة. المنجرد: القصير الشعر. التيس: الذكر من الماعز والظباء والوعول، وتيس الحلب يأكل الخضرة فإذا تربلت الأرض أكل الحلب فترى أنه بهذا أقوى وأسرع. (٥٤) الخامسات: الإبل التي ترد الماء لخمس. ثرى الماء: يعني به العرق. (٥٥) هذا البيت كله زجر للخيل، وقادعها: أشدها قدعاً وكبحاً. (٥٦) يشبه رفرفة العلم برفرفة جناحي الطائر. (٥٧) الماسخي: رجل نسبت إليه القسي. (٥٨) عراقيب القطا: العقب التي تكون على فوق السهم لئلا ينفتق، والعقب: العصب الذي تعمل منه الأوتار (المعجم الوسيط -سبق ذكره- مادة "عقب"، ج٢ ص٦١٢). وإطار السهم: عصبة تلوى على موضع الوتر منه (المرجع السابق، مادة "أطر" ج١ ص٢٠). الوقع: المطرقة. والصلب: المسن، وبواسطتهما تغدو الأسهم جديدة. (٥٩) الظهار من الريش: الشيء القصير والطويل يقال له البطنان. الناهض: فرخ النسر. الجون: المسن. مقشب: قد قشب بسم غلث له به طعامه. (٦٠) القرع: الترس. الهجان: الخيار من كل شيء. المجوب: الذي قد جعل جوباً، والجوب: الترس. (٦١) التحوب: التوجع. محجر (بفتح الجيم المشددة وكسرها): يوم لطيء على غني. ويذكر ياقوت في (معجم البلدان -سبق ذكره- (٦٠/٥) ثمانية مواضع اسمها محجر، من بينها جبل في ديار غني. ولعله الجبل الذي سمي هذا اليوم باسمه، لأن طيئاً حين غزت بني عامر، كانت غني تنزل في ديار عامر موالي لنمير، كما جاء في الأغاني: (الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين (ت٣٥٦هـ ٩٦٧م): الأغاني (٢٤جزءاً). دار الكتب المصرية، ١٩٣٥، ج٨ ص٢٢٣. (٦٢) أبأنا بقتلانا: جعلنا بواء بهم، والبواء أن يقتل بالرجل قاتله. مكلب: مكبل. (٦٣) تخوي: تأكل. شراعي: طويل ويقال: المتقد المصقول، يريد سيفاً. شرعب: طويل.

٦٤- بضرب يزيل الهام عن سَكِناتِـها   وينقع من هام الرجال بِمَشْـــرب
٦٥- فبالقتل قتلٌ والسـوامُ بمثلـــه   وبالشَّل شلٌّ الغائط المُتَصَـــوّب
٦٦- وجمّعن خَيْطاً من رِعاءٍ أفَأْنَهُـم   وأسفطنَ من أفنائهم كل مِحلـــب
٦٧- فرُحن يُبارين النِّهـابَ عشيـــة   مقلّـدةً أرسـانَها غيرَ خُيَّـــب
٦٨- مُعَرَّقَةُ الألْحِي تلوح متونُـــها   تثير القطافي مَنقل بعد مَقــرب
٦٩- لأيامها قيدت وأيامُـــها جـــرت   لغُنم ولم تؤخذ بأرض وتُغصــــب
٧٠- كأن خيال السَّخل في كل منزل   يطأن به الأسلاءُ أطلاءُ طُحلُـب
٧١- طوامحٌ بالطرف الظِرابَ إذا بدت   محجلةَ الأيدي دمـاً بالمُخَضَّـــب
٧٢- وللخيل أيامٌ فمن يصطبــرْ لـها   ويعرفْ لها أيامَها الخيرَ تُعقِـــب
٧٣- وقد كان حيّانا عدوين في الذي   خلا فعلى ما كان في الدهر فارتَب
٧٤- إلى اليوم لم نُحدث إليكم وسيلةً   ولم تجدوها عندنا في التَّنَسُّـــب
٧٥- جَزَيناهُـمُ أمسِ القطيمـةَ إننـــا   متى ما تكن منا الوسيقةُ نَطلـــب
٧٦- فأقلعت الأيامُ عنا ذؤابـــةً   بموقعنا في مَحرِبٍ بعد مَحـــرب
٧٧- ولم يجد الأقوامُ فينا مَسَبّـــةً   إذا استُدبرت أيامُنـا بالتعقُّـــب

(٦٤) سكناتها: مواضعها. والنقوع: قطع العطش، يقال: شربت فنقعت عنه، أي قطع عطشي. (٦٥) الشل: يقول : شلونا غائط إبلنا فشللناهم مثل ذلك. والشل: الطرد. المتصوب: المقتوس. (٦٦) الخيطان: الجماعة. أفأنهم: أصبتهم. المحلب: العلبة. (٦٧) النهاب: ما انتهبوه. مقلدة أرسانها: يقول: لما رجعت نزعت عنها اللجم وقلدت الأرسان. (٦٨) معرقة الألحي: قليلة لحم الوجوه. تلوح متونها: ليس على متونها لحم فكأن موضع اللحم يلوح. أراد أنها ملحوبة الظهور. لأن الفرس إذا كثر لحم متنه فهو هجين. المنقل: الطريق في الجبل. المقرب: الطريق يختصر لقربه. (٦٩) لأيامها قيدت: أي قيدت وأصلحت لأيام يرجى فيها غنمها. (٧٠) السخل: جمع سخلة، الذكر والأنثى من ولد الضأن والمعز ساعة يولد. الأسل: نبات ينبت في الماء وفي الأرض الرطبة. وفي الديوان "يطأن به الأسلاء" ويبدو أن الصحيح ما أثبته وكما أورده داود غطاشة بعد رجوعه إلى المخطوط. راجع بحثه:(حركة الشعر في قبيلة غني- سبق ذكره- ص٣٤٧). (٧١) الظراب: الجبال. المخضب: موضع الخضاب. (٧٢) يريد أن من يعرف للخيل أيامها تعقبه الخير. (٧٣) فارتب: أي فانتبه أيها الأمر وارتبي أيتها الحالة. (٧٤) الوسيلة: القربة، يقول: لم تجدوا بيننا وبينكم مودة ولا نسبة. (٧٥) القطيمة: ما قطمهم وحرمهم ما أرادوه من الوقائع. الوسيقة: الطريدة. (٧٦) يقول: نحن ذؤابة قومنا أي أعلاهم شرفاً ببلائنا ووقائعنا. (٧٧) استدبرت أيامنا: نظر في أدبارها. بالتعقب: بالتدبر إذا نظر في عاقبتنا.

٢- الدراسة

مقدمـــــة:

. نتناول هذه القصيدة غارة حربية تناولا مسهباً يتتبعها من بدايتها إلى نهايتها في عرض قصصي منظم استغرق اثنين وخمسين بيتاً من مجموع أبياتها. في حين لا نجد أياً من الشعراء الجاهليين يعكف على تصوير غارة واحدة تصويراً شاملا ودقيقاً على هذا النحو؛ وإنما حظ الغارة عند أحدهم أبيات قلائل قد ينتقل بعدها إلى ذكر غيرها من غارات قومه، ثم إلى حديث حماسي عام يمجد فيه نفسه وقبيلته. ومن هذه الناحية يمكن أن نعد هذه القصيدة قصيدة فريدة بين قصائد الحرب في الشعر الجاهلي. فإذا أضفنا إلى ذلك عدم حظوتها بما تستحقه من الدراسة - على ما للقصائد الحربية من أهمية في الاقتراب من طبيعة الإنسان الجاهلي، ومنظومة القيم التي تحكمه. والتي ربما تشكلت أساسا تحت ظلال السيوف -. وإذا أخذنا بالاعتبار أيضا منزلة صاحبها الغنية وأثره فيمن جاء بعده، وجدنا أنها قصيدة تستحق العناية والدرس.

ولعل فرادة القصيدة - على النحو الذي أشرت إليه - تشكل إغراء كافيا للبحث عن أسبابه، وتلمس دوافعه لدى الشاعر. ولا شك في أن المناسبة المباشرة لكتابة القصيدة، إذا صحت أن تكون مسوغ وجود لها، فإنها لا تصح أن تكون مسوغاً ومفسراً معقولا للصورة التي اتخذتها. وقد يبدو التساؤل حول العوامل الكامنة وراء إنتاج هذه القصيدة على هذا النحو لا مبرر له، أو عديم الفائدة، غير أنني أرى أن محاولة الإجابة عنه تخدم القصيدة وتضيء بعض جوانبها وتيسر الإحساس بها.

أما مناسبة القصيدة فتتمثل في انتصار قبيلة الشاعر (قبيلة غني) على قبيلة طيء، وثأرها لوقيعة (محجر) التي كانت لطيء على غني(١). وهي واحدة من تلك المناسبات الشعرية المماثلة التي تركت صداها في مساحة عريضة جداً من ديوان الشعر الجاهلي، ولكن دون أن تترك عملا شعرياً له مواصفات هذه القصيدة.

وربما استمدت القصيدة تفردها هذا الذي تحدثت عنه من ثلاثة عوامل:

١- طفيل الغنوي؛ الديوان (سبق ذكره في هوامش النص)، ص١١، وانظر: الأصفهاني؛ الأغاني (٤٢م)، تحقيق علي محمد البجاوي، الهيئة المصرية العامة للتأليـــف والنشـــــر، ١٣٨٩هـ - ١٩٧٠م، ج١٧ ص٢٥٦ - ٢٥٧ .

أما الأول فعامل سياسي: وهو مستمد من واقع قبيلة غني(٢) التي كانت تسكن في الشمال الغربي من نجد، إلى الجنوب الشرقي من جبلي طيء، قريباً من مدينة (حائل) اليوم(٣)، في تماس حدودي مع قبائل طيء وأسد وتميم وعامر(٤)، وكانت قبيلة صغيرة، فنهكتها الحروب، ووجدت نفسها مضطرة إلى الدخول في أحلاف تضمن لها شيئاً من الحماية، غير أنها لاقت على أيدي حلفائها أنفسهم من الاستعلاء حيناً والتخلي عنها في حروبها حيناً آخر، شيئاً غير قليل(٥)، رغم إخلاصها لهم ووقوفها معهم في حروبهم(٦)

ففي وقيعة محجَّر مثلا تترك غني وحدها تواجه طيئاً بعد أن ولى بنو عامر الأدبار(٧)، كما أن غنياً تضطلع وحدها بالغارة الثأرية على طيء، التي سجلتها هذه القصيدة(٨)، ويفسر الجاحظ هذه المعاملة غير المنصفة لغني من حلفائها، وذلك في ثنايا حديثه عن الأحلاف بين العرب، بأن حلف غني مع غيرها لم يقم على التكافؤ في

٢- نسبة إلى غني بن أعصر بن سعد بن قيس بن عيلان، انظر: الأصفهاني: الأغاني تحقيق عبد السلام هارون، دار الكتب المصرية، ط١، القاهرة ١٣٧٩هـ - ١٩٥٩، ج١٥ ص ٣٤٩).

٣- طفيل الغنوي: الديوان، المقدمة الإنجليزية التي وضعها "كرنكو" محقق الديوان، ص١٤.

٤- داود ابراهيم علي غطاشة: حركة الشعر في قبيلة غني حتى نهاية العصر الأموي، إشراف د. هاشم ياغي، و د.عبد الرحمن ياغي، قدمت هذه الرسالة استكمالا لمتطلبات درجة الماجستير في الأدب العربي في كلية الآداب، الجامعة الأردنية ١٩٧٥ - ١٩٧٦، ص٨٨.

٥- انظر مثلا على ذلك في (الأصفهاني: الأغاني ج١٥ ص٣٥٤).

٦- كوقوفها مع حلفائهم بني جعفر في يوم حرس وإنقاذهم من هزيمة محققة على يدي تميم، انظر في ذلك: (طفيل الغنوي: الديوان ص٣٧) وانظر: (البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي (ت٤٨٧هـ - ١٠٩٤م): سمط اللآلي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة ١٩٣٦م، ج٢ ص ٧١٤.

ومن ذلك أيضاً وقوفها مع آخر حلفائهم بني أبي بكر بن كلاب حين غزتهم فزارة فأوقعت بهم موقعة عظيمة، ثم أدركتهم غني فاستنقذتهم، انظر في ذلك: (طفيل الغنوي، الديوان ص١٧) وانظر: (الأصفهاني: الأغاني ج١٥ ص ٣٥٤).

٧- الأصفهاني: الأغاني (سبق ذكره) ج١٧ ص٢٥٦ - ٢٥٧.

٨- يذكر الأصفهاني (المرجع السابق ص٢٥٧) أن غنيا غزت طيئاً مع لف من بني عامر، في حين أن طفيلا في قصيدته هذه يذكر صراحة أن غنيا اضطلعت وحدها بهذا العبء ولم يكن فيهم أخلاط من غيرهم (البيت١٩)، وربما كان تفسير ذلك أن مشاركة بني عامر لغني كانت مشاركة رمزية لم تكن موضع رضى طفيل وقبيلته.

القوة، يقول: "والحلف ضربان، فأحدهما كانضمام عبس وضبة، وأسد وغطفان. فإن هؤلاء لم ينهكوا كما نهكت باهلة وغني، لحاجة القوم إليهم"(٩).

لذلك كله أراد الشاعر أن يستقل انتصار قبيلته أيما استقلال. وقد أراد لهذا النصر أن يذيع خبره، فيرتفع شأن قبيلته، وبتعزز موقفها بين القبائل الأخرى(١٠). والقصيدة مثلما هي رسالة إعلامية فهي رسالة تحذير إلى جميع القبائل الطامعة بالعدوان على غني، وكأنما الشاعر يخلق بلغة السياسة اليوم قوة ردع كفيلة بضمان الحماية والسلام لقبيلته، وهو يعلم ما للكلمة من تأثير بالغ في نفوس العرب، وهو إذ يصنع ذلك، يشد من عضد أبناء قبيلته ويلهب فيهم معاني العزة والحماسة.

أما الثاني فعامل نفسي: ومن السهل أن نضع أيدينا على جملة من الدوافع النفسية وراء ولادة هذا العمل. غير أن العامل النفسي الأهم وراء هذا التسجيل الدقيق، والتصوير المطول لأحداث الغارة، هو - كما أعتقد - نتاج الرغبة اللاشعورية في التعويض عن الشعور بالنقص.

لقد كانت غني لقلة رجالها قبيلة مضطهدة مظلومة نهكتها الحروب، وطمعت فيها القبائل، وأكل حقوقها الأحلاف(١١) ولم تشفع لها مآثرها الكثيرة التي تثير الإعجاب في ألا تكون قبيلة منكودة قليلة الحظ في الجاهلية والإسلام. ويبدو أن الجاحظ نفسه قد عجب من ذلك حين يقول في عبارة غنية الدلالة: "فمن القبائل المتقادمة الميلاد التي في شطرها خير كثير، وفي الشطر الآخر شرف وضعة، مثل قبائل غطفان وقيس عيلان، ومثل فزارة ومرة... وثعلبة، ومثل عبس وعبد الله بن غطفان، ثم غني وباهلة، واليعسوب والطفاوة: فالشرف والخطر في عبس وذبيان، والمبتلى والملقى والمحروم والمظلوم، مثل باهلة وغني، مما لقيت من صوائب سهام الشعراء، وحتى كأنهم آلة لمدارج الأقدام، بنكب

٩- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت٢٥٥هـ ٨٦٩م): الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، دار إحياء التراث العربي، بيروت (دون تاريخ) ج١ ص٣٦٢. ويشير في هذا المرجع (ص٣٥٨) إلى الظلم الذي حاق بغني على أيدي حلفائها بقوله: "... ولا سيما إذا جاوروا من يأكلهم، وحالفوا من لا ينصفهم، كما لقيت غني أو باهلة".

١٠- وقد سجل طفيل هذا النصر في قصيدتين أخريين في ديوانه ص١٧ وص٥٧ مما يكشف أيضاً عن أهمية هذا النصر بالنسبة لغني.

١١- انظر الهامش السابق رقم (٩).

فيها كل ساع، ويعثر بها كل ماش، وربما ذكروا اليعسوب والطفاوة ... ببعض الذكر ... وجل معظم البلاء لم يقع إلا بغني وباهلة، وهم أرفع من هؤلاء وأكثر فضولا ومناقب، حتى صار من لا خير فيه، ولا شر عنده، أحسن حالا ممن فيه الخير الكثير وبعض الشر "(١٢).

ومن المواقف المهينة التي واجهتها غني أن حلفاءهم بني جعفر حين قتل غنوي ابن عروة الرحال من بني جعفر، يرفضون -استعلاء- أخذ دية جعفري من غنوي(١٣)، ويصرون على قتالهم، وفي وسعنا أن نتصور طفيلا والغضب يحرق صدره من أجل ذلك دون أن يقوى على غير العتاب المؤثر وابتعاث الذكريات الطيبة في قوله (١٤):

بني جعفر لا تكفروا حسن سعينا	وأثنوا بحسن القول في كل محفل
ولا تكفروا في النائبات بلاءنـــا	إذا مسكم منها العـــدو بكلكـــل

إذن لا غرو أن تكون الرغبة اللاشعوبة بالتعويض عن النقص الذي يحسه طفيل وتحسه قبيلته في مجتمع لا يدين إلا للقوة – أحد بواعث التركيز على هذه الغارة وإبرازها على هذا النحو في قصيدته.

ولكن ليس يعني ذلك أبداً عدم اعتزاز طفيل بقبيلته، فقد كان كذلك، وكان شعراء غني وأبناؤها كذلك في الجاهلية والإسلام(١٥)، ولا ننسى ما تذكره بعض كتب الأدب والأنساب والتاريخ من فضائل غني(١٦)، غير أن هذا الإحساس بالاعتزاز بالقبيلة، كان يوازيه – دون أن ينفيه – إحساس بالظلم وبعض الهوان وبشيء من الشعور بالنقص

١٢- الجاحظ: الحيوان ج١ ص ٢٥٩.

١٣- طفيل الغنوي: الديوان ص٣٤.

١٤- المرجع السابق ص٣٧.

١٥- المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد (ت٢٨٦هـ ٨٩٩م): الكامل، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، والسيد شحاته، دار نهضة مصر، (دون تاريخ)، ج٢ ص٢٠٥.

١٦- انظر طرفاً من هذه المآثر في المراجع التالية:

ابن حبيب، أبو جعفر محمد (ت٢٤٥هـ ٨٦٠م): المحبر، تحقيق إيلزه ليختن شتيتر، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت (دون تاريخ) ص٢٣٤/ وانظر: لبيد بن ربيعة العامري (ت٤١هـ ٦٦١م): الديوان، تحقيق الدكتور إحسان عباس، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت ١٩٦٢، ص٢١/ وانظر: ابن رشيق القيرواني، أبو علي الحسن (ت٤٦٣هـ ١٠٧١م): العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل ط٤، بيروت١٩٧٢م، ج٢ ص١٩٢.

على النحو الذي أوضحت.

أما الثالث فهو العامل الفني، ولعله أقوى هذه العوامل وأوجهها؛ فطفيل يقف على رأس مدرسة فنية -مدرسة الصنعة أو مدرسة عبيد الشعر- أخذت، تعنى بأسلوبها الشعري عناية واضحة، وغدا الفن الشعري واحداً من أبرز غايات القول عند شعرائها. وقد انتبه إلى ذلك القدماء وأشاروا إليه(١٧). ووقف عنده المحدثون وفصلوا فيه القول(١٨)، ولا شك أن طفيلا - وهو أقدم من نعرف من أصحاب هذا الاتجاه -(١٩). كان يدرك في نفسه هذه الريادة الشعرية التي حاولت أن تنحرف قليلا أو كثيراً بمجرى التيار الشعري السائد. وكشأن الرواد في كل اتجاه جديد ألقى طفيل بكل ثقله الفني ليؤصل لهذا الاتجاه ويسامي الاتجاه السائد.

لذلك فإنني بهذا العامل الفني على وجه الخصوص أفسر هذه الإطالة المتمثلة للقصيدة، التي تحتاج من الشاعر إلى كثير من الصبر والكد ونضح الجبين، والتي تجاوز مجرد التعبير عن العواطف الذاتية والقبلية أو المعاني الاجتماعية والسياسية، التي يمكن أن تستوعبها قصيدة أقصر من هذه بكثير، إلى التعبير عن عاطفة فنية -إذا جاز التعبير- تدفع الشاعر إلى إبداع قصيدة مميزة ذات بناء باذخ، لا نجد لها نظيراً في عصره.

وربما أعان طفيلا على ذلك أنه لم يكد يجتمع لأحد من شعراء عصره ما اجتمع له في وقت واحد، من الفحولة، والمذهب الشعري القائم على الصنعة، والفروسية، والتفوق في وصف الخيل - وهو أحد أشهر ثلاثة تفوقوا في وصفها(٢٠)- هذا التفوق الذي مكن الشاعر حقيقة من إطالة القصيدة، إذ احتلت الخيل فيها حيزاً ضخماً كما سنرى.

١٧- انظر مثلا، الجاحظ، البيان والتبيين (جزءان)، تحقيق عبد السلام هارون، مؤسسة الخانجي، ط٣ القاهرة ج٢ ص١٣ وص٢١.

١٨- انظر مثلا، الدكتور طه حسين (ت ١٣٩٣هـ ١٩٧٣م): في الأدب الجاهلي، دار المعارف، ط١٠، مصر، ص٢٦٧ وما بعدها./ وانظر الدكتور سيد حنفي، الشعر الجاهلي مراحله واتجاهاته الفنية، الهيئة المصرية العامة ١٩٧١م، ص١٠٢ وما بعدها.

١٩- الدكتور يوسف خليف، دراسات في الشعر الجاهلي، مكتبة غريب، مصر ١٩٨١م، ص٨٤ وما بعدها.

٢٠- الأصفهاني، الأغاني ج١٥ ص٣٥٠، والشاعران الآخران هما أبو دؤاد الإيادي والنابغة الجعدي.

وأخيراً، فلقد تضافرت العوامل الثلاثة السابقة، السياسية والنفسية والفنية، وعملت معاً على خلق مناخ التجربة الذي نمخض عنه هذا العمل المتميز، خاصة وأنها وافقت شخصية متميزة، يجب أن ينظر إليها هي الأخرى متمثلة في ثلاثة أبعاد: بعد الشاعر الفنان، وبعد الفارس، وبعد السيد الزعيم(٢١).

التحليل

يستهل الشاعر قصيدته بمفتتح نسيبي (الأبيات ١-٥) ثم ينتقل إلى تصوير البيت الذي ضربه على قومه الشجعان (الأبيات ٦-٩) ثم يتطور المقطع إلى الحديث عن فرسان قومه (الأبيات ١٠-١٢) وخيلهم (الأبيات ١٣-١٨) منتقلا بعد ذلك إلى تصوير الرحلة الطويلة إلى أرض المعركة (الأبيات ٢٢-٥٦) فالمعركة (الأبيات ٥٧-٦٦) ثم إلى تصوير رحلة العودة إلى الديار (الأبيات ٦٧-٧٢) خاتماً قصيدته بالحديث عن العلاقة العدائية القديمة بين قومه وقبيلة طي، وبالفخر بقبيلته وانتصاراتها الدائمة (الأبيات ٧٣-٧٧).

من هذا التخطيط السريع نتبين أن موضوع الغارة على قبيلة طي يشكل الجزء الأكبر من جسم القصيدة، إذ يزيد قليلا على ضعف عدد أبياتها الأخرى. وهذا ما يسوغ تقسيمها شكليا إلى ثلاثة أقسام كبرى:

القسم الأول: ما قبل موضوع الغارة (المقدمة) ويستغرق الأبيات ١-١٩ ويساوي ١٩ بيتا

القسم الثاني: الغارة (الموضوع) ويمتد من البيت ٢٠ - البيت ٧٢ ويساوي ٥٣ بيتا

القسم الثالث: ما بعد موضوع الغارة (الخاتمة) ويمتد من البيت ٧٣- البيت ٧٧ ويساوي (٥) أبيات

وسأعرض الآن للقصيدة وفق التقسيم الثلاثي السابق، بما يمهد السبيل أمام غاية البحث التي تتركز حول الكشف عن وحدة القصيدة وبنائها ورؤيتها الفنية:

٢١- في العقد الفريد ٣٥٢/٢ أن طفيلا قد ربع غنيا، أي أخذ ربع أموالهم، وهذا لا يكون إلا للسيد، (ابن عبد ربه، أحمد بن محمد (ت٣٢٨هـ ٩٤٠م): العقد الفريد (م٤) شرحه وصححه أحمد أمين وآخرون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٣٦١هـ ١٩٤٢م، ج٢ ص ٣٥٢).

القسم الأول (المفتتح، البيت، الفرسان، الخيل)

المفتتح (الأبيات ١-٥):

لعل مفتتح القصيدة هو المقطع الأكثر احتياجاً للتفسير، وبيان انتمائه الأصيل للنص، وكذلك هو شأن المفتتح في القصيدة الجاهلية عموماً، إذ ما هي الصلة هنا بين موضوع القصيدة؛ وهذا الحديث عن جميلة ودارها، وارتحالها عنها، وشوق الشاعر إليها، وإشادته بأوصافها؟ وإذا سلمنا بأن المفتتح بأنواعه المختلفة في القصائد الجاهلية؛ كان تقليداً فنياً متبعاً؛ وسمة من سمات النموذج الفني الكامل للقصيدة الجاهلية، وإذا افترضنا أن طفيلا بالرغم من انشغاله بنصر قبيلته، ومن فورة عاطفته بعد تحقيق النصر - أراد بهذا المفتتح أن يوفر لنموذجه كماله الفني - وخاصة أنه ينتمي إلى مدرسة الصنعة - فهل استطاع تكييف مفتتحه بما ينسجم مع موضوعه، دون أن يخل ببناء القصيدة، ووحدتها الموضوعية والنفسية؟

تبدو "جميلة" في هذا المفتتح الصورة المحورية التي تدور حولها وتتصل بها جميع عناصره الأخرى . كما رسم الشاعر لها صورة مثالية من خلال ثلاثة أبعاد:

الأول: بعد الجمال الجسدي الذي جعله يشبع مختلف حواس الرائي، كما عمقه من خلال التعبير الكنائي (برود الثنايا) إشارة إلى شبابها وحداثة سنها، ثم اتسع بدائرته فجعله شاملا غير محدود (ترى العين ما تهوى)، والثاني: بعد الجمال النفسي والخلقي، ونطالعه في البيت الثالث (وسنعود إليه)، وفي قوله (وملهى لملعب) الذي يضفي عليها صفات الأنوثة والمرح والحيوية وجاذبية الروح، والثالث: بعد أسطوري ميتافيزيقي، وذلك حين يجعلها مصدراً للخير والبركة وحسن الطالع (وفيها زيادة من اليمن) كأنما يصطنع لها نسباً مع السماء، ويجعل منها ما يشبه التعويذة التي تحمي من ينتسب إليها من عوادي الزمن.

غير أن المفتاح الحقيقي إلى فهم صورة جميلة يكمن في البيت الثالث الذي يتحدث عن عزة جميلة وكرامتها التي تأبى لها أن تندب من قومها هالكاً لم يترك من خلفه

عقباً يأخذون مكانه في قبيلته، ويسدون ثغرة تركها بموته(٢٢). وعبر عن كرامة نفسها أيضاً بكرامة وجهها الذي تجله عما قد يصحب الندب من بكاء وشحوب على رونق هذه صفته.

ويبدو هذا المعنى غريباً غير مألوف في مطالع القصائد الجاهلية. كما أن الشاعر يفاجئنا به بعد بيتين حسب من مطلع قصيدته، ثم يجعله على رأس صفات صاحبته. ومن الغريب حقاً أن ينتقل الشاعر سريعاً من الحديث عن مشاعره وعلاقته الخاصة بجميلة، إلى الحديث عن قومها، وعلاقتها بهم، وموقفها من رجالهم.

إن جميلة – كما يصورها الشاعر – شديدة الانتماء إلى قبيلتها، والالتزام بقضاياها، وهي العين الساهرة على مصالحها، والحافز الروحي لأبنائها، وما كان أقسى على العربي أن يموت فلا تندبه النوادب، ولا تبكيه النساء(٢٣). وهي إلى ذلك كله تتمتع بجمال خلاب وأنوثة آسرة، لم تحل دون موقفها البطولي الملتزم بقضايا قبيلتها، تماماً كما أن وعيها والتزامها بقبيلتها، وندبها وبكاءها من مات من أبنائها، لم يجر على جمالها وأنوثتها (أسيلة مجرى الدمع...البيت، ثم البيت الذي يليه).

ربما نستخلص من ذلك أن طفيلا – وهو السيد الفارس – لا يمنح قلبه إلا لامرأة من هذا النوع المتفاني في قبيلته، بل ما أشد شبه جميلة في جوهر موقفها من قبيلتها، بالشاعر نفسه في موقفه من قبيلته، مع اختلاف دور كل منهما، ومعنى ذلك أن تعلق الشاعر بجميلة ضرب من ضروب تعلقه بقبيلته، وثمرة من ثمراتها، وكأن انتماءه القوي إلى قبيلته وحبه لها، هو الذي يوجه مشاعره الخاصة، ويلون مزاجه العاطفي، ويحكم حركة ذاته في أخص خصوصياتها، وهنا يزول التعارض الشكلي في القصيدة بين موقفين، يبدو أولهما ذاتياً خالصاً لا علاقة له بالموقف الجماعي الثاني في القصيدة.

٢٢- قد يحمل البيت في طياته امتداحاً لقبيلة جميلة بالإشارة إلى كثرة رجالها وساداتها، فإذا مات أحدهم كان من يخلفه من رجال القبيلة؛ فمعنى أنها لم تدع هالكاً غير معقب، أن كل الهالكين من رجالات قبيلتها معقبون، وبالتالي فهم جميعاً يستحقون الندب. ولكن مثل هذا المعنى غير المباشر للبيت، لا ينفي دلالة التعبير المباشر، وإيحاءات الطريقة التي صيغ بها، وسواء أكان المقصود هو المعنى المباشر الذي يمدح جميلة بالدرجة الأولى، أم هو المعنى غير المباشر الذي يمدح القبيلة بالدرجة الأولى، فثمة قضية جوهرية في الحالين، هي التركيز على الإنجاب، وإبراز أهمية العنصر العددي في حياة القبيلة.

٢٣- يقول طرفة في معلقته:

فإن مت فانعيني بما أنا أهله ... وشقي علي الجيب يا ابنة معبد

ولا تجعليني كامرئ ليس همه ... كهمي ولا يغني غنائي ومشهدي

طرفة بن العبد، عمرو بن عبد البكري (ت٦٠ ق هـ ٥٦٤م): الديوان، تحقيق: درية الخطيب ولطفي الصقال، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق ١٩٧٥م، ص٤٦.

ولعل الشاعر بذلك يرسم من شخصه المثل الأعلى لرجال قبيلته، كما يرسم من شخص جميلة المثل الأعلى لنسائها، لافتاً إياهن إلى واجبات المرأة نحو قومها، ودورها في السلم والحرب، وفي تحقيق النصر على الأعداء. وقد يعزز ذلك، هذا الشبهُ الذي نلمسه بين جميلة الميمونة جالبة الخير لذويها، والخيل التي ربط بينها وبين الخير في القسم الأخير من القصيدة (البيت٧٢)، كما أن امتداح الإنجاب والتكاثر، والتنشئة الحربية للأبناء، لتضافر الجهود وتتواصل حلقات العزة والسؤدد بتواصل حلقات الأجيال - يتردد صداه في جنبات القصيدة في أكثر من موضع، وهي المعاني نفسها التي ينسبها الشاعر إلى قبيلته هو.

ويتجلى الالتحام بين هذا المقطع وسائر القصيدة - إضافة إلى ما ذكرت - في مجموعة من الظواهر الأسلوبية المتعددة، منها: استخدامه في هذا المفتتح لأسلوب التجريد (فؤادك، وكنتَ، لم تدر) بدلا من (فؤادي، وكنتُ، لم أدر) وهي من وزنها، بما يخفف من بروز الأنا، ويكسب التعبير - ولو شكلياً - صيغة الخطاب الذي يسمح بتعميم التجربة، وإشراك الآخرين فيها. إنه بهذه الصيغة يتوسط بين (الأنا) وال(نحن) في حركة متجهة أبداً من الذات إلى الآخر. وفي البيت الرابع أيضاً يفلت الشاعر من خصوصية التجربة والحكم الجمالي الفردي، أو يتسع بإطارهما ليشملا الآخرين: (ترى العين) كل عين. (إذ تبدو) له كما للآخرين.

ومن هذه الظواهر حرص الشاعر على أن يتضح هذا المقطع - مثل باقي القصيدة ومقاطعها المختلفة - بكل معاني القوة وعدم الخور: فالشاعر في مواجهة لحظة الرحيل القاسية، "شديد القوى"، غير آبه لشغب المشغبين: (لم تدر ما قول مشغب). وهو يعدل عن أسلوب الإيجاب في وصفه لجميلة بأنها تندب الهالكين المعقبين من قومها، إلى أسلوب السلب في قوله: بأنها لا تندب غير المعقبين منهم، والمفهوم واحد، غير أنه في تعبير السلب يواري صورة الحزن بما يدل عليها. كما أن قوله (لم تدع) يحمل معنى النفي المتضمن معنى الرفض والقوة، مما يجعل عدم ندبها مرة، والندب في أخرى، تعبيراً عن موقف، وليس لؤماً وقسوة في الحالة الأولى، أو ضعفاً في الحالة الثانية.

ونلاحظ أخيراً أن الشاعر يكتفي بالإشارة السريعة إلى دار جميلة، وأنه لم يفصل القول في موقف الرحيل، ثم اختتم مقدمته بوصف رائق لجميلة، يشكل أكثر من نصف المطلع، ولعله بهذا الاختتام يجعل منها الطرف الأخير الظافر، الذي ظل بعد خواء الدار.

وقسوة الرحيل، جميلا وقوياً، ويجعل من صورتها الصورة الماثلة في وعي الشاعر، وفي وعينا نحن، بكل جمالها وجلالها.

لعلنا - إذن - لا نجاوز الحد، إذا ذهبنا إلى أن هذا المفتتح ليس مجرد مفتتح تمهيدي مستمد من وحي الموقف العام، أو مجرد إضافة كمية إلى طبيعة الرؤية في أحسن الأحوال، بل هو جزء أصيل في القصيدة، غير منفصل عن طبيعة التجربة فيها، وسوف نكتشف عند الحديث عن الرؤية الفنية، إثراءه لهذه الرؤية وامتداده بأبعادها.

مقطع البيت: (الأبيات ٦-٩)

من المنتظر وقد رحلت جميلة مع قومها الذين لا تعدل بهم أحداً، أن يتحول الشاعر كذلك إلى قبيلته التي لا يعدل هو الآخر بها أحداً، وهذا ما يتحقق في المقطع الثاني من مقاطع القصيدة، حيث يلتحم الشاعر بقبيلته التحاماً قوياً، وقد راح يحدثنا عن البيت الذي نصبه على قومه الشجعان، كأنه قطب الرحى الذي تلتف حوله القبيلة.

ويلفتنا أولا انتقال الشاعر من "دار جميلة" في مطلع المقطع الأول، إلى البيت الذي نصبه على قومه الشجعان في مطلع المقطع الثاني (وبيت...نصبتُ) فإذا كانت دار جميلة قد غدت طللا بالنسبة إلى الماضي وما حل فيه من فرقة ورحيل وأسى، فإن "البيت" هنا يتصف بأنه بيت معمور، وهو بالنسبة إلى الحاضر العزيز النضر، وإلى اجتماع الشمل، وطمأنينة النفس، وفي هذا تقابل بين الدار هناك والبيت هنا، من جهة الزمن والدلالة على حد سواء، كما تبرز (أنا) الشاعر قوية في خدمة أبناء القبيلة وقيادتهم من خلال إسناد الفعل إلى ضمير المتكلم هذه المرة؛ (نصبتُ) بدلا من (نصبتَ). وتشيع في هذا المقطع كل معاني الإيجاب والتفاؤل؛ فعنصر الريح مثلا الذي يشكل في العادة أحد خيوط الصورة الطللية، ويشير إلى فعل الطبيعة المخرب، الذي يحاول أن يمحو وجود الإنسان ورموزه وآثاره، يبرز في صورة البيت بدلالة إيجابية؛ فالريح هنا تهب على بيت معمور، لا لتجتثه من أصوله، بل لتملأه حيوية، وتؤكد متانته واتساعه وعزة أصحابه، وانفتاح البيت للريح يومئ إلى ضرب من الانفتاح النفسي على صورة الوجود وحركة الطبيعة، وإلى صورة من صور التصالح بينهما وبين الإنسان، ويأتي مكان البيت "بأرض فضاء" ليؤكد هذا الانفتاح، وعرامة الإحساس بالانطلاق والحرية والقوة، وهذا البيت واسع كالأرض الفضاء، وهو مثلها مفتوح للريح وللإنسان على حد سواء.

وتشير مواد "البيت" إلى عز أصحابه، ويشير البيت الرابع صراحة إلى شجاعتهم وقوتهم ومهارتهم في قتال الأعداء، كما يشير لأول مرة إلى عناصر الرماح والأعداء

- والقتال، كما تطالعنا صورة الخيل بدءاً بهذا المقطع من خلال مكونات البيت وأجزائه؛ فقد اتخذ البيت صورة الحصان؛ فظهره أو مجالسهم فيه؛ صهوة، وحباله وأطنابه أرسان خيل، ثم إذا بحث لهذه الأرسان عن شبيه كان هو الرماح. ومعنى ذلك أن عاطفة الشاعر وتجربته الفنية الصادقة تنشر ظلالها على صور القصيدة، فإذا الشاعر المشغول بالحرب والقتال، يرى كل شيء من خلال أجوائهما وما يستخدم فيهما من خيل وسلاح.

مقطع الفرسان (الأبيات ١٠-١٢)

بعد أن فرغ الشاعر من الحديث عن نفسه، ومكانته في قبيلته، ومنبته من أجلها، ينتقل إلى الحديث عن فرسان قومه وسادتهم. وليس من الصعب الوقوف على ملامح مشتركة بين قبيلة جميلة في المفتتح، وقبيلة الشاعر هنا، فكل منهما قبيلة تتواصل أجيالها وتتجدد فرسانها، ويأخذ اللاحق مكان السابق، بعد أن يكون قد أعد إعداداً ودرب تدريباً.

إن هذا المقطع يمثل خطوة جديدة في القصيدة على طريق الوصول إلى ذروتها، ممهداً لأجواء الحرب والقتال من خلال صور الفرسان الشجعان، وصور الأسلحة، ومن خلال إشاعته لأول مرة ألفاظ؛ الحرب، والسيف، وورود المنايا، والتحفز إلى القتال الضاري. ويختم الشاعر المقطع بعقد مقارنات تبث الرعب بين فرسان القبيلة وعقبان الشريق، حيث يلوح شبح هذه العقبان السود المخيفة، في لحظة كمون في أوكارها بانتظار لحظة الهجوم الكاسح.

مقطع الخيل (الأبيات ١٣- ١٩)

من الطبيعي بعد ذلك أن ينتقل الشاعر إلى مقطع جديد يرسم صورة لأخطر عوامل النصر في القتال أو من أخطرها، متمثلة بخيل القبيلة، ليكون هذا المقطع إيذاناً بالحرب الشعواء، وهو يوظف صورة الخيل توظيفاً في خدمة أجواء النص الحربية، بما يضفيه عليها من علف الحركة، وملامح القوة والرهبة واستخدام أدوات الحرب والقتال في بناء صورتها. ومن الملاحظ أنه أخضع هذا المقطع لضرب من التنظيم؛ فمن صورة الحصان المطهم إلى صورة الفرس الجرداء ثم إلى صورة تصح أن تكون للخيل عامة، مخصصاً بيتين لكل صورة من هذه الصور، وكأنه يستعرض خيول قومه، ذكوراً وإناثاً، فرادى وجماعات، بأسلوب أشبه ما يكون بالعرض العسكري، وقد تقدمه عرض لنماذج من رجال قومه وفرسانهم. خاتماً هذا الاستعراض بمشهد جماعي حاشد، يجمع لأول مرة بين رجال

القبيلة (ونعلم أي رجالهم)، وخيولها (ونعلم أية خيول هي) وهم يتجهون في حركة عنيفة. ولكن إلى أين؟ هذا ما يفصح عنه القسم الثاني من القصيدة.

القسم الثاني:

ويتألف من (٥٣) بيتاً، توزعت على ثلاثة مقاطع كبرى هي:

رحلة الذهاب إلى المعركة (من البيت ٢٠-٥٦) ثم المعركة (من البيت ٥٧-٦٦) ثم رحلة الإياب من المعركة (من البيت ٦٧-٧٢). مع العلم أن مدار المقطع الأول والثالث هو الخيل التي ظفرت بـ (٣٧) بيتاً من أصل (٤٣) بيتاً هي مجموع أبيات المقطعين.

يستفتح الشاعر هذا القسم بصيغة من صيغ التعبير المشهورة في الشعر الجاهلي (ألا هل أتى...) موجهاً خطابه إلى أهل الحجاز، ربما لافتراض أن أهل نجد قد سمعوا بأنباء هذه الغارة التي حدثت بين ظهرانيهم، وربما أيضاً لأن مكة -وهي أهم مدن الحجاز- المركز الديني والتجاري والأدبي الأهم في جزيرة العرب، وعلى مقربة منها عكاظ ملتقى القبائل والشعراء من كل مكان، وكان الشاعر حريصاً على أن يعم خبر انتصار قبيلته كل مكان، ثم يحدد وجهة قبيلته ومركز انطلاقها، لتنفتح القصيدة بعد ذلك على مشهد واسع وممتد من خيول القبيلة، أشبه ما يكون بمشهد سينمائي، يزدحم بالألوان، ويعج بالحركة، وتتابع فيه الصور في لقطات تقترب وتبتعد، مرتكزة إلى خلفيات متنوعة، وتواكبها أصوات مختلفة، كل ذلك في إيقاع مرتفع متسارع يحاكي إيقاع حوافر الخيل وهي تنطلق بأقصى قوة، محدثة انقلاباً في مظاهر الطبيعة حولها، وهو يتتبع أشكال الخيل وحركاتها وأوصافها المختلفة، والطرق التي سلكتها، والأحوال التي تقلبت عليها، حتى إذا عرضها أصحابها على الماء قبل المعركة، ألجموها، ليعتليها الفرسان منطلقين صوب مضارب طي.

والشاعر في زخم هذا الأداء الجماعي لا ينسى نفسه وفرسه، وإبراز دوره القيادي، وهنا لأول مرة بعد مقطع (البيت) في القسم الأول، تبرز (أنا) الشاعر من جديد، وللمرة الأخيرة، ولكن كنغم آلة مصاحبة في سيمفونية صاخبة، تنفرد بالعزف قليلاً، ثم ما تلبث أن تذوب في غمرة الأداء الجماعي (الأبيات ٣٦-٣٨).

ويتناول بسخرية لاذعة جماعة من طي، رأوا الخيل من بعيد فظنوها عيراً تحمل البر، ثم ما لبثوا أن وقفوا على أمرها فولوا خائفين. ثم تفجأ الخيل طياً في مضاربها، لتبدأ المعركة (المقطع الثاني) وتنتهي بالنصر والغنائم. ثم برحلة العودة (المقطع الثالث) الذي يتناول فيها تصوير الخيل العائدة، مفتخراً بها وبتاريخها المجيد.

يتكون هذا القسم - كما رأينا - من سلسلة من الصور والأحداث والمواقف تشكل حدثاً واحداً هو غارة غني على طي. يبدأ ليصل بعد حين إلى ذروته المتمثلة بالمعركة فالنصر، ثم إلى نهايته التي تحققت بعودة المقاتلين إلى ديارهم. وقد منحت روايةُ هذا الحدث القصيدةَ طابعاً قصصياً واضحاً، بالرغم من انصباب معظم أبيات هذا القسم على الخيل التي قدم لها لوحات واسعة، إذ نجح الشاعر في إدماجها في نسيج الحدث، بل نجح - فضلا على ذلك - في التعبير عن الحدث من خلالها، بحيث لم تكن لوحات الخيل قطعة ميتة في جسد القصيدة أو فاصلا يعيق تسلسل أحداث القصيدة وتناميها. ولكن كيف استطاع الشاعر تحقيق هذه المعادلة الصعبة دون أن يخل بناء القصيدة، أو البناء القصصي للقسم الثاني؟ أرى أنه نجح في ذلك، من خلال مجموعة من العناصر أهمها: التصوير الحركي للخيل وغلبته على التصوير التشريحي. وقد تجاوز الشاعر تصوير الخيل وهي في حالة حركة، إلى خلق الحركية في التصوير التشريحي الساكن نفسه، كقوله (البيت٢٤):

وكمتـــاً مدماة كأن متونـــها جرى فوقها واستشعرت لونَ مُذهب

فبدلا من الإشارة إلى ألوان الخيل مباشرة أو الاكتفاء بذلك، فقد صور الشاعر اللون سائلا جرى فوق متونها حتى استشربته.

ومن هذه العناصر كذلك تتبع الأماكن والطرق المختلفة التي سارت عليها الخيل مما يكسب لوحات الخيل بسبب تراكم المرائي وتنوعها، وتتابعها طابعاً زمنياً، أعني الإحساس من خلالها بحركة الزمن، وإذا كان لا بد لكل قصة من بطل أو شخصية رئيسية، فإن الخيل تمثل دور هذا البطل الذي يقود الأحداث، وتسند إليه الأفعال غالباً لا إلى الفرسان.

ومن أهم هذه العناصر مراعاة الشاعر للحظة الزمنية في تصوير الخيل، سواء كان ذلك في إطار المقطع الواحد، أو فيما بين المقاطع المختلفة في إطار القسم الثاني. مثال ذلك أن صورة ألوان الخيل الزاهية في بداية رحلتها إلى المعركة (البيت ٢٣-٢٤) تسبق صورة العرق الأبيض الذي أخذ يظهر على متونها (البيت ٢٧)، أما في لحظة متأخرة، فإن العرق يغدو من الغزارة بحيث يشبه الماء الذي يتصبب من ثوب المائح (البيت ٢٨)، كما أن أصوات الفرسان في تحميس الخيل تبدأ بالظهور قبيل نهاية الرحلة إلى المعركة حين يكون التعب قد نال منها الكثير (البيت ٣٩)، ومثل ذلك صورة تقطع أخدامها التي تظهر بعد السير الطويل وقبل الوصول إلى جبل سلمى (البيت ٤٠) وهكذا.

وتأتي صورة الخيل في رحلة العودة، تختلف عنها في صورة الذهاب، ففي هذا المقطع تختفي ملامح التوفز والاستعداد، والحركة العنيفة التي كانت لها في الطريق إلى المعركة، أو في لحظة الهجوم على الأعداء؛ لقد نزعت عنها اللجم وقلدت الأرسان، وراحت تباري نهاب أصحابها (البيت ٦٧) بعد أن كانت تباري أسنتهم في الطريق إلى المعركة (البيت ٢٦)، وفي كل ذلك ما يوحي بالطمأنينة والاسترخاء بعد مجهود ضخم، كما لاحت مخضبة الأيدي بدماء الأعداء.

إن هذه المراعاة للحظة الزمنية في تصوير الخيل تنبئ عن الحس القصصي والحس التنظيمي العالي الذي يمتلكه طفيل على مستوى اللوحة الواحدة أو اللوحات المتعددة في إطار القسم الثاني أو في إطار القصيدة بأسرها التي ترددت فيها صورة الخيل في أكثر من موضع، وهو في كل مرة يلتفت إلى صفة جديدة للخيل. فإذا وقع التكرار أحياناً في مجمل الصفة، فإنه يقدمها في صورة جديدة، أو يشير إليها من زاوية مختلفة، أو يعرضها من خلال حاسة جديدة، أو يخص بها عضواً دون آخر وهكذا، ومثال ذلك صفة الضمور التي ترددت في الأبيات؛ (١٦، ٢٨، ٣٠، ٦٨)، ومع ذلك فإن كل بيت منها، يقدم جديداً على أكثر من مستوى، ومن بينها المستوى الفني، من طبيعة الصياغة، ونوع المفردة، ومصاحباتها اللغوية.

إن هذا الاختلاف أو التنويع في جزئيات اللوحة الواحدة، وفيما بين اللوحات المتعددة من جهة أخرى، لم يكن اعتباطياً إذن، وقد دفع الإحساس بالرتابة في لوحات الخيل، كما منح كل لوحة نكهتها وإيحاءاتها الخاصة، كما جعل كل صورة أو لوحة تكشف عن لحظة معينة من زمان الرحلة؛ أي أنها خضعت لتسلسل الأحداث، وأعانت على تمثيلها وإبرازها.

ويمتد عنصر "التنويع" إلى طريقة تصميم القسم الثاني بلوحاته المختلفة على صعيد النقلات المتتالية في المكان والزمان، الذي فجر الإحساس بحركية هذا القسم وحيويته وتناميه؛ إذ يحقق الشاعر نقلات مكانية عديدة؛ فمن صورة جموع الخيل ينتقل إلى صورة حصانه (البيت ٣٦-٣٨) ثم يعود إلى الخيل، وهكذا... مواكباً إياها في انتقالها من مكان إلى آخر، فمن الهبوط إلى القيعان إلى الصعود في الطرق الجبلية، ومن طرق كثيرة الحصى، إلى طرق كثيفة الأتربة...الخ. وقد حقق نقلة مكانية أكبر حين انتقل من صورة الفرسان وخيولهم، إلى مشهد يضم بعض طي (مجتنو الكراث) وهم يراقبون الخيل من بعيد ويتحاورون في شأنها (الأبيات ٤٩-٥٢). ثم عاد إلى خيول قومه

وفرسانهم، ثم رجع إلى طي، ثم انتقل إلى الحديث عن قومه، وهكذا...

لقد كانت معظم نقلات الشاعر نقلات مكانية تتم في إطار الزمن الواحد، كأنها عدسة مصور تضيء المشهد من مختلف جوانبه وأبعاده. ولكنه كان ينتقل أحياناً من زمن إلى آخر، فيخرج من الحاضر إلى الماضي، مثل صنيعه حين استرجع صورة الخيل في الغزوات السابقة حين كانت تعود منتصرة بعد بلاء حسن (البيت ٤١-٤٢). ومن الجدير بالذكر أن هذه التقنية الفنية المتمثلة في استرجاع الماضي، قد وظفت توظيفاً في خدمة النص، فهي تعبير عن الثقة المطلقة بالنصر القادم، أو هي إفصاح عن رؤية مستقبلية تقرأ الآتي في ضوء الماضي، وتقيسه عليه، وتمنحه يقينيته. وبذلك تلتقي هذه التقنية وظيفياً مع كثير من الصور الجزئية في القصيدة، وتعبر معها عن رؤية واحدة متكاملة، كتشبيه الخيل بكلاب الصيد (البيتان ٢٦،٤٠) الذي يخلق تماثلا بين الرحلة إلى المعركة، والرحلة إلى الصيد، أهم وجوهه هذا الإحساس الواثق بالظفر، وهذه الطمأنينة التي تغمر النفوس في الحالين(٢٤).

القسم الثالث:

وعدته ست أبيات يختم فيها الشاعر قصيدته الطويلة، ويبين فيها فضل الخيل، والعداوة المستحكمة بين طي وقبيلته، وتاريخ غني النني بمواقفه وحروبه، وبأمجاد غني ونقاء تاريخها، وخلوه من العيوب.

في الرؤية الفنية:

لعل العرض السابق للقصيدة يوضح أنها بالرغم من هذا التقسيم الثلاثي الذي أوحى به هيكل القصيدة وبناؤها الخارجي متجاوباً مع فكرة المناسبة والموضوع الرئيس - ليست مجرد وصف لغارة، وتصوير لفرسان القبيلة وخيولها، وتسجيل لانتصارهم على أعدائهم، وإنما تتحرك في إطار رؤية، أوسع تهدف إلى تصوير بطولة القبيلة عموماً، كما تفصح عن مفهوم البطولة لدى طفيل، الذي رأى في قبيلته تجسيده الحي ومثاله الأعلى.

ومن هذا المنطلق يغدو القسم الأول من القصيدة منبثقاً من صميم الرؤية، لا مجرد تمهيد لوصف الغارة، وهو أشبه بالحديث النظري العام عن بطولة القبيلة، بحيث يبدو

٢٤- من الواضح أن الشاعر في تشبيهه للخيل بكلاب الصيد، يتعامل مع صورة الصيد في مستواها الواقعي الذي ينتهي عادة بظفر الكلاب بالطريدة، لا في مستواها الرمزي الذي يشكل صورة نمطية تنتهي بخسارة الصياد وخيبة كلابه وهزيمتها على يد الثور الوحشي أو البقرة الوحشية.

النصر الذي حققته غني في غارتها على طي في القسم الثاني، أحد تجليات هذه البطولة على الصعيد العملي، وواحداً من نتائجها الحتمية؛ فهذا النصر لم يتحقق صدفة، ولم يأت من فراغ، كما أنه لن يكون النصر الأخير. وبذلك يكون الشاعر قد ارتفع بانتصار قبيلته من العرضي المنتقل إلى الجوهري الثابت، ومن الزماني إلى المطلق، وفي هذا ما يوضح أهمية القسم الأول من القصيدة.

وفي القسم الثالث والأخير يحقق الشاعر قفزة إلى الأمام حين يحتكم إلى كل من التاريخ والمجتمع (البيتان ٧٦ ، ٧٧). فيخرج بمقولته من دائرة المزاعم الذاتية والتهويل الفردي إلى دائرة الحقائق الموضوعية الثابتة، وبهذا التطابق بين المصادر الثلاثة (طفيل والمجتمع والتاريخ)، تكتمل الدورة، وتترسخ صورة البطولة لقبيلة الشاعر. وبهذه الرؤية تنزاح الحدود الشكلية البرانية بين أقسام القصيدة ومقاطعها، أو موضوعاتها -إن شئت-. لتتجلى عن بنية أعمق، ووحدة أشد عمقاً.

وإذا كانت فكرة البطولة مجسدة بقبيلة غني (البطل) هي صميم الرؤية في القصيدة، فما هي عناصر هذه البطولة؟ وبكلمة أخرى: ما هي عناصر البطولة عند غني، التي ينظر إليها الشاعر - كما يبدو - على أنها شروط النصر ومقوماته؟ والوقوف على تفصيلات ذلك جزء أساسي متمم لرؤية الشاعر لماهية البطولة.

تشكل القوة بامتلاك جميع وسائلها الممكنة الشق الأول والرئيس من مفهوم البطولة لدى طفيل، وتتشكل هذه القوة من عناصر معنوية ونفسية، وأخرى مادية، على الصعيد الفردي والجماعي، بعضها موروث وبعضها مكتسب، على ما بين هذه العناصر بمستوياتها المختلفة من التشابك، وكون بعضها شرطاً لتحقق غيره.

ومن عناصر القوة المعنوية التي ألح الشاعر عليها كثيراً يمكن ملاحظة النسب الكريم، وهذا منبثق من تصور الإنسان الجاهلي لفضيلة النسب، وجعله نقطة الانطلاق الأساسية إلى المكارم وجلائل الأعمال، فليست القوة أو البطولة ثمرة شيطانية طارئة، وإنما هي إرث نسبي يتوارثه الأبناء عن الآباء، والبطولة بهذا المقياس لا تقتصر على الإرادة الذاتية للأفراد، وإنما هي محكومة بنوع من الجبرية التي لا سبيل إلى نقضها والتي تشبه جبرية قوانين الطبيعة المطردة، كتلك القوانين القوانين التي تحكم العلاقة بين فروع الشجرة وأصولها.

ويمكن التماس هذا في فخره العام بقبيلته، وسلامة تاريخها من العيوب والنقائص وفي مثل التصريح باسم قبيلته على نحو من الفخر، والإشارة الى ساداتها (البيت ١٩)

كما يمكن التماسه بشكل غير مباشر في اعتداده بكرم خيول قبيلته، وحرصه على تسجيل سلالاتها التي تنتمي اليها(٢٥)، (الأبيات ٢٢، ٢٣، ٢٥).

ولعل هذا التصور قد انعكس على صور أخرى، كصورة الأسلحة التي يحرص على ذكر مصادرها وموادها وصانعيها؛ فالقسي من نبال بترب، ومن صناعة (الماسخي)، والسيوف مشرفية، وهندية، والتروس مصنوعة من جلد الهجان(٢٦)...الخ؛ (انظر مقطع المعركة).

ومن هذه العناصر المعنوية، الشجاعة والإباء والعزة والاستهانة بالموت في ملاقاة الأعداء؛ وقد عبرت عن هذه المعاني مباشرة وغير مباشرة أبيات كثيرة منها الأبيـــــات، (٦، ٩، ١١، ١٢، ٢٠، ٤٢، ٥٥، ٦٠، ٦٣، ٧٦).

وفي إطار ربط العرب بين الشجاعة وطول القامة. فإن شجاعة فرسان القبيلة من خلال الكناية (طويل نجاد السيف - البيت ١١) تكتسب من الثبات ما لطول القامة نفسها من ثبات خلقي غير خاضع للتغير والتبدل.

ومن هذه العناصر أيضاً قوة الإرادة، والتصميم على بلوغ الأهداف الكبيرة، والصبر على مشاقها في السلم والحرب (انظر مثلاً الأبيات ٢١، ٢٧، ٧٢).

ومنها عنصر الوحدة والتماسك بين أبناء القبيلة بفروعها المختلفة، مما يمكنها من الاعتماد على نفسها، الذي يعد هو الآخر أحد عناصر القوة الأساسية، وذلك ما ينطبق على غني في معركتهم الثأرية مع طي، وصور الشاعر ذلك بقوله (البيت١٩)،

قبائل من فرعَي غني تواهقت   بها الخيل لا عزلٌ ولا مُتأشِّبُ

وليست الوحدة غير انعكاس لصدق انتماء الأفراد إلى قبيلتهم، واضطلاعهم بمسئولياتهم نحوها، وهنا تبرز أهمية عنصر القيادة الصالحة ذات الكفاءة والخبرة في شئون السلم والحرب، التي تجلت على وجه الخصوص في شخصية طفيل نفسه (الأبيات ٦ - ٩ والأبيات ٣٦ - ٣٨). كما يعد موقف طفيل في المفتتح ثم انصرافه إلى قبيلته والاهتمام بشئونها في المقطع الثاني بعد المفتتح، وجهاً من وجوه القدوة الصالحة.

غير أن عناصر القوة المعنوية لا تغني عن الوسائل المادية المكتسبة، والأخذ بأسبابها، تلك التي تتمم معنى البطولة، أو تخرج بها من حال الوجود بالقوة إلى حال

---

٢٥ و ٢٦- أشار أحد الباحثين إلى أن اهتمام طفيل بتسجيل نسب خيول قبيلته، ونسبة أسلحة القبيلة إلى صانعيها، برهان على تعلق الجاهلي بنسبه. انظر: داود غطاشه؛ حركة الشعر في قبيلة غني (سبق ذكره) ص٢٠٢ ، ٢٠٣

الوجود بالفعل كما يقول الفلاسفة. ومن ثم تحقق لأصحابها النصر الذي يطلبون. ولذلك أبرز الشاعر ما لدى قبيلته من أسلحة وعتاد، فهناك السيوف والقسي والتروس، وأهم من هذا، الخيولُ المطهمة الأصيلة.

وإذا كان السلاح لا يعني شيئا دون البراعة في استخدامه التي تحتاج إلى تدرب طويل وإعداد شاق، فإن ذلك كله مما ينسبه الشاعر إلى قومه مراراً. كما في الأبيات (١٠، ٢٥، ٦٣، ٦٤، ٦٥).

ولما كان ذلك أيضاً لا يؤتي ثماره الكاملة دون حسن التخطيط للمعركة. فإن طفيلا لم يغفل هذا الجانب العسكري الهام. فتراه يبرز أهمية عنصر المفاجأة للأعداء الذي كثيراً ما يكون عاملا حاسماً في تحقيق النصر. (البيت ٤٧):

فلم يرها الراؤون إلا فجاءة بواد تُناصيه العِضاهُ مُصَــوِّبِ

ثم ما يلزم هذا العنصر من السرية التامة (البيت ١٢):

تبيت كعقبان الشريق رجاله إذا ما نووا إحداث أمر معطب

حتى إن مجتني الكرات من طي فوجئوا بالخيل، إلى الحد الذي جعلهم يظنونها بادئ الأمر عيراً تحمل البر، لأنهم كانوا خالي الذهن تماما من هذا الأمر الذي دبر لهم في ليل بكل حكمة وسرية. (الأبيات ٤٩ - ٥٢).

ومن حسن التخطيط الخبرةُ في إدارة دفة القتال. وقد رأينا غنياً تقسم المعركة إلى ثلاث مراحل: الرمي بالسهام (البيت ٥٧):

رمت عن قسي الماسخي رجالنا بأجودِ ما يبتاع من نبل يثـــرب

ثم الالتحام بالسيوف (البيت ٦٠):

فلما فنى ما في الكنائن ضاربوا على القُرع من جلد الهجان المُجَوَّبِ

حتى إذا كان النصر فرغوا إلى جمع الغنائم (البيت ٦٦):

وجمعن خَبْطاً من رعاء أفانهم وأسقطن من أفغانهم كل مِحلب

وثمة عنصر آخر أولاه الشاعر -بطريقة غير مباشرة- أهمية خاصة تنبت من ظروف قبيلته، ألا وهو العنصر العددي، الذي أخذ شكل الإلحاح على فكرة الإنجاب إلحاحاً واضحاً، فجميلة ابنة القبيلة لا تندب من قتلى قومها من لم يترك وراءه عقباً أعدهم ليأخذوا مكانه (البيت ٣). وما دام الأمر كذلك فلا بد أنها -وهي المرأة الشابة (برود الثنايا)- ترى في كثرة الإنجاب، وحسن التربية بطبيعة الحال، أحد أهم واجبات المرأة نحو قومها. وبالاتجاه نفسه نلاحظ الشاعر يقرن كثيرا بين صور الآباء والأبناء في

المعارك. ويرى في الأبناء امتداداً لآبائهم الذين كانوا بدورهم امتداداً لآبائهم السابقين (الأبيات ٨ - ١٠):

وأطنابه أرسان جرد كأنـــــها — صدور القنا من بادئ ومُعقِّب
نصبت على قوم نُدر رماحُهم — عروقَ الأعادي من غرير وأشيب
وفينا ترى الطولى وكل سَمَيْدَع — مدربِ حرب وابن كل مــدرب

ونلاحظ صدى هذه الفكرة بتجاور أفراد القبيلة إلى خيولها التي تنتسب هي الأخرى إلى حصان منجب. (البيت ٢٣):

وِراداً وحُواً مشرفاً حَجَباتُـــــها — بناتِ حصان قد تُعولم مُنجـــب

ويتجاوب مع صورة رماح القبيلة التي تراش بريش النسور الكبيرة، وبريش أبنائها الصغار. وكأن تضافر العنصرين معاً يمنح هذه الرماح قوة خاصة (البيت ٥٩):

كُسين ظُهار الريش من كل ناهض — إلى وكره وكل جون مُقشَّـــب

غير أن ذلك كله إنما يمثل الشق الأول من مفهوم البطولة عند طفيل، فهو إن كان قد ربط بين البطولة والقوة من ناحية، فإنه يمايز بينهما من ناحية أخرى، حين يمنح البطولة بعداً إنسانياً رفيعاً، يحتل ركناً أصيلاً في رؤية الشاعر للبطولة؛ فإذا كانت البطولة قوة، فليست القوة بطولة حتى تضبط بضوابط الخير والعدل، وتوجه بمعاني السلام، ولذلك فقد يرى في أعدائه صورة القوي حسب (وإلا فلا معنى لفخره بالانتصار عليهم)، في حين يرى في قبيلته صورة (البطل).

إن غزو غني لطي كان رداً على عدوان طي الغاشم، وما أحدثه في قبيلة الشاعر من قتل وأسر ونهب لخيرات القبيلة وأرزاقها، وليس حباً في العدوان عليها. يقول (البيت ٦١):

فذوقوا كما ذقنا غداة محجَّر — من الغيظ في أجوافنا والتحوب

ولذلك يرى أن ما صنعوه بطيء لم يكن غير جزاء صنيعهم بهم في محجر (البيت ٧٥):

جزيناهُمُ أمسِ القطيعةَ إنـــه — متى ما تكن منا الوسيقةُ نطلب

ويتجلى هذا المعنى في صورة أكثر وضوحاً، حين يعلن الشاعر أنهم صنعوا بطيء ما صنعته بهم دون زيادة أو مبالغة (البيتان ٦٢ و ٦٥):

- أبأنا بقتلانا من القوم مثلَهم — وما لا يعد من أسير مكلب
- فبالقتل قتل والســـوام بمثله — وبالشل شل الغائط المتصوِّب

وكأن الشاعر في هذين البيتين يرسي مبدأ العين بالعين والسن بالسن (فبالقتل.قتل/ وبالشل.شل/ والسوام - بمثله). ولعل في تصريح الشاعر بأثر وقعة محجر على غني (البيت ٦١). وفي حرصه على تأكيد تساوي القتلى من الفريقين في البيتين السابقين، إعلانا غير مباشر عن الرغبة في السلام، وكف الاعتداء، وتسويغا لموقف طي إن كفت عنهم بما لا يعيبها بين القبائل.

لقد فارقت هذه الغارة صورة العدوان، بل تجاوزت مجرد الأخذ بالثأر، إلى هدف أسمى هو وضع حد لعدوان الأعداء عليهم. والغارة بهذا المعنى ضرورية لإرساء قواعد السلام القائم على التكافؤ وقوة الردع. ويكشف عن ذلك أيضا قوله:

جزيناهُـــمُ أمس القطيعة إننا   متى ما تكن منا الوسيقة نطلـــب

ولعل مضمون الجملة الشرطية في عجز البيت يؤكد أن كراهية العدوان وإيثار السلام، مبدأ عام تلتزم به غني مع غيرها من القبائل. ولعل هذا الحرص على مبدأ السلام، والإيمان به، قد أنضج على نار معاناة القبيلة الطويلة من الحروب ومآسيها.

وتكشف طبيعة التركيب في البيت التالي، وإسناد الفعل للأيام، عن أن الحروب التي خاضتها غني كانت مفروضة أو مقدرة عليها (البيت ٧٦):

فأقلعت الأيامُ عنا ذؤابـــة   بموقعنا في محرب بعد محـــرب

ويبدو لي أن هذا المعنى الإنساني النبيل، الذي يستخلصه القارئ حين يفرغ من قراءة القصيدة، يعود ليعدل من نظرته إلى مفتتح القصيدة من وجوه عدة، ويفجر فيه دلالات شتى؛ فما أشد القربى بين "الحب" في المفتتح، والدعوة بعد ذلك إلى السلام، والحرص عليه! وأنى للبطولة أن تتحقق إذا افتقرت إلى مشاعر الحب والعطف والرحمة؟

الرؤية والصورة الشعرية:

في العمل الفني تتضافر مستويات النص في خلق الرؤية. ولعل للصورة الشعرية مكانة مرموقة بين هذه المستويات المختلفة. ولا شك في أنها محك حقيقي في الكشف عن جانب الصدق الفني، وأغوار الرؤية وأبعادها(٢٧). ولا شك أن الصورة المركزية في هذه القصيدة هي صورة الخيل التي ستغنينا عن التعرض إلى غيرها. فهل جاءت هذه الصورة منسجمة مع رؤية الشاعر للبطولة ببعديها الرئيسين، المادي (القوة)، والإنساني؟

لقد سلط الشاعر الضوء على صورة الخيل من جوانبها المختلفة، راسما لها صورة نموذجية سواء فيما يتعلق بأصولها وأنسابها، أو قوتها وجمالها، أو أشكالها وحركتها، أو

طبائعها وأحوالها، يسوق ذلك مقروناً بدليله وشفوعاً بمظهره، ومتصلا بشبيهه، الذي يختاره فيحسن اختياره من عالم الإنسان أو الطبيعة أو الحيوان أو النبات أو الجماد، فيتسع بإطار الصورة، حتى تغطي مساحة عريضة من الحياة والطبيعة، مما يضفـــي

على صورتها تنوعاً، ويكسبها حيوية وقدرة على الإيحاء والتأثير.

وإذا كان الشاعر الجاهلي قد اعتاد رسم صورة مثالية للفرس، فإن طفيلا قد وجه صوره وأوصافه للفرس بما يجعل منه فرساً حربياً مقاتلا بالدرجة الأولى، بما يتلاءم مع أجواء النص، ففي قوله (البيت ١٧):

وعـــــوج كأحناء السَّراء مطت بها   مطاردُ تهديها أسنةُ قعضـــب

نلاحظ أنه يرى في أضلاع الفرس صورة للقسي المأخوذة من شجر السراء، ويرى في أعناقها رماحاً، فإذا أضفنا إليها أسنة الفرسان التي تهديها وتوجه حركتها، كنا في هذا البيت أمام صورة تؤلف الأسلحة جميع عناصرها، وكأننا أمام كائن مركب من أسلحة الحرب والقتال.

وهو يعقد علاقة طردية بين الحرب وإشراف الفرس(البيت١٦)؛ فالحرب تضمر الفرس، وكلما ضمرت ازداد إشرافها. فالحرب تأخذ من الخيل أسوأ ما فيها، وتعطيها أجمل ما فيها؛ فإن الضمور صنو الصلابة والرشاقة وحسن الأداء.

وهو يرسم لها شخصية قوية، لا تجعل منها مجرد أداة حيادية من أدوات القتال، وإنما هي تشارك أصحابها شوقهم إلى القتال، وغبطتهم بالانتصار(انظر مثلا الأبيات ١٨، ٣٥، ٥٤).

بل راح يضفي على الفرس ملامح العنف والرهبة في شكله وحركته وفي ما يشبهه به، وقد ألح على هذه الأوصاف والتشبيهات حتى جمع منها قدراً كبيراً، يجعل من الفرس في نهاية المطاف فرساً أسطورياً بحق. ولنلاحظ قوله (البيت٣٨):

٢٧- حول مفهوم الصورة ومكانتها في العمل الفني انظر:(الدكتور عبد القادر الرباعي: الصورة الفنية في النقد الشعري، دار العلوم للطباعة والنشر، ط١، الرياض ١٤٠٥هـ ١٩٨٤م. ص٨٥ وبعدها.

كـــأن على أعطافه ثوب مائح ... وإن يُلق كلب بين لَحْيَيْهِ يذهـــب

ونلاحظ تشبيهاته للخيل بالذئب والجراد... الخ، ولو أحللنا مكان الخيل ما شبهت به لكنا أمام سرب مخيف من الحيوانات، احتلت الأرض وزحمت السماء، مع ما يلوح على أعرافها من نيران كأنها "سنا ضرم من عرفج متلهب"(٢٨)، وكأننا هنا أمام زحف ناري عجيب، هذا إلى ما تثيره من غبار، ونطيره من حصى، ما يلبث أن يتساقط كالمطر المنهمر.

ولكن الشاعر لا يجعل من قوة الخيل قوة شريرة عمياء، وإنما يوظف هذه القوة في سبيل تحقيق الخير والعدالة والسلام؛ فهو يربط بوضوح بينها وبين الخير (البيت٧٢):

وللخيل أيام فمن يصطبـــر لها ... ويعرف لها أيامَها الخيرَ تُعقِـــب

ويربط بينها وبين كثير من مظاهر الخير والحياة؛ فيشبه أذنابها بعثاكيل النخل مصدر الخصب والعطاء والرمز المحمل بالدلالات العميقة (البيت ٢٩)

ويلتفت إلى عالم الطفولة (أرق الصور الإنسانية) فيستقي منه بعض صوره(البيت٢٨).

ويصب في الاتجاه نفسه وصفه لها بجمال الخلقة والتكوين، بما يستثير في النفوس حاسة الجمال التي تستتبع مشاعر الحب والتعاطف والألفة، فإذا الخيل كما يقول:"محببة أدين كل محبب" (البيت ٣١)

وقد ربط الشاعر بين الخيل وكائنات لطيفة، كالقطا (البيت ٣٥) والظباء (البيت ٥٣) وهي حيوانات وديعة مسالمة، حتى إن العرب قالوا في القطا في أمثالهم؛ لو ترك القطا لنام، ضربوه مثلا لمن يهيج إذا تهيج (٢٩) وكانت الظباء مقدسة يحرم صيدها، أو توشك أن تكون كذلك(٣٠)

٢٨- البيت ٣٧، ويفسر الشارح البيت بقوله:(يريد أن له حفيفاً مثل حفيف النار من شدة العدو) والشارح هنا يلتفت إلى الجانب السمعي من الصورة فقط. وهذا الجانب لا يلغي جوانب حسية أخرى كالجانب البصري بخاصة وهو الذي التفتُّ إليه هنا.

٢٩- ابن منظور، لسان العرب(سبق ذكره في هوامش النص). مادة (قطا) المجلد الخامس ص٣٦٨٤.

٣٠- نصرت عبد الرحمن؛ الصورة الفنية في الشعر الجاهلي في ضوء النقد الحديث. مكتبة الأقصى- عمان ١٩٧٦، ص١١١ وبعدها، وتشبيه الخيل بالظباء إضافة للعلاقة التي ذكرناها أشبه ما يكون بالعوذة تحرس الخيل وتحميها قبل المعركة خاصة.

وهكذا فإن كانت بعض صور الخيل قد وضعتنا أمام كائن أسطوري مخيف، في حالة اندفاع قوي نحو الأعداء للفتك بهم، فقد كشفت الصور الأخرى عن جوانب الوداعة والبراءة والجمال والخير، وأسقطت عنه شبهة البطش والعدوان، والشاعر أحياناً يجمع بين هذين النقيضين في صورة واحدة كقوله (البيت١٨):

إذا قيل نهنِهْها وقد جد جدها ترامت كخذروف الوليد المثقَّب

إذ ينتقل الشاعر من صورة ممتلئة بزخم القوة والجد، في الشطر الأول، إلى صورة يستمدها من عالم الطفولة، وألعابها الهنيئة في الشطر الثاني. وكقوله أيضاً (البيت ١٤):

يذبق الذي يعلو على ظهر متنه: ظلال خذاريف من الشد ملهب

إذ تتوسط صورة الخذاريف التي يلعب بها الصبيان بين كلمتي (يذبق) و (ملهب)، بما تحملانه من معاني الويل والحريق. ومن هذا القبيل قوله (البيت ٧١):

طوامح بالطرف الظرابَ إذا بدت محجلةَ الأيدي دما بالمخضَّب

فتحجيل أيدي الخيل شية جميلة من شياتها، أما أن يكون التحجيل من دم الأعداء التي خاضت فيها أقدامها، فهذا ينقلنا من النقيض إلى النقيض.

ومن ذلك قوله (البيت ١٣):

وفينا رباط الخيل كلُّ مطهم رجيلٍ كسرحان الغضا المتأوِّب

فهذا الذئب بالرغم من سطوته وقوته الظاهرة، ينطوي على مشاعر إنسانية من الشوق والحنين إلى بيته وأسرته(٣١)، بل كأن هذا الشوق النبيل الذي ينطوي عليه، هو علة سرعته وشراسته المتوقعة حيال من يعترض طريقه.

إن الخيل في اندفاعها نحو ديار طيء، لا يحركها حب العدوان، وإنما ضرورة تأديب الجاني، والقصاص منه، دفاعاً عن الكرامة وإزالة للعار، ويكتسب هذا المطلب النفسي قوة الحاجة الجسدية إلى الماء، وبذلك نفسر هذه الغزارة في صور الظمأ، وكأن رحلة الخيل رحلة إلى الماء للنهل منه. فالخيل في اندفاعها صوب الأعداء تشبه اندفاع الإبل الخامسة نحو الماء (البيت ٥٤):

يُذدن ذياد الخامسات وقد بدا ثرى الماء من أعطافها المتحلِّب

ولا تلبث صور الشاعر الأخرى أن تكشف عن طبيعة هذا الظمأ فإذا به ظمأ نفسي وذلك حين تجعل من الظمأ صفة مشتركة بين الخيل وأصحابها ورماحهم وسيوفهم، وحين تجعل دم الأعداء هو المنهل العذب (البيتان ٦٣ و ٦٤):

نُخَوِّي صدورَ المشرفية منهم وكلَّ يُراعي من الهند شَرعب

بضرب يزيل الهام عن سَكِناتها ويَنقع من هام الرجال بمشرب

إن الماء شرط الحياة المادية الفيزيقية، كما أن دم الأعداء المعتدين شرط الحياة الكريمة، وكما يذهب الماء بحرارة الجوف ويطفئ الظمأ، فإن دم الأعداء يذهب بغيظ النفوس- والغيظ عنصر ناري- كما في قوله (البيت ٦١):

فذوقوا كما ذقنا غداة محجر من الغيظ في أجوافنا والتحوب

لقد نقعت غني غلتها من دماء طي، فاستردت عزتها وحياتها الكريمة، في حين سقت طياً كأس الموت والعار والغيظ الحارق للأكباد. وإذا كانت غني ممن تدر رماحهم عروق الأعادي (والدر مقترن بالحليب والارتواء)، كما يقول طفيل (البيت٩). فقد حالوا بين طي وأسباب الحياة، وفطموهم عنها: (جزيناهم أمس الفطيمة- البيت ٧٥) كما انتزعوا منهم أدوات الشرب نفسها: (وأسقطن من أفنائهم كل محلب- البيت٦٦)

لقد توزعت دماء طي على غني فكان منها نصيب لسيوفهم ورماحهم، وآخر لفرسانهم، وثالث لخيلهم التي تشربت أيديها هذه الدماء حتى غدت زينة لها تقوم مقام التحجيل. (البيت ٧١).

وهكذا نلاحظ أن كل صور الشرب والورود إلى الماء تنسب إلى غني التي وردت طياً على ظمأ فشربت حتى ارتوت (وجاء تشبيه الخيل بالقطا موفقاً للغاية. ففي المثل: "إنه لأدل من قطاة"، لأنها ترد الماء ليلاً من الفلاة البعيدة)(٣٢). في حين ينسب الفطم بعد الري، والحرمان من وسائل الشرب والحياة (المحلب)، وملء الأجواف بالغيظ إلى طي. ولعل ذلك يضيء لنا حدة المفارقة التي رسمها الشاعر لطي حين ظنوا الخيل بادئ الرأي عيراً تحمل البر، فكانت خيلا أذاقتهم الويل، وكانت صرخة الشاعر أن يذوقوا ولكن لا طعاماً ولا شراباً، وإنما الغيظ الذي سيحرق أجوافهم. وينسجم مع هذه الرؤية تشبيه الخيل بالجراد (البيت ٣٣) الذي من دأبه أن يأتي على البُر- لا أن يمنحه- وأن يأتي على كل أخضر غيره، فيترك الأرض بلقعا وأهلها جياعاً. ثم لا سبيل إلى مقاومته.

٣١- الربط بين الذئب وأسرته ليس استنتاجاً لاسند له من الواقع، فقد أشار طفيل إلى ذلك مباشرة في إحدى قصائده (الديوان ق٣) في معرض مماثل هو وصف الفرس، بقوله:

كسيد الغضا الجاري أضل جراءه علا شرفاً مستقبل الريح يلحب

٣٢- ابن منظور: لسان العرب، مادة "قطا" م٥ ص٣٦٨٤.

وتشبيه الخيل بكلاب الصيد (البيت ٣٦) يشير - فضلا عما ذكرنا له من دلالات في ثنايا البحث (وذلك عند الحديث عن تقنية استرجاع الماضي في القسم الثاني من القصيدة)- إلى معاني الافتراس، ويرتبط بما ترتبط به نهاية الصيد من طعام وشراب، وشبع وري.

وتلفتنا أخيراً صورة فريدة يجمع فيها الشاعر لحصانه بين نقيضين: الماء والنار (البيتان ٣٧ و ٣٨):

كـأن على أعرافه ولجامـــه — سنا ضَرَم من عرفج متلهّـــب
كأن على أعطافه ثوب مائح — وإن يُلق كلب بين لَحْيَيْه يذهب

فإذا صرفنا النظر عن هذه الصورة الأسطورية للحصان الذي يحمل فوق أعرافه ناراً تتلهب، وعلى أعطافه ماء ينصب، والذي إذا ألقي كلب بين فكيه يذهب، نقول: إن التناقض هنا بين الماء (عنصر الحياة)، والنار (عنصر الموت) التي تحرق مظاهر الحياة وتفنيها- هو التناقض نفسه بين معنى الحياة ومعنى الموت. والخيل تحمل المعنيين معاً، ففيها يتمثل الموت للأعداء، والحياة لأصحابها. ويبدو أن هذه الحياة بحاجة إلى تلك القوة التي تدافع عنها، أو تستردها إذا تعرضت للسلب. إن الحياة (الماء) تبدو محمية ومحروسة بعنصر القوة المميتة (النار). وبذلك يستحيل التناقض إلى تكامل، وتغدو النار بما تحمله من دلالة ضرورية للماء بما يحمله من رمز. وتبدو غايتها دفاعية لا هجومية، وعنصر ردع لتحقيق السلام لا عنصر عدوان وتدمير. وبمعنى آخر فإن هذه النار (الحرب وماينشأ عنها من موت) لا تشتعل إلا حين يتهدد الماء (السلام والحياة والكريمة) ويتعرض الى الخطر. والسلام القائم على الحق والعدل والعزة، كفيل بأن يطفئ نار الحروب والخلافات كما تطفئ الماء النار.

فهل يسعنا القول أخيراً بأن صورة الخيل قد استوعبت كون الشاعر الغني، واحتضنت مختلف أحاسيسه ومشاعره ورؤاه، وأنها قلب القصيدة ومستودع أسرارها، وأنها صورة جامعة تصب فيها وتتفجر منها جميع منابع القصيدة وتياراتها، وأنها كالمرآة التي تتراءى فيها مختلف صور القصيدة؟ ألسنا نرى صورة جميلة بجلالها وقوتها، وبجمالها وجاذبيتها، تنعكس في صورة الخيل القوية والجميلة معا؟ ثم ألا يربط الشاعر بينهما وبين الخير واليمن؟ هذا غير أن التقارب بين صورة الخيل وصورة فرسان غني قد يصل إلى حد التطابق سواء في تحقيق معاني البطولة المختلفة. أم في وحدة الهدف ووحدة الشعور. لقد انمحت الحدود بين الصورتين في مخيلة الشاعر، وراح يسند إلى الخيل دور

البطولة وإرادة الفعل، لا على سبيل المبالغة، أو التهوين من دور الفرسان، أو مجرد الكناية بها عنهم، كما يمكن أن يقال، وإنما لأنه مضى ينظر الى الطرفين على أنهما يمثلان كياناً موحداً، حتى غدا الحديث عن أحدهما- في كثير من الأحيان- يعني الحديث عن الآخر أو يغني عنه؛ إن حديث الشاعر عن قوة الخيل وكرم سلالاتها يضمر نسبة هذه المعاني نفسها إلى أصحابها، كما أن حديثه عن عرقها وتقطع أخدامها وسيورها وإجهادها في السير إلى المعركة، يصور في الوقت نفسه مجاهدة الفرسان أنفسهم، ومغالبتهم للطبيعة القاسية، وصبرهم على مصاعبها، وتصويره لأحوالها من نشاط ومرح واستثارة وتوتر تصوير لأحوال الفرسان أيضاً، وما تحميس أصحابها لها في أثناء السير (البيت ٣٩) إلا نوعاً من التسلية والترويح عن أنفسهم وتحميسها كذلك. ومثل ذلك تصويره لصدود الخيل عن الماء قبل الغارة، أو تناولها قليلا منه، وتصوير مصعوبة إلجامها بعد ذلك، فلئن كانت هذه الصور تحكي واقعاً، فإنها - في داخل النص، وفي السياق الذي ترد فيه- توحي بتوتر الخيل قبل المعركة، وهي تدرك ما هي مقبلة عليه، وتعكس بالدرجة نفسها توتر أصحابها في هذه اللحظة المثيرة، ولكن الشاعر وهو يصور نموذج البطولة الأسمى على صعيد الإنسان والحيوان، يتحاشى التصريح بمثل هذه المشاعر السلبية التي تظل خبيئة تحت السطح.

وقد نواجه ما يبدو وكأنه تعارض بين حركة الخيل وحركة الفرسان، كقوله (الأبيات ١٨، ٥٤، ٥٥):

– اذا قيل نهنهها وقد جد جدها	ترامت كخذروف الوليد "منقب"
– يذدن ذباد الخامسات وقد بدا	ثرى الماء من أعطافها المتحلب
– وقيل اقدمي واقدم والِحْ وأجْري	وَهَلْ وَهَلا واضرحْ وقادعُها هَــب

غير أن هذا التعارض يسير في اتجاه واحد، ولتحقيق غاية واحدة، بل لكأن الخيل في اندفاعها صوب المعركة، تمثل الفطرة الأولى، والعاطفة للبحتة، والشوق المحتدم إلى منازلة الأعداء، والأخذ بالثأر منهم، وكأن فرسانها في ذودها وكفها يمثلون جانب العقل ودور الخبرة في إدارة الأمور؛ العقل الذي يضبط فورة العاطفة مؤقتاً ليضمن إشباعها كاملة فيما بعد.

اللغة والأسلوب:

إن مستويات النص تعمل جميعاً ومعاً في حركة واحدة لا ينفصل فيها مستوى عن

آخر. وقد جاءت لغة النص وخصائصه الأسلوبية تجسد رؤية القصيدة، وتمثلها تمثيلا صادقاً في فكرها وعاطفتها، وفي تموجات هذه العاطفة صعوداً وهبوطاً وشدة ورخاء. وحرصاً على الاختصار، أجدني مضطراً إلى حذف الكثير مما يمكن أن يقال، مع الاكتفاء أحياناً بالإشارة دون التمثيل، لافتراض الوضوح، واعتماداً على حصافة القارئ.

يمتلك طفيل حساً لغوياً مرهفاً، سواء على صعيد المفردة اللغوية أو على صعيد بناء الجملة وتشكيل الصورة الشعرية. ولعل ذلك أن يكون مدخلا حسناً إلى دراسة اللغة في شعر طفيل، فهو بمثابة العنوان أو الظاهرة اللغوية التي يمكن أن تندرج تحتها وتفسر بها ظواهر لغوية عديدة. فمن ذلك ظاهرة التضعيف التي تنتشر في القصيدة انتشاراً واسعاً وتمتد إلى نصف قوافيها. (٣٩ قافية). والتضعيف في الكلمة تكثير في دلالتها، وفي شحنتها العاطفية بما يتناسب مع أجواء القصيدة الحربية وما فيها من انفعال وتصوير لبطولة القبيلة.

وتلتقي وظيفياً مع الظاهرة السابقة كثرة صيغ المبالغة والصفات المشبهة التي قد يجتمع منها أكثر من صيغة في البيت الواحد (البيت ١٥ مثلا).

ومن هذه الظواهر دقة الشاعر في اختيار المفردة الأكثر مناسبة وقدرة على التعبير عن رؤيته وانفعالاته كاختياره لفظة " يقهر" بدلا من يسبق وهي بمعناها المعجمي (البيت ١٦). وقدرته على إطلاق الألقاب والصفات إيجابية وسلبية (الأبيات ٢٠ و ٤٦ و ٤٩) وإلحاحه على لفظ (كل) وهو صفة عامة في شعره(٣٣) توخياً لمعاني الدقة والشمول، وولعه بالتعبير بالسلب، وهو أيضاً صفة بارزة في شعره كله(٣٤)

ومن ذلك كثرة الأحوال وتوالي النعوت، بما تحققه من كمال الموصوف ومثاليته، وبقدرتها وبخاصة الأحوال- على تصوير الانفعال، وتخير جوانب بعينها من الموصوف.

ومن ذلك إكثاره من اختيار الأفعال على وزن تفاعل وتفعلل، بما لهما من قدرة على إضفاء الحركة والحيوية على صوره (الأبيات ١٨، ١٩، ٣٠، ٥٠)

٣٣- داود غطاشة: حركة الشعر في قبيلة غني حتى نهاية العصر الأموي (سبق ذكره) ص٢٢٨.

٣٤- سبق إلى هذه الملاحظة (محمد عبد القادر أحمد: طفيل الغنوي حياته وشعره، مكتبة النهضة المصرية ط٢، القاهرة ١٩٨٢م. ص-٢٧، وقد تكرر التعبير بالسلب في قصيدته هذه ثلاث عشرة مرة، في الأبيات (٢، ٣، ٦، ١١، ١٩، ٢٥، ٣٠، ٣٥، ٣٧، ٥٠، ٦٣، ٦٧، ٦٩).

وقد تكون الدقة في اختيار الكلمة أشد خفاء في ارتباطها بمجمل تجربة القصيدة، كوصفه للفارس من فرسان قبيلته بالسميدع(البيت ١٠). فكلمة سميدع ليست مجرد لفظة ذات دلالة إيجابية ناسبت وزنه الشعري، بل هي تحكم العلاقة بين الخيل وأصحابها التي أشرت إليها من قبل. فمن معاني (سميدع): الذئب (٣٥). وهذا التصور للفارس يلتقي مع تصور الشاعر للفرس الذي شبهه أيضاً بالذئب (البيت ١٣) وهذا يعزز ما قلناه من أن الشاعر راح يتعامل مع الفرس والفارس على الصعيد الصوري على أنهما ممثلان لكيان واحد متحد.

وفي وسع القارئ أن يتتبع على هذا النحو أو قريب منه عدداً أكبر من الألفاظ والصور ذات الوشائج على صعد مختلفة؛ لقد تبينا مثلا أن غزو غني لطي لم يكن عدواناً على طي، وقد رسم الشاعر لقبيلته صورة المسالم الذي هيج واستثير. وتطالعنا صور التهيج والاستثارة بكثرة في هذه القصيدة (من خلال الصورة الكبرى للخيل) بما يعكس الهيجان النفسي الذي يمور ويغلي في نفوس أبناء القبيلة وفرسانها. وفي وسعنا أن نلاحظ أن صورة الخيل وحركتها وما شبهت به لا تنفصل عن مشاعر التهيج والاستثارة والغليان؛ فقد عقد الشاعر صلات قوية بين الخيل والنار المتوقدة (الأبيات ١٤، ٣٧)، وبين الخيل وكلاب الصيد المهيجة (الأبيات ٢٦، ٤٠). والتفت إلى صور الغبار وما يوحيه من معاني الاستثارة (الأبيات ٣٣، ٥١)، وربط بين الغبار والدخان ولبد النار (البيت ٣٢) والتفت إلى الحصا المتطاير من حوافر الخيل (البيت ٣٤). وانعكست صورة الهيجان النفسي في صورة هيجان حسي يصيب الجسد، وذلك من خلال صورة الإبل التي أصيبت جلودها بالجرب(البيت ٢٧).

وبناء على ذلك يمكننا العودة إلى مطلع القصيدة مثلا وملاحظة اللفظتين (بالعفر) و(هيجت)؛ أما لفظة بالعفر (والعفر: اسم موضع) فإنها تستثير في الذهن معاني أخرى للمجرد (عفر) لعل من أقواها لفظ العفر (بتسكين الفاء وفتحها) بمعنى: التراب..

ويبدو أن معظم المعاني المشتقة من الفعل المجرد (عفر) ذات صلة بالتراب، وبلون التراب الأبيض (انظر المعجم الوسيط. مادة "عفر") وليس بعيداً أن تكون ثمة صلة بين الموضع المسمى (بالعفر) وطبيعة أرضه وترابه. وأيا كان الأمر فإن هذه اللفظة تستثير في النفس صورة التراب، وصورة التمرغ فيه (تعفر. وانعفر: إذا تمرغ في العفر) فإذا

٣٥- ابن منظور: لسان العرب مادة (سمدع) المجلد الثالث ص٢٠٩.

قرنا هذه اللفظة بلفظة (هيجت) ثم بصور الهياج والغبار في القصيدة، وما يثار من غبار في المعركة (وقد اعتاد الشعراء العرب عموماً ذكر غبار المعارك في كل معركة يصفونها)، لربما لاحظنا أن الشاعر كان موفقاً في اختيار هاتين اللفظتين، قاصداً أو غير قاصد.

وكما تجلى الحس اللغوي عند طفيل في المفردة اللغوية فقد تجلى كذلك في بناء الجملة الشعرية كما ذكرنا.

ومن مظاهر ذلك مثلا قوله في فرسه:(وإن يُلق كلب بين لحييه يذهب- البيت ٣٨). فبناء الفعل (يُلق) للمجهول، يصور الفرس راداً للعدوان لا صانعاً له، بما يتناسب مع رؤية الشاعر للبطولة كما أوضحناها من قبل.

ويمكننا ملاحظة براعة الشاعر في المواءمة بين تركيب الجملة- الصورة- ودلالتها في قوله:

وعوج كأحناء الشَّراء مطت بها مطاردُ تهديها أسنةُ قعضب

فأضلاع الفرس تمطو بها المطارد، وهذه المطارد تهديها أسنة قعضب فالمطارد تجمع بين الفاعلية والمفعولية في آن واحد، (لاحظ أن الهاء في "تهديها" وهي مفعول به، ضمير يعود على المطارد)، وهذا التلاحم على المستوى النحوي، أو على مستوى النظم والتركيب، انعكاس للتلاحم الذي يراه الشاعر بين أعضاء الفرس من ناحية، وبينها وبين فارسها من ناحية أخرى، إشارة إلى فروسيته، وإلى هذا الرابط النفسي العميق الذي يوحد بين الفرس وصاحبه حتى لكأنهما يمثلان كياناً واحداً متحداً.

ولعل بعضاً من الظواهر الفنية والأسلوبية السابقة، في سياقها الخاص من القصيدة، ثمرة من ثمرات مذهب طفيل القائم على الصنعة الشعرية، غير أن هذا المذهب قد انعكس بصورة أوضح على بناء صوره الشعرية التي يدقق في رسمها ويتقصى جوانبها، بلغة موجزة ومحكمة في آن واحد، ويمكننا أن نستحضر هنا صورة "جميلة" بأبعادها الثلاثة في المفتتح، كما يمكننا أن نمثل عليها بصور الخيل ولوحاتها المختلفة، وتتجلى هذه الخصائص الفنية أيضاً في تصويره للمشاهد والمواقف الإنسانية، وقد برز هذا الجانب في تصويره الساخر لطي وقد ظنوا خيل الغارة إبلا تحمل لهم البر فاستبشروا بذلك، ثم تكون المفارقة الحادة حين يكتشف رجل منهم حديد النظر بعد تأمل وتدقيق أنها خيول الحرب فيصيح بامرأة بجانبه أن تولي الأدبار (الأبيات ٤٩- ٥٢). وهذا موقف خيالي خالص، فيه شيء من عناصر القصص أو عناصر الفن المسرحي: فيه الحدث

والحركة والتصوير والحوار والسخرية القائمة على هذه المفارقة التي تبنى عليها كثير من المواقف المسرحية التي نعرف. وفيه البناء المحكم، والإيجاز البليغ، والتصوير الموحي، انظر قوله: (فألوت بغاياهم بنا وتباشرت) كيف يرسم حركة الأيدي (ألوت، أشارت) التي تعكس حركة النفوس، وكيف يوحي بألوان من الحديث والاستبشار بين هؤلاء البغايا. وانظر قوله:(فقال بصير يستبين رعالها) كيف رسم الفعل (يستبين) حركة البصير وهو يحدق ويجيل النظر، واضعاً يده (كما يمكن للمرء أن يتخيل) فوق حاجبيه... الخ. ثم انظر قوله: (هم والاله من تخافين فاهربي)؛ فلاحظ هذا القسم وحسن موقعه في سياقه، وكيف أضفى على الموقف مشاعر الجدية والإحساس بالهلع، دون أن يكون حشواً يشوه البناء، ولاحظ ما يمكن أن يوحيه الفعل (تخافين)، ونسبةُ الخوف للمرأة، من تظاهر الرجل بالجرأة والشجاعة، وتكلف التماسك أمام هذه المرأة، ولنتصوره- وقد هربت- كيف راح يجري في إثرها هارباً. ولنلاحظ أخيراً كيف يختم هذا المشهد عند حركة الهرب الفزعة، لينتقل بعد ذلك إلى حركة الخيل المتجهة بأقصى سرعة إلى طي.

وطفيل في هذه الصورة يعتمد على الإشارة اللطيفة، واللمحة السريعة الدالة، فيوحي بالكثير بلفظ قليل، فيجمع بين الإيجاز واستقصاء جوانب الصورة في آن واحد.

الإيقـــاع:

يعد الجانب الإيقاعي بحق من أبرز خصائص طفيل وأشدها لفتاً للنظر في هذه القصيدة وفي غيرها، وهو يستحق دراسة متمهلة، وسأكتفي هنا بالإشارة إلى أهم عناصر الإيقاع في هذه القصيدة، ثم تنوع الإيقاع وارتباطه- أخيراً- بمجمل الرؤية العامة في القصيدة.

لعل أبرز عناصر الإيقاع عند طفيل يرتد إلى ظاهرة التكرار الصوتي الذي يشمل تكرار الحروف، والكلمات، والحركات المتجانسة والتقطيع اللغوي أو الصوتي. والحقيقة أن هذه الألوان المختلفة من التكرار كثيراً ما تجتمع كلها أو معظمها في البيت الواحد، فتحدث أثراً إيقاعياً كبيراً ومعقداً في الوقت نفسه، مما يمنح الجملة الشعرية كثافة إيقاعية عالية. وأهم من هذا أن الشاعر لا يراعي هذا الإيقاع في البيت الواحد، وإنما يتجاوزه إلى الصورة الكلية- اللوحة- فيحدث بين أبياتها تناغماًإيقاعياً، أو يخلق لها وحدة إيقاعية تربط بين أجزائها. كما أن التقطيعات الصوتية المتماثلة بين هذه الأبيات

المتتالية. وتلك القوافي الداخلية وبخاصة ما يجيء منها في عروض البيت مشتركاً بين عدد من الأبيات- تنوع من الركائز الصوتية في القصيدة إضافة للقافية التي تشكل الركيزة الصوتية الأساسية في القصيدة.

ولإيضاح ذلك يمكن أن نتأمل صورة كاملة هي صورة (البيت) (الأبيات ٦- ٩):

وبيتٍ تهبُ الريح في حَجَراته ... بأرضِ فضاءٍ بابُه لم يُحَجَّبِ

سَماوتُه أسمالُ بُـردٍ مُحَبَّرٍ ... وصهوتُه من أَتْحَميٍّ مُعَصَّبِ

وأطنابُه أرسانُ جُـردٍ كأنها ... صدورُ القنا من باديءٍ ومُعَقِّبِ

نصبتُ على قومٍ تُدرُّ رماحُهم ... عروقَ الأعادي من غريرٍ وأشيبِ

يمكننا أن نكتفي بالإشارة إلى أن لفظة (بابه) في عجز البيت الأول قد مهدت إيقاعياً لكلمة (سماوته) في مطلع البيت الثاني وتناغمت معها. ثم اكتمل هذا التناغم مع لفظة (وصهوته) في عجز البيت الثاني. ولفظة (وأطنابه) في مطلع البيت الثالث. ويمكن أن نضيف إليها قوله في مطلع البيت الأول (وبيت تهـــ). ولنلاحظ أن مطلع كل بيت من هذه الأبيات الثلاثة جاء مماثلا للآخر في وزنه العام: (وبيت تهـــ/ سماوته/ وأطنابه).

غير أن ما بين البيتين الثاني والثالث من التماثل الإيقاعي ما هو أبعد من هذا، في قوله:

- سماوتُه أسمالُ بردٍ
- وأطنابُه أرسانُ جُردٍ

فثمة تشابه موسيقي بين كلمات كل شطر. وتماثل في النظم والتركيب: فكل منهما جملة اسمية. المبتدأ فيها مضاف إلى ضمير هو الهاء، وخبرها مضاف إلى اسم ظاهر.

وقريب من هذا. التشابهُ الصيغي والإيقاعي بين عجز كل من الأبيات الثاني والثالث والرابع: من أتحميٍّ مُعَصبِ
من باديءٍ ومُعَقِّبِ
من غريرٍ وأشيبِ

وفي وسعنا أن نشير أيضاً إلى مجموعة أخرى من الكلمات ذات الصيغ الصوتية المتشابهة. التي توزعت على جميع أبيات اللوحة: بيتٍ/ أرضٍ/ فضاءٍ/ بردٍ/ جردٍ/ قومٍ/ غريرٍ.

ولكن ما هي العوامل المشكلة للإيقاع على هذا النحو أو ذاك. بحيث تمنح القصيدة

إيقاعها الخاص، ثم نمنح كل صورة من صورها أو مقطع من مقاطعها لونه الإيقاعي الخاص في إطار الإيقاع العام للقصيدة؟

ليس جديدا أن نرجع ذلك إلى طبيعة التجربة الفنية العامة في القصيدة، وأن نرجع التمايز الإيقاعي بين صور القصيدة أو مقاطعها إلى طبيعة المقطع نفسه، أي إلى معناه وموضوعه، وإلى نوع الانفعال والعاطفة التي تصحبه. فالإيقاع ليس عنصراً معلقاً في فراغ، أو عنصراً مفروضاً على القصيدة، كما أنه ليس عنصراً ثانوياً أو متمماً لعناصرها الأخرى، وإنما هو في أصالة عناصرها جميعاً، وهو يتشكل مساوقاً للمعاني والصور والانفعالات، ويتلون بتلونها.(٣٦).

وإذا عدنا إلى صورة (البيت) الآنفة الذكر، والتي تشكل المقطع الثاني في القصيدة، فسنجد أنها ذات مذاق إيقاعي يختلف عن إيقاع المقطع الأول (صورة جميلة)، فالتضعيف مثلا يتكرر في المقطع الأول (٦) مرات (من بينها ثلاث مرات بسبب دخول (أل) التعريف على حرف شمسي) في حين يتكرر التضعيف في المقطع الثاني(٩) مرات (من بينها مرة واحدة فقط بسبب دخول (أل) التعريف على حرف شمسي)، مع الأخذ بعين الاعتبار أن المقطع الأول يتكون من (٥) أبيات، في حين أن المقطع الثاني يتكون من (٤) أبيات فقط. ويمكننا ملاحظة الاختلاف بين المقطعين في نوع الحروف والحركات المكررة في كل مقطع، وفي عددها (انظر الشكلين الأول والثاني من الملحق). وإذا أضفنا إلى ذلك الخصائص الإيقاعية المتنوعة لمقطع (البيت) كما بيناها قبل قليل، كنا بالفعل أمام مقطعين لكل واحد منهما إيقاعه الخاص، وفي وسع المرء باتباع هذه الطريقة أن يقارن بين المقطع الثاني ثم الذي يليه وهكذا. وهذا التمايز الإيقاعي بين المقاطع ليس وليد الصدفة، وإنما يخضع لاعتبارات انفعالية وفنية تحددها طبيعة الصورة وطبيعة التجربة الفنية للشاعر، فغلبة الألف الممدودة في المقطع الأول تناسب حالة الأسى في الموقف الذكروي، وقلة التضعيف (قياساً إلى المقطع الثاني) بل خلو قوافي هذا المقطع الأول تماماً من الحروف المضعفة، ينسجم مع حالة الشاعر، ويتم في الوقت

٣٦- لمزيد من الاطلاع على طبيعة العنصر الإيقاعي وعلاقته بغيره من عناصر القصيدة، يمكن الرجوع على سبيل المثال إلى: رينيه ويليك (من مواليد ١٩٠٣م)، وأوستن وارين: نظرية الأدب، ترجمة محيي الدين صبحي، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، مطبعة خالد الطرابيشي، دمشق، ١٣٩٢هـ ١٩٧٢م.

نفسه على ضعف التوتر النفسي لديه، لأنه على العموم يعيش زهواً داخلياً بسبب انتصار قومه، وهو مقبل على التغني ببطولتهم. في حين أن ظهور التضخيف بكثرة في المقطع الثاني، بما في ذلك قوافي هذا المقطع التي جاءت مضمنة ما عدا واحدة منها ينسجم مع تمجيد الذات، وإبراز إرادتها الفاعلة، وقدرتها على إعلاء أركان بيت قوي لا تنال منه العواصف شيئاً. وجاء تكرار الصاد وحدها خمس مرات، والضاد والظاء ثلاث مرات متناسباً مع هذه الصورة لما تحمله أصوات هذه الحروف من الفخامة، ولما يحتاج إليه نطقها من بذل شيء من الجهد العضلي؛ تلك الفخامة التي تناسب فخامة البيت، وذلك الجهد الذي يوازي الجهد المبذول في بنائه.

ولنتأمل طرفاً من الإيقاع في تصويره للخيل وهي تنقض على مضارب طي وقد غدت قريبة منها(الأبيات ٥٣- ٥٥):

على كل مُنشقٍّ نساها طِمِرَّةٍ ... ومُنجردٍ كأنه تيس حُلَّب

يُبذن ذيادَ الخامسات وقد بدا ... ثرى الماء من أعطافها المتحلّب

وقيل اقدمي واقدُم وأخْ وأخِّري ... وَهَلْ وَهَلا واضْرَحْ وقادِعُها هَبِ

وإذا اكتفينا هنا بملاحظة البيت الأخير فسنجد أن صيغة الأمر تتكرر ثماني مرات حاملة ثمانية أصوات تتوازى وتتقاطع، تتزامن وتتوالى، أصوات قصيرة تحمل دلالتها في إيقاعها. وفي لحظات الانفعال القوي ينقطع النسق المنطقي للكلام، أو تقصر الجمل، وتحمل الأصوات دلالتها في نبرتها، وفي الشحنة العاطفية التي تسكنها. وقد عبرت ألفاظ الجناس والطباق المتكررة في البيت، أروع تعبير عن هذا التوتر النفسي الذي يتردد بين الاستسلام للعاطفة وكبح جماحها، وبين الإقدام والإحجام، وبين الانبساط والانقباض. غير أن هذا الإيقاع سيميل إلى الارتخاء والانبساط حين يبلغ الفرسان مضارب طيء. تماماً كما لو بلغت الإبل الخامسات موارد المياه:

فما برحوا حتى رأوا في ديارهم ... لواء كظل الطائر المتقلب

ليس الإيقاع إذن ثوباً قشيباً يلبسه طفيل لشعره، وإنما الإيقاع تبع المعنى، وصنو الانفعال ووليده الشعري، وهو يتلون بتلونهما. وهو لذلك شأنه شأن عناصر القصيدة جميعها يحمل- من خلالها - رؤية الشاعر العامة ويعبر عنها.

ولننظر مرة أخرى في قول طفيل:

وعوج كأحناء السَّراء مطت بها ... مطاردُ تهديها أسنةُ قعضب

لقد لا حظنا من قبل أن التلاحم النحوي في هذا البيت انعكاس للتلاحم بين الفرس

وصاحبها. وقد انعكس هذا التلاحم كذلك في الصورة الإيقاعية للبيت، فتكرار الحروف، وخضوع هذا التكرار إلى هندسة ذوقية محكومة بطبيعة الانفعال والتجربة بعامة، يخلق تجانساً صوتياً ونغمياً جعل من البيت وحدة موسيقية واحدة. ونلاحظ هنا أن تلاحم النظم يحدد الصورة الإيقاعية للبيت في أثناء قراءته، أو بمعنى آخر يفرض طريقة قراءته. كما أن تكرار الحروف على نحو ما، يخلق سلسلة نغمية يتصل أولها بآخرها، وكأن البيت أفرغ إفراغاً واحداً. وجاءت حروف القلقلة التي تمثلت جميعها في البيت، توحي بما يوحي به معناه من قوة وصلابة.

ولننظر أخيراً في قوله:

وللخيل أيام فمن يصطبر لها ... ويعرف لها أيامها الخيرَ تُعقـبِ

ليس الإيقاع الناشئ عن الجناس هنا بين الخيل والخير، ضرباً من الزخرفة والتحلية، أو إشباعاً لنهم موسيقي مجرد وشكلي، بل إن هذا الجناس بما يحمل من دفق إيقاعي هو تشكيل صوتي لحقيقة التجربة، أو هو انبجاس لحقيقة الرؤية التي توحد في داخلها بين الخيل والخير. إن هذا التجانس الصوتي بين اللفظتين، تعبير عن تجانس أعمق بين دلالة كل منهما، بين حقيقة الخيل وحقيقة الخير. وهل يرى الشاعر البطولة منفصلة عن معاني الخير والسلام؟

خاتمة:

وفي نهاية البحث أحب أن أشير إلى قول الأصمعي بأن كل الشعراء أخذوا من طفيل حتى زهير والنابغة(٣٧)، فأذكر أن ما أخذه زهير عنه ربما يفوق ما أخذه سواه. وليس البحث معنيا بتمحيص هذه القضية الآن. غير أني سألمع إلى نقطتين فقط تتعلقان بقصيدة طفيل موضوع الدراسة؛ الأولى: عطفاً على ما ذكرته في مطلع البحث من فرادة قصيدة طفيل قياساً إلى غيرها من قصائد الحرب والغارات في الشعر الجاهلي، التي تفتقر إلى عناصر الإطالة والتنظيم في وصفها لأحداث الغارة- فإن أكمل صور الغارة ذات السرد المنظم إنّما نجدها بعد طفيل عند زهير في بعض قصائده، وإن كانت أكمل

٣٧- طفيل الغنوي: الديوان (المقدمة) ص١٧

صورة لديه لم تجاوز ستة عشر بيتاً، أوردها في معرض مديحه لهرم بن سنان ووصف الغارات التي يشنها على الأعداء(٣٨) وقد افتقرت إلى هذه الروح القصصية، وإلى تلك الحرارة والحماسة الملتهبة التي يشيعها طفيل في قصيدته.

والنقطة الثانية هي أن أثر طفيل الأستاذ في زهير التلميذ، يجاوز على مايبدو المنحى الفني الخالص المتصل باللغة والأسلوب والتصوير، إلى الرؤية والموقف المتصلين بالفكر وفلسفة الإنسان في الحياة. ولعلنا لا نجاوز الحق إذا حاولنا تلمس جذور الدعوة إلى السلام وإيثاره مبدأ عاماً في الحياة لدى زهير، أن نتلمس هذه الجذور عند طفيل في قصيدته موضوع البحث.

وليس معنى ذلك أن زهيراً وطفيلا قد انفردا بهذا الميل إلى السلام والدعوة إليه، أو أنها اقتصرت على قبيلة دون أخرى، كقبيلة غني مثلا التي عانت من ويلات الحروب وكانت تتوق بلا شك إلى تحقيق السلام، والتي نطالع غير شاعر من شعرائها يعلن عن ذلك بصراحة(٣٩). فإن السلام مطلب إنساني عام، ولعل الدراسة المعمقة للشعر الجاهلي تكشف في طياته عن التوق إلى السلام والدعوة إليه أكثر مما نظن. تلك الدعوة التي أخذت أشكالا مختلفة غير مباشرة، بسبب من طبيعة المجتمع وبنيته الثقافية والاجتماعية. ولعل هذه البنية نفسها هي التي كانت وراء اشتعال الحروب الكثيرة، وخفوت صوت السلام وإحباط مساعيه، إلى أن جاء الإسلام الذي غير المفاهيم وصاغ للمجتمع بنية جديدة، واضعاً مسألة العلاقات الإنسانية والاجتماعية في إطارها الصحيح. ولعل ذلك أن يكون موضوعاً حيوياً تتناوله أقلام الباحثين.

والله من وراء القصد

٣٨- زهير بن أبي سلمى(ت١٣ق هـ ٦٠٩م): الديوان، صنعة أبي العباس ثعلب، تقديم أحمد العدوي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة ١٣٨٤هـ ١٩٦٤م، ص١٥٣- ١٦٠.

٣٩- مثال ذلك عجلان بن لأيّ الغنوي في قوله:

عجبت لداعي الحرب والحربُ شامذٌ   لقومٍ بأيدينا تُحلُّ وتُرحَلُ

انظر: (أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي(ت٢٣١هـ ٨٤٦م): كتاب الوحشيات، تحقيق عبد العزيز الميمني، وزاد في حواشيه محمود محمد شاكر، دار المعارف، ط٢ مصر (دون تاريخ)، ص٤٣.

ملحـــق

	س+ص	ك	ط+ض	ج	ح	ع	غ	ر	خ
المقطع الأول	٤	٥	صفر	٤	٢	٦	١٣	١١	٢
المقطع الثاني	٨	١	٣	٤	٦	٤	١	١٤	صفر

شكل (١) الحروف الصحيحة وعدد مرات تكرارها في المقطعين

	الألف	الواو الممدوده	الياء الممدوده	حرف مشبع بالضم	حرف مشبع بالكسر	تنوين الفتح	تنوين الضم	تنوين الكسر
المقطع الأول	١٨	٢	٥	صفر	صفر	٣	٢	٣
المقطع الثاني	١٣	٢	٣	٥	١٠	صفر	صفر	١٠

شكل (٢) الحركات وحروف المد وعدد مرات تكرارها في المقطعين•

• اكتفى البحث برصد الحركات المشبعه والملونه فقط بما لها من أثر واضح في البناء الإيقاعي لكل مقطع. كما جمع البحث بين حروف المد والحروف المشبعة الحركة في شكل واحد، على اعتبار ان الاختلاف بينهما في الرسم دون النطق.

المصادر والمراجع

١- الأصبهاني، أبو الفرج علي بن الحسين (ت٣٥٦ هـ ٩٦٧م)،

الأغاني، (ج٨) دار الكتب المصرية. ط١، القاهرة ١٩٣٥/ (ج١٥) تحقيق عبد السلام هارون دار الكتب المصرية، ط١ القاهرة ١٣٧٩ هـ ١٩٥٩م.(ج١٧) تحقيق علي محمد البجاوي، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٣٨٩ هـ ١٩٧٠م.

٢- البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي (ت٤٨٧ هـ ١٠٩٤م)،

سمط اللآلي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة ١٩٣٦م.

٣- أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي (ت٢٣١ هـ ٨٤٦م)،

كتاب الوحشيات، تحقيق عبد العزيز الميمني الراجكوتي، وزاد في حواشيه محمود محمد شاكر، دار المعارف، ط٢، مصر (دون تاريخ).

٤- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥ هـ ٨٦٩م)،

البيان والتبين، تحقيق عبد السلام هارون، مؤسسة الخانجي، ط٣، القاهرة (د ت).

الحيوان (٧م)، تحقيق عبد السلام هارون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د ت).

٥- ابن حبيب، أبو جعفر محمد بن حبيب (ت ٢٤٥ هـ ٨٦٠م)،

المحبر، تحقيق: إيلزه ليختن شتيتر، منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت، (د ت).

٦- داود إبراهيم علي غطاشة؛ حركة الشعر في قبيلة تغلب حتى نهاية العصر الأموي، إشراف د. هاشم ياغي، ود. عبد الرحمن ياغي. قدمت هذه الرسالة استكمالا لمتطلبات درجة الماجستير في الأدب العربي في كلية الآداب، الجامعة الأردنية ١٩٧٥- ١٩٧٦م.

٧- ابن رشيق، أبو علي الحسن(ت ٤٦٣هـ ١٠٧١م)العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط٤، بيروت ١٩٧٢م.

٨- رينيه ويليك (١٩٠٣م-) وأوستن وارين،

نظرية الأدب، ترجمة محيي الدين صبحي، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، مطبعة خالد الطرابيشي، دمشق ١٣٩٢ هـ ١٩٧٢م.

٩- زهير بن أبي سلمى (ت ١٣ ق هـ ٦٠٩م)الديوان، صنعة أبي العباس ثعلب، تقديم أحمد العدوي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة ١٣٨٤ هـ ١٩٦٤م.

١٠- الدكتور سيد حنفي؛

الشعر الجاهلي مراحله واتجاهاته الفنية، الهيئة المصرية العامة، مصر، ١٩٧١م.
١١- طرفة بن العبد، عمرو بن عبد البكري (ت ٦٠ ق هـ، ٥٦٤م)، الديوان، تحقيق: درية الخطيب ولطفي الصقال، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق ١٩٧٥م.
١٢- طفيل بن عوف الغنوي (ت ١٣ق هـ، ٦٠٤م)
الديوان، تحقيق، فريتس كرنكو (F. Krenkow)، سلسلة تذكار جب، لندن ١٩٢٧م.
١٣- طه حسين(ت ١٣٩٣هـ ١٩٧٣م)، في الأدب الجاهلي، دار المعارف، ط١٠، مصر ١٩٦٩.
١٤- ابن عبد ربه، أحمد بن محمد (ت ٣٢٨ هـ ٩٤٠م)؛ العقد الفريد، شرح وتصحيح أحمد أمين وآخرون، مطبعة لجنة التأليف والترجمه والنشر، القاهرة ١٣٦١هـ ١٩٤٢م.
١٥- الدكتور عبد القادر الرباعي؛ الصورة الفنية في النقد الشعري، دار العلوم للطباعة والنشر، ط١، الرياض ١٤٠٥ هـ ١٩٨٤م.
١٦- الفيروز ابادي، محمد بن يعقوب (ت ٨١٧ هـ ١٤١٥م)؛
القاموس المحيط، دار العلم للجميع، بيروت (دون تاريخ).
١٧- لبيد بن ربيعة (ت ٤١ هـ ٦٦١م)؛
الديوان؛ تحقيق الدكتور احسان عباس، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت ١٩٦٢م.
١٨- المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد (ت ٢٨٦ هـ ٨٩٩م)؛
الكامل، تحقيق؛ محمد أبو الفضل ابراهيم، والسيد شحاته، دار نهضة مصر، (د ت).
١٩- الدكتور إبراهيم أنيس وآخرون (مجمع اللغة العربيه)؛
المعجم الوسيط، دار الفكر (دون مكان ودون تاريخ).
٢٠- الدكتور محمد عبد القادر أحمد؛
طفيل الغنوي حياته وشعره، مكتبة النهضة المصرية ط٢، القاهرة ١٩٨٣م.
٢١- ابن منظور، محمد بن المكرم جمال الدين الأنصاري (ت ٧١١ هـ ١٣١١م)؛
لسان العرب، دار المعارف بمصر، ١٩٧٩م.
٢٢- الدكتور نصرت عبد الرحمن؛ الصورة الفنية في الشعر الجاهلي في ضوء النقد الحديث، مكتبة الأقصى، عمان، الأردن ١٩٧٦م.
٢٣- ياقوت بن عبد الله الحموي (ت ٦٢٦ هـ ١٢٢٩م)؛
معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٥٩م.
٢٤- الدكتور يوسف خليف؛ دراسات في الشعر الجاهلي، مكتبة غريب، مصر ١٩٨١م.

• •